محمد علي الحوماني

دِينٌ وَتَمْدِينٌ

١٣٧٧
١٩٥٨

دين وتمدين

من أدب القرآن والسنة ونهج البلاغة
وهى الكتب الثلاثة التى امتاز بها صدر
الاســـلام فى عهد الخلفاء الراشدين

عَرَفْتُ اللهَ بِمُحَمَّدٍ وَعَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِعَلِيٍّ

اهـــداء

أنفق على تخريج هذا الكتاب من ماله ، الوزير السعـــودى السيد حسن الشربتلى ، وهو الشخصية البارزة فى أعمال الـــبر ، ولقد وقفت بنفسى على كثير من أعماله الجليلة فى منشآته الدينية والمدنية ، وعوله كثيراً من الأسر المغمورة بالبؤس ، ولعلنا نفرد له كتاباً خاصاً فى الكشف عن أعماله الصالحة ونقدمه نموذجاً حياً لأدعياء الإصلاح من رجالنا .

فالى هذه الشخصية النبيلة أقدم سفرى هذا راجياً من ورائه الثواب لى وله فى دار الخلود . . .

تقديم

ليس موضوع هذا الكتاب علماً يرسم حدوده ويبنى قواعده ويمعن فى سرد حقائقه ثم يبعثه إلى العالم حلقة من سلسلة التجارب فى الحياة .

ولا هو فن يقوم على العاطفة ، شعراً تتغنى به الأجيال أو لحناً توقعه الأنامل على المعازف والأوتار ، أو أدباً يضفى على الحياة لوناً يستهوى القلوب .

أقول : ليس موضوع كتابى هذا علماً كما يفهم الناس العلم ، يرجعون إليه فى تحقيق العناصر التى تتقوم بها الحياة ، ولا فناً كما يفهم الناس ، يفيئون إليه كلما حفزهم هم أو هزهم طرب .

ولكنه خليط ، كالإنسان ، من عواطف تتجاوب أصداؤها فى مجاهل الحياة الخاصة بى ، ومن عقول تتبارى فى مجال السبق إلى تهذيب هذه العواطف بين يدى تلك الحياة .

فلم أكن منذ فقهت الحياة ، عالماً متخصصاً يمعن ، إذ يكتب ، فى تحقيق ما يكتب وعلى عينيه منظار أحكم العقل العالم توجيهه إلى صميم الحياة فى حدود المنطق والبرهان .

ولم أكن ، منذ تأدبت ، أديباً يعنى بتصوير الحياة حلوها ومرها كيف شاء وحيث شاء .

ولم أكن ، منذ شعرت بالحياة ، شاعراً يفكر قبل أن يشعر ثم يعمد إلى وزن القول وإعرابه وسجعه .

لم أكن شيئاً من ذلك ، ولكنى مجروف حيناً فى تيار الحياة وجارف حيناً آخر ، مجروف حين يغمرنى نعيمها ، وجارف حين يجرفنى بؤسها ، فقد أشعر وأنا أنظم ، وقد أنظم وأنا لا أشعر ، قد استلهم الشعر وقد يوحى الشعر إلى ، وقد أكتب وأنا متأثر ، كما قد أكتب ولا أتأثر ، وقد أسجل الأحداث وأنا مفكر ، وقد أفكر ثم لا أدون .

ليس لى نظام فيما أكتب أو أخطب وفيما أشعر وأدون ، أنا فوضوى فى كل ما يحدق بى من حياة ، لم ألزم أو لا أستطيع أن ألزم نفسى بالجلوس إلى مكتبى لأدون أو أسجل ، ولا أطيق ارتياد الملاهى والحدائق مكرهاً لأشعر

أو أستلهم ، ولا أقوى على إكراه نفسي بالوقوف على منبر أو فى محفل أو تحت علم ، ولكنى حين أدعى لأقول أو أكتب أو أنظم ، أسأل نفسى : هل تستجيب لى فألبى الداعى أم تستعصى على فأرفض وقد لا أعتذر ؟؟

أحب أن أكون حراً فى كل ما أقول ، وأن أكون حراً فى كل ما أفعل . فاذا شعرت بالضغط والإكراه قبل أن أقول صمت وارتج على ، وإذا شعرت بأنى مجبر على أن أفعل شيئاً خرجت من دينى قبل أن أفعل ذلك الشئ ، ففى صميم قولى وعملى يجب أن أكون حراً ، وأن أكون مؤمناً بضرورة ما أقول قبل أن أقول وضرورة ما أفعل قبل أن أفعل ، وفى صميم حريتى أن أفعل أو أترك وأن أقول أو أصمت ، وأنا مؤمن بضرورة ذلك الفعل وهذا القول . .

دينى فى أن أؤمن بضرورة ما أقول أو أعمل وإن تركت قولى وعملى . وحريتى فى أن أؤمن بذلك أو أكفر ، ثم قد أفعل أو أقول مالا أومن به من وراء هذه الحرية ، وعلمى فى أن أبحث وأحلل من غير تعلم أو تقليد ، وأدبى فى أن أصور ما تراه عينى ويشعر به قلبى دونما تصور أو تحسس ، وفنى فى أن ألتقط خواطرى وأسجلها دون أن أفكر أو أشعر ، وقد أتعلم وأقلد ، وأنا أبحث وأحلل ، وقد أتصور وأتحسس ، وأنا أحبر وأصور ثم قد أفكر وأشعر وأنا ألتقط وأسجل .

أنا غيرىٌّ وأنانىٌّ معاً ، أحب أن أتمتع بالحياة كيفما شئت وحيثما شئت ، وقد أراعى فى هذا الحب غيرى أو لا أراعيه ، وفى الوقت نفسه أحب لغيرى الخير وأعمل لهذا الخير ، وقد أوثره على نفسى فى كثير مما أحب ، وأفرط فى أنانيتى حين يستهوينى جمال المرأة ، كما أفرط فى غيريتى عندما يتنافس لدى القريب والبعيد فى اقتضاء الحق .

أنا شجاع وجبان معاً ، أقدم على ما أعتقده حتماً ولا أفكر فى عاقبته أكانت حسنة أم سيئة ، ولشد ما عرضت نفسى من وراء هذا الإقدام لكثير من الأخطار مادية ومعنوية . وأنا جبان حين أوخذ على غرة بما يصدع روحى أو بدنى ، إذ لا مجال إذ ذاك لأن أفكر فى الرد على هذا الصدع بروحى أو بدنى ، ولذلك وقعت فى كثير من المشاكل التى نالنى منها ضرر كبير ثم لم أزل

أتحسر على أن نالني هذا الضرر وكنت أستطيع تلافيه لو دفعته عندما فوجئت به .

أنا مريض وصحيح معاً ، حيث أشعر فى كل يوم أو أقل أو أكثر مما يقعدنى أو يلجئنى إلى الفراش ولو بضع دقائق ريثما أستجم أو أعالج ما ينتابنى من تخاذل فى القوة ، أو توتر فى الأعصاب ، يوماً أرانى فى أمس الحاجات إلى راحة البدن وإراحة الفكر ، ويوماً أشعر أنى مدفوع بكل قوتى إلى الإجهاد بحركتى وتفكيرى ، ويوماً آخر لا يفيدنى شئ من الهدوء ولا الإجهاد ، إلا عطف محب أو حبيب يرفه عنى .

الأحماض فى معدتى ، والتضخم فى الكبد والطحال ومسالك البول ، والملاريا والدوزنتاريا المزمنتان ، والزكام المتوالى يوماً بعد يوم ، كل ذلك يتضافر على إقلاق راحتى حتى لا أستقر ، وعلى إرهاف أعصابى حتى أكاد أنهار ، وحتى أصبحت أضعف وأتخاذل بين يدى قسوة البرد فى الشتاء وسموم الحر فى الصيف ، وبين يدى كل ما يسوؤنى من ضغط على روحى وبدنى ، لا يعصمنى من هول ذلك كله إلا الرفاهة فى العيش واستجابة الحياة لى بمتعها المادية والأدبية ، وإلا الاعتدال فى كل ما يحدق بى من حياة .

أنا رجعى ومجدد معاً ، أما رجعيتى فقائمة على أنى قديم بروحى وبدنى ، والقديم بروحه وبدنه لابد له من رجعى يحن بها إلى مصدره فى حاضره ، ويبنى عليها إنسانيته فى مستقبله ، فأنا رجعى بلحمى ودمى وطعامى وشرابى وسمائى وأرضى ، ومتى كانت هذه كلها قديمة فلا بد من القدم فى تفكيرى ، وأما تجددى أو تجديدى فقائم على سنة التطور فى جبلتى ، فأنا بكنه جبلتى قديم وبتطورها جديد ، فالكنه المعبر عنه « بالخام » فى جبلتى قديم والتطور المعبر عنه بالتلوين والتكوين فيما يعرض لجبلتى هو جديد .

فالإنسان ليكون إنساناً ، إنما يقوم على قديمه فيما يفكر ويحير ، ثم يقوم على جديده فيما يصور ويلون ، فليس لأى إنسان مفكر أن يكون قديماً محضاً فيكون نسخة ثانية عن أول حلقة فى سلسلة كونه ، وليس له أن يكون جديداً محضاً فينسلخ عن جبلته ويكون الحلقة المفقودة فى سلسلة وجوده .

تلك هى شخصيتى التى تملى على القارئ ما أشعر به وأنا أنظم ، ثم تملى

عليه ما أعقل وأنا أكتب ، ففي هذا الكتاب الذى أقدم للقارئ بين يديه سطور هذه المقدمة، صورة عن شخصيتى هذه التى كشفت عنها باخلاص لمن شاء أن يقرأنى أو يتحسس من وجودى فى هذا العالم، فلست فى كتابى هذا عالماً كل العالم فيأخذنى قارئى بالتحقيق فيما أثبت أو أنفى من براهين وحجج ، فما أنا بمسئول عن تفسير الآية الكريمة فى كتب غيرى ، وإنما أفسرها بما أفهم وأعقل من شخصيتى التى بسطتها أمام كتابى ، ولا أنا مسئول عن صحة أو عدم صحة الحديث الذى أسوقه مرفوعاً إلى الرسول الكريم ، وإنما أكتفى بكونه مرفوعاً إليه صلوات الله عليه من كتب قدر العلم والعلماء خدمة مؤلفيها للحق ثم أسوق الحديث بين يدى ما أفهم وأعقل من شخصيتى .

فأنا فى كتابى هذا مسلم ، ومسلم فقط لا أعرف قومية ولا عنصراً فيما أحرر وأحرر به عقيدتى ، فأنا عربى بلغتى فقط ، وأما دمى فالله وحده يعلم من أين تحدر إلى ، ثم إلى أين ينحدر عنى ، وإذا قلت : إنى مسلم فانما أعنى أنى إنسان لأنى أعتقد أن الإسلام يعود بى إلى إنسانيتى ، وإنسانيتى وقف على خدمة الحق أينما كنت ، وحيثما حللت ، فأنا إذن على مذهب محمد لا أذهب إلا مذهبه ولا أدين إلا بدينه ..

وكم يؤلمنى أن يذهب المسلمون بعد محمد مذاهب شتى ، فينسوا ، وهم يحكمون ثم يفصلون فى الحكم ، ذكر محمد حتى كأن هذا الدين صادر عن شافعى أو حنفى أو غيرهما ممن دان لله بدين محمد ولم يخطر لهم أن فقه ما درسوه عن محمد سيكون حائلا بينهم وبين محمد على السنة أناس أمعنوا فى العصبية والجهل حتى نسوا ربهم ونبيهم ، وحتى أوغلوا فى أشياء ليس فيها حكم للعقل ولا رضى عنها لله ورسوله ، فاذا بنا ، ونحن نرقب أن يسود الأسلام العالم بوحدته وعزته وكرامته ، إذا بنا ، فى عصر النور ، نستقبل الظلمة ، وفى عهد العلوم وازدهارها ، نغرق فى الجهالة حتى يبرأ منا الإسلام .

ففى كتابى هذا ، الذى أقدمه بين يدى آثامى وآلامى ، إلى الحق المهيمن على الكون، فى هذا الكتاب قديمى الذى فطرت عليه ، وجديدى الذى وسمنى به ما أصوره فى حاضرى ، وأما أتصوره فى مستقبلى ، ومن أمعن فيما نظمت من

شعر وبعثته للعالم فى « حواء » و « فلان » و « النخيل » و « انت انت » ثم ما أخرجت من علم وأدب وقصص فى « وحى الرافدين » و « بلاسم » « ومن يسمع » و « سلوى » و « المآسى » أقول : من أمعن فى دراسة هذه الكتب رآها خليطاً من قديم مهذب وجديد مستطرف فى فكرة الأثر وديباجته .

ولا بد لى فى هذه المقدمة من أن أشير إلى خير ما أطمئن إليه فى كتبى هذه من تجديد فى الفكرة يكاد يكون قاصراً فى جماله وجلاله ، كما أعلم ، على موجتين من تفكيرى ، إحداهما : وجودية ما يتصوره الفكر الإنسانى وواقعيته وأن ليس فى كون هذا الإنسان المفكر خيال نعده نقيضاً للحقيقة وإنما هو حقيقة فى عالم الإنسان لم يكشفها العلم ، وقد طغت هذه الموجة على كثير مما كتبت فى « بلاسم » .

وأما الموجة الثانية فهى ما عالجت بها إرادة الإنسان وأنه يخلق بها طراز حياته الدنيا عن طريق غير مباشر ، ثم يخلق بهذه الإرادة طراز حياته الأخرى عن طريق مباشر ، والتبسط فى هذه الفكرة رهن بدراسة الفصل الأخير من هذا الكتاب وهو « تربية الإرادة » .

فالذى أرجوه ممن يقرأ هذه المقدمة أن لا يقبل على قراءة الكتاب إلا وهو مطمئن إلى أنى وضعته مخلصاً لرسالتى ، ومقبلا على حياتى الباقية التى أنشدها فى هذه الحياة الدنيا ، فليكن قارئ هذا الكتاب مخلصاً فيما ينشد من وراء ما يقرأ ، فكتابى هذا هو أنا وأنا هو ، لم أحرر فى تحبيره علماً ، ولم أحقق أدباً ، ولكنها شخصيتى على علاتها فاضت بحياتى فأودعتها كتابى هذا .

الله

... لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ...

إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ ...

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ...

. كان القائد الأمريكى « بوليفار » بعد تحريره جنوب أمريكا من الاستعمار الاسبانى يتألم لعدم استجابة الشعوب اللاتينية لدعوته فى الوحدة كما استجابت شعوب أمريكا الشمالية لمحررها واشنطن ، أقول : كان هذا القائد يتألم أواخر أيامه ويتحسر على أن لم يثمر مسعاه فى توحيد الجنوب كما أثمر مسعى زميله واشنطن فى توحيد الشمال .

ولم يكذب حدسه فى أن الجنوب سيكون مستعمراً لغيره ضرورة خضوع الضعيف للقوى واستكانة الفقير للغنى ، فقد صدق هذا الحدس إذ تقطعت أسباب ذلك الشعب اللاتينى فى مجاهله المترامية من وراء بحر الظلمات كما تقطعت أسباب الشعب العربى فى الأندلس من قبله وأصبح دويلات فكان من البديهى أن يخضع لغيره وتذهب ريحه ، فالوحدة إذن هى مفزع العالم بأسره إلى الحياة الكريمة الحرة .

ولقد أدرك رسول الحق إلى الإنسانية محمد بن عبد الله سر هذه الوحدة وعظمتها فى بناء الكون وتسلسل الوجود فيه فعمد إلى بنائها فى نفوس الشعوب وهى شتى الأهواء والنوازع تنافس الحيوان فى تنازع البقاء .

وكان الوحى القائم فيه أول موجه له إلى أن الدعوة إلى هذه الوحدة يجب أن تبدأ فى العقيدة ثم تتعداها إلى اللغة والآداب ، وقد كان ذلك إذ صدع جبريل سمعه بالدعوة قبل كل شئ إلى توحيد الخالق الذى هو مصدر الفكر البشرى فى كونه .

والعقيدة أكبر مؤثر فى تكوين العقل الإنسانى رقياً وانحطاطاً ، فقد كان العربى فى الجاهلية كغيره من أفراد الشعوب الوضيعة يشعر من طبعه بضرورة وجود إله يعبده فيتصوره فى الإنسان أو الحيوان أو الجماد أو النبات فيتخذ منه وثناً يناجيه ويخضع له ، وقد كانت الآلهة تباع فى المعارض وفى الشوارع ، وكان منها فى البيت الواحد عدة آلهة لكل فرد من الأسرة إله ، وذلك ما يحز فى صميم العقل الواعى ويحول بينه وبين التوجيه الإنسانى إلى حياة كريمة تحت هيمنة إله كريم .

أقول : إن محمداً تنبه قبل ألف عام إلى أن الوحدة قوة ، سواء كانت فى

الفرد كالاختصاص ، أو فى الجماعة كالتضامن والتكاتف ، فما لهؤلاء السفهاء الذين يدعون أنهم أول من فكر فى وحدة الفرد فشرعوا له الاختصاص فى العلوم والآداب والفنون ، وفى وحدة الجماعة الإنسانية فشرعوا المؤتمرات للتفاهم العالمى ، ثم فكروا فى لغة واحدة تهيمن على الوجود الإنسانى أسموها «الاسبرانتو» وتباروا فى الدعوة إلى وحدة الثقافة والسياسة والاقتصاد فى كل أمة ثم تجاوزوها إلى شعوب وأمم تتضافر وتتعاون باسم هذه الوحدة .

وإذا كان هدف الغربيين اليوم ، فيما أنشأوه من مؤتمرات وهيآت دولية ، وحدة أمة أو إقليم أو عنصر ، فان محمداً كان يهدف بما يستوحيه من ربه ، إلى وحدة العالم تحت بنود إنسانية لايتقوم بغيرها وجود إنسانى ، تلك هى : وحدة العقيدة ، ووحدة اللغة ، ووحدة الآداب ، فعن الأولى ينشأ التضامن والتعاون والمحبة ، إذ يعتقدون أنهم أبناء لأب أزلى واحد ، وعن الثانية ينشأ التفاهم والتخاطب الضروريان فى الأحياء لاستجابة الحياة ، وعن الثالث ينشأ التعاون والتعايش ، وفى ذلك كله ناموس أول لرقى الإنسان وانصرافه إلى وجهة واحدة فى الحياة .

فالقوة إذن فى مجموعة الإنسان قائمة على هذه الوحدة وأمامنا الشواهد على ذلك من أن أقوى الأمم اليوم ما كانت أكثر وحدة إذ يفضى بها ذلك إلى القوة التى تهيمن بها على من هو دونها وحدة فى عالم الأرض شريطة أن يعصمها الدين بالعلم من الجهل المفضى بها إلى الفرقة المفضية بها إلى الانهيار .

أما لماذا تدعو الأديان فى مطلع وحيها إلى وحدة الخالق فلأن المفروض فى كل نوع من الخلق أن يتجه إلى واحد فى تقرير حياته ، فنوع العلماء يتجهون ، وهم فى دراستهم الأولى ، إلى معلم واحد ، ونوع الساسة القائمين على رعاية الأمة ، يتجهون ، وهم يحكمون الشعب ، إلى سلطان واحد ، ونوع القضاة القائمين على الفصل فى الحكم ، يتجهون إلى قانون واحد ، وهكذا نجد الأمة فى تعايشها وتبادلها حقوق الحياة تتجه إلى ملك واحد ، ونجد الجوارح فى الجسم تتجه ، وهى تعمل ، إلى العقل الذى هو موجه واحد ، وحتى النمل والنحل فى الحيوان نجده ، فى استقبال الحياة ، يتجه إلى يعسوب واحد .

فالوحدة فى الحياة ضرورة قائمة فى صميم كل حى ،من أجل ذلك دعا إليها العقل والدين عن طريق الوحدة الأولى فى الكون ألا وهى الاتجاه فيما يتقوم به ذلك الكون إلى مكون واحد ، وسمو الغاية فى نفس كل حى منوط بالاتجاه إلى ما قر فيها منذ الأزل من تحرى الكمال فيما تعمل له ، ولذلك نرى التقليد ، منذ كان هذا الإنسان ، ماثلا فى الصغير تجاه الكبير وفى الجاهل تجاه العالم وفى القوى تجاه الضعيف إذ قر فى النفس أن الكمال قائم فى الحياة على القوة والعلم ، فاتجاه المخلوق إذن بالوحدة إلى خالقه محض اتجاه إلى الكمال المنشود له ، من وراء طبعه لا يصرفه عنه إلا الجهل ، من أجل ذلك كانت دعوة السماء إلى توحيد الخالق مشفوعة بالدعوة إلى العلم الذى يرعى العقل فى فقه الحياة من وراء ذلك التوحيد .

ذلك هو السر فى أن الله جعل الدعوة إلى توحيده مرحلة أولى فى تهذيب عقيدة الإنسان الكريم على خالقه والذى هو خليفته فى رعاية عوالمه الدنيا المسخرة له بفضل العقل ، ثم جعل الدعوة إلى العلم مرحلة ثانية فى تعزيز تلك العقيدة وتقريرها ، ان الله تعالى يدعو إلى توحيده ليقرب خلقه منه ، ويدعو إلى معرفته ليحيلهم فى عظمته المهيمنة على الكون ، ومثالا على ذلك :

أن أقرب المتعلمين إلى معلمهم من آمن به وأخذ عنه وأحله من نفسه مكانة لا يحتلها معلم غيره ، وإن أقرب البنين إلى أبيهم من آمن به وخضع له وتأدب عليه ، وإن أقرب الرعية إلى الراعى من دان للسلطان وأخلص له ونزل على حكمه ، فالمعلم يحيل نفسه فى تلميذه وهو يقبل عليه ويتقبل منه ، والأب يحيل ابنه فى ذاته وهو يحترمه ويخضع له ، والحاكم يستخلف محكومه فى رعيته وهو يخلص له ، ويأتمر بأمره ، سنة الله فى خلقه أن يتجاوب القوى مع الضعيف والكبير مع الصغير والعالم مع الجاهل من وراء الوحدة فى الكون الجامع بين الضعيف والقوى وبين الصغير والكبير ثم بين الجاهل والعالم فى صميم الحياة الصادرة عن بارئ الكون .

والوحدانية صفة عريقة فى نفوس الأحياء منذ كانت هذه النفوس ، فالمعلم يحب أن يكون فرداً واحداً فى نفس من يتأدب عليه ، ورب الأسرة يحب أن

يكون وحده محترماً فى أسرته ، والمهيمن على الرعية ، زعيما كان أو رئيساً أو ملكاً ، يحب أن يكون وحده معبود رعيته ، هكذا نجد كل إنسان مفطوراً على هذه الأنانية لأنها صفة خالقه الذى هو مثل أعلى له ، فأكثر صفات الخالق قائمة بالطبع فى نفوس مخلوقاته ، وليس الكرم والإحسان والقوة والهيمنة والرحمة واللطف والعلم والخبرة ، أقول : ليست هذه ونحوها من الصفات العليا إلا صادقة على الخالق والمخلوق معاً فى أزليتها ، ولكنها تختلف شدة وضعفاً ، وبقاء وزوالا ، باختلاف الأرباب والمربوبين ، فالصفات هذه فى الرب هى عين ذاته وباقية ببقائه ، وهى فى المربوب عارضة عليه زائلة بزواله .

فالله لا إله إلا هو ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، هذه الآيات الكريمة وأشباهها هى مرحلة أولى للعقل البشرى فى اجتياز الحياة إلى الخلود .

محمد ﷺ — لا يشكر الله من لا يشكر الناس

يكتب إلىّ محرر صحيفة ما فى لبنان ، وقد بعثت إليه بقصيدة أشربتها كثيراً من عواطفى تجاه منزل الوحى فى الحجاز ، وجعلتها صلة أولى بينى وبين الوزير السعودى الشيخ محمد سرور الصبان الذى كان صديقى ورفيقى أيام تقلبى فى منازل الوحى ومصادر الإلهام .

يكتب إلىّ الصحفى فيقول : إن المجلة لا تنشر مدحاً لأحد، ولكنها فتحت صدرها لهذه القصيدة عناية بالشاعرية الفذة التى تهب القصيدة قسطاً وافراً من الفن الرائع والأدب الرفيع .

واقرأ قصيدة لأحد شعراء سوريا ، يهاجم فيها الشاعر اللبنانى بشارة الخورى المعروف بالأخطل الصغير لأنه مدح الملك السعودى بقصيدة فريدة من شعره عدد فيها مناقبه وأشاد فيها بفضله عليه خاصة وعلى أمته عامة ، يتهم هذا الشاعر الناشئ شاعرنا الفحل بأنه خرج على دولة الشعر العزيزة وتدنى بشعره إلى الحضيض بمدحه ساسة الأمة فى سبيل العيش التافه .

ولكن الشاعر الناشئ هذا وزملاءه من الشعراء المخنثين المائعين يملأون الصحف بمدح الزهرة أو المرأة أو الخمرة ثم يتبجحون بأن الشعر تصوير للحياة ، فكأن الحياة قاصرة على هذا الشكل المهين من النبات والحيوان ، وكأن الحياة بعيدة كل البعد عن الإنسان الكامل الذى يقطع ليله ساهراً على أمته ويقطع نهاره مكباً على مكتبه ، ثم نراه طائراً من بلد إلى بلد ومن أفق إلى أفق يجمع شتات الأمة ويؤلف بين قلوب الساسة من المسيطرين على البلاد .

فاذا شهد الشاعر من هؤلاء الجرابيع الذين ابتلينا بهم فى عصر يتطلب الفحول من شعرائه — إذا شهد أحدهم ملهى تتلوى على مسرحه الرواقص أمثال تحية كاريوكا وسامية جمال ، واستجاب لشهواته فى وصف الجسد العارى ، أو إذا شهد مقهى تدار فيه كؤس الخمر وتعزف القيان على المزاهر ، أقول :

إذا شهد أحد هؤلاء المائعين العضاريط من شعراء الشباب المتحرر بعض هذه المشاهد ثم أمعن فى وصفه وأذاعه على الملأ ليعزز به شرود ناشئتنا وخروجها على الأخلاق ، فذلك هو الشاعر .

وأما الشاعر الذى يشعر بالحاجة الماسة فى الأمة إلى رجال يضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الحق وفى سبيل النهوض بالأمة إلى المستوى الذى يعصمها من الانهيار ، أما هذا الشاعر فهو الحرى بألقاب السوء ، على ألسنة هؤلاء وتعضدهم بذلك الصحافة المارقة ، فتسبغ عليه لقب الرجعى تارة وألقاب السخف والتهافت والاستجداء تارة أخرى .

العجب كل العجب فى أن الرجل الغنى أميراً كان أو ملكاً أو رئيساً إذا أغدق المال على الصحافة والأندية ورجال السياسة الخرقاء ، حفلت به صدور الصحف تتبارى فى عرض صوره واختلاق أعماله ، أما إذا أغدق هذا الثرى على الشاعر والأديب فالويل كل الويل له ولها من الصحف وحتى من الأدباء والشعراء . لماذا ؟؟ أيحق للصحيفة أن تتعزز خلاعتها ودجلها ومجونها بمال الأثرياء ولا يحق للشاعر أو الأديب أن يعزز شعره وأدبه بأموالهم ؟؟ وإذا كانت المدرسة أو أى معهد للعلوم أو الفنون جديرة بمال الأغنياء لتعزيز العلوم والفنون فلماذا لا يكون الشاعر أو الأديب ، وهما المدرسة الخالدة على الدهر ، جديراً بهذا المال ؟؟

مسكين هذا الشاعر ، عليه أن يصور حياته حافلة بالمرأة ولو كانت فاجرة ، وبالخمرة ولو كانت حراماً ، وبالنقمة على قادة الأمة الجائرين ولو حطموا رأسه ، وبالجهاد فى سبيل الحق ولو كان أعزل ، عليه أن يصور هذه الحياة ويدعو لها ويتفانى فيها ولو كان فى ذلك بؤسه وشقاؤه وعلته التى تخرم أجله ، وأما إذا صور حياته حافلة ، إلى ذلك كله ، بشكر ملك عزز أدبه ، وغذى فنه ، وأبقى على حياته ، أو بالنداء على أعمال رئيس أو وزير أو أمير ، أو ثرى كائناً من كان ، ولو كانت هذه الأعمال ملء سمع الدهر وبصره ، أقول : أما إذا صور الشاعر حياته هذه فهو بعيد عن قيم الفن وقريب من لعنات الحق .

كبر على هؤلاء المجان المخانيث من أدعياء الشعر والأدب ، كبر عليهم

أن يروا زميلا لهم سابغ العيش ، ندىّ الحياة ، وهذا هو منتهى اللؤم فى شركاء المهن ، هل كان منذ الأزل مفروضاً على الشاعر أن يكون بائساً وعلى الأديب أن يكون شقياً ؟؟ وإذا كانت الحياة الغنية بمتع العيش حراماً على الشاعر والأديب فلمن تحل ؟؟ ألهؤلاء الفسقة المرقة من ساسة وصحفيين وجلاوزة يلهبون ظهور الأمة بسياط الجور والخسف ؟؟

وإذا كان الملك سعود الذى رصد من سلطانه مآت الملايين لتعزيز الحرمين ولإغاثة فلسطين والجزائر وبور سعيد ، ثم لإيفاد البعثات العلمية إلى مصادر العلوم والفنون فى العالم المتمدين . ولإشادة المعاهد العلمية والمصحات فى بلاده الفقيرة من كل ذلك ، وإذا كان الوزير الصبان الذى لم تبق أسرة عائلة فى بلده وبلد غيره إلا أجرى عليها دخلا مرتباً ، .. أقول : إذا لم يكن هذان أو مثلهما فى الأمة جديرين بتخليد الشاعر فمن هو الجدير من الأمة بهذا التخليد .

ليس الكريم بماله ونفسه على الخير رجلا وإنما هو أمة أو عالم ، من أجل ذلك لم يمدح الشاعر فرداً ولم يخلد بشعره شخصاً وإنما ألهمه الحق بذلك تسجيل النبوغ الإنسانى على صفحات الخلود ، فكم شاعر لولا مليكه الممدوح لما حمله التاريخ إلينا فى إطار من نور ، وكم مليك لولا شاعره لما تأثرت بأعماله الأجيال . وفى القرآن كثير من المدح والإطراء لأشخاص بأسمائهم كانوا ملوكاً وأنبياء وحكماء فليتنبه إلى ذلك كله من ران على قلبه اللؤم والحسد والجهل من هذه الفئة التى يدعيها الأدب الفج والشعر الهزيل .

ولقد بلغ بسخف هؤلاء أن صارحونى بانى كنت مجدداً فى ديوان « حواء » القاصر على وصف المرأة العابثة ، وأنى كنت رجعياً فى ديوان « انت انت » القاصر على وصف محمد رسول الحق إلى العالم ، وهذا الناقد الذى صارحنى بذلك يحبر الفصول فى الصحف ببعث أبى نواس من خمارته وبعث بشار من ماخوره ، فهل كان محمد ، وهو صاحب الرسالة السماوية إلى الأرض ، غير جدير بالهام الشاعر ، وكان بشار وأبو نواس جديرين بعبقرية هذا الإلهام ؟؟

من هم هؤلاء الناس الذين يجب شكرهم على شاكر الله فى قول الرسول : لا يشكر الله من لم يشكر الناس ؟؟ هل هم إلا أمثلة الله وخليفته فى أرضه ؟؟

إن العالم ، ليكون خالداً بنوعه البشرى ، يفتقر بعضه إلى بعض ، فالفقير الذى لا بد منه فى سلب الحياة ، يفتقر إلى الغنى الذى لا بد منه فى إيجابها ، وهكذا نجد الضعيف والجاهل مفتقرين إلى القوى والعالم ضرورة امتداد هذه الحياة إلى الأجل المحتوم لها فى عالم الغيب . ..

فلتتقوم الحياة بالقوى والضعيف ، والغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، يتنزل وحى السماء على الأرض بالدعوة إلى الحق فى فرض الشكر على كل من هؤلاء لكل منهم ، ثم بفرض هذا الشكر عليهم جميعاً للمنعم الأول وهو باعثهم فى هذه الأرض ، والشكر ليس قاصراً على اللسان وإنما هو من قبيل العمل مثلما هو من قبيل القول ، فشكر الفقير للغنى المحسن إليه ، بلسانه مضافاً إلى العمل على خدمته بجوارحه ، وشكر الغنى للفقير الخاضع له ، بلسانه ، أيضاً مضافاً إلى عونه بالإنفاق عليه ، وهكذا تعلل الصلة بين الجاهل والعالم وبين الضعيف والقوى ، بالشكر المتبادل فيهم .

وقد يكون الفقير بماله غنياً بمقاله كالأديب والشاعر ، وقد يكون الغنى بماله فقيراً بمقاله ، فيكون لكل منهما حق على الآخر وعلى كليهما واجب تجاه الآخر ، فلم يكن المال الذى يجود به الغنى الجاهل على الفقير العالم بأبقى أثراً وأخلد أجلاً فى تقويم الحياة ، كما أن محبة الضعيف للقوى الحانى عليه ليست بأقل تقويماً للحياة من هذا الحنو ، وهكذا نجد أن تقدير الجاهل واحترامه للعالم الحفى به ، لا يقل قيمة فى الحياة عن رعاية العالم للجاهل والحرص عليه .

إذن فالشاعر إذا مدح من هو أهل للمدح سواء أجيز على مدحه من ممدوحه أو من الحق المهيمن على هذا الممدوح ، فانما هو قائم بما يجب عليه من الشكر للناس مضافاً إلى شكره خالق الناس ، والملك أو الرئيس أو الأمير إذا رعى بماله أو سلطانه ، شاعراً أو أديباً فانما هو قائم كذلك بما يجب عليه من الشكر سواء أجيز من شاعره أو لم يجز ، فان الذى يجب أن نفهمه من فرض الشكر على الإنسان للإنسان ليس مجرد البذل من الغنى للفقير أو الرفق بالضعيف من القوى أو العطف على الجاهل من العالم ، وإنما هو أسمى من ذلك .. انه صلة الرحم الأولى بين الإنسان والإنسان منذ أزلية هذا الإنسان .

علي

سَلُونِى قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِى ، فَأَنِّى بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَدْرَى مِنِّى بِطُرُقِ الأَرْضِ

يستكثر بعض الناس على الإمام على أن يقول ذلك لما فيه من الأنانية والدعوى ، وأن إنساناً على هذه الأرض الجامعة بين الخير والشر فى بنيها منذ جبلتها الأولى ، لا يقدم على ما يشعر بعصمته وكماله .

ولكنهم إذا رجعوا إلى قول محمد معلم علىٍّ هذا حيث يقول : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، وإذا رجعوا إلى قول هذا المعلم : من زهد فى الدنيا علمه الله بغير تعلم ... ، ثم إذا وقفوا على قول الإمام فى غير مكان من هذا الكتاب : إن فى السماء مدناً كمدنكم هذه تربط بينها أعمدة من نور ، أقول : لو رجع هذا المنكر إلى تلك الأقوال ، لأراح نفسه من عناء التفكير فى انكار هذا القول على الإمام واستحالة صدوره من إنسان يبحث فى السماء وهو على الأرض .

فهل حفظ التاريخ لنا أن سائلا أفحم علياً بعد أن قال : سلونى قبل أن تفقدونى ؟؟ وعلى العكس يحفظ لنا التاريخ أن كثيراً من السائلين المتعنتين كانوا يتحدونه ، وهو على المنبر ، بأسئلة فى العلوم والفنون التى لا تمت إلى الوعظ والإرشاد وأحكام الدين بسبب ، وكان على يجيبهم بما يذهلهم فيما وعوا ويخزيهم فيما أسروا ، ومن شاء الكشف عن ذلك فليرجع إلى شرح العلامة ابن أبى الحديد لنهج الإمام منذ ألف عام .

ولقد نرى اليوم فى الصحف أبواباً خاصة فى العلوم والفنون ، ونرى فيها باباً للسؤال والجواب يختص به رجل كاحسان عبد القدوس فى «روز اليوسف» وكأمينة السعيد فى مجلة الهلال ، ونرى عنوان هذا الباب : إسألونى » فهل كان إحسان هذا وهو « صاحب البدائع » ... وأمينة هذه وهى « أم المؤمنين » هل كانا أحق بكلمة « اسألونى » من على بن أبى طالب وهو وزير محمد وعضده ووصيه من بعده ؟؟...

ويمعن بعض العلماء فى تأويل كلمة الإمام هذه على الشكل الذى يحفظ

تواضعه كانسان ، وأن أى إنسان لا يجرؤ على الدعوى بأنه فى السماء أعلم منه فى الأرض يقول هذا البعض : إن الإمام مع افتراض سموه وعلو كعبه فى العلوم ، لم يخرج عن كونه إنساناً ، وإلا كنا مغالين فى تقديره ، والنبى كان قد تنبأ لذلك بقوله : يا على يهلك فيك اثنان : علو قال ومحب غال » وحمل الإمام على الحقيقة فى قوله : إنى بطرق السماء أعلم منى بطرق الأرض » يدعونا لأن نكون مغالين فى تحديد شخصه » .

أقول : يمعن هؤلاء بتأويل قول الإمام فى أنه إنما أطلق العام وأراد به الخاص . وهو من مجاز اللغة فى علم البيان ، فقد أراد بطرق السماء الخطط التى يضعها الله فى السماء لهدى عباده فى الأرض ، وهذه الخطط هى النواميس الدينية التى يتنزل بها الروح الأمين على الأنبياء والرسل المصطفين لتبليغ الرسالة الإلهية فى الخلق ، ويريد الإمام ، وفقاً لذلك ، بقوله : سلونى قبل أن تفقدونى » أن يكون السؤال فى حدود هذه الخطط لا أنها فى شتى العلوم والفنون »

ذلك ما أراده هؤلاء المتأولون ، وأرانى جريئاً على أن لا أحسب حساباً لهذا التأويل ، وإنما يصح التمحل فى ذلك حرصاً على تنزيه الرجل الناقص من أمثالنا ، فأما الرجل الكامل من أمثال على ، فلا يصح أن نتأول عليه ولا له . لأنه ثبت عن طريق النقل كونه معصوماً بقول معلمه محمد : على مع الحق » وعن طريق العقل من أن الرجل الكامل لا يتهافت فى تفكير ولا عمل ، وأن فى وجود الإنسان حقاً يهيمن عليه فيعصمه من هذا التهافت .

ولقد جربت ذلك بنفسى إذ شئت انتقاص من هو فوقى وعملت على كسره فحال بينى وبينه حاجز لم يكن فى طوقى اجتيازه ، وأفضى بى ذلك إلى أن أتعظ وأعتبر فغفر لى الله ذلك ثم عصمنى ممن حاول انتقاصى وكسرى .

وقد كنت أتعمد الغيب فى دفع ذلك عنى فيؤاتينى بالمعجزات ، أذكر ، وأنا فى دمشق ، دعيت إلى مجلس ضم بعض الأعيان السوريين من رئيس جمهوريتها إلى وزرائها وأعيانها ، وقد كان فى المجلس وزير متقاعد ولكنه متفيهق وأنانى ومتعنت ، وقد تناول البحث هناك شيئاً من علوم اللغة ، وكنت أكثر أهل المجلس قولا على البحث فى دقائقها ، ولحظت أن إكثارى لا يرضى

أنانية هذا الوزير فعمد إلى تنقصي بالتدليل على جهلي في اللغة فقال : ان الأستاذ الحوماني علم من أعلام اللغة فلا تسأله عن شيء إلا ويجيبك عنه بدقة وإحكام ، ثم حور الحديث إلى صيغة الجموع وتناول كلمات شاذة مثل «أضحى» في عيد الأضحى هل هي مفرد أم جمع ثم وصلها بالتدليل على عراقته في علم اللغة بأن قال : إن الأضحى جمع أضحاة ، والتفت إلى يستشهدني سائلا : هل في اللغة العربية ما يشبه هذا الجمع : ؟؟ فقلت : نعم ان أرطاة تجمع على أرطى فقال : وما الأرطى ؟؟ فلحظت بلمح البصر محاولته إحراجي ، وكنت أجهل معنى الأرطى أو أنساه ، ولحظت مع ذلك عصمة الحق لي باعتمادي عليه وأجبته بغير توقف : إنه شجر تأكله الإبل .

وصمت فلم أتكلم بعد ذلك سائلا ربي أن أكون مصيباً فيما أجبت ، أو أن يصرفهم عن تحقيق معنى الأرطى في قواميس اللغة إذا كنت غير مصيب ، وشد ما كان ذهولي بالغاً ويقيني بالحق متيناً إذ عدت إلى منزلي وبحثت عن الأرطاة فاذا هي نبات تأكله الإبل ، فليعتبر من شاء بما أنقل عن تجربة وليعمد إلى نفسه فيربيها على خدمة الحق فانه يعصم من لاعصمة له .

ولقد سألني ، وأنا في أمريكا ، بعض الطلبة العرب ، في حفل جمع ثلة من ذوي الفضل وفيهم كثير من المهاجرين ، سألني هذا الطالب : هل هناك دليل علمي على إمكان حساب الإنسان يوم القيمة في كل ما فعله ودار في خلده منذ كان إنساناً حتى زال به الوجود ؟؟ فقلت نعم دون أن أفكر أو أتوقف لحظة واحدة معتمداً على الحق العاصم لي فيما أخدمه به على الأقل ، ثم تابعت البحث :

انكم تسمعون باسم رجل يدعى «أديسون» خالق الاسطوانة لتسجيل الصوت ، قالوا : أجل : فقلت أيقوى أديسون على تسجيل ما تتفوه به ولا يقوى رب أديسون على تسجيل ما يصدر عنك من قول أو عمل ؟؟ أفلا يمكن أن يكون هذا الأثير الذي يشتمل علينا ، اسطوانة ، تسجل كل ما يصدر عنا من حركة تبقى ببقاء التموة الصادرة عنها حتى يعود بنا الله في نشأتنا الأخرى ؟؟ فان العلم الحديث يثبت الآن خلود الروح ، وكل قول أو عمل يصدر عنها هو خالد بخلودها .

ولنعد إلى الإمام على الذى كان أزهد الناس بدنياه والرسول يقول: من زهد فى الدنيا علمه الله بلا تعلم ، من هنا نسمع له وعنه إخباره بالمغيبات كقوله ؛ لو شئت لجعلت لكم من الماء ناراً » وقوله : والذى بعث محمداً بالحق لولا خوفى من أن تكفروا بى فيه لأمليت عليكم علم ما كان وما يجئ ، فوالله ما فارقته حتى مر على سمعى بكل شئ ...

تلك هى آثار محمد وأهل بيته وأصحابه الذين اتبعوه باحسان ، ماثلة أمامنا فى أقوالهم وأعمالهم تبعث فينا أقوى الإيمان بأن علمهم قائم على الحكمة الملهمة لأنه وحى يتنزل به الروح الأمين على نبيهم من لدن حكيم خبير .

وللإمام على شخصيتان عبقريتان ، إحداهما إنسانية ترابية تضعف حتى يستسلم لأوهن الأحداث كانصياعه للتحكيم بالكره عنه يوم صفين ، وكانقياده موثوقاً يوم تهديد عمر داره بالإحراق ، وثانيهما جبروتية سماوية تقوى حتى لا يصمد أمامها جبروت كجندلته عمرو بن عبدود يوم الأحزاب ودكه حصن خيبر ثم اقتلاع باب الحصن وهو ما تطيقه قوة إنسان ، فشخصيته الأولى هى الصلة بينه وبين البشر وشخصيته الثانية هى الصلة بينه وبين الملكوت الأعلى .

وللتدليل على هاتين الشخصيتين وأنهما ركبتا فيه ، قوله لسائل سأله حين رآه يعجز عن كسر قرص يابس من الشعير بيديه فاستعان على كسره بركبته قال له السائل : كيف تضعف عن كسر القرص وأنت داحى باب خيبر ؟؟ فقال له الإمام : ثكلتك أمك تلك قوة الله وأما هذه فهى قوتى ...

الله

خَلَقَ الإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ، شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .

من جليل ما سمعت على ألسنة بعض الشيوخ البررة ، حديث فى العلم مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون أن أتثبت منه فى كتاب قرأته ، ذلك هو : أنه سئل عليه السلام من بعض أصحابه الادنين إذ بالغ فى حثهم على العلم ، سئل : ما هو العلم يا رسول الله ؟؟ فقال : هو أن تسمعوا ، قالوا : ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعوا ما تسمعون ، قالوا : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟ فقال : أن تحفظوا ما تعون ، قالوا : ثم ماذا ؟؟ فقال : أن تعملوا بما تحفظون ، قالوا : وهل وراء ذلك شئ ؟؟ قال : بلى : أن تخلصوا بما تعملون »

وسواء صح نقل هذه الكلمة عن رسول الله أم لم يصح ، فانها تشير إلى عظمة العلم فى نفسه وصدور مثل ذلك عنه جدير به كما سيحققه البحث بعد صفحات من هذا الكتاب ، ولسنا الآن بصدد إثبات هذه الرواية ولا نفيها ، ولكنا فى سياق البحث عن عظمة العلم فى الكتاب والسنة بين يدى العقل ، وإنما عرضنا لهذه الكلمة إعجاباً بأسلوبها واشتمالها على أدق تحديد للمعرفة فى بيان خليق أن يمثل حرص النبى وأصحابه على العلم وتحديده ، إذ كانوا يمعنون فى اكتناه بيانه ، وتحديد الهدف الذى يرمى إليه ، من أجل ذلك كانوا يكثرون فى استفهامهم ، من قولهم : ثم ماذا يا رسول الله ؟؟

ولنعد إلى بحث العلم فى ذات الله وذوات خلقه ، إذ يفرضه علينا مطلقا دونما تقييد فنقول : ان علمه تعالى إشعاع من ذاته على الكون ، وهو علم كلى ، وأما علمنا فجزئى منبثق عنه ، من أجل ذلك ينهانا عن أن نخوض فيما لا طاقة لنا

فى خوضه من علم أشياء فطرنا على الجهل بها ، كادراك الروح واكتناه غيبها إذ لم نؤت إلا قليلا من العلم وهذا العلم القليل قاصر عن إدراك الغيب الخاضع لعلمه الكلى المحيط بالكون ونحن جزء منه .

وعلى اعتبار أن صفاته تعالى عين ذاته يصح معنا أن نقول : إن اللهعلم محض ويقابل ذلك أنا جهل محض بالنسبة إليه ، تعالى عنا علواً كبيرا ، فالعلم المفروض علينا هو هذا الجزئى الذى ندرك به وجود خالقنا والفرق بيننا وبينه ، ثم ندرك به وسائل الحياة التى ترفعنا عن مستوى العوالم الدنيا التى نهيمن عليها ، وهذا العلم الجزئى بالنسبة إلى علمه الكلى يعد جهلا .

فلا يصح أن نعزو علم الخالق وعلم المخلوق إلى مصدر واحد ولا إلى كنه واحد كما لا يصح أن نعتبر أية صفة يشارك المخلوق بها خالقه فى اللفظ كالمصور والمبدع والكريم والمحسن والمهيمن والمؤمن وغير ذلك من الصفات التى نطلقها على أعياننا وعلى خالقنا ، أقول : لا يصح اعتبار هذه الصفات فينا صادرة عن الكنه الذى صدرت عنه صفات الله العليا ، فعلمه إشعاع ذاتى ، وعلمنا قائم فى انعكاس ذلك الإشعاع .

علم الله يتقوم به كيانه وكونه ، وأما علمنا فاقتباس روحى مخلوق نتبين به ظاهراً من حياتنا القائمة فينا والمهيمنة علينا ، فاطلاقنا على خالقنا شيئاً من هذه الصفات محدود بعقولنا ، وعلى مقدار هذا العقل نتصور خالقنا ، فالعقل الأول أو عقل الإنسان البدائى كان يتصور خالقه إنساناً كامل الخلق أو جرماً خليطاً من الإنسان وغيره إشعاراً بكونه يغاير خلقه .

ثم يتطور هذا العقل الإنسانى إلى حد ينكر معه بفضل العلم، تحديد الخالق بشكله وعقله ، ثم يترقى هذا العقل ، وبفضل تعزيز العلوم أو الإمعان فى تهذيب الروح أيضاً ، يترقى الإيمان بأن التفكير فى كنه الخالق محال على المخلوق لأن الوسيلة التى يفكر أو يعقل بها المخلوق قاصرة بطبعها عن الخوض فى هذا التفكير .

ان الهوة بين علم الخالق وعلم المخلوق سحيقة جداً لأن علمه عين ذاته وأما علمنا فعارض علينا ومحدود فينا يستحيل عليه أن يحيط بذات خالقه كما يستحيل

على أثر الإنسان أن يفكر فى كنه الإنسان ، وإذا كانت الحكمة من الأثر الذى نخلقه كالطيارة والسيارة هى فى صميم حياتنا ولا يشعر هذا الأثر بالحكمة من وجوده ، كذلك نجد الحكمة ، لو كشف لنا الغيب ، فى صميم حياة خالقنا أو حياة من كنا له من عالم خفى عنا مهيمن علينا .

نستطيع أن نحد علم الإنسان لأنه فى حيزنا نحن عالم الإنسان ، نحده بأنه نفحة قدسية من عالم يفضلنا فى كنهه ، إتحدت مع نواة الحياة الأولى ، تنمو تلك النفحة مع هذه النواة بتنمية الحواس فينا على شكل فنى خاص بنا ، والعقل الذى يهيمن علينا هو الوسيلة التى يتذرع بها الإنسان إلى تنمية هذه الحواس .

والتفاوت الطبيعى فى قوى الإنسان الفكرية والجسمية هو الذى يكشف للعقل أسرار العلوم والفنون الكامنة فى نواة الحياة الأولى بفضل تلك النفحة اللطيفة التى تتحد معها لتصل عالماً أسفل بعالم أعلى فى سلسلة هذا الكون الغامض ، فكما أن فينا هذه النفحة تصلنا بمن فوقنا مما يهيمن علينا ، كذلك نجد فيمن هو دوننا ومسخر لنا نفحة قدسية تصله بنا ، وهكذا دواليك ترقى هذه العوالم بتلك الصلات .

العوالم حلقات تتألف منها سلسلة الوجود ، ولكل حلقة كيان خاص بها يهيمن على وجودها الذاتى ، ولها كيان عام يهيمن على وجودها الخارجى وهذا الوجود هو الصلة التى تنوطها بغيرها من الحلق ليتقوم بها اتحاد عام ، فهى بكيانها الخاص حلقة ، وبكيانها العام سلسلة ، على أنا إذا فرضنا التطور من أسفل إلى أعلى فى هذه الحلق ، يشكل علينا وصل الحلقة الأخيرة بالحلقة الأولى ليصح معنا إطلاق لفظ السلسلة على مجموع الحلق ، لان المفروض فى أول حلقة أن تنحدر فى جوهرها عما يليها من الحلق ، إلا أن نعتبر هذه السلسلة ذات طرفين أحدهما بالغ الغموض فى الصغر وآخرها بالغ الغموض فى الكبر لا يحيط بكنه الحياة فى هذا الغموض إلا الحى الخالد الذى يقصر عن إدراكه كل ما تتألف به هذه الحلق فى طريقها إلى كيانها العام من روح تعى وعقل يفكر .

هذا التفاوت بين كائن وآخر فى كل نوع من الوجود كالتفاوت فى نوع الإنسان بين سمع وسمع وبين بصر وبصر ثم بين فكر وفكر ، أقول : ان

هذا التفاوت هو الباعث الأول للعقل على فتق العلوم والفنون فى تقويم الحياة وتنمية كيانها الخاص حرصاً على الصلة التى تؤهلها للاشتراك مع غيرها من أنواع الحياة فى تقويم كيانها العام .

إلى هنا نقف فى تحديد العلم الذى يشارك به الإنسان غيره من العوالم التى يتألف منها هذا الكون الجبار الخاضع بنواميسه لقوة مبدعه الأول تعالت عظمته عن أن يحيط بها جزئى لايتناهى فى صغره ، من كلى لايتناهى فى كبره ، نطلق عليه لفظ العقل تارة ، وألفاظ الفكر والروح والجوهر تارة أخرى ، وهو فى حقيقته شئ واحد .

هذا العلم الذى ألمعنا إليه بالتحديد الظنى ، وهو الشامل لكل ما يحدق بالإنسان الحى من وسائل الحياة فى طريق بقائه فرداً ونوعاً ، أقول : انّ هذا العلم هو المفروض على الكائن الحى منا ، وهو المعنى بقوله عز من قائل : خلق الإنسان علمه البيان ، وقوله : الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، وتقرير ذلك ثم تكريره فى كثير من فرقانه الذى يفرض به علينا العلم لنتدبر كونه القائم فينا فنتقوم به ، وندرك من وراء عظمته كمالنا المنشود .

وإذا تحرينا السر الذى من أجله فرض الله علينا العلم المطلق حتى علم السحر لصدق العلم عليه ، وقد أطلقه الله ورسوله إذ قال عز من قائل : أفلا يعلمون ؟؟ ، أفلا يتفكرون ؟؟ أفلا يفقهون ؟؟ وقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو فى الصين ، اطلبوه من المهد إلى اللحد ، طلب العلم فريضة » من هذا وكثير أمثاله فى الكتاب والسنة نفهم انا مأمورون ديناً وعقلا بطلب العلم وأن العلم المفروض علينا مطلق لاحد له ما لم يفض بنا إلى فقد الكمال الذى ننشده بالعلم ، أقول :

إذا تحرينا هذا السر ، ورأينا من وراء هذا التحرى أن الله قوّم الكون بوحدانيته ، وأن إدراك هذه الوحدانية قائم على الثالوث المقدس : الله وملائكته وأولو العلم من خلقه ، حيث يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم . . . . إذا تحرينا هذا السر من وراء ذلك كله ، علمنا أن طلب

العلم ليس واجباً فحسب وإنما هو الواجب الأول فيما يتلقاه الإنسان من ربه على لسان رسوله والمقربين إليه من خلقه .

وفى قوله صلوات الله وسلامه عليه : النظر فى العلم ساعة خير من عبادة ستين سنة ، وقوله : مجلس العالم خير من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض ، وقوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » والمفروض فى الخشية أنها التقوى وان أكرم الخلق على الله اتقاهم ، أقول : فى هذا كله برهان على أن العلم ليس واجباً أول فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى كونه واجب عين لا واجب كفاية وأنه فريضة أولى فى الفرائض العينية .

وأبعد من ذلك تعليلا فى أن ما مر من آيات وأحاديث تفضى بنا إلى اعتبار العلم واجباً عينياً أول ، أقول : ان ما هو أبعد فى تعليل ذلك أن نلمس البرهان فى تحرى العلوم وأثرها فى تقويم العالم ، فلو فرضنا أنه واجب كفائى لسقط وجوب طلبه عن المسلم بوجود عالم واحد فى الأمة ، وهل يجزى فى رقى الأمة ونهوضها ، وانسلاخ الظلمة عن آفاقها ، وانبعاث النور فى هذه الآفاق ، هل يجزى فى توفر ذلك كله على الأمة وجود عالم واحد ؟؟

اللهم لا ... ان مفهوم التخصيص فى قوله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء ، ومفهوم التعميم فى قول رسوله : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ان هذا المفهوم بعيد وبعيد جداً عن واجب الكفاية وانه لفى صميم الواجب العينى ، ثم هو فوق ذلك كله واجب أول فى ناموس الحق الأعلى المفروض على خلقه منذ الأزل .

فهل فكر فقهاء الأمة فى المنزلة التى ينزلها هذا الواجب من أحكام الشرع الإسلامى ؟؟ وهل فقهوا أن الحياة ، فى سموها ورقيها ، منوطة بالعلم ففقهوا آخر الأمر أن العلم واجب عينى ثم نبهوا الأمة إلى أنه أول واجب يصدع به الشرع وأولى الفرائض التى يجب على الإنسان أن يلتمسها لتثقيف عقله ثم توجيه نفسه إلى معرفة الله الذى يعبد ؟؟

وبعد ذلك هل فقهت حكومات الإسلام أن العلم إجبارى فى الأمة ينال الفرد ذكراً وأنثى بنص الكتاب والسنة فعممته قبل كل شئ تأتيه فى سبيل

حياة الأمة ؟؟ وهل تربينا ثم ربينا أبناءنا ، على أن العلم أكبر وجوباً من الصلاة: فعمدنا إلى محو الأمية للعمل على محو الجهل والفقر اللذين هما العنصر الأول فى تردينا وانهيارنا ثم استعبادنا آخر الأمر ؟؟

ان التعليم الإجبارى سهل على كل أمة مهما تغلغل الفقر فى كيانها لأن بدء العلم هو محو الأمية ، وهذا تستطيعه الكتاتيب فى القرى والدساكر دونما تكليف باهض يرهق الحكومات ثم يأتى دور الثقافة جزئياً ينتهى بعد إلى كلى يصبح العلم عنده سبباً فى رفع مستوى الأمة سياسة واقتصاداً ، وذلك ما يضمن لها الثروة التى تؤمن العلوم العامة ، وعلى هذه العلوم تبنى المعاهد والمعابد التى تصل الإنسان بخالقه إيماناً وعزة وكرامة .

اللهم انا لم نكن ، ونحن بدائيون ، نفقه أن العلم واجب كفائى فضلا عن كونه واجباً عينياً بل أول واجب على الإنسان ، من أجل ذلك لم نفق على الحياة إلا ونحن أضعف الناس إذ كنا أجهلهم والتبعة فى كل ذلك إنما تقع على عواتق ورثة الأنبياء وحملة الناموس الأعلى .

ففى صميم النص من الكتاب وصحيح السنة : أن طلب العلم على المسلم واجب وأنه واجب عينى يلزم كل فرد بعينه لأن بعضه لايجزى عن كله ، وأنه واجب عينى أول يتقدم الصلاة لأنه عبادة وزيادة ، وان تأخر المسلمين كان مسبباً عن إهمالهم هذا الواجب وجعله كفائياً لا عينياً .

محمد إِذَا سَمِعْتُمُ الحديثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَلِينُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الحديثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ عَنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ .

لم يتسرب إلى النفوس مريضها وصحيحها ريب فى أن القرآن الذى نزل على محمد هو هذا الذى بين أيدينا نتلوه صباح مساء لم يتغير ولم يتبدل منذ ألف وأربعمائة عام، من أجل ذلك لم نحتج إلى برهان يثبت للقارئ صحة النص فى بدء هذا السفر العابر .

وأما الحديث الذى نتخير طرفاً منه للبحث فقد بدأناه بالحديث السابق لندل بمعناه على أن رسول الله تنبأ قبل تلوين الحديث عنه بأن الأهواء ستمعن فى الكذب عليه بعد موته ، وأن اختلاف العقول سيتصرف بالصحيح من سنته خطأ وإصابة ، فعمد صلى الله عليه وسلم ، إلى تنبيهنا فى قوله هذا بأن مرد الصحيح مما يروى عنه إلى القلب .

على أن الغاية من هذا الكتاب ليست وقفاً على صحة السند وإنما هى ناظرة إلى توجيه النشء الصالح وتقرير الحق فى نفوس الأمة من وراء العقل واتزان الفكر ، مضافاً إلى استنباط مالم يدر فى خلد أسلافنا الذين خلفوا لنا من جهادهم الفكرى ، تراثاً صالحاً يبقى على الدهر .

فلست أعنى فى كتابى هذا بصحة السند المسلسل ، ولا تفنيد الآراء فى دحض ما يضعف سنده ولو كان معقولا ، وقبول ما صح سنده ولو كان غريبا ، أو غير مألوف ، ولكنى أعنى بالمعقول مشيراً فى أول الكتاب إلى مجمل ماصدرت عنه من كتب الحديث ، وأعنى إلى ذلك بالبيان والمنطق والتطبيق والتجديد .

فالحديث الأول واضح فى تقرير هذه المقدمة بصحة ما نطمئن إليه وفساد

ما يشق علينا تخريجه أو يستعصى علينا فهمه ، أو يثقل على قلوبنا الميل إليه والتصديق به ، على أن فى مفهوم الحديث وفى صميم الأخذ منه ، أن يكون القلب، الذى هو ميزان قبول الحديث ورفضه ، على قسط وافر من الثقافة والعلوم التى تربى فيه ملكة الفقه فى الحياة وتطبيقها على الدين ، فالحديث إنما يخاطب الرسول به الثقات من أئمة الفقه وقادة الفكر فى العالم ، فليس فى صدور العامة من أمته قلوب تزن القول فتحكم وزنه ، وتدرك صحته من سقمه ، فتحسن الميل إلى الصرف والإعراض عن الزائف منه ، وإنما يضطلع بعبء هذا التمييز قلوب الخاصة من الأمة فقط .

ويجب أن يكون هذا القلب الواعى فى مأمن من هوى النفس ونزعات الشيطان ، ليكون مخلصاً فى تطبيق الدين على الحياة أو الحياة على الدين بوفائه وهو ينقل الأمانة عن هادى الأمة ، وبصدقه وهو يمعن فى تخريجها وتطبيقها على الحياة ، فان كثيراً من القلوب الكبيرة الواعية يرين عليها هوى النفس الأمارة بالسوء ، تؤثر الدنيا على الدين فتزور الباطل فى صورة الحق ، وتتعمد الخطأ فى شفاء ما منيت به من مرض خلقى ، سعياً وراء الشهوات بين يدى حياتها الدنيا .

فالرسول إنما يخاطب بحديثه ذاك فئة من الناس أخلصوا البحث للحق وأمعنوا فى الحيطة والحذر من طغيان الهوى ، وأسلموا قلوبهم ، وهم يتفقهون فى الدين ، إلى التقوى بين يدى رسالة الحق إليهم على لسان أشرف الخلق صدقاً فى القول وإخلاصاً فى العمل .

وانه لغنى عن البيان فى المنطق الحق أن الحديث السابق يرشدنا إلى أن رسول الله كان يتنبأ فى الأجيال بعده أن الحديث عنه سيخرج عن كونه تشريعاً حقاً بالكذب عليه ، وأن صدق الحديث عنه مشروط بعرفان من القلب أنه حق ، وأن هذا القلب الذى يقرره يجب أن يكون مشبعاً بروح الإخلاص للحق

علي

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَةُ اللهِ ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُه ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ .

معرفة الله أول حجر يرسو عليه بناء الدين ، وبهذا يشير إلى أن العلم واجب أول فى الدين كما أشرنا سابقاً ، وعلى هذه المعرفة يبنى المتدين إيمانه الذى هو التصديق بوجوب وجود خالقه الأول ، ثم إذا كمل إيمان الرجل كان موحداً، إذ لا يمكن للإيمان أن يتجزأ بتجزء المعبود لأن مصدره القلب وهذا القلب واحد، فاذا رسخ هذا التوحيد فى قلبه كان مخلصاً لربه ، وبهذا الإخلاص ينفى عنه الصفات التى تغاير الموصوف ، ويؤمن بأن صفاته عين ذاته .

هذا موجز ما أفهم لهذه الجمل العريقة فيما يكشف للعقل من العلوم ، وبتسلسل هذا الفكر فى فقه البيان ، يعطينا امام البلاغة مثلا أعلى فى ترتيب المقدمات للإحاطة بالنتائج من أوجز طريق يصل إليه الحاذق فى فهم ربه والإيمان به والتعبد له ، ولو شاء الفقيه المدرك أن يعطى هذه الجمل حقها من البحث والتعليل لحبر كتاباً مسهباً فيما تكشف عنه أو ترمز إليه من علم اللاهوت.

على أنى لست ، فى القول على هذه الجمل ، متحرياً ذلك التعليل ولا صدق نسبتها إلى خليفة رسول الله وأخيه الأمام على بن أبى طالب ، كما لا أشك فى أن الإمام كالرسول بكونه عرضة للافتراء عليه كرهاً له أو غلواً فيه ، ولكنى أقدم على التصديق بما رواه عنه الشريف الرضى الموسوى لأن بين يدى من آثار الشريف وشهادة معاصريه له ، ما يرفعه فى نظرى إلى المستوى الذى يحول بينه وبين الافتراء على الله فى تعمد الكذب على وصى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه باحسان .

أقول : لست فى سبيل إثبات ما أنقل عن الإمام لأن الراوى عنه ثقة ، ولكنى ، وأنا أعرض هذه الجمل على الأحفياء بما أكتب ، أحاول تقرير

الحديث القائل : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » تقريراً حقاً فى نفوس أولئك الأحفياء الذين اتخذوا الصدق فى القول والإخلاص فى العمل منهاجاً لهم يسيرون على هديه ليكونوا شهداء على الناس ، وإذا لم يكن للإمام على مثل هذا القول ، ولم يثبت عند المرقة من الحق نسبته إليه ، فماذا يتحقق لدينا صدق رسول الله فى قوله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ؟؟ » بينما لم يقل مثل ذلك فى غيره ؟

فان السبب الأول الذى يكشف عن صدق رسول الله فيما يتنبأ لعلى من الحكمة والعلم ، هو هذا القول الذى جمعه الشريف الموسوى وصحح إثبات صدوره عن الإمام ثم أطلق عليه أروع اسم عرف به ألا وهو « نهج البلاغة » بينما نزه الشريف جده عن كثير مما نسب إليه ، كما فعل الثقات من رواة الحديث عن رسول الله بنفى قول وإثبات آخر .

والعجب فى أن هؤلاء المنافقين بكرههم علياً ، ينكرون على الشريف صحة ما نسبه إلى الإمام بأمرين ، أولهما خطبته المسماة بالشقشقية التى يغض فيها من ورع الصحابة فى تقرير الخلافة بعد رسول الله دون استشارته ، وهو أولى بهم من أنفسهم لأنه مولاهم بشهادة رسول الله إذ قال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وثانيهما : ورود بعض الجمل فى « النهج » حافلة بصفات بعيدة فى أسلوبها عن عهد الإمام وخليفته بما تلاه من عهود ، كوصف الطاووس والخفاش بما اشتملا عليه من جدة فى المعنى وبدعة فى اللفظ .

والجواب عن تسفيه المنكر للشريف بثقته فى نسبة هذين إلى الإمام ، أولا : غاية ما فى هذه الخطبة قسوة فى التقريع واللوم على الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لأنهما غمطا حقه فى المبادرة لعقد البيعة دون استدعائه ومشورته ، وقبل أن يواروا جسد المنقذ الأول لهم وللإنسانية صلى الله عليه وسلم .

أقول : ان عملهما هذا لا يخضع لبرهان من يحتج بأن الأنصار بادروا لانتخاب رئيس منهم فأعجلاهم عن ذلك خشية إفلات الخلافة من قريش ، فمن هم هؤلاء الأنصار الذين يجتمعون دون المهاجرين وقبل تجهيز رسولهم ودفنه ليستأثروا بالخلافة ؟؟ وهل كان المسلمون جميعاً فى ذلك الوقت غافلين عن مكانة إخوانهم المهاجرين ليبرموا عملا هو فى صميم الرسالة النبوية وهو فى عهدتهم

جميعاً ، وفى الأنصار أنفسهم من يخضع للرأى الإسلامى العام فوق خضوع المهاجرين له ؟؟

لقد توسع المعتذرون من المؤرخين فى هذه الحجة وهى ضيقة العطن لاتقوم برهاناً على مؤاخذة الإمام بقوله فى الخطبة مقرعاً ومؤنباً ، أفما كان بوسع الشيخين ،سامحهما الله وقد أقنعا الملأ من الأنصار بأولوية قريش فى الخلافة ، أن يقنعاهم بضرورة الأناة والتريث ريثما ينتهون من مواراة نبيهم،ويشهد الانتخاب من ليس دونهم فى الرأى والسابقة كعلى والعباس وغيرهما من أجلة الصحابة الذين تخلفوا عن البيعة للقيام بتجهيز الرسول الأعظم ، فيشهدوا تقرير الخلافة وتحريرها من العبث الذى جرأ الأمويين فيما بعد على الاستئثار بها دونما حق إلا المبادرة والغيلة والتهالك على السلطان ؟؟

ان هذا العمل قد ترك على مر القرون وصمة فى جبين الفترة الأولى لبزوغ الإسلام يدركها كل من فقه التاريخ ، ان علياً كان حاقداً على استدبارهم جنازة رسولهم ليستقبلوا أمراً لا يفوتهم لو صبروا فاستمروا محدقين بجثمان نبيهم حتى يواروه ثم ينصرفوا إلى العمل على الصدع برسالة محمد مؤزرين بالحق

ولنا أن نتساءل ، كما تساءل علي ونفسه ، إذ بلغه أن أبا بكر احتج على الأنصار بأن الخلافة فى قريش ، لنا أن نتساءل : لماذا يجب أن تكون الخلافة فى قريش ؟؟ أكانوا أشد إيماناً من غيرهم يومئذ برسالة محمد ؟؟ ثم ألا يكون على محقاً بالرد عليهم فى قوله : إذا كانت قريش أولى الناس بعهد محمد فلم لم يكن أهل بيته أولى من قريش بهذا العهد ؟؟ لم تكون قريش أولى الناس بخلافة محمد فى الناس ؟؟ أفما قال محمد : ان الناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ ألم يقل الله عز من قائل : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟؟؟

أفما رجعوها عصبية قبيل أن يفارقهم نبيهم وقد قطع حياته فيهم وهو ينهى عن العصبية الجاهلية ؟؟ وهل كان للأمويين أن يستأثروا بها دون حق ،وللعباسيين فيما بعد أن يغلبوهم عليها ويعبثوا عبثهم فى الإسلام ، لولا أن سبقت تلك البادرة من أعيان المهاجرين والأنصار .

لقد برم على يومذاك بهذا العمل السريع المزرى الكاشف عن بادرة قلبت وجه الإسلام الحق إذ ، أفضت بهم آخر الأمر إلى ما رأينا من التهالك على السلطان دون التزام العهد الالهى المفروض عليهم فى كتاب الله حيث يقول : « ولا ينال عهدى الظالمين »

إنا ، ونحن فى عصر التحرر الفكرى ، لا نزال نخضع للبدعة السيئة التى سنها السلف المدفوع بهواه من سابقينا فى تدوين التاريخ ، تلك البدعة التى يتجاوز مبدعها عن تمحيص الحق ، والحكم بالصلاح على من عبث برسالة محمد ، والرضى عنهم حتى معاوية بن أبى سفيان ومن سار على نهجه ممن صحب محمداً ثم زاغ عن الحق فاتخذ رسالته القدسية غرضاً يشبع به جشعه من حطام الدنيا .

ان علياً يوم أنكر على صاحبيه عملهما ذاك كان يعلم بعلم محمد أن هذا العمل سيفضى بالمسلمين إلى مالا يحمد الإسلام عقباه ، وان علياً يوم قال خطبته الشقشقية وهو يعانى من معاوية فوق ما عاناه من عثمان ، كان مدفوعاً بذكرياته يوم أنكر على صاحبيه فعلهما الذى أفضى بالإسلام والمسلمين إلى الخضوع لعبث الأمويين واتخاذهم دين محمد ألعوبة يتلقفها آخرهم عن أولهم إبقاء على الشرك العريق فى نفوسهم والذى حملهم على هتك الدين وإخضاعه لشهواتهم وأهوائهم .

أفلا يجمل بشيوخ المسلمين ، إذ طوعوا المهاجرين والأنصار يوم السقيفة بالتنازل عن الخلافة لقريش ، أن يطوعوهم بالتريث فى أمر الخلافة لاستكمال الجمع بعد الفراغ من واجب القيام بوداع رسولهم إلى مقره الأخير ، ثم يستأنفون النظر فى أمور المسلمين وهم جميعاً شهود الانتخاب ؟؟ ان هذا التطويع أسهل بكثير من التطويع الأول ، وأكثر إشعاراً بالخلوص من الريب والإخلاص فى العمل والابراء لما يليهم من الأجيال عن إخلاصهم لمحمد ولرسالة محمد .

أما الأمر الثانى الذى يرتاب المؤرخ القاصر فى صحة نقله عن على واتهام الشريف الموسوى بالتزوير والافتراء على الإمام فيما ينقله عنه ، وهو الإبداع فى الفكرة والأسلوب السائدين كثيراً من عناصر « النهج » كالأسلوب الفلسفى

وكوصف الطاووس والخفاش ونحوهما مما لم يعهد البيان العربى به للجاهلية ولا لصدر الإسلام ، أما هذا فنجيب عنه بما يلى :

إذا كان مقياس كل أدب عصره بحيث لا يتجاوز الأديب بما ينتج، نواحى الحياة التى تحدق به ، فمن أين يجئ التطور فى الأمة ، وكيف يكون الإبداع فى الحياة ؟؟ ألم نطلق على امرئ القيس فى الجاهلية أنه كان مجدداً إذ جاء فى شعره بما لا عهد للجاهليين به من تشابيه واستعارات جدد بها تفكير الشعراء وأخرج الفكر من طور إلى طور ؟؟

ألم يجئنا القرآن ، من الآداب والعلوم ، بما لا عهد لمعاصريه به من فكرة وأسلوب ؟؟ ثم ألم يأت فى العهدين الأموى والعباسى شعراء وأدباء بما لا عهد لأهلها به من طرائف وبدع فى الشعر والنثر ؟؟ وقد أجمع المؤرخون على أن عمر بن أبى ربيعة كان مجدداً فى العصر الأموى ، أى أنه جاء بما لا عهد لمعاصريه به فى شعره ، وعلى أن أبا نواس كان مجدداً فى العهد العباسى إذ جاء بما لا عهد به لمن سبقه أو عاصره فى شعره .

وهكذا نستطيع القول فى إبداع مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى ، وفى عبد الحميد وابن العميد وابن المقفع ، ثم فى أبى تمام والمتنبى والبحترى وابن الرومى، نستطيع أن نقول : إن فى أثر كل من هؤلاء بدعة لم تكن فى آثار من سبقوه أو عاصروه من شعراء وأدباء وكتاب وخطباء، فلماذا ننكر إذن على باب علم رسول الله وأقضى الناس فى عهده وإمام البلغاء أن يكون فى أثره الفنى أو العلمى مجاز للعلوم والفنون من عهد إلى عهد ؟؟

أنُطلق على الشاعر الملهم والأديب العبقرى لقب المبدع والمجدد ، ونحكم على أن القرآن الذى هو مصدر الإبداع والتجديد قد خرج بالعرب من طور إلى طور، ثم نسلب هذه الصفات عن أفقه الناس بالكتاب والسنة بعد رسول الله ، وننكر عليه ما جاء فى نهجه من إبداع ما لم يكن فى عهده بين أسلوب طريف وفكرة جديدة ؟؟ إذن فكيف يكون التطور والتجديد ، ومن يحمل عبء التحول بدولة البيان من عهد سام إلى عهد أسمى غير الملهمين من الأمة ، ومن هو هذا الملهم بعد رسول الله غير على ؟؟؟

اننا لنذكر قس بن ساعدة فى الجاهلية فنقول : انه أول من قال : باسمك اللهم أو قال : أما بعد ، ونذكر امرأ القيس فنقول : انه أول من شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب ، وأول من أبدع تشبيه البنان بالأساريع ، ثم نذكر بعد الإسلام فلاناً وفلاناً وفلاناً بأنهم أول من ابتكر كذا وأبدع فى كذا حتى إذا قرأنا نهج البلاغة أكبرنا وأنكرنا على على أن يبدع فى خطبه وأماليه ما لم يكن يعهده عصره من فكرة وأسلوب، ذلك لنحط من قيمة البلاغة فى على ، ونصم الشريف الموسوى بالكذب والبهتان ، سبحانك اللهم هذا هو البهتان

الله

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .

فى هذه الآية حكم عام من أحكام الشرع الإسلامى ، وفيها تمهيد لحكم آخر ، أما الحكم العام فهو تحريم ما يزيد ضرره على نفعه من أفعال الإنسان فكل عمل نأتيه لا بد أن يتصف بأحد أحوال خمس : إما أن يكون كله نفعاً ، أو كله ضرراً ، وإما أن لا يكون فيه نفع ولا ضرر ، وإما أن يكون متصفاً بكليهما ، وهذا يكون ذا شقين : إما أن يكون ضرره أكثر من نفعه أو بالعكس .

يستطيع الفقيه أن يطبق على هذه الصفات أحكامه الخمس التى هى الواجب والمحرم والمستحب والمكروه ثم المباح ، ولسنا بصدد التطبيق هنا وإنما نريد أن نشير إلى أن هذه الآية تعطينا حكماً بالتحريم على كل عمل ضرره أكبر من نفعه إذا لحظنا معها آية أخرى نزلت بعدها ، هى : إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه »

ففى الآية الأولى تحريم للخمر وفيها تعليل للتحريم وهو كون ضررها أكبر من نفعها ، وهذا رد على من لا يجيز تعليل الأحكام ويدعى كونها تعبديه ، وفيها حكم عام وهو تحريم كل ما زاد ضرره على نفعه من أعمال الإنسان إذا أجزنا القياس وهو هنا ضرورى كما سنبين .

وأما التمهيد بها ، وهى حكم عام ، للحكم الخاص فى الآية الثانية ، فهو ضرورة السير فى التشريع العام عن طريق الحكمة ليصل إلى الإقناع بغير عنف ، إذ كانت الخمرة عندهم كالميسر من صميم الحياة كما كان الرق فلم يشأ الإسلام أن يفجأهم بمنعه ولكنه اتخذ الأسلوب الحكيم فى بيان علة المنع أولا ، والإقرار لهم بمنافع هذه الصفات اللاحقة بهم ثم بيان الأضرار التى تلحقهم منها والامعان فى تجسيم هذه الأضرار ليصل بهم إلى المنع آخر الأمر .

وهكذا استدرجهم الشارع الحكيم بسن الصلاة جزئية فى إبان الدعوة واستقبل بهم القبلة الأولى ولم يزل وئيداً حكيما فى تشريعه منسوخاً ثم ناسخاً حتى كانت الخاتمة

يوم حجة الوداع بقوله : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا .

لقد ضرب لنا الذكر الحكيم فى هذه الآية عدة أمثال فى الحكمة والأناة إذ جاء باثبات أن الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان بعد أن مهد لهذا الحكم بالتصديق على أنهم إنما يتوخون المنافع منهما وهذه المنافع ضئيلة بجنب ما ينتج عنهما من أضرار ، ثم سن لنا فى عرض ذلك حكماً عاماً هو تعليق الحرمة فى الحكم على أكثرية ما ينشأ عنه .

من هذا نصل إلى أن الفقه فى الدين يجب أن ينتج الاجتهاد ويحد من التقليد فى كل عصر لأن التجديد وارد فى الدعوة إلى الدين بقوله : يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد أمرأ متى فى دينها ، وغنى عن البرهان أن مفهوم هذه الكلمة الجامعة ضرورة التطور فى الدين بما لا يمس جوهره،وضرورة الجمود فى العقل من وراء التقليد وإقفال باب الأجتهاد .

وعلى ذلك يجب أن نتصرف بين يدى فقهنا الدين على ضوء الحياة ، أو فقهنا الحياة على ضوء الدين ، والآية التى هى قيد بحثنا الآن تعطينا فكرة هذا التصرف ومدى التجديد فيما ندين به لخالقنا من وراء العلم ، فلو لم يعلل حرمة الخمر والميسر برجحان الضرر فيهما على النفع ، لما وصلنا إلى الفقه الشرعى فيما يجد بين أيدينا من حياة .

فلنضع أمامنا الآن بدعة جديدة لم تكن على عهد رسول الله ثم كانت فى عهدنا أو فيما سبقنا من عهود وتقدمها عهد التشريع ، فبعض هذه البدع التدخين الذى جاءنا من أمريكا إبان فتحها ، فانه بدعة لم تكن ، وخاض الفقهاء فى الحكم عليها فذهب البعض إلى تحريمها قياساً على الخمر والميسر . لأن علة التحريم ، التى هى رجحان الضرر على النفع ، واردة فى الدخان وذهب البعض الآخر إلى الإباحة تمشياً مع السنة : كل شئ لك مباح ما لم يرد يرد نص فى تحريمه،ثم هؤلاء ينكرون أن الإثم فى الدخان أكبر من النفع ، فالمحرمون هم الوهابيون من أهل السنة والاخباريون من الشيعة ، وأما المحللون فالعامة من الفريقين ما عدا هؤلاء .

فالاجتهاد إذن هو مناط الحل والحرمة فى الدخان وغيره من البدع الحديثة ، كالكهرباء والواحى وتسجيل الصوت والتلفنة والتلفزه والسيارة والطيارة وغير ذلك ، وإذا كان لنا حق البحث فى فقه الدين الخاص بفئة أفنوا أعمارهم فى دراسة الكتاب والسنة ، وتطبيق الأحكام على الحياة بعد تخريجها من أدلتها التفصيلية ، والإخلاص فى هذا التخريج ، أقول : إذا جاز لنا القول فى ذلك على اعتبار فقهنا الحياة من ناحية العلوم والفنون ، قلنا :

ان ميزان التحريم والتحليل فى هذه البدع وما يتلوها من نتاج العقول فى بحث الحياة وتسخير قواها لصالح الإنسان ، هو العقل الفقيه لا دراسة الفقه وأصوله ، هذا العقل الناضج إذا أمعن فى فهم الكتاب والسنة دونما ايغال فيهما واستخفاف بهما ، أمكنه الحكم على هذه البدع واستطاع باخلاصه من وراء نضجه أن يميز بين الحسن منها فيجيزه ، وبين القبيح منها فيحكم باجتنابه .

فالآية الكريمة الجامعة فى صدر هذا البحث إذن تفرض حكماً عاماً بأن ما زاد ضرره من أعمال الإنسان على نفعه هو حرام ، والآية تمهد لتحريم الخمر مباشرة فى آية أخرى بعد أن أشارت إلى التحريم ضمناً فى نفسها ، والآية تعلمنا أن الحكم بالحظر على أى أمر عريق فى الإنسان يجب أن يكون فى حيز الإقناع والتدرج فى تشريعه من وراء الحكمة ، والآية بعد ذلك كله تشير إلى أن التعليل فى التحريم والتحليل جائز .

محمد

لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، وَلَا لِتَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ . فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارَ النَّارْ .

ينهى صلى الله عليه وسلم أن يطلب أحدنا العلم ليفاخر به العلماء ويتعالى به على السفهاء ، أو يتحرى به المكانة السامية فى المجتمع ، ثم يحذر من يفعل ذلك عذاب النار ، فماذا يرى القارئ بعد هذا مما يستهدف له العلم وطالب العلم ؟؟ ان أكثر طلاب العلم ينشدون من ورائه مباهاة زملائهم والخيلاء فى مجتمعهم ، والتغلب على من هو دونهم ، ثم الطموح إلى المنزلة التى تسمو بهم فى مناصبهم أو مجالسهم .

فماذا وراء العلم بعد هذا ؟؟ هنالك فئتان من رواد الحياة فى الأدب ، إحداهما تذهب إلى أن الغاية من طلب العلم أو الفن ذاتية ، بمعنى أن العلم أو الفن نفسه يجب أن يكون غاية العالم أو الفنان ، والفئة الثانية تذهب إلى أن الغاية من طلبهما خارجية بمعنى أن العلم أو الفن يجب أن يكون كغيره مما يحيى به الإنسان ، أى وسيلة لا غاية ، فما من عمل يأتيه أحدنا إلا وهو مقدمة لنتيجة واحدة هى نفع الإنسان .

ويكاد يرجع هذا الخلاف بين المذهبين ، فى جوهره ، إلى النظرية الفلسفية التى شغلت حيزاً من نزاع الحكماء قديماً ، فى أن الجمال والقبح ذاتيان أم عرضيان فى الجميل والقبيح ؟؟ بمعنى أن مصدر الجمال هل هو ذات الجميل ، ومصدر القبح هل هو ذات القبيح ؟ أم أن الجمال والقبح فيهما نسبيان يتصل بهما من ذات أخرى خارجة عنهما ؟؟

وحجة القائلين بالذاتية أن فى كل جميل أو قبيح ، وفى كل طيب أو خبيث سراً يتقوم به تركيبه هو مصدر الجمال والقبح والطيبة والخبث ، بينما يحتج القائلون بالعرضية أن الحسن والقبح واللذة والألم والطيبة والخبث ، كل ذلك

وأشباهه وليد اصطلاح المجتمع الإنسانى الأول واستمراره فى كيان الإنسان المتطور حتى يصبح غريزة متأصلة فى النفس .

ويدعم الأول حجته فى أن الجمال المطلق يستهوى الإنسان المطلق، والقبح المطلق كذلك فلو كان الجمال أو القبح وليد الاصطلاح لما ساد الأذواق كلياً ، إجماعها على أن هذا جميل وذلك قبيح ، بينما يدعم الثانى حجته بأن مقياس الجمال المطلق أو القبح المطلق عند الإنسان الكلى يختلف باختلاف أنواعه ، فجمال المرأة الزنجية عند الزنوج قائم على شكل لايتذوقه الإنسان الأبيض مالم يقرب فى شكله من شكل الأبيض الجميل والعكس بالعكس .

فلنعد بعد هذه المقدمة إلى صلب الموضوع القائم على توجيه بغاة العلوم والفنون إلى أن يطلبوها لذاتها أم لغيرها ؟؟ فنتساءل : كيف يكون العمل نفسه علة لفعله ؟؟ أيكون حرثك الأرض وإفراغ جهدك فى تربية البذر وحصاده ، من أجل الحرث والبذر والحصاد فقط ؟؟ وهل العامل يتقن عمله لسيده إذا كان سيده يستغل هذا العمل أم يكون مكرهاً على ذلك ؟؟

أى عمل يأتيه الإنسان جاهداً مخلصاً دونما غاية من هذا العمل إلا العمل نفسه ؟؟ فاذا كان العمل من ذاته ينتج ما ينفع العامل كانت الغاية غيره ولو لم يقصد العامل تلك النتيجة ؟؟ فكل عامل يتجه بعمله إلى الغاية التى تستهدف عمله ، ومن العبث أن نفرض على العامل فناناً أو عالماً أو صانعاً ، أى فن أو علم أو صناعة ، وهو يجهل الغاية من عمله إلا أنها العمل نفسه ، وإذا كانت غاية كل عالم أو فنان عبقرى هى ذات عمله فلماذا يبتئس ويتألم ويشقى وينقم على الإنسانية التى لم تقم لعلمه أو فنه وزناً ؟؟

ولماذا نرى العامل يجيد ويزداد إجادة وإحكاماً كلما رأى عمله مرموقاً من مجتمعه باعجاب ، ثم نرى على العكس كل عامل لايلقى التقدير والمكافأة من أبناء جلدته على عمله ، ثم لايتبلغ العيش من وراء ذلك العمل ، نراه عيا فى قوله إذ يقول ، وكلا فى عمله إذ يعمل ، حتى يحول جريضه دون قريضه ، وحتى يزهد فى مهنته فيرى الاحتطاب خيراً من الأدب ، ويرى الشبع فى

مسح الأحذية خيراً من الجوع بين يدى علمه أو فنه ؟؟؟

كيف أقدم على حرث الأرض إذا لم تكن غايتى الخبز وهو غير الأرض ؟؟ وكيف أزرع القطن إذا لم أهدف من ورائه إلى اللباس ؟؟ ثم كيف أبنى البيت ولم أرم به إلى أن يؤينى ويعصمنى من آفات الزمان والمكان ؟؟ انى إذن لأحمق إذا فعلت ذلك أو إذا أقدمت عليه دون أن أفكر فى الغاية منه ولو كانت الغاية قائمة فيه .

فالعمل يتقوم بغايته ، أى أن حاجتى إلى الخبز هى التى خلقت فى نفسى فنون الحرث والزرع والغرس ، وأن حاجتى إلى السكن والدفء هى التى خلقت فى نفسى إحكام فنون البناء والنجارة والحدادة والنسج والتفصيل ؟؟ ثم ان حاجتى الملحة فى التغلب على الفناء بانجاب الولد ليخلفنى فى الحياة هى التى خلقت فى نفسى الحب والجمال والخير .

إذن ليس العمل إلا وليد الحاجة إليه ، وباعث هذه الحاجة فى نفس العامل هى الغاية التى تستهدف ذلك العمل ، من أجل ذلك يخطئ من يقول : اطلب العلم للعلم وامتهن الفن من أجل الفن ، لأن الله ، وهو خالق العلوم والفنون ، يعلل العلم والفكر والذكر والنظر والبصر بضرورة البحث عن ذاته ليصل بنا من وراء العلم والفكر إلى معرفته ، وبهذه المعرفة نقوى على الحياة التى تؤهلنا للبقاء فى صميم الخلود .

فالرسول إذ ينهانا عن أن نطلب العلم للمباهاة أو الخيلاء أو الطموح إلى المناصب ، لم يقصد نفى الغاية من طلب العلم ، ولم يرد لنا أن نطلب هذا العلم لمجرد العلم ، وإنما يريد لنا غاية أسمى من هذه الغايات كالوصول إلى معرفة الحق التى تفضى بنا إلى تنزيه حياتنا عن العبث ، وتطهيرها مما ينحدر بنا عن إنسانيتنا إلى البهيمية التى أوتينا العقل والعلم لنتخلص منها إلى اكتناه الحياة .

لذلك قيل : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، يرمى قائل هذا إلى أن مجرد العلم الذى لا غاية منه كالجهل ، وماذا أفيد من علوم اللسان إذا لم أفصح به ؟؟ وماذا يفيدنى علم المنطق إذا لم يعصم فكرى عن الخطل فى الرأى ؟؟ ثم ماذا

ينفعنى علم الزراعة والصناعة إذا أتقنته ثم لم أزرع ولم أصنع ؟؟

فالغاية التى يرمى إليها الرسول الأعظم من تحذيره إيانا فى كلمته الجامعة التى هى عنوان هذا البحث ، إذ ينذرنا بالنار فى عقبى العلوم التى تستهدف المباهاة والمماراة والكبرياء ، أقول : ان الغاية التى يدعونا لأن ننشدها بالعلم هى العمل القائم على معرفة الحق والتماس الخير والجمال فى الحياة من وراء ذلك العرفان .

علي — لَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

تستلزم هذه الكلمة القيمة أن نقول قبلها أو بعدها كلمة تنشق عنها وهى : لطالما أقبل شئ فأدبر ولقلما أدبر شئ فأقبل » قال الإمام هذه الكلمة فى معرض تنبوءه عن أحداث تصدر بعد مقتل عثمان ، قالها إذ بويع بالخلافة فى كلام بدأه بقوله :

« ذمتى بما أقول رهينة وأنا به زعيم ، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيأتها يوم بعث الله نبيكم ، والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وشمة، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم» .. إلى أن ختمها بقوله : لقلما أدبر شئ فأقبل ..

ان ما حدا بعلى لأن يقول هذا فيبلغ فيه سمو لهجة وصدق فراسة ، هو ما يحدونى ويحدو كل قارئ لأن يتألم تألمه ويأسف أسفه ، ان هذه الكلمات وما يليها من قوله عليه السلام : ألا وإن الخطايا خيل شمس ، حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم فى النار ، وان التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة » .

أقول : إن هذه الكلمات لأرحب أفقاً من أن يحدق بها وصف ، وأعلى شأناً من أن ينالها إطراء ، وان على كل قارئ أن يقف موقفى أمام جدث الشريف الموسوى فى مدينة الكاظمية ثم ينحنى على ضريحه إجلالا لتسميته ما جمعه من كلام إمام البلغاء بنهج البلاغة ..

لقد بليت أنا نفسى بصدق هذه الكلمة على إذ طالما كنت أستقبل أشياء ولم أحتفظ بها فسرعان ما تدبر عنى ثم لم تقبل على بعد إدبارها ، إذ لم تتوفر

لدى وسيلة إقبالها على مرة أخرى ، ولا أزال حتى ساعتى هذه والتى أحبر فيها سفرى هذا بين يدى الفجر ، وأمامى عظمة مصر ونيلها يجرى من تحتى ، لا أزال أعانى صدق هذه العظة فى حياتى ، أتمثل بقول ملهمى أبى الحسن : لقلما أدبر شئ فأقبل ، ثم أردفه بلازمه فأقول : ولطالما أقبل شئ فأدبر .

ان حسرة الإمام فى كلمته هذه حسرة رجل أدرك عهد الإسلام الأول بين يدى رسول الله ، فتطوع مع من تطوع من السابقين الأولين لتذليل الشمس من جفاة العرب وطبع نفوسها العاتية بطابع الإنسانية ، والعمل على نزع الأنانية الآخذة فيهم بأسباب الفرقة والتنازع والأثرة والجشع وحب الدنيا والتهالك على حطامها ، كل ذلك كان من صفات العرب الذين طوعهم رسول الله بمن شد أزره من أصحابه وذوى قرباه ، وكان على هذا أمضاهم عزماً فى الدفاع المر عن ناموس محمد ، وأشدهم بأساً فى مقاومة الشرك وطغيان أهله .

تلك كانت صفات قريش وهذه صفات على ، فلا عجب إذا تنبأ فى كلمته هذه بعود تلك الصفات إلى قريش ، وأرجف بمصير الإسلام على أيديهم ، إذ كان ما مر به عبرة له ، وما رآه أيام عثمان كان نذيراً بشوم يبعث الذعر فى صدر كل مسلم مؤمن يحرص على الدين ، من أن يعود غريباً كما بدئ غريبا .

فليمعن قارئى ، وهو منصف مخلص ، فى هذه الجمل كلمة كلمة وفقرة فقرة ، ثم ليعمد إلى ضميره فيسأله : هل كان على بن أبى طالب ، وهو يقول ذلك ، عالماً بما يقول وواثقاً مما يتنبأ ، وبصيراً بما يحكم ؟؟ نعم .. ان الأحداث التى بدأت على عهد عثمان ثم انتهت إلى عهد معاوية ومن خلفه من آل أمية ، تشير إلى أن علياً كان واثقاً مما يقول وصادقاً فيما يتنبأ .

ألم ينل أمة محمد ، ولما يزل غضا فى قبره ، أعظم حدث شهده التاريخ الإنسانى منذ كان الإنسان ؟؟ لقد ثبت أن رسول الله قال : على منى وأنا من على ، وانه قال : حسين منى وأنا من حسين ، فانتهاك معاوية حرمة الحق بالبغى على على ، وانتهاك نجله يزيد حرمته بالبغى على الحسين ، ثم اجتراح معاوية قتل حجر بن عدى وزملائه من أصحاب رسول الله غدراً ، وتقتيل ابنه يزيد

خيرة أصحاب رسول الله يوم الحرة وهتك المدينة وإباحتها مالا ودماً وعرضاً لعتاة الشام ، ثم اجتراء معاوية على لعن على وأهل بيته وإحالته الخلافة ملكاً عضوضاً من بعده ، واستباحة أبنائه وذوى قرباه حرمات الدين بالفسق والفجور بعد أن خلفوه فى سلطانه الجائر ، أقول :

ان هذا كله قد حدث بعد رسول الله وكان شاهداً على تنبؤ على بعده حتى كانت البلبلة والغربلة تسوط المسلمين فتجعل أعلاهم أسفلهم بتعالى الطلقاء على المهاجرين والأنصار ، واتخاذ الطواغيت من آل أمية عباد الله خولا ومال الله دولا ، يعبثون بناموس محمد ، ويهتكون حرمة محمد ، ويفتئتون على فرقان محمد ، حتى لفظ الشاعر المسلم كبده وهو يرى على منابر الإسلام أعقاب تلك الطغمة الدارجين على سنتهم فى البغى ، فلا يملك أن يقول :

بكت المنابر إذ تنزت فوقهسا تلك القــرود وناحت الأعواد
انظر إلى الإعجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد

أفما صدق محمد بقوله لعلى يوم الحديبية : لتحملن على مثلها وأنت مظلوم ، أو ما صدق الصادق الأمين بقوله لعمار : تقتلك الفئة الباغية ؟؟ أفما تحققت هذه النبوآت لمحمد ؟؟ فماذا فعل المسلمون يومذاك ؟؟ ولماذا خنسوا ؟؟ وعلى أى عذر أقاموا أنفسهم فى سكوتهم وعدم القيام بنصرة أميرهم وخليفة رسولهم ، وفيهم أعيان الصحابة وكلهم يرى بان علياً على حق وأن معاوية على باطل؟؟ وعلى أى عذر نقيمهم نحن اليوم فى تقاعسهم يومذاك عن نصرة الحق والجهاد فى سبيله ؟؟ ثم على أى عذر نقيم أنفسنا نحن أبناء العصور النيرة المتحررة من كل ضغط على الفكر وحمل على الخضوع والاستسلام لسلطان البغى الجائر ؟؟

على أى عذر نقيم أنفسنا ونحن نجأر عند ذكر معاوية بالرضى عنه واستنزال رضوان الله عليه ، كما نفعل لدى ذكر من سبقه من خلفاء رسول الله ، ثم لا نخجل من أنفسنا إذ نعده من كتاب الوحى وأصحاب الرسول المجتبين ، ونغتفر له كل ما اقترف من نقض بنيان الإسلام والعمل على تقويضه ، بأنه مجتهد يخطئ فيؤجر مرة ويصيب فيؤجر مرتين ، فيلزمنا آخر الأمر عرض السفه على أنفسنا بالحكم على أن معاوية مأجور فى تقتيل مئات الآلاف من

المسلمين وتعمد البغي على الحق وقتل نفر من الصحابة صبراً ، وإكراه المسلمين على استخلاف ولده يزيد ثم لعن الإمام وأهل بيته وفرض هذا اللعن على الأمة بعد صلاة الجمعة طوال مائة عام .

هذه نفثة ... فهل كنت على حق فى بثها وأنا أقدس علياً وأرضى عن أبى بكر وعمر وألوم عثمان ثم ألعن معاوية ، وأصب أضعاف هذا اللعن على من رضى عنه وحبذ عمله واستغفر له ؟؟ قد يتشدق بعض المنافقين الذين لم يؤتوا حظاً من الحكمة فى عرض التاريخ واستعراضه فيقولون : مالنا ولنبش الماضى ، نثير الضغائن ونستخرج الدفائن ونحن فى أمس الحاجات إلى التناسى والتسامح والحرص على العمل صفاً واحداً لتوحيد المسلمين وتعزيز الدين فى وجه ما ينذرنا بالخطر من أعداء الإسلام وطغيان الإلحاد وسيل المادة الجارف ؟؟

نعم قد يتشدق بعض هؤلاء ليحولوا بين الأفكار الحرة وبين تحرير الحق على ضوء التاريخ الذى هو جزء من حياتنا لا نستطيع الانسلاخ عنه ، والذى يمسنا فى صميم هذه الحياة لنتحرى بتحريره السبب الذى من أجله دهمنا ذلك الخطر ، وطغى علينا هذا الإلحاد ، وجرفنا سيل هذه المادة التى أفسدت علينا تطهير نفوسنا وإنقاذ أبنائنا من التردى فيها والانهيار بها إلى حضيض من الهون ليس تحته تحت .

فلنعمد إلى صلب التاريخ ونمحص فيه الحق على ضوء القرآن الذى هو وحده ناموس الله فى خلقه ، والذى هو وحده الأثر الخالد فى نفوسنا ، والذى هو وحده الكتاب المبرأ من عبث الغواة ، وبغى الطغاة الثائرين فى كل عهد منذ صدر الإسلام حتى اليوم ، على ناموس الأخلاق الحائل بينهم وبين السلطان القائم على الفسق والفجور والاسترسال فى الشهوات .

أقول : لنعمد إلى صلب التاريخ ونحرر أمجادنا ومصدر عزنا وكرامتنا على ضوء القرآن ، فنقر من السنة الصحيحة مالا يعترض سبيل الحق الجلى الواضح فى صميم الإسلام ، ونمحو منها ما يعترض هذه السبيل من أقاويل دسها وافترى بها على الله ورسوله ، أناس صحبوا رسول الله على دخل فى نفوسهم ، ومرض فى قلوبهم حال دون تسرب الدين إلى صدورهم واستقراره فى كيانهم ، حتى

إذا آنسوا فرصة من الزمن تخولهم إظهار ما دفنوه ودفن ما أظهروه ، عمدوا إلى الحق الذى غل أيديهم فزقوه ، وإلى الباطل الذى فطروا عليه فعززوه ونصروه .

لنضع بين أيدينا كتاب الله ونقرأ قوله عز من قائل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله » ونضع إلى جنب هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر رضى الله عنه : يا عمار تقتلك الفئة الباغية » ثم نحكم على ضوء هذا التخريج ، فيما كان من أمر على ومعاوية ، أيهما الباغى ؟؟ وأيهما المبغى عليه ؟؟

ولنعمد بعد هذا كله إلى السبب فى تقاعس المسلمين عن إجماعهم على نصرة على وخذلانهم معاوية ، ثم التفافهم حول معاوية وتخليهم عن على ؟؟ فلا نجد سبباً غير أمرين أولهما : أن الصحابة كانوا بعد رسول الله فئات ، منهم المنافق الذى أسلم كرهاً،ومنهم الضعيف الذى يؤثر السلامة فى سبيل دنياه على التضحية فى سبيل آخرته ، ومنهم القوى فى إيمانه الذى ثبت على عهد رسول الله واستمر ثابتاً بعده ، أما الأول فقد فتح له عهد عثمان باباً إلى فطرته الأولى ففر من الإسلام والتحق بمعاوية ، وأما الثانى فقد جلس فى بيته وأغلق بابه زاعماً أن بغى معاوية على على فتنة فعليه أن يفر منها ، وأما الثالث فقد ثبت على إيمانه والتحق بعلى .

والأمر الثانى أن علياً قبض يده على الدين فلم يفرط بشئ منه فى تألف القلوب النافرة بعد أن مضى عهد التألف بانتهاء التشريع ، فانفض أقوى المنافقين شكيمة عنه وناصبوه العداء وظاهروا عليه أعداءه ، وأما معاوية فقد فتح بيت المال على مصراعيه ، وراح يغدقه على المنافقين ليلتفوا حوله ، وعلى الضعفاء ليستمروا مع القواعد لا إليه ولا إلى مناجزه .

هذا هو أس البلاء الأول الذى مكن الذل من رقاب المسلمين وسن لهم ، إلى يوم القيمة ، الجبن عن نصرة الحق والتضحية فى سبيله ، والاستخذاء لدعاة الباطل والتقهقر بين يديه عن تأثر نبيهم ، والاعتصام بكتابهم ، والثبات على دينهم ، تلك هى ثمرة الشجرة الملعونة التى غرسها أبو سفيان فى صدر الإسلام ،

وغذاها عثمان بتسامحه وضعفه واستخذائه لعشيرته ، ثم استغلها معاوية لهواه وساعده على ذلك الاستغلال نفاق فريق وضعف فريق آخر ، وسن هذا المروق لمن بعده من دعاة الفرقة وعبدة الهوى ، حتى أصبح فعل معاوية نظاماً يعتصم به، في اقتناص الحكم وانتهاك حرمة العدالة فيه ، كل من لم تؤهله للسلطان الحق ذرة من كرامة أو مسكة من دين .

ان أحط ما بلغ بالمسلمين من درك الجبن والانهزام والضعف ، أن معاوية أثبت فى نفوسهم يوم خالج الريب قلوبهم من قتل عمار ، أن الذى قتله هو من جاء به للقتال ، لهذا قال الإمام على عندما بلغه ذلك : إذن فالله هو الذى قتل رسله وهو يوالى بعثهم إلى بنى إسرائيل وطغمة إسرائيل تسفك دماءهم ، ياالخذلان الحق فى نفوس المسلمين يومذاك ، ويا لموت العزة والكرامة اللتين ضحى فى سبيلها محمد وخلفاؤه من بعده ، يقضى عليهما الجبن والخزى بين يدى حطام الدنيا فى عهد معاوية ، ثم لم يزل يقضى عليهما الجبن والخزى فى كل عهد مشى حياته على نهج معاوية ، يستبيحون فى سبيل أهوائهم حرمة الدين ، ثم يزعمون أن السياسة شئ والدين شئ آخر ، وأن الوحدة بينهما مستحيلة الوجود ، لما يلزم السياسة من تسامح وتحرر وما يلزم الدين من ورع واستسلام ، حتى كأن محمداً وأبا بكر وعمر وعلياً يجهلون السياسة التى نقيم آل أبى سفيان على حق فى انتهاجها .

الله

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ.

القرى هنا أعم من المدن والدساكر ، ولعل القرى تعنى الحواضر عند العرب وتقابلها البوادى ، ولذلك أطلق الله على مكة والطائف لفظ القريتين ، وإيثار أهل القرى بالذكر على البداة إشعار بأن فقه الحياة فى العقل المتحضر أسمى منه فى العقل البادى ، لأن مجال الفكر ونمو الروح بين ازدحام الأيدى على الصناعات ، وتنافس العقول فى ميدان العلوم والفنون ، كل ذلك يجعل اهتمام الخالق بالمتحضر من مخلوقاته ، فوق اهتمامه بالبادى منهم ، من أجل ذلك لم تكن الرسل لتبعث إلا فى صميم القبائل المتحضرة لأنها قدوة البادين من بنى الإنسان .

ولنمسك بالهدف من تخير هذه الآية الكريمة للبحث وهو كلمة « بركات » ماذا تعنى بها اللغة العربية ؟؟ هل هى نمو الرزق وتضاعفه ؟ أم بقاؤه وإطراده ؟ أم هى نفح الطيبة والنعمة فى الرزق المبارك ؟؟ ولعلها سر اقتناع المرزوق بما أنعم الرازق عليه به قل أو كثر . ولعل هذا المعنى هو السعادة التى يفتش عنها الإنسان فى كل شئ فلم يجدها فى شئ ، إذ لا ينشدها إلا بالزيادة فى الرزق والنمو فى النعم والاطراد فى توالها بمتع الحياة ، فقد تكون السعادة فى شئ من هذا وقد تكون بعيدة عنه ، كما قد تكون فى شئ من الفقر والعوز وقد تكون بعيدة عنه ، فالميزان الحق للسعادة هو فى ذات المرزوق لا فى الرزق ، والقناعة هى عنوان السعادة تلك إذا رافقها شئ من التفكير الصحيح فى تصريف الأمور وتدبير الحياة .

تلك إذن هى البركات التى تتنزل على الإنسان من سماء الله بأن يعمل باخلاص وتقوى ثم يكسب فيحسن التصرف بكسبه ويقنع بما يناله من رزق ، وهذه هي الحياة الطيبة التى وعد الله بها المتقين فى قوله : من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » ان هذه الحياة لا تعدو هبة الله للإنسان

فى حدود العلم والعمل ثم الرضى عما يناله من ثمرة علمه وعمله ، ولهذا قيل فى الكلم المأثور : ذكاء المرء محسوب عليه » لأن الذكاء من أشرف أنواع الرزق ، والبرهان على أن البركات معنى بها ذلك هو أنا كثيراً ما نرى الإيمان يرافقه الفقر من قلة المال وسوء الحال ، فلو كانت البركة قاصرة على معنى السعة فى الرزق والجدة فى المال ، للزم أن يكون الفقير المؤمن محروماً من بركات الله ، وهذا غير جائز على الله وهو الرؤوف الرحيم العادل .

إذن يتحقق معنا فى تدبر هذه الآية أن نقول : لو أن أهل القرى آمنوا بربهم واتقوه لأنزل عليهم الفقه فى الحياة والصبر على بلائها والرضى بما قسم لهم منها ، ولكفاهم النصب فى كسب الرزق والحرص على المال والتنافس فى التهالك على حطام الدنيا المفضى بهم إلى الحسد والبغضاء ثم الخصام والنزاع آخر الأمر ، ولعمرى ان هذا لهو غاية الشقاء فى حياة الإنسان ، كما أن ذلك هو منتهى سعادته فى أولاه وآخرته .

محمد

بُدِيءَ الدِّينُ غَرِيباً ، وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بُدِيءَ ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قيلَ : وَمَنْ هُمُ الْغُرَبَاءِ يا رَسُولَ اللهِ ؟؟ قَالَ : هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ .

من القول المأثور عن الإمام على قال : الفقر فى الوطن غربة ، والغنى فى الغربة وطن » من هذه الكلمة القيمة نفهم معنى « الغريب » وانه : صفة للمنبوذ من محيط يعيش فيه ، فالفقير غريب فى أهله ، وإن كان عريقاً فى مواطنته لهم ، ويقول الشريف الرضى :

ليس الغريب الذى تنأى الديار به ان الغـــريب قريب غير مودود

يتجوز كالأول فى معنى الغريب ، ويريد به القريب المكروه . أما الحقيقة اللغوية لهذا اللفظ فهى أن لفظ الغريب يصدق على النازل فى قوم لاعهد لهم به ينكرهم وينكرونه ، حتى إذا تعارفوا زالت الغربة عنه وأصبح فيهم معروفاً ، فللغريب إذن معنيان أحدهما لغوى وهو هذا ، والثانى مجازى وهو ذاك .

أذكر ، وأنا فى لندن أيام دراستى هناك ، زرت الشاعر الهندى محمد إقبال ، وكان يقدم رسالته للدكتوراه ، فى فلسفة الإسلام ، فسألنى عن معنى غريب فى قوله صلى الله عليه وسلم : بدئ الدين غريباً وسيعود غريباً » ثم عقب السؤال بسؤال آخر هو : هل يصدق لفظ « فقير » على معنى غريب ؟؟ وكأنه يريد تخريج كلمة « فقير » المطلقة فى الهند على الرجل المستوحش من الناس والمنكمش على نفسه والرجل الشاذ الغريب فى أطواره وأعماله ، كالخروج على النواميس الاجتماعية بخوارق غير مألوفة عادة فى مجتمعه تشبه السحر أو الشعوذة ، فقلت :

أرى أن لا صلة بين اللفظين فى لغة العرب إلا بالتجوز كما سبق فى قوله : الفقر فى الوطن غربة » كأنه ضمن الفقر الذى هو طريد المجتمع المادى ، معنى الغربة التى هى استيحاش الغريب فى قوم يستوحشون منه لأنه بعيد عنهم بشكله

وعقله ، ويوضح ذلك قول أبي الطيب في خراسان عندما زارها فآنسته طبيعتها وأوحشه مجتمعها فقال :

ولكن الفتى العربي فيها . غريب الوجـــه واليد واللسان

يشير إلى أن الغربة تتناول اختلاف المغترب عمن توطن فيهم بشكله ولونه ثم بلغته وعمله .

فاذا رأينا كلمة « فقير » في الهند تطلق على من يخالف القائم فيهم بزى خاص ولغة خاصة ثم عمل خاص به صدق لفظ الغريب عليه ، لأن عمله الخارج به على عاداتهم وتقاليدهم يكفي صدقاً فيه على غربته . أما إذا رجعنا إلى معنى الفقير في لغة العرب فلا نجده يتعدى ذا الفاقة والعوز إلى أى شئ من ضروريات الحياة وهذا لايصدق على شئ من معنى الغريب .

والحديث الشريف يصدق على غربة الدين فيه كلا المعنيين للغريب ، الحقيقي والمجازى ، فيصح معنا أن نفسر غربة الدين في أوله : بأنه جاء في الناس بعيداً عنهم في العادة واللغة والمعتقد ، فاستوحشوا منه ؛ وهذا هو المعنى اللغوى ، ويصح معنا أن نفسرها بأنها صفة للدين أوجبت تنكر القوم للموصوف بها فيما يأتيه مخالفاً لهم ولو كان معتنقه من صميمهم ، وهذا هو المعنى المجازى ، فالغريب في قول المتنبي حقيقي ، وفي قول الإمام وقول الشريف الرضى مجازى

ليس هذا التفسير هو المقصود هنا ، ولكنها نظرة عابرة في لغة العرب ، وأما لغة الوحي التي تنزلت على محمد وهو يقول : طوبى للغرباء » فهو المقصود من أبحاث هذا السفر ، فمن هم الغرباء الذين مدحهم الرسول بقوله : طوبى للغرباء ؟؟ انه فسرهم بعد أن سألوه عما يقصد بالغرباء إذ قال : هم الذين يصلحون عند فساد الناس ، فكشف بذلك عن أنه يريد بمعناه المجاز لا الحقيقة ، إذ لو أراد معناه الحقيقي لنال المدح كل معاني الغريب وهذا يأباه المنطق .

ويقصد هنا بالغرباء معتنقي الدين الذين يصبحون قلة في مجتمع يتنكر لهم في عاداتهم وآدابهم ومعتقداتهم ، فيصمهم بالرجعية حيناً وبالجمود والركود حيناً آخر ، ويصوب إليهم نقده في كل ما يأتونه ، ويتخذ ما يعتصمون به من قول أو عمل هزءاً وسخرية ، ثم يحمل عليهم حملاته الإلحادية ويحذر منهم

النشء فى تعليمه وتوجيهه ، فيتنكر لهم ويتنكرون له ، فيصبحون ، وهم من صميم ذلك المجتمع ، غرباء عنه بعيدين منه ، تعرفهم بألسنتهم الصادقة فيما تقول ، وأيديهم المخلصة فيما تعمل ، بين أناس مرقوا من الدين ومردوا على النفاق لا ترى فى أعمالهم إلا الغش ولا تعى من أقوالهم غير الكذب والزور والبهتان .

ولنضرب الأمثال فيما بين أيدينا من حياة ، على الصالحين عند فساد الناس الذين عبر النبى بهم عن الغرباء ، ثم لنبدأ هذه الأمثال معكوسة لندل بما نتمثل على صحة الاطراد فى التشبيه ، وليكن هذا المثل المبدوء به هو الذين يفسدون عند صلاح الناس ، لأن الصالح بين الفاسدين كالفاسد بين الصالحين من حيث غربته فيهم وبعده عنهم وهو فى صميمهم يحيا بحياتهم ويموت بموتهم .

يتحدث إلى أبى أن الصلاح قبل ثمانين عاماً كان شاملا فى البقعة التى نحن فيها وهى المسماة « بجبال عاملة » نسبة إلى عاملة بن سبأ الذى هاجر قبل الإسلام من اليمن جنوب الجزيرة العربية إلى الشام فراراً من القحط على أثر انهيار سد مأرب . يقول أبى : كان فى النبطية وهى حاضرة جبل عامل ، وتكاد تكون عاصمة الجنوب من جبل لبنان وتفصل بينه وبين فلسطين ، يقول : كان فى هذه البلدة فقيه مطاع محبوب محترم يدعى السيد حسن مكى ، وقد بلغ من طاعته فى مجتمعه ذاك أن رجلا سب الدين فى سوق المدينة وعلى مسمع من النظارة فأحدق به الناس وتزعزعت أركان المدينة من شيوع هذا الحدث وأثره السيء فى سمعتها لدى القرى المجاورة .

ولما خشى الرجل على نفسه لجأ إلى الحكومة بدعوى أن الخبر مكذوب عليه ، ثم شكاه سامعوه إلى الفقيه وشهد منهم من هو ثقة فى القول ، فأصدر السيد الفقيه فتوى بتحريم معاملته ومخالطته والسلام عليه ، ونهى عن أن يتعمد أحد إنزال السوء به ، وشاع ذلك بين الناس فاجتنبوه حتى لا ينظر إليه أحد ، وبلغ ذلك أهل القرى فاجتنبوا معاملته والسلام عليه ، وأنكره حتى أهله ، فكان يفتح متجره من الصباح إلى المساء لا يدخل عليه أحد ، ولا يكلمه أحد ولا يبيعه أحد ثم لا يشترى منه أحد ، حتى ضاق به العيش ووجد أن لا حياة له

إلا أن يهاجر أو يلوذ بفقيه البلدة ، وكان الرأى الثانى أقرب إليه فجاء الفقيه وقبل يديه ثم خضع أمامه منيباً مستغفراً فاستتابه ثم أحل للناس معاملته .

أما أنا فقد أدركت قبل أربعين عاماً أن امرأة فى قريتى ثبت عليها الزنا شرعاً ولم تقم الحكومة عليها الحد ، فاجتمع أهل البلدة وأقروا تعزيرها ، فسخموا وجهها بالسواد ثم حملوها على ظهر حمار وأداروا وجهها إلى دبره ، وطافوا بها البلدة والصبية وراءها يهتفون بما تقشعر له الأبدان من بذئ اللفظ الذى يسبغونه عليها ، وبقيت بعد ذلك طول حياتها منبوذة ، واستمر ذكرها ، حتى ماتت ، مضرب المثل السوء فى أهل البلدة .

وأذكر أن أحد شيوخ قريتى الطاعنين فى السن كان يتحدث إلينا عن صلاح الناس قبل مائة عام ، وأن أثرياء الزراع كانوا إذا بلغ عندهم نصاب الزكاة فى الحبوب ، يضعون حق الله فى المساجد ، وتترك أبوابها مفتحة ليأتى فقراء القرية فى غيابة الليل ويأخذوا حاجاتهم من الطعام حرصاً على شعورهم أن يسترقه ضوء النهار ، قال : وكان الفقير لا يأخذ إلا حاجته ، ويفيض الطعام حتى يزيد على ذوى الفاقة إليه ، ويبقى فضل البر فى المساجد إلى الشتاء فيدركه العفن ثم يتصرف به فقيه البلدة فى وجوه أخرى من الإحسان .

وكان الفقيه فى قرية إذا زار قرية أخرى ليس فيها فقيه لرشد أهلها بضعة أيام ، كان لا يشرف على البلدة إلا ويحتشد أهلها جميعاً على مشارفها للترحيب به والسلام عليه ، ثم تستمر أيامه أعياداً فى البلدة ويقيم هذه الأيام مختلف الأنزال ، كل وجبة فى نزل إلى أن يغادرها فيودعه أهلها بمثل ما استقبلوه به يوم ورد عليها ، وكان منزل المختار هو دار القضاء بين المتخاصمين عند الفقيه ، وكان للفقيه الحق فى أن يحكم ويؤدب من لم ينزل على حكمه ثم يفصل فى الحكم دون رجوع إلى الحاكم المدنى ، حتى كان الراغب عن الحكم الشرعى إلى الحكم المدنى منبوذاً فى قومه ومشاراً إليه بالبنان فى معرض النقد والتسفيه كلما غدا على المحكمة أو راح منها .

هكذا كان الفاسد بين الصالحين ، حتى إذا دار الزمن نصف قرن أو يزيد فاذا بالملحد يغزو المؤمن ثقافة وسياسة واقتصاداً ، فيقلب الحياة رأساً على

عقب وإذا بالفقيه يدخل البلدة فلا يشعر به أحد ، ثم يدخل المسجد فيصلى وحده ، وقد يطرق أكثر من باب فلا يجد من يؤويه ، وإذا بالسوقى بين سمع الناس وبصرهم ، يجلس إلى مائدة الخمر فى مقهى الشارع وفى رمضان فلا ينكر عليه أحد ما يصنع ، وإذا بالشاب المتعلم يكتب ويخطب ساخراً من الدين وهازئاً بتعاليمه فلا يزجره أحد ، وإذا بالمصلح الملهم يؤلف أو يكتب أو يخطب آمراً بالمعروف أو ناهياً عن المنكر فلا يصغى إليه أحد ، ولا يأبه به أحد ، ثم لا يزن عمله أحد ، وقد يرمى بالسفه والرجعية والجمود .

أعرف رجلا كان وهو يدرس العلم فى بلده العربى مأبوناً فأصبح رئيس وزراء فى بلد عربى آخر ولا يزال كذلك إلى الآن ، وأعرف آخر كان وهو يدرس فى باريس يسرق الأحذية فى الليل عن أبواب غرف الفندق الذى يسكنه فأصبح بعد عوده إلى وطنه العربى رئيس مجلس للتشريع « برلمان » ولا يزال يتنقل من نائب إلى رئيس ووزير حتى الآن ، وأعرف رجلا قطع الشطر الأول من حياته خائناً لبلاده وأمته يترامى على أقدام الفرنسى تارة وعلى أقدام السكسونى تارة أخرى حتى وصل إلى النيابة ثم الوزارة ثم الرئاسة ولا يزال يتقلب كذلك حتى الآن .

وأعرف رجلا ألف عصبة من اللصوص وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق فتحكم بها فى رقاب الأمة وهدد ذوى الحكم ، ثم اعتلى مناصب النيابة والقضاء والوزارات بفضل أولئك اللصوص المرقة واستباحتهم حرمات الدين والشرف والإنسانية ، ولا يزال محترماً فى الأمة مطاعاً فيها إلى الآن ، وأعرف امرأة فى بلد عربى تهتف على « التلفون » المتعدد حولها ، مهيبة بنواب الأمة ووزرائها تأمر وتنهى فتطاع فى أمرها ونهيها كما تشاء ويشاء لها عملها الشائن الذى يصل بينها وبين كل نائب ووزير ، وقد بحثت عنها فاذا هى « واسطة خير » ولا تزال كذلك حتى اليوم .

أستطيع أن أعرف وأعرف ثم يعرف معى كل قارئ أو سامع أن هذا الطراز من حكامنا ورؤسائنا وأعياننا يكاد يكون الطليعة فى كل مجلس من مجالس أمتنا وغيرها ، إلا ما ندر ، يكاد يكون طليعة كل مجلس يسن القوانين ويشرع النواميس وينفذ الأحكام ، بينما نرى المخلص المتحرر من هواه ونفسه ،

العامل لدينه وقوميته ، المضحى فى سبيل مثله العليا فى الحياة ، نراه مزويا فى غيابة بيته إن كان له بيت ، أو مشرداً فى مجاهل الأرض بائساً مضطهداً ، لاينظر إليه أحد إلا ازدراه ، ولا يسمع به أحد إلا سلقه بلسان أحد من الفولاذ زاعماً أنه خرج على مجتمعه وتقاليد أمته .

بهذا نفهم ويفهم كل من أوتى مسكة من الفهم اليوم ، أن رسول الله قد صدق فيما قال ، إذ حكم على أن هذا الدين جاء أول ما نبع غريباً فتمكن من نفوس الناس باخلاص معتنقيه و تضحية المؤمنين به حتى أصبح آهلا وأصبح الكفر به والزهد فيه غريباً عنهم ، واستمر كذلك حتى إذا ضعفت نفوس حامليه ، وفترت همة الحفى به ، وخبت شعلة القائمين عليه ، أحدق به الكفر ، وطغى عليه الإلحاد ، وجرفه تيار الظلم والبغى والعدوان ، إذا به يصبح غريباً فى وطنه وشريدا بين أهله ، هكذا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم ، بدأ الدين غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء ، وهكذا نفهم قوله بعد ذلك : الغرباء هم الذين يصلحون عند فساد الناس » ..

علي   إِنَّ وَرَاءَكُمُ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ فَتَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا .

يقصد بالساعة : نهاية العالم فى دنياه وبعثه فى أخراه ، وتحدوكم : تدفعكم للخروج من دار إلى دار ، وتخففوا : تزودوا أخف ما تحملون من عمل يخف بكم ولا يبهظكم ثم لايحول بينكم وبين سابقيكم إلى الجنة ، ذلك هو العمل الصالح ، وأما من تزود من السيآت فيثقله وزره ويقعد به عن اللحاق كمن قعد به حمله الثقيل دون أن يبلغ الغاية وهو أشبه « بالراكب المنبت لاأرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

فى كلمة « تخففوا تلحقوا ، إشارة إلى أن من لا يتخفف لا يلحق وإذا لم يلحق أدركه العجز فرسب فى مكانه ، فهل هذا العجز هو الجحيم المعبر عنه بالعقاب ؟؟ وهل ذلك اللحاق هو النعيم المعبر عنه بالثواب ؟؟ إذن فالنفاذ من هذه الحياة هو الفوز والبقاء فيها هو الخسران ، ويشير هذا أيضاً إلى أن السير فى الحياة له نظام كنظام الدراسة ، فالتلميذ الذى يفلح فى أداء فرضه يجتاز صفه إلى أعلى منه وهو نعيم له ، والذى يخفق فى أداء ذلك الفرض يرسب فى صفه وقد يهبط إلى ما دونه ، وذلك هو الجحيم المطبق عليه الذي لا يتزحزح عنه كابوسه إلا بأن يجتازه من قابل أو يبقى معذباً طوال حياته .

وهذا الاجتياز بعد الرسوب يشير إلى تعدد الحياة الدنيا وأن الحى إنساناً وغير إنسان ، يتقلب فيها مختلف الأطوار حتى يخرج منها مصفى يؤهله تطوره من حسن إلى أحسن ، لحياة أخرى هى أسمى من حياته الأولى ، فان لم يتوفر على هذا التطور خلد فى جحيمه الذى هو وجود وانحلال ثم بعث وانحلال إلى ما شاء له باعث الكون الأول ، فهل فى ذلك مسخ أو حلول كما يذهب إليه بعض من الناس ؟؟

إن السباك وهو يعالج عجينة الحديد أو النحاس أو الرصاص أو الذهب أو الفضة أو غير ذلك مما يصهر ليصنع تماثيل أو حلياً أو آلات ، ثم يفرغ عليها فنه

فتستقيم كما شاء فتبقى خالدة فى نعيم الفن ، وإن لم تستقم وفق رسالة الفن أعادها إلى البوتقة للصهر جزاء عصيانها ثم عرض عليها ناموس الفن مرة أخرى ، وهكذا هى بين حل وسبك حتى تستقيم آخر الأمر ، أقول :

أن هذا السباك يشير بعمله ذاك من قريب أو بعيد إلى فكرة انحلال الكائن الحى ثم سبكه ابتغاء استقامته فى سبيل تطوره القائم على حكمة المبدع الأول حيث يشاء من حيث نخضع لحكمته ثم لا نسأله العلة فى فرض هذا النظام علينا وهو القاضى بأن نستقيم لنخلد فى نعيمه ، وإلا بقينا نتقلب من حياة دنيا لأخرى فى جحيمه ، تلك هى فكرة مبدعى هذا المذهب من قبل يطلقون عليه التناسخ طوراً والحلول أو الرجعية أو المسخ تارة أخرى .

وعلى ضوء هذا البحث نستطيع أن نعتصم بقول الإمام : تخففوا تلحقوا » فى إثبات ذلك المذهب إلا أن نتأول له غير ما يدل عليه من تجوز فى لفظه أو معناه ، ولا يلجئنا إلى هذا إلا أن يعارض فحواه نص من كتاب أو حديث صح سنده واتضح مدلوله .

والتجوز إما أن يلحق « تخففوا » على اعتبار أن العمل الصالح خفيف لإفضائه بالروح إلى الخفة والمرح وإن أجهد الجسم ، وأن العمل السيئ ثقيل لإفضائه بالروح آخر الأمر إلى الهم والندم وإن رفه عن النفس الامارة بالسوء ، وإما أن يلحق التجوز « تلحقوا » على اعتبار أنه سلام الله عليه ، أراد اللحاق بالصالحين لا مطلق اللحاق ، وهنالك وجوه أخر فى صحة اعتبار اللفظ على مجازه لا حقيقته وقد تركنا الخوض فيها لتفكير القارئ واجتزأنا بما هو أقرب إلى البيان فى كيان التجوز .

ولا بد ، قبل ختام هذه الكلمة ، من أن نتبسط فى بحث التناسخ المشار إليه فى توجيه جملتى « تخففوا تلحقوا » إلى الدلالة عليه دلالة لزومية لا ذاتية ، فنقول : ان الدين لا يحول دون العقل أن يجيز تطور الحى جزئياً لا كلياً قبل انتهائه إلى الغاية التى من أجلها كان حياً ، ومثال ذلك واضح فى العجينة التى ضربناها مثلا لتأهيل الإنسان بالنسخ والبعث مراراً فى سبيل خضوعه لقبول الكمال ما دامت المادة الأولى ، المعبر عنها لدى الحكماء الأقدمين بالهيولى ،

ثابتة لاتتغير وإنما التغير ينال الصورة التى تعرض لها فى طريقها إلى الهدف القائم على حكمة الخلاق الأول .

فالأخبار المأثورة عن سلفنا الصالح مرفوعة إلى الكتاب والسنة أو غير مرفوعة ، تشير إلى هذا المذهب ، إذ جعلنا الله خليفة لخلق سابق فى الأرض من سنخنا ، وهددنا بأن يستخلف غيرنا فيها إذا لم نستقم له ونخضع لإرادته ، وفى الكلم المأثور أن الله خلق أكثر من آدم قبلنا ، فى هذا وما سبق شئ من برهان على صحة هذا التطور المعبر عنه بالتناسخ أو الحلول قبل انتهائنا من هذه الحياة الدنيا لنخرج منها فى كمال يتقوم به عالم هو فوقنا نطلق عليه عالم الخلود ، ويكون النسخ أو المسخ ثم البعث فى الحياة الأولى هو العذاب المعبر عنه بالجحيم .

ولعلنا نعود إلى بحث مشكلتنا هذه مرة أخرى فى سبيل الإيضاح خشية أن يتأول قولنا جاهل فى أنا نريد من الحلول أو التناسخ إلحاداً أو عبثاً ، فان توجيه الرأى الذى يراه غيرنا نحو الحق شئ ، واعتناقه أو توجيهه نحو الباطل شئ آخر ، إذ لم نرد بنسخ الجزئى وبعثه ، محوه وإبداع غيره ، وإنما نريد محو صوره العارضة على نواته وإثبات صورة أقرب إلى الخلود منها فى سبيل الكمال المنشود من وراء الحكمة الأولى ، كما تصهر الحلية فتعيدها إلى الذهب الخام لتعيدها حلية ألصق بالفن من سلفها المنسوخ فلا يلزم من نسخها نسخ المادة التى تكونت منها ، وإنما نسخت الصورة ثم أعدتها جزئياً إلى كيانها الأول بشكل أكمل وأجمل ، فالكمال هذا هو نعيم الجزئى المبعوث بالنسخ ، وصهره مرة بعد أخرى هو جحيمه ، والنسخ الذى يتناول الجزئى دون كليه أمر مفروغ منه فى صدق الدين عليه لقوله عليه السلام : لم تكن نبوة إلا بتناسخ ، أى أن النبوآت تتناسخ لكمال الحياة كتناسخ الإنسان فى سبيل كما له ، تلك هى لمحة من بحث هذا الموضوع الشاق أثرتها بما أعلم وفوق كل ذى علم عليم .

الله

قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

أى كتاب يعنى الله عز ما يكتب وعلا ؟؟ وما هو الكتاب ، هل يعنى به الوحى المنزل على رسله ؟؟ أم يعنى به الكتابة التى هى إحدى وسائل العلم ؟؟ كل ذلك قد يعنيه وكل من الوحى والكتابة يفتقر معه الكاتب والموحى إليه، فى سبيل الكشف عن أسرار الوجود والعزم فى اكتناه تلك الأسرار، يفتقر إلى علم بالوحى والكتابة ، فقد يوحى إلى الإنسان فلا يحتمل الوحى ولا يستطيع الاضطلاع بعبئه ، فلا يخرج عن كونه مفكراً أو شاعراً يقف عند تلقى الوحى ونشره دون العمل به، وقد يكتب الإنسان عن علم فلا يخرج بعلمه ذاك عن أن يمسك القلم ويكتب حكما فقهياً ثم يقف عند ذلك دون أن يتعدى الفقه والكتابة إلى اكتناه السر الذى من أجله كانت الكتابة وعليه قام فقه الحياة .

إلى المعنى الأول يشير تعالى بقوله : يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا . وإلى المعنى الثانى يشير بقوله عز من قائل : قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به « أى عرش ملكة سبأ » قبل أن يرتد إليك طرفك ، لأن علم الأول نظرى سطحى وعلم الثانى واقعى عملى ، والإشارة بهذا إلى مبلغ العلم العملى من التحكم بالمادة والهيمنة على طبيعتها، بقيت ضميراً فى سر الغيب منذ سليمان حتى عصر الذرة اليوم ، يمر بها الإنسان فلا يدرك أكثر من أن هذا العمل ، الذى هو نقل العرش بشكل عاصف إلهى لا يقوى على الإتيان بمثله بشر إلا باذنه .

وها نحن اليوم نصل إلى أن فى مقدور العلم الواقعى المشار إليه فى القول الإلهى السابق ، أن يقتلع العرش من أقصى ملك سبأ ثم يهوى به فى الأثير إلى بيت المقدس بلمح البصر ، لأن علم الذرة يقر الآن أن قذف الجرم يمكن أن يشاكه قذف الصوت الذى لا يحتمل بضع ثوان فى اختراقه الكرة الأرضية تحت دفع التيار الكهربى المهيمن على الأرض ، إلا أن العلم القائم على تمكين الإنسان من ذلك ، لا يزال يعمل لحفظ الجرم المقذوف بسرعة الصوت من

احتراقه وهو يخترق الأثير ، وقد وصل العلماء اليوم إلى أن أصبح ممكناً قذف الصواريخ بسرعة الصوت فى الهواء لا فى التيار الكهربائى دون أن تحترق ، ووصلوا إلى إمكان قذف الإنسان فى منطاده ثلاثة آلاف ميل فى الساعة ، وقد أذاعوا أن فى الإمكان قريباً قطع الجرم الطائر أو المقذوف على جناح الأثير ، ستة آلاف ميل فى الساعة .

فاذا قدرنا أن بين الحرم القدسى حيث كان سليمان وبين اليمن حيث كانت ملكة سبأ مسافة لاتزيد على ألف ميل ونيف ، علمنا أن فى طوق العلم اليوم أن يقذف الجرم بفعل الأثير فيقطع هذه المسافة خلال عشر دقائق وأمكننا بفضل قوله تعالى : وقل رب زدنى علماً » تعزيز التحكم بالطبيعة إلى حد السرعة التى تتناهى عند قذف الجرم خلال ثوان مسافة ما بين المشرق والمغرب ، وذلك تحقيق ما كان يعده الإنسان خيالا أو خرقاً للطبيعة قاصراً على رب الإنسان .

لقد حقق العقل بالعلم خيالا كان مستحيلا وأصبح ممكناً ، وأثبت هذا العلم أن البصر والسمع والفكر ليس لها حد تقف عنده ، وأن الصعود فى السماء والمشى على الماء ممكن أو سيكون ممكناً بفضل العلم ، وأن خرق الطبيعة لا يتحقق فيما ندرك وإنما هذا الذى نتمكن منه خرق للعادة لا للطبيعة ، فليس خرق الطبيعة أن يترقى الإنسان أو أن يتقهقر وهو إنسان ، وإنما خرقها أن يتحول الجماد إلى حيوان أو أن يتحول الحيوان إلى جماد تطوراً لا خلقاً ، من هنا ندرك أن الإنسان لا يتحول ملاكاً ، وأن الملاك لا يتحول إنساناً ، إلا أن يصبح الإنسان ملاكاً بطبعه ويصبح الملاك بطبعه إنساناً .

أما بروز الفكر من حيز القوة فى عالمه الباطن إلى حيز الفعل فى عالمه الظاهر ، فيرجع إلى الأجل الذى قدر له وهو جنين فى قلب الطبيعة ، فقد يستمر كنز الحياة مخبوأ فى ضمير الغيب سنين أو قروناً أو أقل أو أكثر تتمخض به الطبيعة ثم تلده بفضل العلم ، فعلى مقدار بلوغ العقل ذروات العلوم والفنون يتضاعف خروج المخبآت من أجنة الحياة ، وعلى مقدار تقهقر العقل بالجهل تستمر كنوز الحياة مخبوءة فى ضمير الأزل .

فلكل فكرة فى ضمير الغيب أجل ثم تبرز ، ولكل فكرة بعد أن تولد أجل

فى استمرارها حية ثم تهلك فتتوارى فى ضمير غيب آخر وتستمر فيه حتى تصبح كنزاً مرة أخرى فتولد فى عهد آخر للإنسان غضة جديدة ، وهكذا دواليك فى الإنسان وصور حياته جدة وقدماً ، وقدماً وجدة يتعاوره بينهما نسيان يحيل قديمها جديداً ، وملل من الجديد يحيله قديماً ، فالجاهل الغر يحسب أن الحياة دول بين قديم وجديد ولكن البصير الحى يفهم أن الحياة قديمة بقدم الإنسان وصورها تتداوله بين ظهور وخفاء ، كالشمس التى تهبه الحياة شروقاً وغروباً ، وهو ،فى كلتا حالتيها،يكتنه سر ما تشرق له وتغيب عنه ثم يقول : لا جديد تحت الشمس .

محمد ﷺ إِذَا وُضِعَ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ وَانْصَرَفَ أَصْحَابُهُ حَتَّى لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ يُحَاسِبَانِهِ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً أَرَيَاهُ مَكَانَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ كَافِراً ضَرَبَاهُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ

كيف يسمع ولا يتكلم ؟؟ وكيف يريانه مكانه من الجنة ؟؟ ثم كيف يسمع الصيحة من يليه إلا الثقلين أى الإنس والجن ؟؟

هنالك فى علم التشريح شيء أصبح جلياً بين يدى الطب ، هو : أن لكل حاسة فى الإنسان شُعباً تتظافر على تركيب خاص تتقوم به الحاسة فى أداء رسالتها ، وهذه الشعب هى الأعصاب الدقيقة المتصلة بمركزها الرئيسى فى الدماغ ، وعليها يتركز إنتاج الحواس فى تقويم الكيان الإنسانى ، ففى هذا الدماغ مصدر أول « سنترال » هو الإراده تتصل به تلك الشعب ، وهذه الإرادة خاضعة لموجه خاص كمدير السنترال فى اللاسلكيات والسلكيات ، ذلك الموجه هو المسيطر الأول على مملكة الجسم فى بعث الإرادة التى تهيمن على الأعصاب الخاضعة للملكة الاختيار فى الإنسان ، ولعل أصح ما نطلقه على ذلك المسيطر هو لفظ الروح وقد أطلق بعض الحكماء عليه اسم العقل ، على أنا نرى الحيوان يشارك الإنسان فى توجيه إرادته عصب الإحساس وليس فيه ما نسميه عقلا ، فما هو باعث الإرادة فى الحيوان إذن غير الروح ؟؟ أهو غريزة النباهة كما يزعمون أم هو شيء آخر لا نفقهه ؟؟

إذا صح معنا هذا التفكير علمنا أن لكل حاسة ، ظاهرة أو باطنة ، مركزاً خاصاً فى ذلك المصدر الذى نطلق عليه لفظ « سنترال » ففى طوق المهيمن الأول على الوجود الإنسانى أن يلهم الروح المسيطرة على الارداة أمراً يحول بين الإرادة وبين تأثيرها على سلك ما من أسلاك الحواس فيفقد ذلك السلك تأثيره

على الحاسة فتخفت ويفقد الإنسان أثرها فى الخارج ، فكم أناس فقدوا حاسة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق من الحواس الظاهرة ، وآخرين فقدوا الذاكرة ، أو الحافظة ، أو الفاهمة ، أو العاقلة من الحواس الباطنة ، وأثبت الطب الجراحى أن فقدان ذلك إنما هو اختلال سلك عصبى أو أكثر من الأعصاب التى تتصل بتلك الحاسة المعطلة .

لذلك يفكرون ، وتفكيرهم قاصر جداً ، فى الوصول إلى كنه تلك الأعصاب ومدى اتصالها بالروح وتأثير الإرادة عليها حيناً ثم فقد الإرادة ذلك التأثير حيناً آخر ، على أن لديهم من البديهيات فقد الإنسان حاسة دون أخرى لعارض فهموه واعراض أخرى كثيرة لم يصلوا بعد إلى كنهها ، فقد يعللون العمى أو الصمم أو البكم بأمور يصدقون معها ، وقد يخطئ معهم التشخيص فلا ينفعهم معه تعليل ولا تشريح ، ويبقى الأعمى أعمى والأصم أصم والأبكم أبكم ، دونما علة تظهر للطبيب فى جوهر العين أو اللسان أو الأذن ، ذلك ما يثبت لنا أن وراء تعليلهم الخاطئ عللا أبعد فى علم الحياة الإنسانية من أن يصل إليها علمهم وتفكيرهم .

من هذا كله نصل إلى صحة الحديث الشريف بأن الميت فى القبر يسمع ولا يتكلم أو يبصر ولا يسمع أو يشعر ولا يطيق الاعراب عن شعوره ، وقد تقف الإرادة عن توجيه الحواس بأمر الروح فتتعطل الحواس ، وقد تقف بذلك الأمر عن توجيه بعض الحواس دون الحواس الأخرى فتؤدى هذه وظيفتها وتعجز تلك عن هذا الأداء ، كل ذلك مشاهد محسوس فى حياتنا ومألوف تصديقه وبديهى وجوده ، والأمثلة على ذلك كثيرة بين سمعنا وبصرنا.

كنت فى جنوب أمريكا سنة ١٩٣٩ أيام الحرب العالمية الثانية ، وزرت جمهورية تشيلى فى أقصى الجنوب ودعيت إلى مدينة « طلكا » ثم مدينة تقرب منها وكنت ضيف عربى مهاجر من مدينة النبطية فى جبل عامل أحد مقاطعات لبنان ، ولعل هذا المهاجر من أسرة حيدر أو جابر لا أذكر جيداً ، ورأيت اهتزازاً غريباً فى عينى زوجته الأجنبية ، وسألته عن سببه فقال : لقد أصيب

كثير من أهل هذه المدينة قبل سنوات بالعمى المفاجئ دونما سبب يدركه الطب ، ثم قال :

اضطربت الحكومة لذلك فاستحضرت لجنة أطباء من أوروبا وشمال أمريكا فوصلوا فى تشخيصهم إلى أن حيوانات دقيقة جداً لاترى إلا بالمجهر تلتصق فى مؤخر الحدقة من الداخل وتتكاثف على منفذ النور إلى الخارج فتحول دون البصر ، وقد أجروا عمليات لتطهير المنفذ من تلك الجراثيم فعاد البعض إلى الإبصار واستمر البعض الآخر ضعيف البصر مهتز الحدق كما ترى ، ثم يقول مضيفى : وقد أثبت الأطباء أن السبب الباعث لتلك الجراثيم هو الإكثار من أكل هذه المدينة لنوع من الخنازير يتولد منه بطبيعة المحيط ذلك الحيوان المتكاثف على منفذ النور من الدماغ إلى خارج العين ، واحتجب ذلك العمى عن تلك المدينة لمجرد امتناع أهلها عن أكل الخنازير .

إذن ليس فقد البصر قاصراً على اختلال جوهر العين من خارج أو داخل مادياً فحسب كما يعلله الطب ، وإنما يتجاوز ذلك إلى أسباب أخرى مادية لاعهد بها للطب فى مثل هذا الحادث ، وغير مادية ما زال الطب عاجزاً عن إدراك العلل المسببة عنها كالذى نعلل به عمى الميت واستمرار سمعه،أو صممه واستمرار بصره ، أو بكمه واستمرار بصره وسمعه ، فالعلم له أول وليس له آخر فلنتبصر ولنعتبر .

أما كيف يرى الجنة التى عرضها السموات والأرض وهو فى قبره المطبق عليه والذى لايزيد فى طوله وعرضه على بضعة عشر شبراً ، أما هذا فيستدعى أن نمهد له كما مهدنا لسابقه من بحث علمى هو بين أيدينا وليس غريباً عنا .

كنت ، وأنا فى ولايات أمريكا المتحدة ، أجلس مع أصدقائى فى بيت السيد عبد الله برى بمدينة دربن من ولاية مشكن ، وذلك لبضع سنوات خلت ، كنا نجلس إلى مرآة المذياع لدى انعقاد جمعية الأمم المتحدة فى نويرك التى تبعد عنا ما يقرب من المسافة بين مصر حيث أكتب هذه الفصول ،وبين العراق ، أقول : كنا نجلس فى دربن إلى ذلك الواحى وبين أيدينا مرآته « التلفزيون » ترينا أشخاص المتكلمين فى نويرك من ممثلى دول العالم عرباً وعجماً ، ترينا تلك الأشخاص

بعضهم جلوس يستمعون والبعض الآخر وقوف يتكلمون فى حل المشاكل العالمية .
قلت فى نفسى : أيرينى إنسان مثلى ، بفضل العلم ، مقر الأمم المتحدة ويسمعنى أصوات ممثليها وهى بعيدة عنى بعد السماء الدنيا عن الأرض ، وأنا فى حجرة مطبقة على من جميع جهاتها كالقبر ، ثم لا يستطيع ملاك السماء المهيمن على إنسان الأرض أن يرينى بقعة فى الوجود حافلة بنور الحق ، وأنا فى قبرى ؟؟ أفليس فى هذا المثل المحسوس لنا برهان على صدق رسول الله وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ؟؟
إذا أنكرنا ذلك ونحن فى عصر الواحى سمعاً وبصراً ، فماذا يكون شأن من سبقنا بأجيال يوم كان العالم فى ظلمة دامسة من الجهل وكانت كلمات محمد هذه تحل منه محل الروح من الجسد وهو مؤمن بها ومصدق لها ؟؟ هل كان أولئك إذ يؤمنون بصدق نبيهم فى إثبات رؤية الميت للجنة،وهو فى قبره ، دونما شعور بحس أو إدراك بعقل، هل كانوا إذ ذاك أنضج منا عقولا وأوفر علوماً فى طريقهم إلى الإيمان ؟؟ وهل يعوزنا لنتأثرهم بإيمانهم أكثر من أن العلم الحديث حريص على إقرار ما جاء به الكتاب ، وأقرته السنة الصحيحة ، وسار على نهجهما فى تصديقه كل عقل فرض الإيمان بالدين قبل أن يشير إلى الاعتصام به من وراء العلوم والفنون ؟؟
فالإيمان إذن هو السر فى أن يرى الإنسان ويسمع مالا يراه ولا يسمعه غيره ، والإيمان هو الباعث من اتصف به على أن يخرق بقوله وفعله طبيعته ، بله عاداته ، إلى عالم الروح مخلفاً وراءه غير المؤمن ترسف قدماه فى قيود المادة ، مقيداً فى حواسه بأن يسمع قليلا ويبصر قليلا ويفكر قليلا ثم يناله من الخير ما لا يوصف بحسبان ، ذلك الإيمان هو مصدر العلم الإلهامى الذى يعنيه باعث الكون بقوله : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وذلك الإيمان هو الحكمة المعنية بقوله عز من قائل : «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » وهو النور المعنى بقول رسوله : «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله »
يقول الرئيس ابن سينا فى مقدمة بعض أسفاره ما مضمونه : كنت إذا

استعصى على اكتناه كثير من المشاكل العلمية أعمد إلى الصوم والاعتكاف والتهجد أياماً فاذا بالمشاكل تنحل بين يدى ذلك وإذا بالعلم الذى أنشده يستجيب لتفكيرى » ويقول لى الدكتور يحيى الهاشمى الحلبى وهو أحد أعلام الحكمة ممن تخرجوا فى جامعة برلين ، يقول لى ونحن جلوس فى أحد مقاهى دمشق : ان العلماء فى جامعات ألمانيا بدأوا يفكرون بأن العلم قد يصدر فى جرهوه عن الإلهامات إذ حداهم إلى ذلك تفكيرهم فى العلامة جابر بن حيان صاحب المعجزات فى علم الجبر الذى يرجع فى حل مشكلاته الرياضية الكبرى إلى أستاذه الإمام جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة الجعفرية ، وأنهم لم يقفوا لجعفر هذا على دراسة غير ما ينقله عن أبيه وآباء أبيه الأئمة ثم يصعد به إلى جده الأعلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نستطيع أن نفسر وقر السمع وصممه فى الأنس والجن عن صيحة الكافر فى قبره عندما يهوى الملكان بمطرقتهما على أم رأسه، فيسمعه من يليه من عالم شاء الله أن يسمع تلك الصيحة ، ويصم عنها من شاء من عالمنا القائم على تركيز خاص به فى وعيه ، ومن هذا نفهم بأن الفضاء محشود بالعوالم الخفية عنا عدا عالمنا الظاهر ، كل له وعيه المركز فى حواسه على قواعد ونظم خفية لا يعلمها إلا مبدعها وإلا من شاء ممن آمن به ، وعلى ذلك بنى الحكيم العلامة « انشتاين » نظريته فى أن الأثير الذى نعبر عنه بالفضاء أو الهواء أو الخلاء ، هو مادة صلبة بما يتكاثف من عوالم »

علي

إِنْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ
لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ البعيدة

اندمجت : جبلت وفطرت وطبعت على علم مخزون فى كيانى لو أبوح به كله لاضطربتم من الدهشة والريب اضطراب الحبال المتدلية فى البئر العميقة ، ذلك هو مضمون المعنى الذى انطوت عليه تلك الجملة البالغ أثرها فى نفس من أوتى حظاً من العلم وقسطاً من البيان .

ففى كلمة اندمجت على علم برهان على أن علمه ربانى دونما تعلم أو دراسة وإنما هو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطر عليه منذ الأزل حتى اختلط بلحمه ودمه ، أى أن تركيبه عليه السلام منذ فطرته الأولى فى عالم الغيب أو عالم الرحم لم يكن مجرد لحم ودم وعظم وعصب وروح يتغلغل فيها وتتقوم هى به وفى ذلك الروح نواة تنفعل بالعلم لأنها مطبوعة على العلم ، ولعلى أجرؤ على تفسير قول الإمام بأنه يريد أن يقول : ان علمه ذاتى لا عارض كعلم رسول الله الذى يشارك به ربه تعالى عنه علواً كبيراً ،على أن هذه الشركة محدودة بكونها جزئياً فى مخلوق من كلى فى خالق .

وليس فى حكمنا هذا مظنة ريب لأن خالق كل شئ لابد من صلة تربط مخلوقه به جزئياً من كلى لاجزءاً من كل فان بارئ الكون كلى يهيمن على كونه الجزئى منه كالإنسانية المهيمنة على وعلى من يقرؤنى ، وفى صميم الفرقان الأعظم ، وما أثر عمن تنزل عليه، كثير من التدليل على أن الله نور السموات والأرض وأن محمداً من نوره وعلى باب الحكمة التى يشع منها ذلك النور ، أقول ذلك ولو على جهة المجاز لأن المجاز حقيقة مستورة تبدأ خيالا فيما نظن ثم تنتهى بعد ذلك إلى حق .

وهكذا يسند التاريخ بيتاً من الشعر إلى حفيد الإمام وهو السجاد زين العابدين على بن الحسين بن فاطمة سلام الله عليهم ، يكشف لنا ذلك البيت عما يشير إليه قول الإمام الذى هو بين أيدينا ، أما البيت فنصه :

يا رُبّ جوهر علم لو أبوح به　　لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

وليست هذه الدعوى غريبة عن أهل بيت الرسول ، فقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن يزيد بن معاوية قال عندما وقف زين العابدين هذا بين يديه وهو غلام حدث بعد فاجعة الطف وبعد أسره وسبى نسائه ، قال يزيد عندما استأذنه السجاد فى أن يعلو المنبر ويتكلم فحجر عليه الكلام، وأنكر ذلك على يزيد من شهد مجلسه من خلصائه قائلاً ما عسى أن يبلغ هذا الغلام فى القول فدعه يتكلم، قال يزيد إذ ذاك : ان هؤلاء أهل بيت زُقوا العلم زقاً . . . »

ولقد جاء فى غير نهج البلاغة من كلمات نسبت للإمام على كلمة تقول : لو شئت لأخرجت لكم من الماء نوراً يكشف عنكم الظلمات » إن صح ذلك فهو يشير إلى الكهرباء ، وقوله فى كتاب مجمع البحرين المطبوع فى إيران والمؤلف قبل قرون ، مضمون كلمة قرأتها بنفسى : ان فى هذه الأجرام السماوية مدناً كمدنكم يربط بينها دعائم من نور » وقوله من نهج البلاغة عند ذكر الأرض : وأسكنها ، على حركتها ، من أن تميد بأهلها » يثبت فى هذا حركة الأرض ويثبت فيما سبقها وجود الجاذبية بين الشموس والكواكب الدائرة فى محورها كما يثبت أن الجاذبية هى النور ، وهو رأى بعض العلماء المحدثين فى بحث الضوء ، وسيأتى شئ من هذا فى الفصول الآتية إنشاء الله .

أما كلمة « مكنون » المقحمة بين شقى الجملة الأولى من كلمة الإمام ، فتنطوى على معنى كبير هو أن هذا العلم الذى طبع شخص الإمام به هو مخزون لا ينفق منه إلا بقدر ما تحتمله العقول إذ هو نسخة مصغرة عن القرآن الذى هو مرآة للحياه منذ كانت حتى تزول ، فكلام الله تعالى جده وكلام رسله عليهم السلام ثم كلام أوليائه وورثة أنبيائه من معدن واحد ، تختلف باختلاف المصدر كالنور بعضه يكشف جزئيات الحياة والبعض الآخر يتقوم به الكلى المهيمن على تلك الجزئيات ، بعضه تحتمله العيون والبعض الآخر تنحسر به ، بعضه تمد الحياة بنظامه ما دامت الحياة ، والبعض الآخر يمدها بالهيمنة على نظامها ما دام على قيد الحياة .

ففى التنزيل غذاء للعقول القائمة على تقويم الحياة متطورة من عصر فقه

الحياة إلى عصر اكتشاف أسرارها ثم إلى عصر العمل على شخوصها بالإنسان من عالم التردى إلى عالم الخلود ، فالتنزيل كله محكم ومفصل على قدر ما مر وما يستقبل الإنسانية من حياة ، ولكن ما نراه متشابهاً فيه هو المخلوق لغيرنا وهو الذى لم نطق فقه الحكمة منه ، لذلك رأيناه متشابهاً وهو المحكم فى أمة كان لها وعالم سيكون له ، وهكذا نصل إلى جزئيات النور المنبثقة عن ذلك الكلى والتى نعبر عنها بحكمة المخلوق ، كما نرى ونسمع من مأثور من تأله من حماة الحق والدعاة إلى الاعتصام به كالأنبياء والأولياء ، فانهم طبعوا على نور العلم الإلهى ليغذوا به عقل الإنسان العام المتقلب فى عهود الإنسانية .

وكما أن الطفل يفتقر إلى مراحل فى تربيته يضطلع بها عقل القائم على تكوينه وتلوينه ، وكما أن هذا الطفل إنما يفقه الصالح لحياته فى كل مرحلة ويجهل الصالح لتربيته فى المرحلة التى تليها ، كذلك نرى الإنسان الكلى فى تربيته يخضع للعقل المربى فى نظامه مرحلة مرحلة حتى ينتهى به خضوعه إلى عالم الكمال .

فكان من الطبيعى إذن أن يضطرب الإنسان إذ يفرض عليه العقل البشرى الجبار فى فقه الحياة ، مالا يطيق احتماله من نظام الكون القائم على صهره وتصفيته ، كما يضطرب الإنسان ، وهو طفل ، إذا تعهده المربى بما لا يصلح لحياته ألا وهو صبى أو مراهق ، وكان من البديهى آخر الأمر أن نصل إلى فقه المتشابه من قول الإمام على فى أنه لو باح لنا بمكنون علمه لاضطربنا إذ لم تحتمله عقولنا بعد لأنه خلق لمرحلة تلينا من مراحل العقل الإنسان القائم على تربية الحياة .

وبعد فليس معنى اضطراب الإنسان إذا وعى شيئاً من علم لم يخلق له ، هو عين اضطراب الحبل المتدلى فى البئر ، ولكن الإمام يشبه اضطراب حالة الإنسان النفسية والعقلية والروحية إذا سمع ممن يهيمن عليه بناموسه الأعلى ما لم يطق فهمه من بدع الحياة ، أقول : ان الإمام يشبه تلك الحالة فى الإنسان وهى معنوية محسوسة بالعقل ، يشبهها بحالة الحبل المضطرب ، وهى مادية محسوسة بالنظر ، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المعدود لدى البلغاء من أروع صنوف البيان .

اللّه نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . . . نُورٌ عَلَى نُور . . .

على أى وجه نحمل قوله عز من قائل : الله نور ؟؟ هل هو نور حقيقة ؟؟ أم هو منير أم ذو نور على حد تعبيرهم الله عدل أى عادل أو ذو عدالة ؟؟ فما هو النور حقيقة ؟؟ وهل هو صالح لأن نصف به خالق النور ، ونجعل النور عين ذاته كما نطلق عليه لفظ الكريم أو العليم ونعتبر الصفة عين الموصوف ؟؟ ثم هل يريد الله بنور السموات والأرض نور الكون كله على اعتبار أن الكون قاصر عليهما ؟؟ أم أن الكون سموات وأرض وما يحدق بهما من خلق آخر فيكون إطلاق نورهما عليه تعالى إطلاق بعض على كل كما نطلق لفظ العين التى هى بعض الإنسان على كله فيكون الله الذى هو كون مطلق ، صادقاً عليه أنه نور السموات والأرض التى هى كون محدود ..؟؟

فالنور ، سواء كان هو العنصر الأول الذى يتقوم به الوجود ، كما جاء تقرير ذلك فى كتابنا « بلاسم » من أن النور أو النظام أو الروح هو قوام الوجود على اختلاف النظريات فى العلم الحديث ، أقول : سواء كان هذا النور قوام الكون أو كان متغلغلا فيه تغلغل الروح فى الجسم والقوة فى المادة والنظام فى الحكم ، لا يصح أن نحمله على خالق الكون وأنه هو ذاته ، لئلا يلزم كوننا بعضاً منه أو كونه حائلا فينا وذلك يتنافى مع تنزيهنا له والإيمان بتعاليه علينا وانحدارنا عنه .

إذن فبماذا نعلل حمله النور على ذاته واتصافه به ثم الإمعان فى تشبيه ذلك النور بالمشكاة فيها مصباح كأنه كوكب درى ؟؟ أرى أن ليس فى هذا التشبيه شئ من حقيقة لأن الله الذى خلق العوالم فى الكون متغيرة مختلفة كلياً وجزئياً ، هو أبعد من أن يشبه شيئاً منها ، ولكنه يتشبه بالمثل الأعلى فى كل عالم ليقرب

من نفوسه فيهيمن على أعماله بين يدى هديه وإرشاده وبالتالى توجيهه إلى الحكمة القائمة على بعثه وإيجاده .

فنسبتنا إليه العطف والكرم والعفو والإحسان والجبروت وغير هذه من الصفات الحسنة ، كنسبتنا إليه تعالى سمو المكانة وعلوها ، وهكذا نجد أن اختصاصه فى كتبه المنزلة وعلى السنة رسله وأنبيائه بتلك الصفات إنما يجرى على مفهوم عالمنا القائم فى تفكيره وتصويره وتمثله وتخيله ، على سنن قومنا بها وأقرنا عليها ، وجعل فيها لنا مقاييس وموازين ، ثم أقام على العمل بها والإمعان فى تقويمها ، عقلا أنار به البصائر وثبت القلوب وعصم النفوس من أن تتردى فى السير بهذه المقاييس على هاتيك السنن .

ولما كان فى مفهومنا أن النور أشرف من الظلمة ، وأن الجمال أفضل من القبح ، وأن الكبر خير من الصغر ، وأن العلو أعز من الانحدار ، أطلقنا عليه تعالى أو أطلق هو على نفسه لفظ المنير والجميل والكبير والمتعالى ونحوها مما قر فى نفوسنا أنه شريف ، ولو أمعنا فى اكتناه الحقائق ، لوجدنا أن العلة التى يتقوم بها الظلام والقبح والصغر والانحدار هى عين العلة التى يقوم عليها النور والجمال والكبر والعلو ، أفما تساوى لدينا فى العظمة نظام الذرة التى تصغر عما ترى العين ثلاثة ملايين ضعف ، ونظام الأجرام السماوية التى تكبر عما يحده الفكر مثل تلك الملايين ؟؟

أو لم نوقن بأن فى الظلمة الدامسة أشعة مجهولة لم تكن عين الإنسان المركزة فى عالمها على أشعة شمسها الخاصة بها ، لم تكن لتقوى على إبصارها ؟؟ أو لم نصل بالبحث العلمى الصحيح إلى أن الحسن والقبح نسبيان يتقومان بالأسباب التى من أجلها كان الحسن حسناً والقبيح قبيحاً ؟؟ أو لم نعلم علم اليقين أن السمو أو الانحدار وسائر جهاتنا الست قائمة على مفهومنا لا على الواقع الذى يثبت أنا مخلوقون من جرم يتقلب فى سيره ، ويختلف نظامه القائم على الحركة باختلاف القوة التى يعتصم بها من الفوضى فى الحياة ؟؟

وإلا فكيف نصفه بالجميل وهو الذى أبدع القبح وهل يخلق الجمال قبحاً ؟؟ وكيف نصفه بالكبر وقد أثبت العلم أن تفجير الذرة هو العلة الأولى فى تلاشى

الجرم القائم فى عظمته على تلك الذرة ؟؟ ثم كيف نختار له أعلى مكان يستوى فيه على العرش وهو فى كل مكان ؟؟ أم كيف نشبه نوره بمصباح يوقد من شجرة زيتونة وقد أثبت لنا العلم ضآلة هذا المصباح بين يدى مصباح الكهرباء فضلا عن كواكب السماء ؟؟ على أن العلم الصحيح ، قديمه وحديثه ، يثبت لنا أن كل مخلوق ضمن عالم خاص به فى تدبيره وتفكيره ، لأن التدبير مركز على التفكير والتفكير قائم فى صميم العالم الذى يشعر به ويتحسس منه .

فالعقل الكلى الخاص بعالمنا يرسم خطط الحياة لنا من واقع ما نتقوم به مادة وأدباً ، ويفرض علينا العجز فى تلمس ما يغاير هذا الواقع الذى يهيمن بوجوده علينا ، ثم هو يصلنا من حيث لا نشعر ، بغيرنا من عوالم يتقوم بها الكون ، ومن هذه الصلة الضئيلة بيننا وبين غيرنا من عمرة الوجود ، تنبثق هذه الأشعة التى نمشى على ضوئها فى طريقنا إلى الخلود ، وعلى هذه الأشعة نطلق حيناً لفظ العلم وأحياناً لفظ الفن القائم على الوحى والإلهام ، فالتفكير فيما يغايرنا جزئياً كغيرنا من العوالم الكونية ، رهن بمقدار النضج فى العلوم التى من الله علينا بها فى سابق علمه ، وأما التفكير فيما يغايرنا كلياً كعالم اللاهوت ، فذلك أبعد من أن يناله عقل أو يحيط بكنهه تفكير ، وإنما نحاول الصلة به عن طريق مثلنا العليا التى يلهمنا خالقنا أنها مثل عليا فى حياتنا ، وعلى هذا الأساس يجب أن يقوم بناء العلم الذى نتخاطب به فى تفكيرنا ويخاطبنا به من يهيمن بعظمته علينا .

والبرهان على ذلك أنه يخاطبنا باللغة التى نفهمها فى حيز عالمنا ، فلم يشبه نوره بالأشعة التى هى أقوى من أشعة المصابيح الموقدة من زيت الزيتون لأنا لا نفهم تلك الأشعة يوم أنزل علينا القرآن ، ولكنه طوى تلك الأشعة العليا فى قوله : الله نور السموات والأرض ، ثم قرب لنا هذا النور ليكون مرمى إحساسنا بأن شبهه بأقصى ما نتأثر به من الضوء الملابس لحياتنا وهو ضوء المصباح ، ولهذا قال عز من قائل : مثل نوره كمشكاة ، ولم يقل أن نوره مشكاة كما قال : انه نور السموات والأرض ، والتمثيل فى علم البيان لا تجب فيه المطابقة كلياً وإنما تجب فيه جزئياً ، لأن تشبيه المرأة الجميلة بالقمر أو الغزالة أو الزهرة

لا يعنى أنها هى كلياً ولكنها تعنها فى جزء منها كالبهاء فى القمر والعينين والعنق فى الغزالة وكالعطر واللون فى الزهرة ، وهكذا إذ نشبه الرجل الجرئ بالأسد فانما نلحظ الشجاعة التى هى أبرز صفات الأسد ، وجه الشبه بينهما ثم نطلق أحدهما على الآخر .

من هنا نصل إلى أن لغة الوحى الذى ينزل على رسول ما ، يجب أن تخاطب عقول من أرسله الله إليهم لئلا تكون رسالته عبثاً فى قومه ، فعوالم الكون كله بالنسبة إلى مبدع الكون ، هى كالأطفال بالنسبة إلى الآباء ، فاللغة التى تخاطب بها أطفالنا بين يدى توجيههم وتثقيفهم فى سبيل الكمال ، هى عين اللغة التى تخاطب رب العباد بها عباده بين يدى توجيههم وتثقيفهم فى سبيل كمالهم الإنسانى ، وكما أن لغة الآباء للأبناء وهم أطفال ، تختلف عن لغتهم لأبنائهم وهم شبان ، كذلك تختلف لغة الوحى للعوالم وهى فى طبقاتها الدنيا ، عن لغته لها وهى فى المستوى الرفيع من سمو الفكر ونضج العقل .

فالقرآن ، كما يقرر الحكيم الأرلندى برناردشو ، يصلح للإنسان حتى نهاية الإنسان » لأن وحى القرآن يخاطب بلغاته مجموع طبقات الإنسان ، فليس لواعظ بالوحى أن يعد أمثال برناردشو فى أخراه بجنات تجرى فيها أنهار من لبن وخمر وعسل ، وليس لواعظ بهذا الوحى أن يخاطب الطبقات المسفة بادراكها من بنى الإنسان بقوله تعالى : ولو أنزلناه ملكاً لجعلناه رجلا » فان الذى يفهم أن الملاك لا يكون رسولا حتى يكون رجلا إنما هو أمثال برناردشو ، وأما الذى لا يفهم من الجنة إلا أنها تين وزيتون وعنب وقضب ، ولحم طير ، وأكواب من فضة ، وثياب من سندس ، إلى غير ذلك من لغة الوحى القاصر على تربية الدنيا من هذه الطبقات ، أقول : أما الذى لا يفقه من القرآن إلا هذا فهم هؤلاء الذين لا يفهمون الحياة إلا أنها طعام وشراب ولباس وسكن .

أما أن نفهم أن الملائكة عالم والاناسى عالم آخر ، وليس فى طوق الإنسان أن يكون ملكاً حتى يتقوم بعناصر الملائكة فيتحول من عالمه إلى عالمهم ، كما أنه ليس فى طوق الملاك أن يكون إنساناً حتى يتقوم بعنصرية الإنسان فيتحول من عالمه إلى عالم الاناسى ، فلو شاء الله أن يرسل إلى البشر نبياً رسولا من ملائكته

لكان عليه أن يحول الملاك إلى رجل فى شكله وعقله ليروه ويسمعوه ويعقلوه ، أقول : أما أن نفهم هذا من وحى الله فنحتاج معه إلى العلم الذى يكشف لنا عن أن الحياة التى نحياها إنما هى وسيلة لحياة أسمى لا أنها غاية نقف عندها ثم نتلاشى فى عدم لا نعود بعده إلى وجود .

وهكذا نستطيع أن نقيس على ما مر من تعليل هذه الظاهرة فى لغة الوحى ، ما ورد فى القرآن من قصص على ألسنة قوم ومن قصص آخر يحكى تفكيرهم ويمثل صور هذا الفكر فى سبيل الخروج بهم من عالم البداية إلى استقبال ما يمتازون به عمن ينحدر عنهم من عوالم ، كما نفعل فى تربيتنا الطفل بلغة يفهمها حاكية عن خياله وتفكيره فى سبيل الخروج به تدريجاً من عالم الطفولة القاصر على الأوهام ، إلى عالم الرجولة القائم على الحقائق فى تعليل وجود الإنسان .

محمد أَخرِجْ مَتاعَكَ إلى الطَّرِيق :

قالها صلى الله عليه وسلم لرجل شكا إليه أذية جاره، ولما ائتمر بقول الرسول وأخرج متاعه إلى الطريق ، اجتمع الناس عليه يلعنون مؤذيه ويخزونه حتى جاءه جاره ورجاه العود وأقسم أن لا يؤذيه بعد ، فعاد .

هذه من أصول التربية الاجتماعية التى درج عليها نبى الرحمة ، فقد دعا لهذه التربية بصلة الرحم أولا ، لأن الأسرة أس المجتمع ، والرحم فى صميم الأسرة ، ثم يليه الجار ، وقد عززه بكثير من أقواله حتى قال أصحابه : ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه ، ثم يلى تعزيزه الجار تربية المجتمع ، وقد أفرغها من بيانه فى قوالب تستعصى على الحصر كقوله : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، وكقوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وكقوله : ليس منا من غش ، وكقوله : الدين المعاملة ...

ولست الآن بصدد هذا الاستطراد ، ولكنى أمسك بالحديث مع الشاكى للنبى من أذية جاره إذ قال له : أخرج متاعك إلى الطريق ، وهذه كلمة مقتضبة من حديث مسهب فانها عارية من لفظ الجار ، ومن سبب إخراج المتاع إلى الطريق ، ثم من علم الناس بهذا السبب علماً يحملهم على اللعن ، كل ذلك مفقود من الجملة ، ولكن رواة الحديث ينقلونها وما لابسها كجزء من سيرته صلوات الله عليه . أقول : لقد أحببت أن أمسك بهذه الجملة من الحديث لأدل على كونها من جوامع الكلم مع كونها بتراء لا يفهم السامع ما تنطوى عليه من جلائل المعانى حتى يعلم الغاية التى تستهدف له .

ولنضرب لذلك مثلا محسوساً مما نعيه فى كل عصر لندلل على عظمة الفكر الاجتماعى القائم فى نفس محمد وهو يلقن أمته دروس الحياة ، هذه الدروس التى لا يزال العلم فى كل عصر يفتق منها أصولا وقواعد لنواميس الحياة ، فاسمع وفكر واعتبر :

أملى علينا بعض الشيوخ الذين سبقونا فى السن : أنه كان يحكم قضاء «صيدا» فى جنوب لبنان حاكم تركى أمعن فى العسف والجور على بلدة فى ذلك القضاء تدعى « جبع » وهى المصيف الأول لساحل « صيداء » قال المملى على : ولعل السبب فى هذا العسف يعود إلى أن جبع هذه كانت مقراً أول لفقهاء الشيعة الجعفريين ، وقد كان التعصب المذهبى آنذاك ، آخذاً بخناق الأمة الإسلامية ، وقد كانت بطانة الحاكم نفراً من غلاة هذا التعصب الذميم ضد الشيعة الذين يجاورونهم وكانت حكومة الترك تدين لله على مذهب أبى حنيفة ، بهذا التعصب أوغرت بطانة الحاكم صدره وأحفظته على أولئك المستضعفين ممن يدينون لله بمذهب جعفر بن محمد الصادق ،أمعن هذا الحاكم فى ظلم رعيته القاطنين بلدة جبع ، وكانوا مع جيرانهم الذين طغى الظلم عليهم يعدون آلافاً من البائسين » .

« ولما أوغل بهم عسف الحاكم تحت وطء الضرائب ، وضاقوا ذرعاً به ، ولم يطيقوا صبراً عليه ، فزع الخاصة منهم إلى فقيه « جبع » الأول يسترشدونه فى الخلاص من بغى ذلك الحاكم ، فسألهم : أتأتمرون بما آمركم به على أن لا أحملكم على غير ما حمل رسول الله المبغى عليه من أصحابه ؟؟؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : على أن لا تسألونى السبب فيما آمركم به حتى تصلوا إلى النتيجة التى أسأل الله لكم فيها النجاة ؟؟ قالوا : نسمع لك ونطيع أمرك ، فقال : إذا كان صباح يوم الجمعة فأتوا ساحة البلدة جميعاً نساء ورجالا وأطفالا ودواب محمولا عليها كل ما تملكون من أثاث وسأكون بينكم أفعل فعلكم هذا »

ويتنادى أهل البلدة والقرى المحدقة بها ، ليوم الجمعة بأمر العالم الفقيه المطاع ، على الشكل الذى رسم ، وكان يوم الجمعة مهبط القرى جميعها مع ما يملكون حتى ضاقت السوق وغصت شوارع البلدة والحقول المحيطة بها ، وإذا بالشيخ الآمر الجليل يحمل أمتعته وحرمه وأطفاله على دوابه ، يشير إليهم أن يتبعوه ثم لا يسألوه أين يتوجه ، ولا يجيبوا أحداً يسألهم فى طريقهم إلا بأنهم تبع للشيخ ، ثم يجعل القوم وجهتهم إلى صيداء .

وكان لابد من أن يتصل بالحاكم الأعلى « القائمقام » التركى فى مركز القضاء صيداء ، نبأ هذا الحادث المخيف وهو هجرة آلاف من رعيته رجالا ونساء

وأطفالا بقضهم وقضيضهم إلى حيث لايعلم ، فراح يتساءل ونفسه عن سبب ذلك ، وإلى أين يغادر هؤلاء وطنهم ؟؟ وما الذى حملهم على الهجرة ؟؟ وقد عز على مضجعه القرار ساعتئذ ثم لم يملك نفسه من القلق واستدعاء خاصته من المجلس البلدى إلى رجال الإدارة ، واستفهامهم عن هذا الحدث الغريب ؟؟

وقر قرارهم على أن يبعث الحاكم بنفر من الخاصة مصحوب بفصيلة من الجند إلى قائدهم الشيخ قبل أن يصلوا إلى صيداء فتحدث هجرتهم هذه ضجة قد تتصل بالوالى فى بيروت ويضطره إلى البحث والاستقصاء عن أسباب هذا العمل الشاذ المفاجئ ، ولقد فعل ذلك فلم يفلح فى إرجاع تلك الجموع التى ملأت سهول صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ولم يزد الشيخ فى الجواب على « أنهم شعب مظلوم فى وطنه خرج يلتمس وطناً آخر لا عهد لأهله بالظلم وهو لا يرجع مع من معه إلا مستشهدين جميعاً أو يبلغوا فى هجرتهم عاصمة المملكة استامبول »

ونزل هذا الخبر على حاكم القضاء نزول الصاعقة ، إذ عاد وفده مخفقاً ، وأن الجماهير قد اجتازت صيداء فى طريقها إلى بيروت ، ومنها إلى الآستانة ، وعزز الحاكم وفده بوفود تتلو الوفود إلى قائد المهاجرين يرجونه ويتهاوون على قدميه فى سبيل إقناعه وأنهم يضمنون له رد الظلامات فلم يفلحوا ، ولا أبه القوم بهم ، وكانت صيداء بأسرها تتجمهر خارج المدينة لتشاهد أمة بأسرها قد غادرت أوطانها نساء ورجالا وأطفالا وأموالا ، فيرتاعون لمنظرهم الرهيب تحت صراخ الصبية وعجيج الأباعر ونهاق الحمر وثغاء الشاء ومواء العنز وجلبة الخيول ، فتتضاعف الحسرات فى نفوس النظارة ويكثر التساؤل عن أسباب هذه الفاجعة .

وينزل الذعر فى قلب الحاكم وحاشيته فلا يرى ، قبل أن يستفحل الأمر ، إلا أن يتأثر بنفسه وخاصته ، أولئك القوم فيلحقوا بقائدهم ويبسطوا له النزول على حكمه فى كل ما يقترح مختاراً غير مكره ، وقد فعلوا ذلك ولحقوا بالجماعات حتى وقفوا بين يدى الفقيه واسترحموه فأكب الحاكم على يديه معترفاً نادماً ، مذعناً لتنفيذ ما يأمره به ولو كان فى ذلك استقالته من منصبه ، على أن يعود

الشيخ وجماعته موفورى الكرامة مطمئنين إلى الرفق بهم والعطف عليهم والعدالة فى رعايتهم ، فقال له الشيخ :

« نحن مسلمون لا نبيت على ضيم ، ونحن مؤمنون والمؤمن عزيز لا يذل ولا يستضعف ، وأرض الله واسعة لا تضيق بمن آمن وعقل واتقى ، ولقد بسطت يدك إلينا بالظلم فوق ما بسطنا لك أيدينا بالطاعة ، فما لمسنا منك عدلا ولا رحمة ، وانك راع وكل راع مسئول عن رعيته ، ونحن الآن إنما نترك أوطاننا فراراً من جور سلطانك إلى سلطان من هو فوقك من رعاتنا ، لنعلم أكنت مخولا منه أم خارجاً عليه فى هضمنا والجور علينا ، فأما وقد جئت إلينا معترفاً بذنبك معتذراً عما فرط منك ، فلا نجد غضاضة فى العود إلى سلطانك والنزول على حكمك ، شريطة أن تفى بوعدك ولا تنقض عهدك »

ويأمر الشيخ أهله وقومه بالرجوع إلى مواطنهم ، واستئناف العمل تحت سمائهم ، والجهاد فى سبيل حياتهم آمنين مطمئنين ، ولقد وفى لهم الحاكم بما وعد ، وأصبح أخاً صادقاً للشيخ ، مخلصاً فى رعايتهم بفضل الحكمة التى كانت رائد الشيخ أولا ، ثم كانت هدف الحاكم أخيراً ، ولم يكن ذلك كله من هذا وذاك لو لم يعتصم الأول بدينه ، ويتأثر بنبيه فى هديه ، ولو لم يثب الآخر إلى عقله ويفزع إلى الإخلاص فى عمله .

علي

يا أَيُّهَا الأَغْنِيَاءَ أَكْثِرُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ . فإنَّ سَيِّآتِكُم كَثِيرَة ، وَيا أَيُّهَا الْفُقَرَاءِ أَقِلُّوا مِنَ السَّيِّآتِ فإنَّ حَسَنَاتِكُم قليلة .

من مزايا اللغة العربية ، وسجاياها العريقة فى صميم الفن الخالد ، هذا البيان البيان فى تركيب جملها ، وكما أن الشاعر يخطئ الجمال إذا حاول تحديد الجمال فيما يرى ، هكذا نجد الكاتب يخطئ البيان إذا حاول تحديد البيان فيما يسمع .

لقد أمعنا فى دراسة اللغات الأعجمية شرقية وغربية فلم نجد فى لفظها ولا فى معناها شيئاً ولو يسيراً من هذه المزايا القائمة فى لغة العرب من حيث روعة الفن فى موسيقى اللفظ وبدعة الأسلوب وسحر البيان ، فليتأمل قارئى كل ذلك فى هذه الجمل التى تحتل صدر البحث ثم ليعذرنى إذا لم أفض فى القول على الإشارة إلى ما اندمجت عليه من إعجاز .

يخاطب هذا السيد الملهم ذوى اليسار بأن يكثروا من الحسنات لقدرتهم عليها بالمال ، فان المال أكبر عامل فى صنع الحسن ، ويخاطب ذوى العدم والفاقة بأن يقلوا من السيئات لعجزهم عنها بالفقر الذى هو أكبر عامل فى تحامى السوء .

ثم يجعل ببلاغته البالغة حد الاعجاز ، علة أمره للأغنياء بالإكثار من الحسنات ، يجعل علة ذلك كثرة ما يقترفونه من الإثم ، ويجعل علة أمره للفقراء بالإقلال من الإثم ، قلة ما يحسنونه من عمل ، ففى مقابلة الكثرة هناك بالكثرة ، والقلة هنا بالقلة ، ومقابلة السيئات هنا بالحسنات ، ومقابلة الحسنات بالسيئات مع بلوغ المعنى وجلال التركيب ، أقول : ان فى ذلك مالا أطيق التعبير عن روعته فى نفسى .

ذكرتنى هذه الحكمة لطيفة مرت بى وأنا أستمع إلى وصايا أبى لى وإلى عظاته البالغة فى نفسى إذ كنا نستعرض للفقر والغنى ، وأن الفقير مغبون فى

الحياة بينما نرى الغنى طائل اليد فيها ثم هما سيان يوم يردان على ربهما ويحاسبان سواء كانا فى الجنة أو فى النار ، لغموض الحكمة فى الكلمة المأثورة : الغنى الشاكر والفقير الصابر فى الجنة .

قال أبى : لقد سئل أحد الفقهاء الأعلام من جلسائه عن السر فى كون الغنى الشاكر والفقير الصابر فى الجنة على السواء ، بينما هما فى دنياهما مختلفان سعادة وشقاء ؟؟ فأجاب الفقيه سائليه : بأن الكشف عن هذا السر يقتضى صبركم على الإجابة أياماً ، ثم التفت إلى الغنى منهم وقال : أحب أن تولم لنا غداً وليمة عشاء ، فلبى الغنى وكانت وليمته للفقيه وجلسائه على قسط وافر من أطائب الطعام وتعدد ألوانه ،

ثم طلب الفقيه ممن يلى صاحب الوليمة فى الغنى أن يفعل فعل زميله ، فلبى هذا طلبه وأولم لهم عشاء الغد بما يقرب من وليمة الأول ، وهكذا يستمر الفقيه فى طلبه إلى جلسائه بأن يتوالوا على نصب الموائد واحداً بعد واحد حتى انتهى إلى الخادم ، فطلب إليه مثل الذى طلب من أولئك فأسر الخادم إلى سيده الفقيه بأنه لا طاقة له على الإيلام لفقره ، فقال السيد : ألا تستطيع إقامة مأدبة من الخبز والبصل ؟؟ فأجابه أن ذلك سهل ويستطيعه ، فقال : إذن نتعشى جميعنا غداً فى منزلك ، وقد كان ذلك فلم ينكروا عليه لعلمهم بفقره ، ثم دعاهم الفقيه من غده إلى الحمام على حسابه ، وماذا كان فى الحمام ؟؟؟

لقد أسر الشيخ إلى الحمامى أن يزيد فى حرارة المغطس ، وهو الحوض الذى يفرغ المستحم إليه بعد إزالة الوضر عن جسمه بالصابون ليزيده به نزاهة ونقاء ، ثم أمر الشيخ جلساوه أن لا يمس المغطس أحداً منهم بعد فراغهم من الاستحمام حتى يكونوا جميعاً محدقين به وهو معهم ، فلبوا أمره وأحدقوا بالمغطس بعد الانتهاء من التدليك ، فعمد الشيخ إلى أول رجل طعموا عنده وأمسكه من كتفيه ثم أنزله المغطس وسأله تعداد الألوان على مائدته يوم استضافوه فلم يطق تحت وطء الماء الشديد الحرارة أن يعدد بعض الألوان .

وهكذا أعاد الشيخ الكرة مع زملائه وهو يضغطهم فى الماء الحار ثم يسألهم تعداد الألوان على مآدبهم فلا يطيقون ويستغيثونه ليخرجهم ، حتى إذا انتهوا

جميعاً وجاء دور الخادم فغطسه وسأله فكان جوابه « بالخبز والبصل » مكرراً قبل أن تلذعه حرارة الماء ، فالتفت إليهم الشيخ إذ ذاك قائلا : هذا جوابكم عن سؤال مر فى شأن الغنى الشاكر والفقير الصابر ،وإن الله لم ينصف الفقير فى دنياه إذ جعل نصيبه من الآخرة كنصيب الغنى ، قال الشيخ :

ان هول الحساب وطول أمده يقاسيه الغنى وإن كان شاكراً حتى ليضج الناس من سكرة الموقف ورعبه ويقولون : أنقذنا يا رب من موقفنا هذا إما إلى جنة أو إلى نار ، بينما يكون فقير الدنيا الصابر فى الجنة لم ينله من هول الحساب ما نال زميله ، وذلك مقابل ما شقى به فى دنياه من البؤس والشقاء الزائل .

يعجبنى فى هذا الجواب كونه عملياً ، والجواب العملى أو الواقعى كما يعبر عنه بعض المعاصرين ، هو خير ما يتعظ به الإنسان لقربه من واقعه ، ويكاد الدين كله يكون واقعياً لا مثالية فيه حتى المغيبات إذا لحظنا عجز الإنسان عن إدراكها وكونه غير مكلف بها ، على أن شيئاً واحداً فى جواب الفقيه الجليل لا يتلاءم مع الأخبار المتواترة فى أن المؤمن غنياً كان أو فقيراً مشمول بعد موته برحمة الله حتى يدخل الجنة ، فكيف يناله هول الحساب ؟؟ والجواب عن ذلك سهل إذا لحظنا أن الجواب تقريبى لا قطعى وأن المقصود منه الإقناع لترك الخوض فيما يقصر فهمنا عن إدراكه .

وقد يقال فى دفع هذا أن الذى يقف للحساب وإن كان مطمئناً إلى رضى المحاسب عنه وإلى أن عمله قائم على الحق ، ولكن هيبة الحساب وعظمة الهول فيه تستلزمان رهبة المنتظر وهو إنسان مفطور على الخوف ، على أنا نستطيع القول : إن موقف الحساب الطويل مهما سادته طمأنينة الموقوف من وراء إيمانه ، فانه ليس كالمكوث فى الجنة فان الموقف على الصراط للحساب عار عن ثواب المؤمن وعن عقابه ، ولكن سكنى الجنة خلاف ذلك ، وهذا الجواب أصح من ذاك ، نسأل الله العصمة فى الفكر والقول .

الله

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ

كان الرسول قد استجاب لبعض أصحابه بالصلاة على ميت لهم ، فجذبا الخليفة عمر من ردائه منكراً عليه صلاته فنزلت هذه الآية تأييداً لعمر وتأنيبه لرسول الله إذ كان الميت من المنافقين ، ففى ذمة الله عبده ورسوله محمد ، وفى ذمة التاريخ أنت يا عمر .

أتسآءل ونفسى عندما قرأت هذا الخبر فى كتب السير وقد تناولته الصحاح منها ، أتساءل ونفسى عن مبلغ ما تؤيد هذه الكتب حديث جبريل وهو يهبط من السماء ومعه ميكائيل يحملان طستاً من ذهب الجنة وماء من كوثرها ليشقا صدر محمد وهو صبى تحتضنه حليمة ثم وهو غلام ثم وهو شاب ، على روايات مختلفة ، بعضها يقصر الشق عن قلبه فى طفولته ، وبعضها يتجاوزه إلى أكثر من شق واحد فى أوقات مختلفة ، أقول : أتساءل ونفسى إذ وقفت على روايات الشق وإخراج قلب الرسول ، ثم غسله بذلك الماء فى ذلك الطست ليطهره من نزغ الشيطان ووسوسته بين يدى تأهيله للعصمة فيما يقول ويفعل ؟؟

أتساءل وهذه النفس إذ ذاك عن أثر هذا الشق وذلك الغسل بيد جبريل ، وكيف لم يعصم النبى وهو يخطئ فى قوله أو عمله فيرده عن خطأه بعض أصحابه الذين لم يهبط عليهم جبريل ولا شق صدورهم عن قلوبهم ليطهرها من الزيغ ، ثم يهبط جبريل الذى شق صدره بالأمس ، يهبط عليه اليوم ليخطئ محمداً ويصوب عمر ، ولا أرى فى أمهات كتب السير والأخبار ما ينكر هذا الحدث الهام الذى يجبه مقترفوه فرقان محمد إذ يقول : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ...

لم يكف المفترون على محمد وصاحبه عمر بأن هذا خالف ذلك حتى يتعدوا فى فريتهم إلى أن الوحى نزل مصوباً عمر ومخطئاً محمداً ، ضاربين بالعصمة التى فرضها الدين والعقل على رسولها إلى الإنسانية لينقذها من الضلال ، وأعجب من ذلك أنى فزعت إلى من اتق من نضج العقل فيهم ما أطمئن معه إلى انصافهم

فى الحكم على التاريخ ، سألت هذا الذى فزعت إليه عن مبلغ رأيه فى أن عمر خالف نبيه ثلاث مرات وقيل سبعاً وكان الوحى فى أعقاب كل خلاف بينهما ينزل مؤيداً رأى عمر ومفنداً رأى محمد ، فأجابنى صاحبى بأن ذلك حق لإثبات إنسانية محمد وكونه بشراً يخطئ ويصيب .

الغريب فى أمر هؤلاء الناس أنهم يقرون أن لا يوكل أى عمل لأى إنسان ما لم يؤهله لذلك العمل مقدرة فنية وموهبة شخصية تتفقان وإصدار هذا العمل عنه محكما متقنا ، وإلا ساد المجتمع فساد تتلاشى معه الإنسانية آخر الأمر ، إن هؤلاء يعترفون بأن من الإنسانية أن يعالج المرضى طبيب مخلوق لمعالجتهم ، وأن يثقف النشء معلم يؤهله فن التربية للتثقيف ، وأن يفصل فى الحكم بين المتخاصمين قاض يحمل فى دماغه عقل الحاكم وفى صدره ضمير العادل ، وأن يبنى القصور مهندس قام على فكره فن البناء ، وقامت على يديه زاوية إحكامه ، وهكذا يستمر إقرار هؤلاء الناس منطق العلم والفن فى بناء حياتهم دون أن يفكروا فى أن هذا النفر القائم على بناء حياتهم بشر أو بقر .

ولكنهم إذ يصعدون إلى قمة الحكم على بانى الإنسانية التى هى مصدر الحياة يخرسون فلا يحددون وظيفة هذا البانى ، ولا يشيرون إلى ما يجب أن يتصف به فى عقله وقلبه أمام هذه الرسالة العليا التى يضطلع بعبئها فى بناء الإنسانية ورسم الخطط التى يقوم عليها ناموس الكون ألا وهو الدين ، إنهم يجهلون وظيفة النبى ويتناسون ما يجب أن يتخلق به وهو معلم يثقف عقولهم ، وطبيب يعالج نفوسهم ، وقاض يفصل فى الحكم بينهم ، وبان يرسم خطط الحياة لهم ، إنهم يتناسون كل ذلك فيه ثم لا يذكرون إلا أنه بشر يخطئ ويصيب .

نعرف جيداً أن محمداً رسول الله ، وأن رسالته مأخوذ فى مفهومها ، المثل الأعلى لتوجيه الإنسانية ، وأن صاحب هذه الرسالة يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والسهو والنسيان بشهادة العقل والدين ليكون الرجل الكامل فى إنسانيته ، فيكون الصادق إذ يقول ، والمخلص إذ يعمل ، والعبقرى إذ يسن الأنظمة ويشرع النواميس ، فيرسخ من هذا كله فى نفوسنا أنا إنما نتأثر فيما نعمل رجلا هو منا فى طبيعته وفوقنا فى عقله وروحه .

فمن هو هذا الذى يريد أن يفرض علينا ديناً بعث الله به على لسانه وألهمه قلبه وقوّم به عقله ، ثم نراه دون بعض منا فى بعض ما يرى ، ويهبط عليه الوحى مصوباً رأينا ومسفهاً رأيه ، من هو هذا الرسول الذى يأتمنه الله على رسالته ثم يؤنبه على أدائها ويأمره باتباع غيره فى إحكام هذا الأداء ؟؟ أهو رسول حق ؟؟ يتنزل عليه الروح الأمين قبل بعثه فيشق صدره ويطهر قلبه ليستل منه العقدة التى تفسح للشيطان أن يوسوس فيها ؟؟ إذن لم شق جبريل صدره وغسل قلبه إذا لم نؤمن بأنه معصوم عن الخطأ فيما يقول ويفعل ؟؟ أكان جبريل عابثاً أم كان مأموراً من ربه بأن يحول محمداً بفعله هذا من إنسان يخطئ ويصيب إلى إنسان يصيب ولا يخطئ ؟؟ وإذا كان لا بد من الخطأ فى الإنسان ليكون إنساناً فما معنى أمر الله إياه بأن لا يخطئ ؟؟

إن العصمة ممكنة فى الإنسان لأنه مأمور بها ولكنها فى الإنسان مراتب أسماها عصمة الأنبياء ، كما أن الخطيئة مراتب أحطها الشرك بالله تعالى فمنا الموحد المؤمن الذى اعتصم بتوحيده وإيمانه عن الكبائر دون الصغائر ، ومنا الموحد المسلم الذى سما بتوحيده عن الشرك ولم يعصمه إسلامه عن الآثام ، ففى صميم الدين والعقل أن نعتقد بعصمة الرسل ثم نعتقد بأن عصمتهم هذه فوق عصمة غيرهم وأنهم أفضل الخلق فى كل ما يشركهم به الخلق من طبع فطروا عليه وكسب هدوا إليه .

معقول أن يرى النبى رأياً لا يقره الله عليه ويثنيه عنه بوحى وإلهام ، ومعقول أن يرى المؤمنون من أصحابه رأياً يقرهم عليه الله بوحى ينزل على رسوله ، أما أن يرى النبى رأياً ويرى أصحابه خلافه وينزل الوحى مؤيداً لهم دونه فهذا مالا يجوز تصوره ، لأن كرامة النبى ومكانته من نفوس أصحابه تتزعزع ولو لحظة ما ، إذ يلحظ مخالفه ، عندما يتأيد عليه بالوحى ، نقصاً فيه أو كمالا عليه ، ولو جرى هذا مرة واحدة لا سبع مرات لرأينا المنافقين الذين يتوقعون منه صلى الله عليه وسلم أقل بادرة تشعر بخسته أو نقصه ، لرأيناهم يرفعون العقائر بما يشفى نفوسهم المرضى ، ولسمعنا عجيج الهود والمجوس ممن عاصرهم ومن قفى على أثرهم من أعداء الإسلام فيملأون الطوامير بمثل هذه الأكاذيب .

ولكن هؤلاء يعلمون جيداً أن المسلمين لا يؤخذون بذلك فيعمدون إلى دس آخر هو الإشادة بفضل من دس على الإسلام وانتقم منه وافترى عليه ، أمثال مروان بن الحكم ومعاوية بن أبى سفيان ومن نهج نهجهما ممن زوروا على محمد وعمر وعلى غيرهما من أصحاب رسول الله الأبرار هذه الأكاذيب ليبرروا مروقهم من الإسلام بخروجهم على نواميسه وانتهاكهم حرماته ، ومشى على الضعفاء منا ما زوروه فخضعنا لسلطانهم باسم الدين ، ولم نزل حتى اليوم نؤخذ بمثل هذه الرزايا على أيدى وألسنة خلفائهم من حكامنا الذين تأثروهم بالجور فى الحكم ، والتهالك على المناصب ، واستحلال الدماء البريئة فى سبيل الشهوات ، مدعين أن محمداً ظهير العدالة ونصير الحق يقول : أطع الحاكم ولو كان جائراً ...

أى محمد هذا الذى يأمرنى باطاعة السلطان الجائر ؟؟ وأى عمر هذا الذى يقبل نسبة الصواب إليه والخطأ لنبيه ؟؟ وأى أبى ذر هذا الذى ينتقص من زميله بين يدى رسول الله ؟؟ وأى عمار هذا الذى تدفعه دلهة الكبر إلى أن يقول غير صادق ويفعل غير مخلص ؟؟ أمحمد يأمرنى بطاعة الحاكم ولو جار وهو القائل : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ؟؟ أو عمر يرضى عن نسبة الظهور على محمد إليه فى حصافة الرأى وتأييد الوحى له وهو القائل : أصابت أمرأة وأخطأ عمر ؟؟ أو يصم أبو ذر أخاه الأسود فى الإسلام بقوله : يا ابن السوداء ، بين يدى خليله محمد الذى يقول فيه : ما أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر ؟؟ أو يخنى الكبر على عمار فيخرف والله تعالى يقول فى الإنسان : ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا ؟؟

إن عهد الأموى المارق من الإسلام يفترى على محمد بأنه يرضى عن الحاكم الجائر ليبرر خروج معاوية الأموى على محمد ودين محمد بخرقه اجماع المسلمين فى حرب على ، حتى ذهب ضحية هذا الخرق عشرات الآلاف من المسلمين ، وبخرقه الدين فى قتل حجر بن عدى وأصحابه من خيرة الصحابة صبراً لأنهم والوا علياً دونه ، وبخرقه نظام الخلافة فى أخذ البيعة لنغله يزيد الفاسق ، ثم ليبرر بالكذب على محمد فعل نغله هذا بأهل بيت رسول الله فى سبيل ملكه العضوض .

وان العهد الأموى المارق هو الذى دس على محمد وخليفته عمر خلافهما فى الرأى ليصل إلى رفع العصمة عن هادى الأمة وجعله فى مصاف الناس يخطئ ويصيب ليحط من قيمة قوله صلى الله عليه وسلم : على مع الحق والحق مع على ، وقوله : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، وقوله : أصدق الناس لهجة أبو ذر ، أقول : أن العهد الأموى الذى أسسه مروان وعززه معاوية هو الذى دس على محمد وأصحابه تلك المفتريات ليهون من عمل عثمان فى أبى ذر وعمل معاوية ويزيد وأعقابهما فى حرب على وسبه وقتل حجر وأصحابه ثم قتل الحسين بن على وأهل بيته ووقعة الحرة وهتك حرمات الإسلام بالفسق والفجور اللذين سادا ذلك العهد المظلم مائة عام كانت ولا تزال ، وسوف تبقى وصمة فى جبين الإنسانية إلى نهاية العالم .

فمحمد سيد العالم لايدانيه فى منزلته من الحق فى العالم إنسان ، هذه حقيقة لايختلف عاقلان فى إثباتها ما لم يكونا فى حدود الجمود أو الجحود ، فليس لمسلم وهو يدعى الإسلام أن يقف على خبر يثبت زعزعة هذه العقيدة فى صدر المسلم حتى يمسك القلم ويثبت على ذلك الخبر خطاً عريضاً يعفى معالمه ، أو أن يضع فى الهامش تعليقاً على الخبر لايتعدى حرفين فقط هما : «كذب الراوى» فان الذين تبوأوا مقاعدهم من النار فى الكذب والافتراء على سيد العالم أكثر من أن يعمهم حصر أو أن يميزهم تمحيص ، ألا وإن فى الكتب الصحيحة التى لايرتاب أكثر أعيان الفقه فى صحة أسانيدها ، إن فيها كثيراً من هذه الافتراآت قد صدق بها جامعوها وأثبتوها على أنها صحيحة من وراء عقل لم يعن إلا بصحة السند دون أن يجعل للعقل سبيلا فى تمحيص المسند وعرضه على جوهر ما أوحى الله به إلى محمد ، ودون إمعان فى السر الذى من أجله قال محمد : «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ... فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتموه عنى تنكره قلوبكم ... فأنا أبعدكم منه» كما مر فى أول الكتاب ..

محمد شَرُّ الطَّعَامِ الوَلِيمَةُ ، يُدعى إِليهاَ الأَغْنِيَاءِ وَيُتْرَكُ المَسَاكِينُ

حدثنى فى مصر كثير من الناس : أن الأمير يوسف كمال ، وهو من الأسرة المالكة ، كان ينفق على مائدته من ماء « الفيجة » عين فى فرنسا ، بين خمسين وثمانين جنيهاً كل شهر ، فكم كان ينفق على ألوان الطعام والفاكهة والحلوى من مصر وغير مصر إذن ؟؟

وحدثنى الكثير أن سماطه كان يمد كل يوم ويحمل على خوانه ما يقرى مأتى إنسان ولكن من يأكل عليه لا يتجاوز بضعة عشر شخصاً ثم تدعى كلاب صيده فتطعم منه وبعد ذلك يكفأ الطعام فى حديقته ويخلط بالتراب لئلا يطعم الخدم والحرس منه ، وليستحيل بعد ذلك سماداً للشجر .

يقول محدثى ، ولعله السيد حسنى تللو الذى كان يستضيفه من الشام على رأس كل عام ليتمتع بفكاهاته بضعة أسابيع ، يقول لى هذا : كنت أرى الخدم والحشم وحراس القصر ، ويبلغون العشرات من المساكين الذين لا يبلغ أجر أعزهم على الأمير فوق ثلاثة دنانير كل شهر ، كنت أراهم يدفنون الطعام بأيديهم ويتحسرون على لقمة منه ولكنه محجور عليهم ، فسألت الأمير يوماً ما : لم لم تأذن للخدم بأكل ما يفضل من الولائم ؟؟ فضحك وقال : هؤلاء قد اعتادوا على الفول فاذا تجاوزوه إلى ما هو خير منه فسدوا ... »

فليتأمل من له فكر ، وليسمع من كان ذا أذنين : إن الكلاب والهررة أجدر بموائد الملوك والأمراء من بنى الإنسان ، ثم لا نرى مندوحة عن أن نخضع للمثل القائل : الناس على دين ملوكهم » ونرى القادة منا والسادة فينا يفرضون علينا الطاعة للملوك والأمراء فى سبيل الزلفى إليهم والأثرة عندهم ليمكنوهم من رقابنا فيكونوا أقسى علينا منهم ، وهكذا تسوء الأمراء بالحواشى ، وتفسد الملوك بالبطائن ، ثم يتلاشى الحكم بين يدى ذلك ويعصف التاريخ بالأمم .

لقد زال سلطان الفراعنة عن مصر ، ودالت دول الأكاسرة فى الفرس ،

وتقلص ظل القياصرة عن الروس ، بتعالى السادة على العبيد ، وتجافى الملوك عن الصعاليك ، وامتياز الخاصة من العامة ، واستبداد القوى بالضعيف ، من وراء هذه الأثرة بحطام الدنيا .

فليس من السهل أن يتصور القارئ والسامع ، موائد تبسط ومآدب تقام وأسمطة تمد كل يوم وكل ساعة فى كل بلد من كل قطر ، ولا ينال منها إلا المتهالك فى ترفه من نعيم الحياة ، وإلا المتخوم بما يتخير من أطائب العيش ، وإلا الكافر بنعم ربه ، بينما نرى على بعد أمتار من هذه المآدب سواد الشعب يتضور جوعاً ثم يحال بينه وبين ما يباح منها للهررة والكلاب . وفى سواد هذا الشعب القاتم عرق ودموع تتحجر لآلىء تزدان بها تيجان أولئك الملوك ، وتندى بها مباسم الحور العين فى قصورهم ، ثم لا يجد الشاعر متنفساً مما يحز فى نفسه مما يرى ويسمع إلا قوله :

يا لهذى التيجان فوق رؤوس ... دونتها فظائع الإجـــرام
تتبنى أحجارها قطـــرات ... حضنتها محاجر الأيتـــام
ملك أو محـــكم أو زعــيم ... أو رئيس ، خلط من الأقزام
ينشدون الحيـــاة مجلوة ... الأفق بعينى غلامة أو غلام
ما عليهم ، وهم نيام عن الأمة ، ... إن هومت مع النــوام
فاستعاضت عن سادة الحكم فى ... الأبهاء بالسيدات فى الأفلام

علي

إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ

يشير بهذا إلى تفشى الرشوة بين الحاكم والمحكوم ، واقتداء المحكوم بالحاكم فى نصرة الباطل وخذلان الحق .

نشرت جريدة التيمس الأمريكية الكبرى لمراسلها فى الشرق العربى قبل عامين كلمة جاء فى مضمونها : ان إدارة الحكم فى هذا البلد — يعنى بلداً عربياً «، أسوأ إدارة فى العالم » ولقد صدق هذا إذ نقل لى أحد المحامين : أن زبانية بعض الزعماء فى البلد المذكور قتلوا رجلين من أتباع زعيم آخر مناوئ له فلم يستجوب القاتل لشدة نفوذ هذا الزعيم لدى المسيطر الأول على الحكم فى بلد الاشعاع .

ان فى هذا القطر العربى ما يزيد على سبعين من كل مائة إنسان من يحمل شهادة فى الثقافة من بدائيين إلى جامعيين ، ومع ذلك يسيطر عليهم فى مجلس التشريع أناس يكاد يكون أكثرهم قاصراً فى ثقافته على القراءة والكتابة فقط ، ويكاد يكون معدوماً فيهم من أوتى حظاً من ثقة الشعب الذى يمثله ، إذ عودهم المستعمر طوال ثلاثين عاماً كل ما يصم العرض ويشل الضمير ويسف بالكرامة ، ثم لا يزال كل قائم على الحكم فى هذا القطر وقد مر على جلاء المستعمر عنه عشرة أعوام عبداً لشهواته ذليلا بين يدى هواه ، لا يعرف وجهاً للحياه إلا حيث يتبوأ منصبه ويضفى على أهله من عرق الشعب ودموعه كل ما يروق العين من متع الحياة .

وفى قطر عربى آخر ، يقول لى بعض أهله : من العبث أن تصل إلى حقك فى دوائر الحكم إلا بواسطة ، وهذه الواسطة لا تعدو أحد أمرين : كبير فى الحكم يوصى بك ، أو حفنة من مال تضعها فى جيب من يتولى قضاء حاجتك ، أما الدوائر التى تدخلها عالى الرأس موفور الكرامة ، والموظف الذى تقف بين يديه وأنت مطمئن إلى حقك ، أما هذا وتلك فلا وجود لها فى بلد ساده العلم وانهارت فيه الأخلاق .

ويقول لى رجل فى بلد عربى آخر : إن المستعمر الافرنسى لم يترك موظفاً إلا وأفسده بتنمية الرشوة فى نفسه واعتبارها عنصراً هاماً فى تقويم حياته ، لأنهم رفعوا مستوى الحياة وجمدوا الرواتب ، فكان من البديهى لمن راتبه عشرة دنانير وأجر سكنه عشرة ، أن يسرق الشعب ثم كان من الضرورى لمن يبذل خمسة آلاف دينار ليشترى بها منصباً فى مجلس التشريع ويصبح ممثلا للأمة ، أن يبيع الأمة للمستعمر سياسياً واقتصادياً وثقافياً ليتقاضى ماستدان فى سبيل منصبه ، لأن راتبه البالغ خمسين ديناراً لايفى مجموعه فى سنيه الأربع ثمن الدعاية بين الجدران وفى أنهار الصحف وعلى ألسنة الدجالين من خطباء ومهوشين .

ويقول لى زعيم عربى كان يصطاف عندنا فى لبنان ، إذ قلت له : أأرشحك فى صحيفتى للنيابة ؟ فضحك وقال : ثمن النيابة عندنا خمسة آلاف دينار يتقاسمها المتصرف ووزير الداخلية ومديرها ، وقد ينال مدير الشرطة شيئاً منها ، وانك لتعلم أن فى طوقى أن أفعل هذا وأدخل البرلمان ثم أخرج منه ساعة أشاء ، كما أدخل مسرح التمثيل فأرى بهلواناً يتنزى وأسمع أساطير تتردد ، ثم أحرم نفسى من مصيف لبنان وأرى أن يوماً واحداً أخلد فيه إلى السكينة والهدوء خير لى ألف مرة من جحيم الصحراء ، أفلا أوفر على نفسى خمسة آلاف دينار تكفينى لمصيف خمسة أعوام ؟؟

وينقل لى شخص عربى فى قطر عربى آخر : أن الشرطى خارج العاصمة قد يبذل لمديره العام ألف دينار فى سبيل نقله إلى العاصمة ، لأن مورد الرشى من العاصمة أضعاف موردها من الألوية والأرياف ، فاذا رشا الشرطى آمره بألف دينار فكم يكون دخله فى العام من وظيفته التى يتقاضى راتبه عنها عشرة دنانير فى الشهر ؟؟ إنها لمأساة إنسانية كبرى هذه الأحداث التى تقع بين سمعنا وبصرنا ثم لا نتساءل وأنفسنا : كيف يعيش الفلاح والعامل والصانع والتاجر فى بلد يسيطر عليه مثل هؤلاء ؟؟ وكيف يتبلغون العيش سائغاً فى ظل حكم لايقوم على أساس من الرحمة والعدل ؟؟

ويقول لى عربى مهاجر أثناء وجودى فى ولايات أمريكا المتحدة ، وهى أرقى بلاد العالم ، واسم هذا العربى محمد برجى ، يقول : لقد كفرت بالعدالة

ى العالم وأن لها وجوداً ، إذ عملت فى دوائر الأمن العام عشرين سنة أخلص ما أكون لبلاد أوتنى واحتضنتنى بعد تشردى وفقرى حتى إذا كانت سنة إحدى وثلاثين وصدر الأمر بتحريم البغاء والخمور كنت أشد زملائى قسوة فى تنفيذ هذا الأمر لأنى مسلم أغار على دينى ولأنى أمريكى أحب وطنى .

ويدهمنى فى إحدى ليالى الساهرة على الحكم أمر خطير إذ عثرت فى إحدى الأدغال على رجل ثرى يعبث بفتاة فى سيارة مملوءة خمراً ، فاحتفظت بهما فى الجرم المشهود وتوسل إلى بالتخلى عنه لقاء خمسين ألف دولار كيلا تفتضح الفتاة وهى من أسرة نبيلة فأنكرت عليه الرشوة وهددته . فقال : انك لا تستطيع إلحاق أى ضرر بى ولكنى إشفاقاً عليك وعلى هذه الفتاة أن تنشر الصحف صورتها وهى مجرمة ، أنذرك بأن تتخلى عنا وتقبل هذه الهدية لقاء تخليك هذا »

فلم أسمع له ولم أستجب لقوله حرصاً على واجبى واحتفاظاً بحرمة القانون الذى اؤتمنت عليه ، ثم لم تصدر صحف ذلك الصباح إلا وصورة المجرمين تحتل صدورها ، وقد لقيت من آمرى كل تشجيع ومن الصحف كل إكبار .

ويمر بى بضعة أشهر وأنا عالى الرأس بما أتيت وإذا بى أفاجأ بطلب من المحكمة لدعوى جناية أقيمت على من رجل مجهول لم أره ولم أسمع به ، وتستمر محاكمتى عاماً كاملا أفرغت جهدى بمؤازرة من وثق بنزاهتى من زملائى ورؤسائى ، أقول : لقد أفرغت كل ما استطعت إعداده من قوى لدفع التهم عنى فلم أفلح ، وكانت العاقبة أن جردت من وظيفتى ولبثت بضعة أشهر فى السجن ثم خرجت منه كيوم ولدتنى أمى لا مال ولا جاه ، فكفرت بالإنسانية والعدالة والرحمة ، بعد عشرين عاماً أضعتها من حياتى إنساناً مخلصاً فلم أفد من إنسانيتى ولا إخلاصى . . . »

وهكذا أستطيع التدليل على عظمة محمد سيد العالم فى قوله : إنما هلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الوضيع أدانوه وان سرق فيهم الرفيع تجاوزوا عنه ، وقول خليفته الإمام على : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه ... ذلك ما أحببت أن أعلق به على الشق الأول من كلمة الإمام وهو ما يختص بالرشى ، وأما الشق الثانى وهو

اقتداء المحكوم بالحاكم فيما يأتيه فيكفى أن أسوق للقارئ مادار فى مجلس ضمنى وثلة من أعيان العرب فى ردهة فندق قصر الكندرة بمدينة جدة أيام زيارتى للأماكن المقدسة فى شهر رجب من هذا العام ١٣٧٥

كان المجلس خليطاً من العرب سوريين ومصريين ولبنانيين وحجازيين ، وكان الحديث الذى دار النقاش حوله هو حديث العروبة والإسلام ، وقد كنت البادئ فيه بأن اختلاف مبادئنا وأهوائنا يعود إلى اختلاف مذاهبنا فى تقرير ماضينا وتنشئة أبنائنا على هذا التقرير ، فما لم نتفق على تحرير الماضى لا يمكن لنا تحرير الحاضر لأن الإنسان وليد ماضيه قبل أن يكون وليد حاضره أو مستقبله ، وعلى الماضى نبنى المستقبل والحاضر ، فالتراث فى الدم قبل أن يكون فى الأثر ، وأن خير كلمة يتداولها التاريخ عن ماضينا هى القول المأثور : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح به أولها »

وليس التراث الذى ينبغى لنا أن نبنى عليه حاضرنا هو مسجداً فى دمشق أو منارة فى بغداد ، ولا هو قصراً فى الأندلس أو برجاً فى سامراء ، ولكنه كما يعنى الإمام مالك ، هو روح هذبها دين محمد وعقل صقله ناموسه الأكبر فجاء بما فتح على أيدينا الأمصار ونشر العلوم وبث العدالة ونصر الحق وخذل الباطل ، وشئ من هذا لم يكن فى غير عهد الخلفاء الراشدين ثم بدأ ينحل ببدء العهد الأموى ، ولكن سيادة العرب فى ذلك العصر كانت مدفوعة بقوة الاستمرار من العهد الإسلامى الأول على أيدى أعدائه من أمويين وعباسيين .

فعلينا أن نربى ناشئتنا بالرجوع إلى ناموس محمد فنغذيها بالقرآن وحده وبالسنة الصحيحة التى يختارها نفر صالح منا يدرس أسانيده الرواة ويعرضها على القرآن ثم يخرجها ناموساً نربى عليه أبناءنا دونما تأثر بالهالة القدسية التى تحيط بها كل من صاحب محمداً أو تبع أصحابه من بعده ، فأمجاد محمد وعمر وأبى بكر وعلى لا تزال قائمة فى صميم الحق لا غبار عليها ، وهكذا نستطع أن نلحق بهم أمثال أبى ذر وعبد الله بن العباس وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى من أصحاب رسول الله الذين حفظوا عهده وساروا على نهجه ، فعلى هذا فقط ينبغى أن نقر أمجادنا فى عروبتنا وإسلامنا .

فاذا تعدينا ذلك فى بعث أمجادنا ، إلى معاوية وعبد الملك والوليد والمأمون والرشيد والسفاح والمنصور وغيرهم ممن أسسوا الملك العضوض أو ورثوه على غير نهج الخلفاء الراشدين ، كنا مخالفين بذلك أمجادنا القائمة على ناموس محمد الذى شرع لنا هذه الأمجاد . ثم كنا بعد ذلك مسيئين إلى أنفسنا باسائتنا إلى أعقابنا فى التربية والتوجيه .

فتناول الحديث بعدى النائب السورى أكرم الحورانى فقال : ان مما لاشك فيه أن استقاءنا عزة الأمجاد والبطولة فينا من غير الخلفاء الراشدين بعد رسول الله هو خطأ محض ، وأن من الثابت لدى فيما أفقه من التاريخ أن معاوية قد انحرف عن الإسلام بما أتاه من أحداث ، فعلينا أن لانتأثر به وأن لانسمم أفكار الناشئة بالتوجيه إليه والتربية على نهجه ، ويصادق على قوله جميع من حضر إلا القائم بأعمال السفارة السورية وهو شاب حدث يدعى عبد الهادى إذ عارضه بقوله : ان سيدنا معاوية رضى الله عنه كان مثلا أعلى فى أمجاده لعروبتنا وإسلامنا ، ألم يكن من كتاب الوحى ومن العشرة المبشرين بالجنة ؟؟ » فساد الضحك أفواه المجلس حتى القهقهة ، وعجب هو فلحظ النائب مصطفى الزرقاء ، وكان إلى جنبه ، انه يعجب من ضحكهم فقال له : ليس معاوية من العشرة المبشرة »

أما أنا فقد ضحكت بعد أن هدأوا وقلت ليس عجب القوم من نسبة السيد عبد الهادي معاوية إلى كتاب الوحي والعشرة المبشرين بالجنة فحسب ، وإنما ضحكهم على أن دعاية معاوية منذ أكثر من ألف عام لاتزال تضلل المسلمين حتى عهدنا الذى هو عهد تحرر وتفكير ، فليس من السهل أن نبقى على دعاية كاذبة لا تزال ألفاً وثلاثمائة عام تسخر أفكارنا وشبابنا المثقف وتتخذه مطية يركبها إبليس للحط من ناموس محمد والافتئات على أمجاده والكيد لسلطانه .

وماذا يقول القائل فى شاب بلغ رتبة وزير وهو يجهل تاريخه إلى حد اليقين بأن معاوية من كتاب الوحى ومن المبشرين بالجنة على لسان محمد ؟؟ ثم ماذا تقول نحن السوريين فى عبوديتنا لمعاوية الذى جعلنا فى حديثه مع العراقى صاحب البعير فى سيرته المشهورة ، جعلنا لا نفرق بين الجمل والناقة ، ولا يزال حتى اليوم يسود ألسنتنا المثل القائل : أعطه جَمَلَهُ ، والذى جند منا مائة ألف لحرب

على على تركه للصلاة وقتله لعثمان ، والذى أثبت فى نفوسنا ونفوس أبنائنا إلى يوم القيمة أن قاتل عمار بن ياسر إنما هو على الذى جاء به للقتال . وأن يزيد خليفته من بعده تجب على المسلمين طاعته ، وأن أباه كان مأجوراً على عمله هذا بما فيه إعلان السب لخليفة رسول الله على المنابر بعد صلاة الجمعة إذ كان مجتهداً مخطئاً فى رأيه فله أجر واحد .

على أن السيد الزرقاء أحب أن يكون الحكم بين المتناظرين فقال : أما معاوية فقد أخطأ وعلى هذا الحكم يجب أن نربى أبناءنا وأما على فليس من الحق أن ننسب إليه الاشتراك فى قتل عثمان ولا أن نجعله فى مصاف معاوية ، وفى يقينى أن طى هذه النوازع خير من نشرها لأن فى بسطها للبحث إثارة كوامن ونوازع فى الصدور نحن فى أمس الحاجات إلى كبتها والعمل معاً على الوحدة والتكاتف فى وجه ما يدهمنا من بلاء »

أما أنا فقد ختمت الحديث بأنا نخطئ كثيراً إذا لم نحرر ماضينا على ضوء التفكير الحديث فنتحرر ونحرر أبناءنا من بعدنا ، وإلا بقينا شيعاً تتجاذبنا سيآت الأجداد التى عملت فى نفوسنا أكثر من حسناتهم ، والتى لا تزال إلى الآن تدفعنا إلى السلطان على نهج معاوية وأخلاقه دون أن نتأثر بعمر أو على فيما نقول ونفعل ، هذه سيرتى ، وهكذا سأربى أولادى وأقرر فى نفوسهم أن كل سيئة من حاكم تخضع له رقابنا اليوم إنما هى وليدة تأثرنا بسياسة معاوية ومن نهج نهجه ، وأن الأرزاء التى تحدق بنا ، والمحن التى تتوالى علينا ، والعبودية التى تملك نفوسنا إنما هى وليدة السياسة التى قامت على الكذب والخداع والتضليل وهى السياسة التى سار عليها معاوية وأعقابه من بعده ، وهذا هو مصداق قول الإمام فى كلمته هذه :

إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس من الحق فاشتروه ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » لقد تفشت الرشى فى الحاكم إذ منعونا من الحق ، واقتدينا بالحكام حين أخذونا بالباطل ، وقديماً قيل وما زال يقال : الناس على دين ملوكهم . . .

الله

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ... وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ... إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ

لقد تمثلت بهذه الآية وأنا مرتاع إذ مرت بى عبر وعظات مما أقرأ وأسمع ، لقد تمثلت بهذه الآية إذ قرأت فى نهج البلاغة للإمام على قوله يخاطب عامله على المدينة سهل بن حنيف ، وقد بلغه تسلل أهلها إلى معاوية ، قال :

« أما بعد فقد بلغنى أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم ، فكفى لهم غياً ولك منهم شافياً ، فرارهم من الهدى والحق وإيضاعهم إلى العمى والجهل ، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه ، وسمعوه ووعوه ، وعلموا أن الناس عندنا فى الحق أسوة ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقا »

قلت ونفسى ، : لم يتسلل أهل المدينة؟؟ وهم درع رسول الله وحصنه ، إلى عدو رسول الله معاوية ، ويتركون صنو رسول الله وخليفته على بن أبى طالب ؟؟ لم يتقاعس عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وغيرهم من أقطاب الإسلام فى مكة والمدينة؟؟ أقول : لم يتقاعس هؤلاء عن نصرة على فيستغل سواهم التقاعس عن نصرة الخليفة ، ويتخذون سكوتهم عن معاوية وسيلة للتسلل إليه ؟؟

أكان علىٌّ أقلَّ بلاء فى الإسلام على عهد رسول الله من صاحبيه أبى بكر وعمر حتى اجتمعوا عليهما وتفرقوا عنه ؟؟ أم كان أقل عدلا منهما فى الحكم ، وبعداً عن الظلم فى عهده حتى خذلوه ونصروا معاوية بن هند آكلة الأكباد يوم أحد ، وابن أبى سفيان الداخل فى الإسلام وشبح الموت بين عينيه يوم الفتح الأكبر ؟؟

قلت لنفسى : لماذا تقاعس هؤلاء عن نصرة على يوم حرب الجمل وحرب صفين ، ثم لم يتقاعسوا فحسب وإنما كان أكثرهم حرباً على على وإعراضاً عنه وتنكراً له ؟؟ أفلم يكن كتاب الله بين أيديهم وهو يملى عليهم قوله عز من قائل :

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله »

فمن هى الطائفة الباغية يوم الجمل ، أطائفة الزبير وطلحة بعد أن نكثا بيعتهما أم طائفة على أول من أسلم لله مع رسوله وصدق رسالته ؟؟ ثم من هى الطائفة الباغية يوم صفين أطائفة معاوية الفاجر المارق أم طائفة على المحتسب الصابر . وفى صميم كل منهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويح عمار تقتله الفئة الباغية » فأية فئة قتلت عماراً ؟ أكانوا عمياً عن عمار وهو يكر على جيش معاوية ويقول :

نحن ضربناكم على تنزيله   واليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   أو يرجع الحق إلى سبيله

فأية فئة باغية قتلت عماراً فيقاتلوها حتى تفئ إلى أمر الله ؟؟

أحسبوا تلك فتنة فقعدوا عن معالجتها ؟؟ إذن من يعالج الفتن إذا طغت فى الأمة غير أعيانها ؟؟ وإذن من يخاطبه الله تعالى بقوله : فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله ؟؟ وإذن لم بايعوا علياً ثم يزعمون أنه الخليفة الرابع ؟؟ أفحصحص لنا الحق بعد ألف وثلاثمائة عام بأن معاوية كان مخطئاً فى حرب على وأن علياً كان على حق فى مناهضة معاوية ، ولم يحصحص لهم ذلك الحق ولما يزل جسد محمد غضاً فيهم ، ولما تزل كلماته ترن فى آذانهم ، ولما يزل شخصه ماثلا لأعينهم وقائماً فى نفوسهم ؟؟

لقد كنت جد حاقد على أصحاب محمد وأنصاره فى الحرمين إذ قرأت فى السير أنهم لم يتقاعسوا عن نصرة على فحسب وإنما تجاوزوا هذا التقاعس إلى التنكر لله ولرسوله بتنكرهم لخليفة رسول الله وتسللهم إلى معاوية الباغى ومروان الوزغ بن الوزغ ، استجابة لنفوسهم الصغيرة وتهالكاً على حطام الدنيا .

وهكذا استمر حقدى على الصحابة والتابعين الذين تخلفوا عن نصرة على ، يتعزز حتى كان شخوص الحسين بن على إلى مناهضة يزيد بن معاوية فى سبيل الرسالة التى أخذ الله على كل مسلم بعد رسول الله أن يحتفظ بها ويحرص عليها ، ألا وهى الإسلام ، هنالك شخص الحسين للدفاع المرعن تلك الرسالة فلم يستجب

له من الحرمين إلا أهله وأبناء عمومته وقليل من الأنصار لايزيدون على عشرين شخصاً ، ثم ينهج نهج أهل المدينة فى خذلان الحسين أهل العراق الذين دعوه لينصروه فخذلوه ، والذين أذاقوا أباه الأمرين فى تخاذلهم عنه وتنازعهم فيه حتى فضل عليهم ، وهم حماة الحق ، أهل الشام وهم حماة الباطل ، أقول :

.. لقد استمر حقدى يتعزز على الصحابة والتابعين فى الحجاز والعراق والشام بتنكبهم عن طريق الحق وشخوصهم إلى الباطل فى خذلهم علياً وابنه حسيناً ، ونصرهم معاوية وابنه يزيد ، حتى جاءت وقعة الحرة على المدينة أيام يزيد ، ونكبة عبد الملك على مكة أيام ابن الزبير ثم نكبة الحجاج على العراق أيام عبد الملك بن مروان ، فكانت هذه النبكات أقسى ما ينزله القضاء العادل فى أمة تنكرت لتراثها الحى الخالد واعتصمت بالكفر بعد الايمان فألقى الله بأسها بينها على أيدى شرار خلقه من أمويين وعباسيين وعلويين ، حتى كانت الفاجعة الذين لايزالون يهدمون صرح الإسلام بأيدى مروان ومعاوية وابن العاص الذين فتحوا الباب الأول للفرقة فى الدين ، والشقاق بين المسلمين والعصبية للعنصر ثم للقبيلة ثم للأسرة .

وهكذا سيبقى المسلمون والعرب نهب التنازع والشقاق ، وعرضة للحيف والجور ، ومطمعاً للعدو الغاشم ، ما داموا ينهجون فى سلطانهم نهج مروان ومعاوية ، وما داموا يتحدثون عن رسالة محمد وعدل عمر وورع على ثم لانجد فى أعمالهم شيئاً من حكمة محمد ولا عدالة عمر ولا ورع على أبى تراب ، وإنما ينهجون نهج معاوية ومن خلف من أعقابه ، يتأثرونهم بالجور عن الحق والانغماس فى الباطل ، ثم نزعم أنا أتباع محمد وحفظة كتابه ، وسدنة رسالته ، فلا تأس أيها القارئ إذا وقفت معى تجيل الفكر فى مصدر هذه الفواجع وتمثلت بقوله عز من قائل : إن ربك لبالمرصاد » نعم انه عز وعلا ، يعرف كيف يعاقب ويعرف كيف يثيب فى الدنيا والآخرة .

محمد

لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ .

الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ .

هذان حديثان خليقان بصدورهما عن سيد الخلق محمد ، على الوجه الذى أعرضه للقارئ فى صدر هذا البحث ، وقد رويا بلفظ آخر هو : من غشنا فليس منا ، والمسلم من سلم المسلم من يده ولسانه » ولم أجد فى هاتين الروايتين كرامة رسول الله إلى خلق الله ، إذ يلزم من صحة قوله : من غشنا فليس منا ، ان من غش سوانا قد يكون منا ، وهذا لا يليق بمحمد المبعوث للناس كافة ، أن يقبل فى شيعته من يتعمد الغش لشيعة غيره .

ألم يقل دم الذمى وعرضه وماله حرام على المسلم بغير حق ؟؟ إذن فكيف يجيز للمسلم أن يكون مسلماً وهو يغش الكتابى الذى هو غير مسلم ؟؟ ويلزم أيضاً من صحة قوله : المسلم من سلم المسلم من يده ولسانه ، أن يدخل فى عداد المسلمين من آذى غير المسلم بيده أو لسانه وهو مسلم ، وهذا لا يليق بمحمد أيضاً وقد حجر على المسلم إيذاء غير المسلم إلا بحق ، على أن سمت المسلم وسلوكه فى الناس واستقامته وتخلقه بأخلاق الإسلام التى هى المثل الأعلى للحى الكامل ، أقول : إن هذا السمت هو مفروض على المسلم ليكون بكل ما يصدر عنه وما يتحلى به داعية كبرى لدينه واعتناق رسالته .

يقول لى أحد المسلمين الهنود أيام زيارتى للهند فى طريقى إلى جنوب أمريكا ، يقول لى ونحن نستعرض طغيان الكثرة الساحقة من الوثنيين على المسلمين ، وإقبال الهنود جميعاً على لغة السكسون بعد أن كادت لغاتها تنضوى تحت لغات الإسلام من تركية وعربية وفارسية . قال : ان المسلمين قديماً وردوا بلادنا فاتحين لا مبشرين بدين وقد كان لهم الفتح الأعظم إذ سيطروا على العالم ، فلم يكونوا مبشرين بدينهم ولا دعاة لرسالتهم السماوية ، ولكنهم كانوا أكبر من ذلك ، إذ دعوا الهند لهذا الدين ولاعتناق رسالته بالمزايا التى أدب محمد بها نفوسهم ، فكانوا مثلا عليا تحت سمائنا بحسن المعاملة فى صدق الحديث ، وأداء الأمانة ،

ووفاء الوعد ، فى نشر العلم ، وتوجيه الفكر ، ونظافة البزة ، وطيب الأحدوثه من أجل ذلك دخل الناس فى دينهم أفواجا .

أما اليوم ، وقد دالت دولة الأخلاق فيهم ، ونسوا ما ذكروا به فى كتاب ربهم وعلى لسان نبيهم فأصبحوا شيعاً متنابزين ، وأذلاء صاغرين ، وجهلاء مستعبدين ، وعاد الغربى النابه يغزونا بمثل ما كانوا يغزوننا به ، من عقول نيرة ، وأفكار حية ، وقوة لاقبل للشرق بها ، فغمر الآفاق بروائع ما يبدع من مكتشفاته فى علومه وفنونه ، وأمدنا بحضارته ، فكان من البديهى أن يحل فى نفوسنا محل المسلم الأول ، وأن يتضاءل فيها شبح المسلم الأخير .

لقد أقبل الهندى آنذاك على دين العرب ، ولغة العرب ، وأخلاق العرب ، حتى كاد هذا السواد الأعظم يستحيل بلونه وطعمه إلى عروبة وإلى إسلام ، حيث كان المسلم التاجر لا يغش تجارته ، وحيث كان المسلم الصانع لا يغش صناعته ، وحيث كان المسلم الزارع لا يغش زراعته ، وحيث كان المسلم ، أياً كان عمله ، يخلص فى عمله .

أما اليوم فقد تحولت هذه المزات من المسلم العريق فينا إلى الكافر المسيطر علينا فانقادت له الأمور ، واستجابت له النفوس ، وبث فينا رسالة التبشير بدينه فصدقناه وآمنا به ، وأصبحنا نرى الحياة السامية لوناً من ألوانه ، وشكلا من أشكاله ، ورحنا نتسابق فى اعتناق دينه ، ودرس لغته ، وتقليده فى حركاته وسكناته » .

وينقل لى أحد الفلسطينيين قبل أن يحتل اليهود وطنهم قال : لقد صممنا ، عندما شعرنا بأن اليهود سيملكون أمرنا ، على أن نقاطعهم اقتصادياً ، وكان كل ما يغمر أسواقنا هو من صنائعهم فى اللباس والأثاث ، وما تقوم عليه الحياة من مصانع ومن مناسج ومزارع . فعمدنا أول الأمر إلى الاتصال باخواننا من تجار سوريا للأقمشة . وفاوضناهم على أن نستمد حاجاتنا من نسيجهم وفاكهتهم ، وألبانهم وأجبانهم ، وزبدهم وسمنهم ، على أن يكون إخلاص المسلم العربى رائد البائع منا والشارى .

وشد ما خاب الأمل ، وأخفق السعى إذ كان الوسق الأول يغمر أسواقنا من البز الواهن الواهى ، لايثبت لونه حتى فى الظل ، ولا يستقيم نسجه حتى

على المشاجب ، وأما الأسمان والأجبان والألبان فكانت فضيحة المسلم عند اليهودى والسكسونى ، بينما ذكرت الصحف منذ قريب : أن بضاعة ألمانية وردت إلى بيروت زائفة اللون فأقام المستورد على المورد دعوى الغش فكان جزاء المدير الأول للمصنع الإعدام ، أما المصدرون لنا من دمشق قلب العروبة والإسلام فلم يجيبوا بأكثر من أن التجارة حرب قائمة على الخديعة والمكر »

ويقول لى شاب مغربى ، كان رفيقاً لى وأنا أجتاز بلاده الجزائر فى طريقى إلى جنوب أمريكا ، قال لى وقد سألته عن دينه فأجاب : نصرانى والحمد لله ، ثم سألته عن اسمه فقال : أبو الحسن ، فأظهرت عجبى وقلت له : ان اسمك يشير إلى إسلامك فقال نعم ان أبى كان مسلماً ولكن الله أنقذنى من هذا العنصر القذر المنحط ، فقلت له : وكيف ؟؟ قال : ان المسلمين فى الجزائر لا يختلفون عن الوحوش يأكل بعضهم بعضاً ، وأما لباسهم فغاية فى القذارة وحياتهم كلها قائمة على الدس والغش والتضليل بخلاف النصارى ، فان النظافة والرقى والصدق والأمانة تكاد تكون وقفاً على حياتهم » ثم قال :

على أنى سمعت أن فى تونس قوماً عرباً تسود حياتهم النظافة فى المأكل والملبس ، ويشيع فيهم الإخلاص إذ يقولون أو يفعلون ، كالنصارى عندنا فى الجزائر ، وقد عرفت فيما بعد أن هؤلاء العرب هم مسلمون فعجبت لذلك ، وقلت : لعل المسلمين أجناس ، وأشياع كالنصارى عندنا منهم الأرثوذكس ومنهم الكاثوليك ومنهم البروتستانت ، بعضهم راق وبعضهم منحط ، وأحمد الله أن النصارى كلهم نظيفون على وجه الإجمال ، ولكن المسلمين عندنا . . . . . ثم قطب حاجبيه ومط شفتيه واستدبرنى مودعاً وهو يقول : إلى اللقاء .

هكذا نستطيع أن نصل من هذه الأحداث إلى العلل والأسباب فى تقهقر المسلمين أخيراً بعد تقدمهم أولا ، وأن هذه العلل وتلك الأسباب فى التأخر والتقدم عائدة للاعتصام بالجوهر من الدين فى الأولين ، وإلى التمسك بالزائف منه فى الآخرين ، إذ ساد فيهم الجهل فحولهم عن فقه الحقيقة ، وقصرهم على الجدل والنقاش الآخذ بهم إلى النزاع والتنابذ ، وحال بينهم وبين الوصول إلى الحق ، إمعان فى اتباع الهوى ، وتضليل ممن دخل الإسلام ليفسد فيه ،

بينما كان عدو الإسلام يمعن فى جوهر الإسلام درساً وبحثاً ليأخذ منه ما يصلح لحياته ويتخذه سلاحاً يقمعنا به ،

فعزز فينا هذا العدو عمى الفقيه الجاهل ، وهوى الفقيه الملحد ، وأسس فينا معاهد للتبشير تعمل على إفساد العقائد فى النشء منا حتى عاد الإسلام غريباً كما بدئ غريباً ، وأصبح فى قرارة الضمائر من نفوسنا أن التجارة حرب وأن الصناعة حرب ، وأن الزراعة حرب ، يسوغ للتاجر والصانع والزارع فيها ما يسوغ للمحارب فى التغلب على خصمه ، من خدعة وتضليل وغش وكيد .

ولقد نشطت بنفسى وأنا فى بغداد ، أقطع شارع الرشيد الذى يخترق المدينة أنشد كوباً من اللبن الخالص لم يشبه ماء فكان كل لبان يصارحنى بأن لبنه مغشوش ، وأن اللبن الخالص لايوجد إلا فى ضرع اللبون ، يقول لى ذلك دون أن يحذر جزاء من قانون ولا وازعاً من دين .

وفى مصر ، وقفت على بائع بطيخ يضمن للشارى حمرة جوفه وحلاوته ، فساومته على ثلاث وحدات شريطة أن يشقها وأرى بنفسى حمرتها ، وكان الأمر كذلك ، فاذا بجوفها أحمر كالدم وأنفت أن أذوقها معتمداً على اللون الذى قلما يخطئ الحلاء إذا كان أحمر ، ولما حاولت إخراج لبها ووضعه على المائدة إذاً بى أرى أجواف الوحدات كلها بيضا إلا موضع سكين البائع الذى صبغ السكين قبل أن يشق الوحدات لى بأسلوب فنى لم أصل إلى فقهه بعد .

ويقول لى صديق سورى : إنه اشترى تفاحاً من بائع ونقاه بنفسه كيلا يمنى بالغش ثم وزنه ونقده الثمن ، وكان قد وضع البائع هذا التفاح فى كيس من الورق ، فاستلمه الشارى وودع ، ولما أفرغه على المائدة إذا هو برتقال .

وفى بلدى الذى أعيش فيه ، بائع لبن مسلم وامرأته مسلمة صحيحا الإسلام يبيعان اللبن من مواشيهما ، ويغشانه بالماء ثم لاينكران ذلك مدعيين أنهما يبيعان الشارى رأى عينه دون أن يضمنا له خلوص الحليب ، زاعمين أن الصراحة فى الغش ليست غشاً ، وهكذا لو شئت أن اعدد ما آل إليه المسلمون فى انهيارهم وترديهم من وراء امتهانهم لرسالة نبيهم ، وتهاونهم بتطبيق هذه الرسالة على حياتهم ، لأعوزنى طوامير مما أحبر وأحرر .

علي

لَا تُحَدِّثْ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً ، وَلَا تَرُدُّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً .

فى كلام الناس حق وباطل ، وفيه صدق وكذب ، لأن العصمة تكاد تكون مفقودة فى الناس من أجل ذلك كان كل من الحق والباطل والصدق والكذب والعلم والجهل والخير والشر ، جائزاً على الإنسان فيما يقول ويفعل . فما هو ميزان ذلك لديك وأنت مدنى بطبعك ، أى مفروض عليك صحبة الناس ، ومشاركتهم فى الحياة ؟؟

الميزان هو العقل الذى تسمع به قول أخيك الإنسان ، والذى تقول به ليسمعك هو ، فعلى مقدار النضج فى هذا العقل يكون صدقك وأنت تقول وتصديقك وأنت تسمع ، لهذا وذاك يجب عليك أن تعقل ما تسمع أو تقول فراراً من الكذب فيما تتحدث به عن الناس ، ومن الجهل فيما ترد عليهم ما يتحدثون به إليك .

ذلك ما أردت أن أشير إليه فى سياق هذه الكلمة الحكيمة من كلام إمام البلغاء ، فالنبى صلى الله عليه وآله وسلم حين يقول : إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ورأيتم أنه قريب منكم فأنا أولى منكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ورأيتم أنه بعيد عنكم فأنا أبعد منكم عنه » كما مر معنا فى مطلع هذا السفر ، أقول : إن النبى إذ يقول ذلك فانما يعنى تحكيم العقل فيما تسمع الأذن من قبول أو رد .

على أن شيئاً ينبغى أن يقال فى توجيه الكذب الذى يحذر منه الإمام بكلمته تلك من يتحدث بكل ما يسمع ، وتوجيه الجهل الذى يحذر منه الراد على كل متحدث ، ذلك الشئ الذى أحب أن أقوله هو أن الإمام لا يعنى الإطلاق فى

حكمه بالكذب والجهل على المتحدث والمنكر ، وإنما يعنى الغلبة فى حدود المنطق ، مثلا :

قد تحدث الناس بكل ما سمعت لتصور من تتحدث عنه إلى الناس تصويراً صحيحاً بين يدى الحكم عليه أو له . كما يصور القرآن لنا حياة الأجيال وعقولها فى تاريخها السحيق لا لمجرد التصوير أو القصص ولكن للعبرة والعظة بما يعرض للحى من تطور نعقل منه ما أمكن عقله ونترك ما لا يمكن للأجيال المقبلة لأن القرآن لم ينزل لجيلنا وحده وإنما هو ناموس إنسانى ما بقى الإنسان .

وقد ترد على المتحدث كل ما تسمع منه لا لأنك تجهل ما يقول كله أو بعضه ، وإنما ترد عليه ذلك لتشعره أو تشعر من يستمع إلى حديثه معك أنه ليس بأهل لأن يتحدث ولو صدق فيما يتحدث به ، وأن كثيراً من المنافقين يتعمدون صدق الحديث ليسترعوا انتباه السامع فيدسوا خلال الحديث الصادق أو بعده ما يضللونه به .

فليس حديث من تحدث بكل ما سمع معرضاً للكذب على إطلاقه ، ولا رد من أنكر على المتحدث كل ما قال معرضاً للجهل على إطلاقه كما نفهم من قول الأمام ، وإنما يتوجه ذلك إلى من يتحدث بكل ما سمع أو يرد على مخاطبه كل حديث فيما إذا لم يكن هدف المتحدث والرد مطوياً على سر من أسرار البلاغة فى البيان .

فقد قيل : إن العلامة المجلسى صاحب الموسوعة العظمى « البحار » قد سجل فيها أحداث العالم على السنة المؤرخين منذ آدم حتى عصر المؤلف ، ولم يكن صاحب «البحار» هذا ليتحامى فى نقله كل ما سمع أو قرأ ، أى حدث جاوز العقل فى إمكانه ، واستعصى على الفكر تعليله وتحليله ، وشق على القلب تصديقه والإيمان به ، وقد قيل فى الاعتذار عنه : إنه يسوق الاحداث العالمية كما سمعها أو نقلها ويترك الحكم على إمكانها أو استحالتها للأجيال ، وأن تطور العقل الإنسانى زعيم بتمحيص الحقائق على التاريخ ، وأن لكل جيل عقلا يفكر ويبدع ، فقد يكون ما أراه مستحيلا فى جيلى ، ممكناً فى الجيل الذى يليني .

ولعل الإمام ، إذ قال ذاك ، يلحظ قول سيده محمد : خاطبوا الناس على

قدر عقولهم » وعلى هذا بنى البلغاء قولهم فى تعريف البلاغة وأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال » فقد يكون كاذباً من نقل مالا يحتمله عقل من ينقل له ، وإن كان فى الواقع محتمل الوقوع ، لأن الصدق هو مطابقة القول للواقع الراهن لا للواقع المرجو أو المتخيل أو الممكن الوقوع ولكنه لم يقع .

فمن تحدث للسامع قبل مائة عام بكل ما سمع حتى خيالات « ألف ليلة وليلة » كان فى الواقع كاذباً حتما لأن العقل السامع آنذاك لا يصدق إمكان الطيران للإنسان ، ثم تمكنه من السحر واستحضار الجان واستخدام الروح ونحو ذلك ، ولكن هذا المتحدث غير كاذب فيما يتوقع هو أو سامعه لو فكرا فى تطور الفكر وإمكان ما يستحيل عليه فى مستقبله قريباً كان أو بعيداً .

وهكذا نستطيع القول : إن الجهل كائن فى من يرد كل حديث يعيه ممن يتحدث إليه به ، لأن عدم قبول كل حديث يشعر بأن السامع قاصر الفهم ضعيف التفكير ، فليس بمعقول أن يتحدث إليه الناس جميعاً بما لا يحتمل الصدق ولو على جهة المجاز ، وليس بعيداً على بعض الناس أن يكون مصداق ما يقوله الإمام تعنتاً لا جهلا ، فقد رأينا كثيراً من الناس الذين دأبوا على رد كل حديث لا لأنهم يجهلون ما يقال ولكن ليصدق عليهم المثل القائل : خالف تعرف » وذلك ما أسماه المتكلمون بالجدل العقيم ...

يريد الإمام ممن يتحدث عن الناس أن يعقل فيما يرويه ويلحظ قبل نقله عنهم إمكان صدوره أو استحالته ، فان الناس أخلاط فيما يقولون ، منهم الصادق الأمين ومنهم الكاذب الخائن ولذلك جاء الكتاب الكريم مشحوناً بالنكير واللعن على كل كاذب ، وبالوعيد والتهديد لكل أفاك .

كما يريد الإمام من السامع أن يخلص فى رد المتحدث إليه قبل الحكم عليه ، فان الناس إنما وهبوا نعمة الكلام ليتفاهموا ، فاذا ساد الكذب من يتحدث ، وساد السامع تكذيب مطلق أو تصديق مطلق، فقد الإنسان حكمة القول وساد الفساد فى الناس .

لقد صدق الإمام حيث قال : لاتتحدث إلى الناس بكل ما سمعت فان فى ذلك كذباً ، ولا ترد كل ما تحدثوا به إليك فان فى ذلك جهلا .

الله

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً .

يجب أن يدفع العامل إلى عمله ليستقيم ، أمران : العقيدة فى أن ما يأتيه من عمل هو حق يجب عليه اتيانه ، والإخلاص فى إتيان ذلك العمل على أتم وجه يستطيع القيام به ، ذلك هو الإيمان ، عقيدة وإخلاص ، فقد يصدر العمل عن غير إيمان ، ثم يكون عملا صالحاً ولكنه لا يستقيم لأن اليد التى بعثته غير مختارة فى بعثه ، وإنما هى مسيرة به ومكرهة عليه ، لا تلبث أن تسئ إليه عندما يتزحزح عنها كابوس الضغط الجاثم على مصدر الإيحاء به ألا وهو القلب .

كلنا يزهد فى عمل العامل إذا لم يكن مدفوعاً إلى عمله باخلاصه لمن يعمل له ، فالسيد لا يطمئن إلى عمل العبد وهو مكره مهما صلح عمله ، لأنه يخشى أن يفسد عمله إذا تحرر فيعود عليه بالظلم والهضم الناشئين عن فساد العمل ، والله تعالى ، إنما وهب العبد صفة الاختيار فيما يفعل ليصدر عمله عن إيمان بأنه حق يلزمه عمله ، فيطمئن إلى الحكمة من ورائه وسمو الغاية فيه ، وإلا كان كالحيوان المسير فى عمله لا عقل وراءه إلا فيمن يسيره ، فاذا شذ ألهب السوط ظهره فكان عرضة للظلم والهضم .

ففى هذه الآية الكريمة وما يتبعها من آيات الحث على العمل الصالح مقروناً بالأيمان ، أو الحض على الأيمان مقروناً بالعمل الصالح ، حتى لا يكاد يرد أحدهما إلا مشفوعاً بالآخر ، أقول : فى هذه الآيات أصلٌ قيم من أصول التربية الإنسانية فى هذا المخلوق القائم على ملكة الفكر فيما يختار ، لا على الجبر والإكراه فيما يعمل .

من أجل هذا كانت العقيدة والإخلاص سبباً أول فى استقامة العمل الصالح ما قامت فى العامل حياة ، ومن أجل هذا كانت ملكة الإقناع فى الداعى والموجه سبباً أول فى حمل المدعو على إحكام عمله وإتقانه واستقامته متقناً محكماً ، فالأب

لا يفلح فى تربية أولاده على الفضيلة ما لم يحرز ملكة الإقناع فى التوجيه ليطمئن الولد إلى صحة ما يدعوه إليه مربيه ، والأستاذ لا يفلح فى تثقيف تلاميذه ما لم يتوفر على إقناعهم بصلاح ما يغذى أفكارهم به من علوم وفنون ، وهكذا نستطيع القول فى أن كل راع مسئول عن رعيته بالإقناع من وراء ذلك التوجيه .

فما أشق وأقسى على الولد أو التلميذ أو العبد أن يخضع لأمر أبيه أو معلمه أو سيده ، وهو غير مقتنع بصحة أو صلاح ما يأتيه من عمل دعوه إليه أو حملوه عليه ، إنى وأنا الآن فى العقد السادس من حياتى لا أزال أنفر من كلمة « تعبد » التى يسود التعليل بها كثيراً من أحكام الفقه ، أنا لا أفهم الخضوع حتى لخالقى تعبداً وهو القائل : لا إكراه فى الدين ، إنه جلت عظمته جعلنا مختارين فكيف يكرهنا على إتيان عمل لا نفقه الحكمة من إتيانه ؟؟

ولا أزال أنفر من كلمة « اعتباط » التى كان يصبدع سمعى بها أستاذى فى علم النحو وهو يشرح لنا القواعد ويعلل بعض نواميس اللغة فاذا أعوزته العلة فى بعض أحكامها قال : إنما كان ذلك اعتباطاً » ولا أزال إلى اليوم أمقت هذه الكلمة لأن معناها بلا معنى ، وهكذا كنت ولا أزال أحمل كل حقد وأصبر كل إساءة لكل من يكرهنى على عمل لم يقنعنى بصلاحه حتى يصدر عنى وأنا مؤمن به ومطمئن إليه .

فالإيمان بغير عمل صالح أو العمل الصالح بلا إيمان هو عبث أو يؤول إلى عبث . فليس لى أن أعمل بغير إيمان فى صلاح ما أعمل إلا أن أكون سفيهاً أو عابثاً ، وليس لى أن أومن ثم لا أعمل صالحاً ، إلا أن يكون إيمانى إيمان العجائز ، ومن هنا نشأ فضل المجتهد على المقلد وأنه مأجور فيما يعمل ولو أخطأ ، لأن عمل المجتهد قائم على العقيدة والرأى ثم الإخلاص فيما يرى ويعتقد والاخلاص فيما يعمل من وراء ذلك الرأى .

كم نالنى ظلم وأنا أعمل طائشاً دونما عقيدة تدفعنى إلى العمل ، وكم عصف بى هضم وأنا أؤمن ثم أتواكل أو أعمل دون أن أجعل إيمانى رائد عملى ، إن المؤمن بما يقول أو يعقل هو الإنسان سواء أخطأ أو أصاب ، أما إذا أصاب ولم يخطئ

فهو ملاك هبط لتوجيه الإنسان إلى الحق ثم الصعود به من حضيض المادة إلى سماء العقل .

على أن الاجتهاد فى الرأى إنما يؤجر عليه العالم إذا أخطأ ، فمشروط بأن لا يخالف الحق الصراح فى إجماع أهل الرأى ، ولهذا أثبت الفقهاء أن لا اجتهاد فى مورد النص » أى أن ما ثبت فى الكتاب أو السنة الصحيحة أو إجماع أهل العلم لا يتأثر باجتهاد ، فالفقيه إنما يتوفر على اجتهاده فيما يعمل إذا اعترضته الشبه وأخطأه الدليل فاعتصم بالعقل ، فليس المأجور من اجتهد فيما يخالف النص أو الإجماع ، ولكنه من اجتهد فيما لم يرد فيه إجماع ولا نص ، من أجل ذلك حكم أئمة الفقه الأعلون أن معاوية فى اجتهاده بالثورة على إمام زمانه لم يكن مخطئاً ولكنه كان كافراً لأنه خالف نص الكتاب والسنة وإجماع أهل الرأى من أئمة الإسلام لذلك كان على مصيباً فى محاربته ولعنه وكان هو مجرماً فى لعن على وحربه .

محمد

إِثْنَانِ لا يَجْتَمِعَانِ : الغِنَى وَالزِّنَا
بَشِّرِ الزَّانِى بِالْفَقْرِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ

أحسب أن المفترى على رسول الله فى هذه الكلمة ، هو من المتصوفة الذين لا يرون فى الحياة إلا الزهد والورع والعزوف عن الدنيا ، أو أنه من الاشتراكيين الذين لا يرون الحياة إلا شركة بين أهلها ، لا غنى ولا فقير ثم لا سيد ولا مسود ، وكلا هذين ينكر الغنى أو يتنكر له فيدعو ضده حتى بالفرية على الدين .

كان أبى يتحدث إلى أيضاً بمثل هذا مما يفترى الجهلة أو المرقة على رسول الله ثم يبعثونها فى صلب التاريخ سنة يشيب عليها الكبير ويهرم الصغير فيروى لى قول القائل مرفوعاً إلى الرسول الأعظم : بشر القاتل بالقتل والزانى بالفقر ولو بعد حين » ما هذا ؟؟ ومن يروى هذا ؟؟ وأى عقل يقبل هذا ؟؟

لقد زرت أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا وتغلغلت فى الجماعات من هؤلاء ، ثم أمعنت فى التعرف إلى الوجوه والألوان فى شعوب تلك الأصقاع ثم شاركتهم فى كثير من حياتهم ، فوجدت أن تسعين فى المئة من أغنيائهم ويكاد بعض هذه الشعوب يستحيل غناء ، كالأوروبيين والأمريكيين ، لقد وجدت الأكثرية الساحقة من هؤلاء الأغنياء يحيون زناة وهم أغنياء ، ويموتون أغنياء وهم زناة ، فكيف لا يجتمع الغنى والزنا ؟؟

ولقد تغلغلت فى الشعوب الأفريقية والأسيوية وثنيين وغير وثنيين فوجدت سوادهم الأعظم يحيون فقراء وهم زناة ، ويموتون زناة وهم فقراء ، فلم يكن الزنا فى أولئك ليجلب عليهم الفقر ، ثم لم يكن الفقر فى هؤلاء ليمنعهم من الزنا . فليس الغنى أو الفقر مصدراً لفساد الإنسان أو صلاحه ، ولا الزنا أو العفاف مصدراً للفقر أو الغنى .

على أن الغنى وحده أو الفقر وحده ، قد يكون مدعاة للفساد ، أما الأول فلأن النعمة تبطر وتستجيب للشهوات إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى النعمة من البغى والاسترسال فى العبث واللهو ، وأما الثانى فلأن الفاقة والعوز يضغطان

النفس حتى تظلم فيكفهر وجه الحياة ويستولى القنوط عليها حتى تشذ وتثور إذا لم يعصم الدين أو القانون ذوى الفاقة من اليأس والقنوط ثم الكفر . فالزنى ليس وقفاً على الغنى ومجلبة للفقر ، كما أن العفاف ليس وقفاً على الفقر ومجلبة للغنى .

والدين من حيث هو دين لا يختص بغنى ولا فقر ، كما أن الكفر ليس مصدراً لواحد منهما ، ولكن الدين يضمن لأهله العزة فى الحياة ، وهذه العزة ليست وقفاً على المال ، فكم رأينا فقيراً يعتز بفقره حتى تضرب به الأمثال ، وكم رأينا غنياً يتهالك بغناه حتى تسلبه الذلة معنى الإنسانية ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأين الإيمان منا ؟؟ أهو فى أوساط الناس أم فى ذوى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟؟

فالدين ليس وقفاً على فقر ولا غنى ، كما أن الكفر ليس مسبباً عن غنى ولا فقر ، ولكن الدين جوهر فى النفس يعصمها إذا أثرت من التهافت ، ويصونها إذا افتقرت من الجزع ثم يحملها على الصبر ، لذلك كان الإيمان الذى هو جوهر الدين ، شكراً فى الغنى وصبراً على الفقر ، فعلى مقدار ما تبلغ رضى الله بغناك وأنت شاكر ، تبلغ رضاه بفقرك وأنت صابر . والشكر فى الغنى هو رعاية المال بالكسب والانفاق ، والصبر على الفقر هو القناعة عما فى اليد والورع عما فى غيرها ، فلا فقر فى زنا ، ولا عفة فى غنى ، كما أنه لا عز فى مال ولا ذل فى عوز .

وما أحب إلىّ هنا أن استطرد من الزنا والغنى إلى العز والذل إذ تتداول الألسنة كلمة تقول : لا عز فى فقر ولا ذل فى غنى ، يحسبونها حديثاً مأثوراً أو شبه حديث ، وهى أبعد ما تكون عن حكمة محمد .

فلقد قرأت فى سير الأبطال : أن أبا ذر كان يؤاخى زميلا له فى صحبة رسول الله ، فكانا مشتركين فى حياة قوامها التقوى والفقر والورع ، ولما انتقل خليلهما رسول الله إلى الرفيق الأعلى افترقا حتى إذا كان عهد عمر أو عثمان إذا بأبى ذر ينحدر فى حياته إلى التراب ، وإذا بصاحبه يصعد إلى تولى الحكم فى البصرة ، ويشاء الله أن ينفى عثمان أبا ذر إلى الشام فلا يزيده التشريد إلا

إيماناً بنقمته على الخليفة الأموى ثم لم يزده إغراء معاوية بالمال إلا زهداً فيه وعزوفاً عنه .

ويشاء الله مرة أخرى أن يمر بأبى ذر وهو فى منفاه مسافر إلى البصرة يستوصيه فقال له أبو ذر : قل لفلان ، يعنى أليفه أيام البؤس والذى ولى الحكم لعثمان فيما بعد ، قال قل له : أنت فى سلطانك ونحن لا نزال نأكل الشعير ونفترش الأرض ثم نعيش كما تعيش ، قيل : عندما بلغه الرسول ذلك خر مغشياً عليه ، ولقد فارق أبو ذر حياته فى منفاه خميص البطن عارى الجسد تصهره الشمس وتلفحه الرمضاء ، وهو أعز على الله والناس من خليفة زمانه ، بينما روح معاوية الذى آذى أبا ذر لا تزال ذليلة فى قبره حتى اليوم .

والعجب من هؤلاء الحمقى الذين يحسبون عزة الإنسان بماله أو سلطانه اللذين يخولانه التعالى على غيره ، بينما نراه عبداً قناً لهما ، فليس العزيز فى الناس من يتعالى على غيره بغير حق . ولا الذليل فى الناس من يخضع لغيره بحق ، وإنما العزيز من لا يذل إلا بين يدى الحق ، وأما الذليل فهو من صغرت نفسه فاسترقته بين يدى شهواته حتى أصبح ذليلا فى سره وإن كان عزيزاً فى علنه .

يقول الله تعالى فى وصف الصالحين من عباده : أعزة على الكفار أذلة على المؤمنين » وفى وصف غيرهم : أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين » ويقول الإمام على : عبد الشهوة أذل من عبد الرق » فليس الذل أن أتواضع لك أو أن تتواضع لى ، ولا العز أن تتعالى على أو أتعالى عليك ، وإنما هما وصف نسبى فى الإنسان يدور مدار الهدف الذى يعمل له والغاية التى من أجلها كان ، فرب ذليل عزيز ، وكم من عزيز أذل فى نظر الحق من الذل .

أعرف أناساً على عهد الافرنسيين فى سوريا ولبنان كانوا إذا دخلوا على الأجنبى المستعمر يقبلون يده ويقدمون له مناط أعراضهم من بنات وأزواج ثم هم يطلبون مثل ذلك ممن يحكمونه فى الشعب ، وليس ذلك قاصراً على هؤلاء ، فان النفوس الخسيسة والأرواح الواطئة ليست وقفاً على العهد الافرنسى ، وإنما هى قائمة فى نفوس حكامنا وزعمائنا منذ صدر الإسلام حتى اليوم ، وإنما سن فيهم هذه السنة الحكم بن العاص وابنه مروان اللذان أطلق عليهما رسول الله

لقب : الوزغ بن الوزغ ، ثم أبو سفيان وأبناؤه من بعده الذين خاطبهم رسول الله يوم الفتح إذ دخلوا فى الإسلام كرهاً وجاؤه أذلاء يستشفعون له بعمه العباس فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء »

فالعاص وأبو سفيان وأبناؤهما الذين تحكموا فى رقاب الأمة العربية والشعوب الأسلامية باسم الدين كانوا عبيداً لشهواتهم ومتعالين على الناس ، ثم سنوا للعالم كافة هذه السنة اللعينة حتى أصبح النفاق والخداع والكذب والرياء من مقومات السياسة فى العالم كله بله المسلمين الذين هيمنوا على العالم باسم محمد وأبى بكر وعمر وعلى ، واسم هؤلاء أسمى وأرفع من أن يدنسه رياء أو كذب أو تضليل .

فليس الزنا سبباً للفقر أولا ، كما أنه ليس مدعاة للذل أخيراً ، وليس الغنى مصدراً للعز أولا كما أنه ليس وقفاً على الفساد أخيراً ، فقد يكون الفقر ذلا كما قد يكون الغنى عزاً ، وقد نرى العز قائماً على الفقر كما نرى الذل فى صميم الغنى ، كل هذا شئ ، والدين شئ آخر ، فما هو الدين إذن ؟؟ ان الدين روح نسمو به عن مستوى الحيوانات الدنيا ويدنو بنا من الملكوت الأعلى .

علي

مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا

كنت ، وأنا صبي فى الثامنة من سنى حياتى ، أزور مع زملائى فى الدراسة الأولى ، قرية مجاورة لقريتنا ، يقطنها نصارى تدعى «تُول» فيحتفى بنا الصبية من أبنائها ، وكنا نسألهم عن دراستهم بماذا ، إذ كنا نبدأ دراستنا بالقرآن ونمكث فى الكتاب سنين ربما نهى قراءة القرآن ثم لا نحسن قراءة غيره حتى نستأنف الدراسة من جديد .

كنا نحسب أنهم يبدأون دراستهم الأولى بالأنجيل فاذا بهم يبدأونها بكراس لا يزيد على بضع صحائف يكتبها لهم قسيس البلدة ، ويفرغون منها بأقل من شهر فاذا بهم يقرأون ويكتبون فى أى كتاب أو صحيفة ، فكنت شديد العجب من أمرين : سرعة تعلمهم القراءة والكتابة ، وكون معلمهم قسيس القرية الذى هو بمنزلة فقيه البلدة عندنا ، وهو فى نظرنا أجل وأعظم من أن يتنازل لتعليم الصبية أو تثقيفهم ، وإنما يوكل أمر تدريسنا القرآن والكتابة لمعلم لا يتجاوز فى مؤهلاته للتدريس أكثر من أنه يقرأ ويكتب ، ثم يضع فوق رأسه عمة بيضاء تشير إلى مهنته .

فأتساءل ونفسى : لم يقوم قسيس البلدة عند النصارى على تثقيف الصبية نهاره وعلى تبصير آبائهم بدينهم ليله ، ثم لا يتنازل فقيه القرية عندنا لتثقيفنا مع إرشاد آبائنا ، ويكل أمرنا إلى نصف جاهل نقطع تحت سياطه السنين فى سبيل القراءة والكتابة ، بينما هؤلاء الصبية من أبناء النصارى يقطعون شوطنا خلال شهر أو أشهر ؟؟

كنت حقاً أتمنى لو أدرس دراستهم فأسرع فى تعلمى ، كما كنت أستصغر القسس فى امتهانهم تعليم الصبية لما قر فى نفسى من حقارة هذه المهنة ، وكان الأولى بى أن أعجب من تعالى فقهائنا على تعليمنا ، وهم أرنى هيبة فى صدورنا وقولهم أعمق أثراً فى نفوسنا ، إذن لكنا بذلك أسرع من زملائنا النصارى فى

إتقان القراءة والكتابة وإعداد أنفسنا خلال أشهر للمدارس النظامية فى «النبطية» حاضرة القرى من وطنى الأول جبل عامل فى جنوب لبنان .

لقد حز فى نفسى منذئذ ، أن أولئك الفقهاء الذين يهيمنون على القرى، بروحانياتهم ، كانوا لا يعبأون بالكتاتيب ، ولا يعيرون أبناءهم أى اهتمام ، وحتى يومنا هذا ، وقد تعززت معاهد الثقافة الأولية فى القرى والدساكر بفضل التقدم فى العلوم والفنون ، وتنبه الحكومات لضرورة نشر العلم والقضاء على الجهل ، أقول : لا يزال شيوخنا الفقهاء إلى اليوم بعيدين عن السهر على النشء الحديث والعناية بتربيته ، كأن لم يكن أبناؤهم رجال المستقبل ، وكأن الدين وقف على العجزة والموتى من آبائنا فقط .

ولقد زادت هذه الحزازة فى نفسى أنى ، وأنا طالب فى مدرسة النبطية الإعدادية ، كنت لا أرى تلميذاً واحدا فيها من أبناء المسيحيين القاطنين فى هذه المدينة ، فسألت زملائى بذلك فقالوا : ان لهم مدرسة خاصة بجوار كنيستهم ، ومعلمهم قسيسهم القائم على الشئون الدينية فيهم ، ولقد زرت هذه المدرسة لأنى فضولى منذ نشأتى ، فرأيت الكاهن بنفسه يعلمهم ، ورأيته بنفسه يسبغ النظام عليهم فى الدخول والخروج ، ثم رأيت الدرس الذى يلزمهم أداؤه يومياً أضعاف حصتنا اليومية فى مدارسنا النظامية .

أقول : لقد حز هذا فى نفسى أيضاً إذ رأيت ذلك الكاهن بهيبته ووقاره ولحيته المالئة صدره ، يقف بنفسه على نظام التدريس والتهذيب ، ويقوم بنفسه على التثقيف والتربية ، بينما أرى كهنتنا الذين يقطعون عشرات السنين فى التفقه بالدين ، يستنكفون عن تفقد ناشئتهم فى المدارس الأولية التى تجاورهم فى القرى، ويرون أن من الحطة إشرافهم هذا على النشء وتعهدهم ما يدرسون على أيدى معلمين لا يعرفون من هم ولا يدرون شيئاً مما يثقفونهم به .

ثم حز فى نفسى بعد ذلك أن هؤلاء المسيحيين ، وهم مواطنونا وشركاؤنا فى حياتنا على أرض واحدة وتحت سماء واحدة ، لا يزالون منذ مائة عام حتى اليوم ، ينفرون من تعليم أبنائهم فى مدارسنا بينما يجدون مدارسهم الخاصة تغص بأبنائنا ، وحتى المدارس النظامية التى تعنيهم أكثر مما تعنينا لا تزال خالية أو

شبه خالية من أبنائهم ، فلا يجدون ثقافة لهم ولنشئهم إلا فى مدارس الإرساليات التبشيرية القائمة على الدس والتجسس وبذر الشقاق بين أبناء الوطن الواحد باسم الدين مما لم يعد يخفى على أحد منا ومنهم .

ولنعد إلى فحوى كلمة الإمام على التى هى عنوان بحثنا هذا ، فاذا كان الله قد أخذ على العالم أن يؤدى رسالته بالتعلم قبل أن يأخذ على الجاهل أن يتعلم ، كان المسئول الأول فى الأمة عن تغلغل الجهل وتضاؤل العلم هم العلماء ، وقد كان حتى الأمس ، لفظ العلماء فى المسلمين لايطلق إلا على المتفقهين فى الدين ، وينقل لى أبى : أن هؤلاء يفسرون العلم المفروض على الأمة فى قول رسول الله : طلب العلم فريضة على كل مسلم » يفسرونه بعلم الفقه ، أما الطب والهندسة والحقوق والتربية والكيمياء والكهرباء والرياضة والتاريخ والتفريع ، وغير ذلك من علوم الحياة فهذا لا شأن لرسول الله به فى حثه على العلم .

لقد رأيت مرة أحد الفقهاء الأعلام من آل كاشف الغطاء يستشفى من مرضه فى مصح «بحنس» من لبنان، وهو مؤسس بمال الإرساليات التبشيرية ، زرت هذا المريض فى ذلك المصح فرأيته فى حجرة خاصة والصليب فوق رأسه ، فقلت له : حدثنى أنى أنكم تفسرون العلم الذى دعا إليه رسول الله بعلم الفقه ، فهل أنتم فى غنى عن هذا العلم الذى من أجله ترككم العراق للاستشفاء بمصحات قامت على التبشير بدين عيسى ؟؟ أفلا تعلمون أبناءكم الطب لتنشئوا ولو مستشفى واحداً باسم الطبيب الأول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟؟

لا أدرى كيف انهارت هذه الأمة ؟؟ ولا أدرى كيف لا تزال تنهار حتى اليوم ، وقد بهرت عيونهم مصابيح الكهرباء ، وصكت أسماعهم قذائف الرعب ، وملأت قلوبهم روائع ما يمخر الماء ويشق الهواء ، وما يموج به الأثير وتزخر به الأدمغة ، وتتكشف عنه خزائن الأرض من نتائج العلوم والفنون ، لا أدرى كيف لايتحسس هؤلاء الذين يحسبون أن العلم وقف على فهم الكتاب والسنة ، وليس فى الكتاب والسنة حكم شرعى أو قصص أخلاقى يحتاج إلى معاهد علمية يقطع المسلم فيها عشرات السنين ليفقه ذلك الحكم أو يفهم هذا القصص .

إن المسلم فى عهد محمد كان يفهم الدين لساعته أو يومه أو بضعة مجالس

يجتمع فيها إلى رسول الله فيرى نوره ويسمع حديثه، ولم يكن الدين فى عهد الخلفاء الراشدين أكثر من بضع جمل يلقنها الفقيه من يتفقه والداعى إلى الله من يستجيب له ، ولم يزل يرن فى آذاننا قول شيوخنا الأبرار ، ونحن نتفقه عليهم ، : الفقه نقطة وسعها الجاهلون » يشيرون بذلك إلى التوسع فى الفقه حتى أصبح بعيداً عن الفقه .

لقد رأيت بعض هؤلاء المتفيهقين فى الفقه يؤلفون فيه الطوامير دون أن يصلوا إلى جوهره ، ولقد وقفت على كتاب القوانين لبعض علماء الفرس فى أصول الفقه فأعجزنى أن أخوض فيه من رموزه ومعمياته ، فتذمرت منه بين زملائى وإذا بأحدهم يقول : ان مؤلف هذا الكتاب قد وضع مثله ضخامة فى تعريف الفقه فقط ، وتعريف الفقه لا يتعدى قولهم : انه استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية » فماذا يشرح الشارح ويفصل المفصل فى هذه الجملة مهما بلغ من فقه الدين ليضع مؤلفاً ضخماً فى تحليلها ؟؟

لقد حملوا القرآن ، وهو من آثار الله فى كونه ، وهو لفظ عربى لا عجمة فيه ، ثم هو فصيح مبين لا غموض فيه ولا إبهام ، وإلا لما صلح للأمة التى من أجلها نزل ، أقول : لقد حملوا القرآن بتحذلقهم وتنطعهم وادعائهم علم الباطن ، غير ما يحمل ، ولا أقول فوق ما يحمل ، إذ هو من آيات الله وآيات الله ليس لها حد فى استهلاك العقول بين يدى ما تحمل ، ولكنا لم نكلف باكتناه ما تنطوى عليه مما لا شأن لنا به ولم نخلق له ، فقد سئل بعض الحكماء الموحدين عن مبلغ ما يقدر الله عليه فأجاب بقوله : لا حد لقدرته كما أنه لا حد لعظمته ، فسئل : هل يقدر أن يضع الأرض فى بيضة دجاجة على كبر الأرض وصغر البيضة ؟؟ فأجاب : لا ، ثم عقب على ذلك بقوله : ان استحالة وضع الأرض فى بيضة ناشئ عن عجز فى المقدور لا فى القادر ، ففى طوق الله تقليص الأرض وتمديد البيضة بحيث يضع تلك فى هذه .

والقرآن لم ينزل لغير هدى الإنسان وتعزيزه فى حدود إنسانيته ، فليس من وظيفة القرآن أن نسأله غير ذلك ، وأما قوله تعالى ، ما فرطنا فى الكتاب من شئ ، وقوله : فيه تبيان كل شئ ، فيعنى به الشئ الذى هو فى صميم حياتنا

وحدود إنسانيتنا مما يحفظنا كأناس ، فبعض هذا الشيء ضرورى لمعرفة الإنسان خالقه وعرفانه نفسه ، وإدراك الصلة بينه وبين ربه ثم بينه وبين أخيه الإنسان ، هذا الضرورى واضح جلى فى القرآن نستطيع أن ننشده فنجده فيه .

والبعض الآخر كمالى ككثير من العلوم والفنون التى لم ينزل القرآن ليفصلها لنا ولكن ليجمل بعضها ويشير إشارة ما إليها من وراء التنبيه لها والحض عليها ، القرآن مسئول عن هذه الأشياء ، وهل هذه كل أشياء الكون حتى نجعل القرآن وعاء له ثم نحمل أنفسنا على التمحل فى تأويله لاستخراج ما كان وما لم يكن له ؟؟ ان فى الكون آيات وعبراً كآيات القرآن وعبره ، يتصل بنا منها اليسير النزر ويغيب عنا مالم يحط به إلا عالم الغيب .

الله فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

ينقل لى بعض من تأدبت عليه من شيوخنا الأعلام : أن الشاعر العلامة السيد محمد سعيد الحبوبى النجفى وقع ، وهو يتفقه ، فى شبهة من دينه ، فسأل أستاذه الشيخ محمد طه ، وكان مرجع الفقهاء فى القرن الماضى ، سأله فيما اشتبه عليه فلم يزد فى إجابته على قوله : إتق الله ، فتركه وعاد إليه من غده بعد أن فكر فى حل الشبهة فلم تزده إلا قلقاً ، وكان جوابه عين جوابه الأول إذ قال له : اتق الله وأمعن .

يقول مؤدبى : ان السيد الحبوبى إذ تحدث بهذا لزملائه بعد وفاة أستاذه : لقد عملت بأمر سيدى وأمعنت فى التقوى لا أفتر عن ذكر الله ساعة ساعة ، ولحظة لحظة ، حتى زالت الشبهة من نفسى وأصبحت أرى أن ما أقلقنى تحول إلى طمأنينة واستقرار ثم إلى إيمان ويقين بأن ما اشتبه على كان باطلا وأن ما وصلت إليه بفضل التقوى كان حقاً .

بقيت هذه الذكرى تجول فى روعى وأتساءل بها ونفسى ، : كيف يحول ذكر الله والتقوى دون الشبه ؟؟ وكيف وصل السيد الحبوبى من وراء تقواه وذكره إلى منصب سام فى الفقه وأصوله بعد أن لم يكن غير شاعر ؟؟ ثم كيف كان ذكره ؟ وكيف كانت تقواه ؟؟ أقول : بقيت هذه الذكرى تداعب نفسى أهى حق أم دعاية من شيوخنا للتقوى والذكر للإبقاء عليهما وتثبيتهما فى صدور المؤمنين منا ليستقيم لنا هذا الدين الذى هو كل تراثنا ؟؟

حتى إذا وردت أمريكا وعلمت من أحد العاملين فى علم الذرة أن بعض الآلات التى تتركب منها القنبلة الذرية يستمر العامل فى صقلها بأدق مواد الصقل أياماً قد تطول وقد تقصر حتى لا يثبت البصر عليها من شدة لمعانها ، ويقول مهندسو الكهرباء : كلما دق صنع الآلات كانت أقوى على تأدية رسالتها الفنية » وهكذا كل آلة منوطة ، فى أداء ما كانت له ، باحكامها ودقة صنعها ،

ودقة الإحكام قائمة على التجربة والتعزيز وصدق المران وإتقان الصنع .

وحتى قص علىّ أبى : أن بعض الأعلام من فقهائنا لبث سنين طويلة يطلب العلم فلم يفد منه ما يرجوه وبقى فى المستوى الأدنى من زملائه حتى يئس وترك الدراسة ، فمر بنسوة على بئر ماء يستقين بالدلاء ، ورأى أثر الحبال قد حز فى الصخر المستديم على فم البئر فوقف مبهوتاً يخاطب نفسه بقول الشاعر :

انظر إلى الحبل وتكراره فى الصخرة الصماء قد أثرا

فرجع إلى نفسه يتلاوم على يأسه من درسه ، واتهمها بضيق العطن ، والجزع فى مواطن الصبر » ورأى فى طريقه نملة تحمل حبة من البر أكبر منها وتريد أن تعلوبها صخرة فلا تستطيع ، وكلما صعدت بها فتراً أو شبراً حال الأعياء وزلق الصخر دون استمرارها فأهوت إلى حيث بدأت ، واستمرت مثابرة على الصعود رغم الانحدار حتى عد اليائس لها ستاً وثلاثين مرة ، وفى كل مرة تقطع مسافة من الصخرة إلى أن غلب الرجاء على اليأس واستظهرتها إلى حيث تقطن .

عندئذ صمم الرجل على العود والثبات فى جهاده حتى بلغ القمة فى علم الفقه وأصبح علماً فيه ، وكان يطوف على طلبة العلم الراسبين ويقص عليهم عبرته فيقول : لاعذر لأحدكم فى أن يتخلف وهو يعتقد أن الحياة فوز وإخفاق من وراء الحظوظ » ويقول لهم : ليس فى الحياة إلا علم وعمل يصعدان بالمرء أو يسفان به على مقدار ما يطلب الصعود ويتفادى الأسفاف ، ولقد كان الرسوب والجمود أقسى على منكم حتى لفظت الجهاد ويئست من الفوز ولكن .. »

لكنى إذ رأيت النملة تعيد الكرة فى أداء رسالتها ستاً وثلاثين مرة حتى ظفرت بالفوز ، هكذا علمتنى الثبات والمثابرة فى دراستى فعددت لها ستاً وثلاثين سنة وإذا بى على القمة ينحدر عنى كل عالم ، ذلك بفضل النملة وهى تتوقل الصخر وبفضل الحبل وهو يؤثر فيه ، فتعلموا يا أبنائى من الحيوان والجماد ما ينهض بكم من عالمها إلى عالم تزحمون فيه الملائكة بين يدى بارئ الكون ، وهل هذا كله إلا وليد العلم والعمل ؟؟ » أقول ؛ بقيت هذه الذكرى تجول فى نفسى شكوكاً وريبة حتى مر بى هذا فأدركت السر فى رياضة اللسان على الذكر والامعان فيه .

إنما سمي كتاب الله قرآناً وذكراً لنكثر من قراءته ونكثر من ذكر الله به ؛ لنقرأ كثيراً فنتسم به ، ولنذكر الله به كثيراً فنطبع قلوبنا بطابعه ، فاذكروا الله ذكراً كثيراً ، واذكروه مع الذاكرين ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، كل ذلك يدعونا لأن نقف ألسنتنا على ذكر الله ، ونطبع قلوبنا باسمه ، ونشرب أنفسنا اللجوء إليه والخشية منه ، ونصقل أرواحنا بالبحث عنه والتفكير فيه ، حتى تكون الصلة بيننا وبينه وثيقة العرى كالصلة بين الصانع وأطوع آلات صنعه له ، إذ يمعن فى صقلها وشحذها وإعدادها لما خلقت من أجله ، فاذا هي تستجيب له وإذا به يؤدى رسالته التى كانت به ماضية ، وكانت يده بها صناعاً .

لم تكن لتعلو المنبر وأنت خطيب مصقع ،ولم تكن لتفصل فى الحكم وأنت قاض مبدره ، ولم تكن لتمسك القلم وترسم مائة كلمة فى الدقيقة ، ثم لم تكن لتقبض بيمناك حفنة من الدنانير ثم تصبها فى يسراك فتنقد الزائف وتميز عنه الصرف لمجرد صبها ، أقول : لم تكن تفعل ذلك كذلك لولا المران والرياضة والتكرير ساعة فساعة ، ويوماً فيوماً ، وشهراً فشهراً ثم عاماً فعاماً .

ان تمرين أعضائك على عمل أى شئ ، وتمرين فكرك على بحث أى شئ ، ثم تمرين قلبك على استلهام أى شئ ، ان هذا التمرين بالغ بك الهدف الذى تنشده ولو كان معجزاً ، فانا نسمع عن فقراء الهنود معاجز فى أعمال الجسد ، ونسمع عن الغرب معاجز فى أعمال الفكر ، ثم نسمع ونلمس عن شرقنا الأدنى هذا معاجز فى أعمال القلب ، فهل يكون غريباً على الإنسان ، إن أعمل فكره ولسانه بذكر الله ، أن يستحيل فى الله ويتصل به فيؤدى بذلك رسالته الإنسانية على أتم وجه ؟؟

ان هذا كائن ، وهو بين سمعنا وبصرنا ، نرى المشعوذ يروض جوارحه على الخفة وسحر الأعين ، فيصبح أعجوبة فى مآتيه ، ونرى اللص يروض جوارحه على النشل والاختلاس فيأتى بالعجائب ، ونرى الدجال يروض جوارحه على الكذب والتضليل فيأتى بالمعجزات ، وهكذا نرى الزاهد الناسك المتصوف يروض جوارحه على العبادة والتهجد فيصوم الدهر ويصلى ألف ركعة فى الليلة

الواحدة ، ويختم القرآن كل يوم ويصبر على شظف العيش فيأكل ويلبس ما خشن وخشن ، فليس الذكر إلا رياضة يمعن بها الإنسان فى تطويع ما استعصى أو تثقيف ما اعوج ، وتقريب ما بعد أو تبعيد ما قرب ، وقديماً قال الشاعر :

أذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
أذكروا صباً إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

فليس الذكر الذى يعلى كتاب الله من شأنه ويحضنا عليه ، إلا هذه الرياضة ، ولكنها رياضة خاصة بالله الذى قر فى نفوسنا أنه الحق ، وأنه الصدق ، وأنه الأمانة ، وأنه الوفاء ، وأنه كل خلق يسمو به الإنسان ويعتز ، ثم أنه العلم الذى يبصرنا بالحياة ، ويكشف لنا عن مخزونها الحافل بالحياة ، ويصلنا من خلال كنوزها بخالق الحياة ، هذا هو الله الذى يدعونا الله إلى أن نروض أنفسنا على ذكره ، وهذا هو الله الذى يحيلنا إليه فيما نجهل ، إذ يقول : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

ان الغربى اليوم كالشرقى بالأمس ، إذا لاح له بصيص من نور العلم ، تعهده بالذكر والفكر حتى يلم به ، ثم أمعن فى هذا التعهد حتى يحيط به ، ثم زاد إمعاناً فى البحث عنه والتفكير به حتى يوغل فيه ويكتنه السر الذى كان من أجله ، فاذا بهذا الإمعان فى تعهد ذلك البصيص من النور بذكره وفكره ، يكشف له عن مشكاة فيها مصباح ، والمصباح فى الزجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء .

أى بنى : رض نفسك ما استطعت ، أو فوق ما تستطيع ، على ذكر الله ليلك ونهارك ، واقرأ كتاب الله الذى يبين لك من هو الله الذى تروض لسانك وفكرك على ذكره ، اقرأ كتابه ما استطعت ، والهج بذكره حيث لا تستطيع قراءة وكتابة ، أيان تقوم وتقعد ، وتذهب أو تجىء ، وتقول أو تفعل ، رض نفسك ما استطعت وفوق ما تستطيع على ذكر الله الذى ألهمك أن تقول ، والذى أقدرك على أن تفعل ، والذى دعاك لأن تفكر ، الله الذى لم يهملك إذ سواك ،

فرحمك بالعين لتبصر ، وبالأذن لتسمع ، وبالعقل لتفكر ، وباليد لتعمل ، ثم رحمك بالهدى إلى العلم لتميز الحق من الباطل ، وتنشد الكمال الذى من أجله خلقك فسواك فعدلك .

أذكر ربك يا بنى ، ربك العالم حين تجهل ، ليهبك نعمة العلم ، والقوى حين تضعف ليسبغ عليك القوة ، والقادر حين تعجز ليجبرك من التهالك ، والغنى حين تفتقر ليغنيك عمن سواه ، أذكر ربك الغفور وأنت تقترف الإثم ليسعك برحمته ، واذكر ربك الحليم ليتجاوزك بغضبه ، واذكر ربك اللطيف ليرفق بك إذا خشنت ، ويقيلك إذا عثرت ، ويأخذ بيدك حين تقع ثم لا تجد ناصراً غيره .

إنك إذ تمعن فى ذكر الله الذى هو هذا المقرر فى نفسك أنه مهيمن عليك ولطيف بك ومسوءل عنك ، إنك إذ تمعن فى ذكره ، وهو قائم فى نفسك حقاً يعصمك من الباطل ، ونوراً يكشف عنك ظلمة الغى ، وكريما يضفى عليك نعمة الحياة ، وقائداً يرشدك إلى الطريق السوى ، أقول : إنك إذ تمعن فى ذكر ربك الذى هو هدفك إذ تنشد الكمال ، وغايتك إذ تبحث فى نفسك عن سر الوجود ، انك إذ تمعن فى ذكر هذا تستحيل فيه حباً وتقديساً ويستحيل فيك هدياً وإرشاداً ، فاذا بك هذا الإنسان الكامل الذى لم يكن إلا ليكون كاملا ، والذى لم يفرض عليه الكمال إلا ليدل بكماله على عظمة خالقه ، وإلا ليدرك بكماله الحكمة التى كانت علة خلقه .

محمد ﷺ لَوْ تَعَلَّقَتْ هِمَّةُ أَحَدِكُم بِالثُّرَيَّا لَنَالَهَا

يعلمنا المعلم الأول بهذه الكلمة الجامعة كيف نربى الهمم على الطموح إلى معالى الأمور ؟؟

من الذكريات التى بعثها فى نفسى هذه الحكمة ، حديث رواه لى أحد مواطنى العرب فى مدينة بونس ايرس عاصمة الأرجنتين فى جنوب أمريكا أيام زيارتى الثانية لها عام ١٩٣٩ ، وقد كان السيد روزفلت يومئذ رئيس الولايات المتحدة فى شمال أمريكا كان عاملا أول للصهيونية فى بلاد العرب ، حتى بلغ من حرصه على إنشاء دولة إسرائيل وتثبيت الصهيونية فى أرضنا أن عرض على الملك عبدالعزيز بن سعود عشرين مليوناً من الدنانير الذهب ثمن ممر لليهود من خليج العقبة إلى خيبر فى أرض الحجاز ، وقد كانت مهد صهيون فى صدر الإسلام ، فأبى الملك السعودى ذلك وأنكر عليه مثل هذا العرض ،

قال مواطنى : ان بعض العلماء فى هذا البلد ألف كتاباً يثبت فيه أن روزفلت من أصل يهودى هو وزوجته ، فأقبلت عليه بكل جوارحى لأعى ما يقول ، وظل يقص على فحوى هذا الكتاب ساعات ، فمن مضامينه :

إن من أسرار الصهيونية التى تعمل فى كل مؤسسة غامضة كالماسون والروتارى وغيرهما من المنشآت السرية ، من أسرار هذه المؤسسات تعزيز الصهيونية بما يفرض على العالم سيطرتها والهيبة منها ، والاستخذاء لها ، من هذه الأسرار إشراك اليهود فى سيادة العالم ديناً ومدنية ، ومنها توجيه العالم إلى أهدافهم ، ومنها إخضاع العالم لسيطرتهم وسلطانهم ، حتى يكون لهم القوة فى التصرف بالعالم حرباً وسلماً ، وبقاء وفناء وتأييداً لهذا : أما أولا ، وهو سيادة اليهود فى العالم ديناً ومدنية فقد دخل بعضهم قبل مائة عام فى الإسلام والنصرانية وأوغلوا فى هذا الدخول حتى أبرهوا فى إسلامهم وتنصرهم عن إخلاص وتفان بين يدى ما يعتنقونه من دين جديد ، فظل الأب يغذى الابن ، والجد يغذى الحفيد

بادئ الدين الأول ، حتى جاءت الأحفاد والأسباط مكينة فى دينها الأخير ، ولما تزل مصرة على دينها الأول فنشأ عن ذلك ما يأتى :

ينقل لنا الأستاذ محمد على علوبة فى كلمة ألقاها على ندوة « الاصفياء » فى مصر الجديدة ، وعلى مسمع الزعيم الفلسطينى الحاج أمين الحسينى ، قوله : لقد ظهر بعد حرب اليهود مع العرب فى فلسطين أن شيخاً فقيهاً مسلماً رأس دائرة الوعظ والدرس الإسلاميين فى المسجد الأقصى ، وآخر مثله فى خان يونس،عشرين عاماً وهما يحملان شهادة عالمية من الأزهر ، حتى إذا نشأت إسرائيل اختفيا ثم ظهر فيما بعد أنهما من اليهود ، وقد كانا فى مهنتهما ، الفقه الإسلامى ، يعملان على النيل من الإسلام والمسلمين تمهيداً لتأسيس إسرائيل .

من هذا نفهم السر فى أن خمسة آلاف قسيس بروتستنتى من قسس أمريكا الشمالية أجمعوا على مطالبة رئيس الولايات المتحدة السيد ترومان بمساعدة اليهود على تأسيس دولتهم إسرائيل ، ومن هذا نفهم السر أيضاً فى تهالك بعض مطارنة وكهنة لبنان على مساعدة اليهود فى إنشاء دولتهم حتى حمل هذا التهالك المطران اغناطيوس مبارك على تأليف كتاب رفعه إلى هيئة الأمم المتحدة يقول فيه بالنص الصريح : إذا لم تنشأ دولة يهودية فى فلسطين فلا نستطيع الحياة ، نحن اللبنانيين على أبواب الشرق » وحتى أعلن فى حفل يهودى دينى بمدينة بيروت ، وكان يرافق البطريرك عريضة إليه ، أعلن قوله : أنا مطران اليهود وهذا بطريركهم »

وهكذا نفهم السر فى صموت الفاتيكان وسكوت رعاية الكنيسة « كانتر بارى » فى انكلترا ثم تجاوزهم هذا السكوت إلى مساعدة اليهود بطلب تدويل القدس من هيئة الأمم ، والعالم كله يعلم أن القدس عربية منذ فجر التاريخ العربى ، وهكذا نفهم السر أيضاً فى أن آلاف القسس كانوا يطوفون أقطار أمريكا المتحدة لجمع التبرعات فى سبيل إنشاء إسرائيل وهم يسمعون ملء الآذان بالفظائع التى يرتكبها اليهود فى مدن وقرى فلسطين العربية ، من ذبح الأطفال وبقر بطون النساء الحوامل باسم المدنية والسلاح الذى تمدهم به رعاة المدنية من أوروبا وأمريكا ، يفعلون ذلك كله دينيين ومدنيين وهم يقرأون

صباح مساء فى كتبهم المقدسة أن اليهود هم الذين صلبوا ربهم وأنزلوا بمسيحهم العذاب والهون .

هذا ما أعده اليهود تمهيداً لإعلاء كلمتهم وإنشاء دولتهم من ناحية الدين باعتناقهم شريعة محمد ودين عيسى اليوم كما فعلوا قبل ألف عام فى صدر الإسلام حتى ضللوا المسلمين يومذاك ولم يزل تضليلهم هذا قائماً فى صميم الدين الإسلامى حتى يومه هذا .

وليست سيرة يوسف بن يعقوب بن كلس اليهودى العراقى الأصل الذى أسلمت أسرته وانحدر منها،غريبة على التاريخ ، فقد هاجر وطنه إلى مصر وحظى عند الدولة الإخشيدية ، ثم لدى المعز الفاطمى حتى أصبح مدرساً للفقه ، واتضح بعد ذلك على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى أنه كان يتآمر مع الروم على انتزاع فلسطين وسلمهم أسرار الحامية الفاطمية المرابطة بها وأغراهم بالهجوم عليها ليتسنى له بعد ذلك رفع راية إسرائيل بمساعدتهم عليها[1] .

وأما ما أعدوه لتعزيز دينهم ودولتهم من ناحية المدنية فهو ما تضمنه كتاب ذلك العالم الأسبانى فى الأرجنتين يثبت فيه أن روزفلت وزوجته من أصل يهودى فاسمع ما يقول فى فحواه : إن اليهود قبل مائة عام امعنوا فى حمل بعضهم على اعتناق النصرانية البروتستانتية تمهيداً لدخولهم السلطان الأول فى حكم الولايات المتحدة التى ضمنت دستورها آنذاك ضرورة كون الرئيس الأول فيها نصرانياً بروتستانتياً ، أقول : كان ذلك منهم تمهيداً لتعزيز اليهودية فى أمريكا ثم تعزيز العوامل التى يحققون بها أحلامهم فى أرض الميعاد فلسطين » .

وقد كان لهم ذلك ، إذ ظهر كثير من البراهين على أن كثيراً من حكام الولايات المتحدة منحدرون من أصل يهودى حتى قال لى بعض الأمريكيين أيام وجودى فى نويرك : أن كل اسم يقترن بلفظ « مان » هو يهودى أو منحدر من أصل يهودى ، كوايزمان وترومان » ثم أمعنوا فى تطويع الأمريكيين بالحكم حتى لم يقتصروا أخيراً على إخضاعهم بحكام تحدروا من اليهودية ، وإنما تجاوزوا

---

(١) من مقال للعلامة الزعبي فى مجلة العرفان الجزء السادس ١٩٥٦

ذلك إلى أن حكموهم باليهودية السافرة عندما استفحل سلطانهم من وراء السيطرة المالية وتعزيز حب المادة فى نفوس الأمريكيين حتى أصبح الدولار معبوداً لديهم .

نقل لى بعض المهاجرين العرب تحت سماء أمريكا الشمالية : أن مدينـــة « انديانا هاربر » التى تضم نصف مليون من العالم هى المدينة الوحيدة التى خلت من اليهود إلا يهودياً واحداً هو حاكمها الأعلى ، ومن رأى عظمة المنشآت الماسونية فى الولايات المتحدة وأوروبا علم مبلغ تأثير هذه المؤسسات على الشعب المسيحى البروتستانتى خاصة فى نزع التعصب الدينى من نفوس أبنائه ليتسنى لهم حكم البلاد مادة وسياسة دون أن يثيروا أية ضغينة فى نفوس الأمريكيين الأول فى بلادهم .

فقد نقل لى كثير من رجال الماسون أن المجلس الأعلى لكل محفل ماسونى مكتوم عن جميع رجال ذلك المحفل بجميع درجاتهم ، لايعلمون شيئاً عما يجرى فى ذلك المجلس من أسرار ثم لايعلمون أسماء أعيان ذلك المجلس ، ثم يقول لى هؤلاء : ان من أهم مواد الماسونية رفع التعصب الدينى بينهم والمؤاخاة باسم المحفل مهما امتاز بعضهم عن البعض الآخر بالجنس أو اللون حتى قال بعضهم من ماسونى العرب :

تركت تعصباً فى الدين حتى أرى الوثنى كالخل الحميم

وأعجب ما يدهش الإنسان أنه لم يبق من شك فى أن الماسونية يهودية وبرهان ذلك ما فعله هتلر فى الماسون أيام الحرب العالمية الأولى على اعتبارهم يهوداً ، ونرى أهم بنود الماسونية رفع التعصب الدينى من صدور أبنائها ثم نرى اليهود الذين أسسوا الماسونية هم أشد الناس جهراً وإسراراً فى التعصب لدينهم . ذلك ما يدلنا على أنهم إنما أسسوا الماسونية ليمحوا بها العصبية الدينيةمن العالم فيتسنى لهم بذلك الإبقاء على أنفسهم فى العالم إذ كانوا أذلاء منبوذين من جميع العالم ، ثم ليتسنى لهم أخيراً تحقيق ما يرمون إليه من حكم العالم والسيطرة عايه مادة وسياسة ، ليصلوا آخر الأمر إلى هدفهم الأسمى وهو تحطيم شعوب العالم ليقوم على أنقاضه إنشاء دولة إسرائيل التى يأملون بها السيادة على العالم .

هكذا ملكوا أمر الناس فى العالم المتمدين ثم انقلبوا إلى ملك هذا الأمر فى

العالم المتأخر ، فكان هدفهم الأول تركيا التى بدأت تنحدر منذ مائة عام بفعل اليهود الذين اعتنقوا الإسلام فى « سالونيك » ويعبر عنهم بالدونمه فكان من أبنائهم مصطفى كمال وكثير من هؤلاء الذين يحكمون تركيا اليوم من بعده ، وفيهم حسين يالشتين الصحفى المنحدر من أصل يهودى ، فقد فعلوا فى تركيا ما فعلوه فى الولايات المتحدة فأخرجوها عن إسلامها باسم القومية الطورانية ليصرفوا عنها احتفاظ العالم الإسلامى بخلافته فيها كما أخرجوا أمريكا عن نصرانيتها ، بقصر العصبية فيها على أمريكيتها لا مسيحيتها حتى كانت ولا تزال الكلمة السائدة على ألسنة السياسيين الأمريكيين قولهم « أمريكا للأمريكيين » وحتى نقل لى بعض المهاجرين العرب فى الولايات المتحدة : انك لا تجد أمريكياً يتعصب لدين المسيح إلا الكاثوليك وأما ما عداهم فهم يهود » .

والكاثوليك فى الولايات المتحدة لا يشكلون عشرة فى المائة من أهلها ، وأما فى بريطانيا فتكاد تحصر الكاثوليك فى زاوية واحدة من كل بلد ، ولهذا نرى السيطرة الأولى على مجلس العموم البريطانى لليهود ، فقد سمعت من أقطاب الساسة المعاصرين أن سبعين عضواً فى مجلس التشريع البريطانى من أصل يهودى وأن وزيراً أو وزيرين يهوديين كائنان حتما فى كل حكومة يشكلها بريطانى ، واليهود فى بريطانيا لا ينهضون إلى مليون فى تعدادهم ، بينما نجد مئات الملايين من رعايا بريطانيا المسلمين ليس لهم واحد يمثلهم فى مجلس العموم البريطانى فضلا عن حكوماته ، فلينظر القارئ وليتأمل مبلغ ما وصل إليه عنصر الصهيونية من سيطرة على العالم ، وإلى أين وصلوا من طموحهم ، وهم قلة لا يزيدون على بضعة عشر مليوناً ، فى تحديهم ألفى مليون من مجموعة الإنسان على وجه الأرض.

وهكذا نصل إلى مبلغ ما سيطروا به على العالم من وسائل الحضارة فى العلم والمال ، فقد رأوا ، بعد إمعانهم فى إشراب العالم حب المادة من وراء بث الشهوات فى النفوس ، وإيقاد نيران الحروب والمجازر فى العالم بالدس وتغذية الأثرة العنصرية بين الأمم ، رأوا أن مصدر ذلك كله العلم ، فأمعنوا فى طلبه حتى كان منهم أمثال انشتاين ووايز من ولينين وماركس وسبينوزا وأوسكار ليفى وغيرهم من أقطاب العالم صريحين ومتسترين ، وحتى

كان منهم أقطاب المال العالمى فى « وول ستريت » من قلب نويرك ، وأقطاب التجارة والصحافة والدعاية ، فلن تجد تحت سماء أمريكا أم العالم المتحضر أو المتمدين على الأقل ، لن تجد تجارة أو صحافة أو إذاعة أو صرافة ، إلا ولليهود عليها السيطرة الأولى ، وهل العالم كله إلا علوم تخلق المادة وإلا مال يملك النفوس ، وهل شئ من هذا يخضع لغير هذه الحفنة من العالم ؟؟

هكذا نستطيع أن نفسر قول محمد بأن هذا الشعب الجبار من يهود العالم هم الذين وحدهم تعلقت هممهم بالكواكب فصعدوا إليها وتبوأوا نواصيها ، وأما أمة محمد فقد كانت نجوم السماء مواطئ أقدامهم إذ كانوا يحفون برسول الله ويتلقون رسالته بأيديهم ثم يضعونها على صدورهم ، ليغذوا بها قلوباً تتسع للحق فيضيق بها العالم ، ويضعونها على عيونهم ليبصروا بها مواقع أقدامهم فى مجاهل العالم ، حتى إذا نبذوا تلك الرسالة ، وخضعوا للباطل بين يدى شهواتهم غاصت هممهم فى تخوم الأرض حتى لا نقوى على أن نرى اليوم مسلماً إلا إذا تطامنا وطأطأنا رؤسنا نفتش عنه فى الحضيض من العالم .

علي — مَنْ وَثِقَ بِالمَاءِ لَمْ يَظْمَأْ

كان بلال الحبشي مؤذن رسول الله من المعذبين على يد مولاه المشرك أيام نبوغ الإسلام واستجابته لداعي الله ، فكان سيده يخرج به من مكة إلى الرمضاء اللاهبة ويطرحه أرضاً ثم يضع الصخرة على صدره ويقول له : إما أن تكفر بدين محمد أو لأدعنك فى السموم حتى ينضج لحمك ، فيقول ، ولم يزد : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند »

وكان ياسر أبو عمار وزميل بلال ، فى الثقة بالحق والدعوة إليه ، كان يستهدف للعذاب على أيدى المشركين فكان يوثق وتوضع الصخور على صدره ويجلد حتى يتهرأ جلده ليكفر بدين محمد فلا يسمع معذبه منه تحت السياط إلا قوله : أحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك ولا ند .

وهكذا كان جل أصحاب رسول الله السابقين فى إسلامهم يستهدفون بقوة إيمانهم لعذاب لا يطيقه إلا من رأى الجنة التى يظمأ لها رأى القلب ، وإلا من رأى النار التى يفر منها رأى العين ، فيستسلم لعذاب الدنيا وهو واثق من أنه يرد على ربه شقياً ليسعد وظمآن ليروى .

أما بعد محمد فقد استهدف كثير من هؤلاء لعذاب المشركين الذين لم يلج الإسلام قلوبهم ولا دار على ألسنتهم إلا كذباً ورياء ، فقد كان عمار بن ياسر ينشد الماء وهو يناضل جيش الكفر مع خليفة رسول الله إذ كظه العطش تحت الحديد والنار والجراح تمضه ، فلم تغثه إلا امرأة بقدح من لبن فلما تناوله تهلل وجهه وكبر وقال : صدق حبيبي رسول الله إذ قال : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ويكون آخر زاده فى الدنيا شربة من لبن .

وكان أبو ذر خليل رسول الله أشدهم عذاباً بعد خليله ، إذ كان يجهر بالنقد اللاذع للخليفة الثالث الذى اجتهد فى الإسراف بصلة أهله من آل أمية على حساب الأمة حتى فرغ بيت المال ، وحتى جاءه الخازن يبكى ودفع إليه

المفتاح يقول : لم يكن شئ من هذا على عهد رسول الله ولا الخليفتين من بعده »، فانتهرة عثمان وقال ؛ مالك أنت ؟؟ انهم اجتهدوا فقبضوا أيديهم واجتهدت فبسطت يدى » ثم طرده .

من أجل هذا لم يجهر أحد من الصحابة ، على كثرتهم يومذاك ، بانكار ذلك على الخليفة الأموى ، ثم لم ينكر عليه أحد منهم إيثار أهله بالحكم على خيار الأمة ، إلا علياً وأبا ذر ، أما على فقد نصح الخليفة ووعظه فلم ينتصح ولم يتعظ ثم لم يجرؤ على إيذاء على ، ولكنه صب سخطه على أبى ذر ليردعه فلم يرتدع ، ومضى يقسو فى نقده على الخليفة الأموى ، ومضى الخليفة يقسو عليه فى زجره فلم ينتصف أحدهما من زميله حتى نفاه إلى الشام حيث معاوية ، وما أدراك ما معاوية ؟؟

قيل لأبى ذر ، وهو يذرع أزقة المدينة ليلا ونهاراً يقرأ قوله تعالى : ان الذين يكنزون الذهب والفضة ثم لا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم ، هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون » يقرأ هذا ويجهر به حتى ضاق الخليفة الأموى به ذرعاً ، قيل له إذ ذاك : اتق الفتنة يا أبا ذر ، فقال : وهل فى قراءة كتاب الله فتنة ؟؟ إنما يدعو إلى الفتنة من يؤثر الباطل على الحق .

ويقول : وهو بين يدى معاوية فى الشام مشيراً إلى قصره الأخضر ... : إن كان هذا من مالك الخاص فأنت مسرف وإن كان من مال الله فأنت خائن » فقيل له : اتق السلطان يا أبا ذر فقال : إنما أتقى سلطان السماء ، ولقد حدثنى خليلى رسول الله قائلا : أيما ذهب أو فضة أكئ عليه فهو حجر على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله .

ولقد بايعت رسول الله على أن لاأقول إلا الحق ولو كان مراً ، وعلى أن لاتأخذنى فى الله لومة لائم » ان بنى أمية يهددوننى بالقتل أو الفقر ولبطن الأرض أحب إلى من ظهرها ، وللفقر أحب إلى من الغنى ، ثم يقول : عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها .

وقيل له : ألا تتخذ لك ضيعة ؟ فقال : وما أصنع بأن أكون أميراً ؟؟

وإنما يكفيني كل يوم شربة ماء وفى كل جمعة قفيز من البر.

ويقول رداً على كعب الأحبار إذ صوب الأمويين بالبذخ وكنز المال ، قال : ليودن صاحب هذا المال لو كان يوم القيامة عقارب تلسع السويداء من قلبه ، فقيل له إذ ضاق معاوية ذرعاً به : اتق الله فى نفسك يا أبا ذر ، فقال : والذى نفسى بيده لو وضعتم الصمصامة على عنقى ثم ظننت أنى منفذ كلمة سمعتها من خليلى رسول الله قبل أن تحتزوا رأسى لأنفذتها .

فشكاه معاوية إلى عثمان فكتب إليه أن يبعث به فحمله على قتب غير موطأ حتى تهرأ جلده. وهو صابر محتسب عند الله خشونة المركب وجعجعة السير وطول السفر ، وكلما أمضه الألم ذكر أنه قادم على خليله رسول الله من قريب فاطمأن ليقينه بأن من وثق بالماء لم يظمأ .

وهكذا يصيب هذا الرأى من كبدى وأنا أظمأ ما أكون إلى الحياة الدنيا . فقد جثم الفقر على صدرى فى غضون الحرب العالمية الأولى إذ كنت أعول أبوى بعد فقدهما أخى الأكبر ، وكانت سنى لا تزال دون الشباب وفوق البلوغ ، كنت لا أزال رخص العود لا أقوى على مصارعة الأيام ، وكان تفكيرى لا يتعدى حدود صباه الباكر الغض ، فلم أكن لأطيق العمل فى غير تعلم الأحداث ، وكنت قد أجزت الدور الابتدائى من دراستى فتذرعت إلى هذه المهنة بأحد زعماء النبطية . فقدمنى لمدير معارف الولاية فى بيروت ، ونجحت الواسطة وعهدت إلى وزارة المعارف بالتدريس فى قرية إقطاعى آخر من زعماء جبل عامل .

وعدت من بيروت راجلا ليس لدى من المال ما يحملنى ولا من الزاد ما يزيد على وجبة أو وجبتين أحملها بيدى أربعاً وعشرين ساعة والجو شتاء والبرد قارس ، ولا أملك ما يدفع غائلة الجوع والبرد والخوف والإعياء غير ثقتى بالماء ، وأنى إنما أعانى ما يمضنى فى سبيل أبوى اللذين هما عدتى فى كل ما أفكر من حياة .

ويزداد هذا البلاء عندما أصل القرية التى عهد إلى التدريس فيها ، فأقبلت على دار الزعيم الذى كان لا بد من الوفود عليه فى بلد يدين له بكل من

صدر عنه أو ورد عليه ، فلما رآنى حدثاً لا أتعدى السادسة عشرة من سنى حياتى قال : ماذا تستطيع أن تعلم يا ولد وأنت لا تزال غراً جاهلا ؟؟ فقلت لعل الذى بعث بى يجيبك عن هذا ، فقال : أخرج فلست مستعداً لقبول ولد يعلم أولادى » ثم لم يمهلنى أن أتكلم وهو يغدق على من أفحش القول ما ندى له جبينى حياء .

فخرجت من داره ثم من بلده لا ألوى على شئ ، وكانت الشمس تغادر الأفق أشد اصفراراً من وجهى ، وأقسى كآبة مما أكابد ، ولا يغيب عن ذكراى أن رجلا فى آخر القرية دعانى أن أبيت عنده وقال : أين تذهب ، والليل مقبل والسفر شاق والطريق وعر ؟؟ فقلت : إن معى ربى وإن ورائى أبوين ينتظران عودى ، ومن وثق بالماء لم يظمأ .

وأغور تحت الليل المظلم فى الأودية ثم أنهد إلى الروابى معتسفاً لا أعرف وجهاً للسبل التى تفضى بى إلى أى محجة أو مأوى ، هائماً جائعاً ظامئاً عانياً ، يكاد ربى يعصر من قلبى آنذاك ما يصبغ الأفق حتى يزداد ظلمة وما يصبغ الأرض حتى تزيد وعورة وضلا لا ، ولكنى كنت ، وأنا أشق مزارع الترمس به لدرى ، وأتفادى الصخور ومصادر العواء من وحوش القفر بيقينى أنى لا أضام وأنا أنشد الحق ولا أظمأ وأنا واثق بالماء .

ودخلت على أبوى مصبحاً أحمل وجوه الموتى ، فلما قصصت عليهما ما كان ، وكانا قد ودعانى آملين ، قال أبى : ان لعنة السماء ستنزل به ، ثم لم يزد على أن عقب على حديثى بقوله : ان الله لن يتخلى عن عباده يا بنى ، فاحفظ عنى يا محمد وأنا على فراش المرض والعجز : انك لا تعثر ما دمت رافعاً رأسك للسماء تعاهد الله على أن تخدم الحق ، فاتق الله يا بنى قبل أى عمل تأتيه وأوصيك بالصلاة ... ثم أغمض عينيه يناجى ربه .

ويدور الزمن ، والدهر منجنون ، فاذا باللعنة من السماء تنصب على الزعيم ، وإذا هو نهب الفقر والذل بين يدى ظلم الافرنسى وغطرسته ، وإذا الصاع الذى كال به للبائس المشرد ، يكال له مضاعفاً بيد أجنبية تهتك الحرمة وتصم العرض ، يد المستعمر الجاثم على صدره ، وإذا بعد ذلك كله يعطى الزمن قياده

للبائس الذى شرده وطرده وأهانه فينشئ الأندية ، ويؤسس معاهد العلم ، ويؤلف الكتب ويصدر صحيفته « العروبة » وينفجر بالنقد المر على الزعماء دينيين ومدنيين ، حتى تقوم فى أعقاب هذا النقد معاهد للعلوم تحت سماء جبل عامل فى صور والنبطية وفى بيروت ودمشق ويستهدف الناقد لعذاب مرير وعدوان غادر من عتاة قومه ، فيفد الزعيم وأولاده على البائس الشريد بالأمس ، وقد أحدق به الشباب المتحرر اليوم ، وفدوا عليه ليؤاسوه فى عدوان زعيم آخر ناله من وراء نقده وتجريحه وتنبيه الناس لجهله وخيانته .

يجلس الزعيم إليه ويواسيه بكلمات أعادت إليه ذكرى عشرين عاماً مرت على سطوة هذا الزعيم وسلطانه الجائر ، فابتسم الشاعر للزعيم وقال : سنة الله فى خلقه ، يصعد الظالم ثم يهبط ، ويهبط المظلوم ثم يصعد » فأحس أنى ألفته إلى الماضى فقال : نعم لقد كانت منا هنات نعتذر إليك عنها وهذا ابنى سيكون منك مكانى فى التفكير عما فرط منى » فقلت : سامحك الله ، إن من وثق بالماء لا يظمأ ولن يظمأ أبدا » .

الله

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ (أى القرآن) الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد ؟؟

حدثنى أبى رحمه الله أن أصحاب الأمام السجاد على بن الحسين أو الإمام الباقر محمد بن على سألوه : أليس الله يقول : يا عبادى ادعونى أستجب لكم » ؟؟ قال : صدق الله العظيم بلى هو قائل ذلك ، قالوا : فما بالنا ندعوه ليلَ نهارَ فلا يستجيب لنا ؟؟ قال : لأنكم تدعون من لا تعرفون، قالوا : وكيف نعرفه ؟؟قال : اعرفوا نفوسكم تعرفوه ثم ادعوه يستجب لكم ، قالوا : وكيف نعرف نفوسنا ؟؟ قال : فكروا فى أعينكم كيف تبصر ؟ وفى آذانكم كيف تسمع؟ ثم فى قلوبكم كيف تفكر ؟؟ فاذا عرفتم ذلك شعرتم بعظمة الله فى نفوســـكم فدعوتموه فاستجاب لكم »

وينقل علماء الطب : أن المجهر الحديث كشف للعين أن تلافيف الدماغ تشتمل على أربعة ملايين سلك من العصب ، ويقول : لا يبعد أن تتضاعف هذه الأسلاك بتعزيز المجهر لأن العلم لم يقف ، فى صناعة المكبرات من مجاهر ومراصد ، عند حد ، ففى كل جيل نرى هذه الآلات تتعزز فتأتينا بجديد مما لم نشعر به لولا تعزيزها .

ويقول بعض آخر من علماء التشريح فى الطب : إن العلم لم يثبت فرقاً بين أذنى السميع والأصم ، ولا بين لسانى الناطق والأبكم من حيث الظاهر ، ذلك مما يدل على أن وراء ما تحس العين بالمجهر من عصبيهما المتصل بجمهور الأعصاب فى الدماغ المسيطر على الحواس، اختلالا فى عصب لم تتبينه مجاهر الطب الحديث ولو كان عصب التلافيف محدوداً بالملايين الأربعة التى نتبينها بالمجهر لسهل الوقوف على الخلل الذى ينشأ منه الصمم والبكم » على أن البعض يحقق أن فى

ألمانيا مصحات لمجموعة الرأس يطمئن الطب إلى التشريح فيها ، ثم إلى تبين العلل القائمة فى خرس الألسن وصمم الآذان .

ومعجزة العين أن جوها الواصل بين الروح وبين مرئيات الوجود ، هذا الجوهر هو عبارة عن شبكة من العروق الدقيقة تتصل بعصب الدماغ ثم يتصل بها إنسان العين المسمى بالجوْجوْ ، وهو كرة صغيرة الحجم قائمة فى حدقة لا يمسكها إلا محجر يفرز ماء لزجاً تندى به تلك الكرة ما دامت تعمل على التقاط الصور المرئية التى تتكسر عليها أشعة الشمس ، ثم نرى هذه الكرة مغلفة بغشاء شفاف يسمى قرنية ترتسم عليها تلك الصور فهى من الجوْجوْ بمنزلة اللوحة الحساسة من عدسة الفنان ، فما هى تلك الشبكة ، وما هو هذا الجوْجوْ وما هى هذه القرنية ، ثم ما هو ذلك المآء الذى تفرزه عروق المحجر فتؤهل القرنية لالتقاط هذه الصور ؟؟

ان الطب ليدهش من عظمة المواد الكيماوية التى يتركب منها ذلك الماء المحدق بتلك الكرة ، ويدهش أكثر لقوة هذا المآء على صقل ذلك الغلاف الشفاف المسمى بالقرنية . ثم يدهش الطب أكثر عندما يحار فى قوة ذلك المآء لدى استحالته إلى دموع وقدرته على تضميد جراح القرنية إذ تخدشها عرض من خارج أو يقرحها تأثر من داخل ، ويكاد يكون هذا المآء أقوى علاج لصقل تلك اللوحة الحساسة وإعطائها مناعة لا يتوفر عليها تواطؤ الملايين من أطباء العالم فى ملايين من عصور الإنسان ، فمن أين ينبع هذا الماء ؟؟ وما هى المواد التى يتركب منها ؟؟ ثم من هو الطبيب المشرف على ذلك التركيب الكيماوى العجيب ؟؟؟

أما معجزة المعجزات فى هذا الكائن الأعجب الذى نطلق عليه لفظ الإنسان ، وهو مجهول لدينا بكل ما يتقوم به ، ثم نزعم تحليله وتعليله ، أما هذه المعجزة فهى دماغه وقلبه ، هذا القلب الذى يتولى توزيع الدم بعد تنقيته ، على كل خلية يتقوم بها كل عضو ، وعلى كل ذرة تتألف منها كل خلية ، ثم نرى ، إذ نحكم التشريح ، عجباً فى الوسائل التى تنقى هذا الدم بين الكبد والقلب ، وتحول دون تسرب الفاسد منه إلى النزيه ، وانكفاء النزيه إلى الفاسد .

وهذا الدماغ الجبار الذى يقوم فى تفكيره على حرارة ذلك الدم الصاعد إليه من تلك الجوارح ، والذى يتقوم بأسلاك عصبية دقيقة أكثرها لا يقع تحت مجهر العين وقد أنهاها بعض علماء التشريح إلى أربعة ملايين سلك ، كلها يعمل على التقاط الأفكار من عالم الروح كما تلتقط أسلاك الواحى « الراديو » ألفاظ المذيع من عالم الأثير ؟؟

ان بين دماغ الإنسان وبين جهاز الواحى لشبهاً دقيقاً يكاد يكون عبرة لمن لم يؤت حظاً من سعة التفكير فى خلق الإنسان ، فالواحى جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من الصلب تلتقط الصوت مما يتصل بتيار الجاذبية العام المسمى بالكهرباء ، وهو التيار المحيط بكل جرم كونى متحرك ، والدماغ جهاز يتقوم بأسلاك دقيقة من العصب المرهف تلتقط الأفكار مما يتصل بتيار الروح المهيمن على الكون ، فكلما دقت وانتظمت أسلاك الواحى كان أقوى على أداء رسالته التى هى التقاط الصوت ولفظه ، وكلما دقت وانتظمت أعصاب الدماغ كان أقوى على أداء رسالته التى هى اقتباس الفكر ولفظه ، وكما أن حرارة الكهرباء شرط أول فى أداء رسالة الواحى كذلك نجد أن حرارة الدم شرط أول فى أداء رسالة الدماغ ، وهكذا نجد الشبه جلياً بين المهيمن على الواحى وهو الإنسان وبين المهيمن على الدماغ وهو العقل .

قرأت وشيكا فى الصحف أن مرصداً فلكياً فى شمال أمريكا بدأ منذ أيام يتلقى إشارات لاسلكية متزنة من كوكب الزهرة فى عدة مناسبات ، وقد عكف الراصدون على تبين هذه الحركات الصوتية واكتناه جوهرها ثم قياسها على أصواتنا .

وقرأت قبل أشهر أن بعض علماء الموسيقى يعملون على التقاط الموسيقى الكونية الناشئة عن تموجات الأثير ، لما قر فى أذهان الألباء من قادة الفكر الحديث والقديم ، من أن كل حركة طبيعية تتصل بعظمة الكون القائم على نظام أزلى ، يصدر عنها من فنون الموسيقى مالا عهد لأرباب الفنون بالتحسس منه .

والموسيقى الأثيرية ليست وقفاً على السمع فقط وإنما تتجاوزها إلى العين والفكر ، فهى نظام عام يستهوى السمع بصوته والعين بشكله والفكر بإيحائه ،

فاذا سال كان لحناً باعثاً فى السمع حنينه إلى مصدره الأزلى ، وإذا جمد كان شكلا كاشفاً للعين أن تبصر من وراء طبعها النور الذى صدرت عنه ، ثم إذا لطف شف للعقل عما يتقوم به الكون من أسرار تلهمه أن كل ذرة فى الكون تقوم على الموسيقى فيما نسمع ونرى ونفكر .

ويقول أحد أساتذة العلوم الكونية فى جامعة برلين ، وقد ترجم قوله هذا الدكتور أحمد زكى المصرى فى مجلة الرسالة ، يقول ما مضمونه : أن عجائب ما يتقوم به الأثير المسمى بالفضاء أو الهواء ، لا تقف عند اكتشاف الكهرباء من تجاذب الاجرام السابحة فيه ، وإنما تتجاوزه إلى أعجب من ذلك وهو أن التيار الكهربائى العام يتقوم بتيار روحى يهيمن عليه فى صميم الأثير وهو مصدر التفكير والإلهامات ، فاذا كان التيار الكهربائى مصدر هذه العجائب التى هى بين سمعنا وبصرنا ، فمصدر أى العجائب سيكون التيار الروحى فى مستقبل عقل الإنسان يوم يتحكم به كما يتحكم اليوم بتيار الكهرباء ؟؟ ثم يختم هذا وهو يملى على تلاميذه بقوله : إذن صدقوا يا أبنائى ما يرويه لنا تاريخ الأديان من أن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون فى الهواء »

ويقول انشتين صاحب نظرية النسبية : لا يدخل فى روع من يفكر أن الفضاء لا شئ ، فما لا ريب فيه أن هذا الخلاء ممتلىء صاب ولعله أصلب من الفولاذ » فليعجب الإنسان لعظمة القوة فى نفسه التى يخترق بها هذا الفضاء الصلب عن طريق العين والفم والقلب بنظراته ونبراته وتفكيره ، وليعجب أكثر من أن صلابة هذا الأثير قائمة على ما يختزنه فى صميمه من قوة الفكر والصوت والنظر الحائرة فيه من كلى الروح المنبث فى جزئيات هذا الكائن الإنسانى الذى يعمر الكون .

من هذا كله نصل إلى عظمة الآية التى قام عليها بحثنا هذا ، وأن بارئ الكون هو منزل الوحى على محمد ، وأن التصديق بهذا الوحى رهن بقوله عز من قائل : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «أى القرآن» الحق » ثم أعقب ذلك بقوله : أو لم يكف بربك « الذى خلقك » أنه « بعظمة خلقه هذا » على كل شئ شهيد ؟؟؟

محمد

إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ الْمَلَكُ عَنْهُ مِيلًا مِنْ نَتَنِ مَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ

ويتكرر الحديث المأثور عنه فى حرصه على تطهير أمته من الكذب ، فقد روى أنه سئل صلوات الله وسلامه عليه : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : قد يسرق ، قيل : وهل يزنى ؟؟ قال : قد يزنى ، قيل وهل يكذب المؤمن ؟ قال : لا... لقوله تعالى : إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله .

ويروى عنه قوله عليه السلام : يطبع المؤمن على الخصال كلها إلا الخيانة والكذب » وإذا أمعنا فى تحليل الخيانة رددناها إلى الكذب لأن مَن حملته أمانة فتحملها ثم خانك كان كاذباً فى إجابتك لتحملها ، أفليس الكذب هو مخالفة الإنسان عقيدته فيما يقول أو يفعل ؟؟ ويروى عنه صلوات الله عليه قوله : ويل للذى يكذب ليضحك القوم ، ويل له ، ويل له .

وهكذا تستطيع أن تحبر صحفاً عريضة بتشديده النكير على الكاذب وحرصه الشديد على صدق اللهجة فى القول والإخلاص فى العمل حتى روى عنه أن قال : لايغرنكم طنطنة الرجل فى الليل وكثرة صلاته وصيامه ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته ، وكلا الإخلاص فى العمل والأداء للأمانة يدخل فى حيز الصدق ، ويروى عنه: أن ممن لا يزكيهم الله ولهم العذاب الأليم من يمن بما يتصدق والمنفق سلعته بالحلف الكاذب .

لقت أسفت على إضاعة صديق لى من التجار كان حريصاً على صلاته وصيامه وكثير من واجباته حتى عثرت على هذا الحديث وذكرت أنه كان يصارحنى بقوله : أحمد الله على أنى قلما عصيت الله وأدمنت على عصيانه إلا الكذب فى انفاق السلع فان التاجر لامناص له من الحلف الكاذب لينفق سلعته .

أحببت أن أصل من هذا كله إلى ما هو أبعد من كذب التاجر أو العامل فى قتل الدين وتعريض الإنسانية من وراء قتله إلى التردى فى هوة الويل والثبور ،

ذلك هو الكذب فى السياسة ، السياسة التى هى عنصر أول فى بناء الإنسانية والتى فطن لأهميتها الشاعر فى جاهليته فقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فالفوضى فى الناس مهلكة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحيوان بكونه مدنياً فى طبعه ، وكونه مدنياً يلزمه أن يكون اجتماعياً والسياسة هى التى تفرض على الإنسان اجتماعه وتمدينه فاذا كانت السياسة هى التى تحمى الإنسانية من الفوضى وتفرض عليها الحضارة ، فالى أين تقود السياسة هذه الإنسانية إذا كان الكذب والنفاق والرياء والخدعة من مقومات السياسة فى العالم ؟؟

لقد سمعنا عن محمد أنه قال : كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته » فالرجل راع فى بيته ، والمعلم راع فى مدرسته ، والسيد راع فى قبيلته ، والملك راع فى سلطانه وهل الرعاية فى كل ذلك إلا سياسة يروض الراعى بها رعيته بالحكمة فى الهدى والتوجيه والتقويم ؟؟ فكيف يصح الكذب مقوماً لهذه السياسة؟؟ وإذا السائس كذب فى قوله أو عمله وهو يسوس رعيته فأين تكون هيبته من صدور هذه الرعية عندما يتضح لها أنه كاذب فى قوله الذى يعد به وفى عمله الذى يرائى فيه ؟؟

لقد أباحوا للسائس أن يعد فيخلف ، وأن يتحدث فيكذب ، وأن يقول فيدجل ، وأن يعمل فيرائى ، ثم أباحوا له أن يهتك الحرمات أنى شاء وهو يملك رقاب هؤلاء الذين حملوه على عواتقهم إلى منصة الحكم وأجلسوه على مقعد التشريع ليدافع بلسانه الكاذب عن حقوقهم ، ويتولى بعقله السفيه وضميره الخائن رعاية هذه الحقوق وصونها من أن تهدر .

لقد رأيت سفهياً من العامة فى شارع الرشيد ببغداد يركب الحافلة التى أركبها وهو ثمل يترنح ورائحة الخمر تنبعث من فمه ، فتحاماه كل من فى الحافلة أن يكون إلى جنبه ، وازدراه كل منهم ، وسخروا منه جميعاً ، ولكنه وهو ثمل شعر منهم بذلك فقال : ماذا تنكرون على ، هل فعلت منكراً لم يفعله الرئيس فيكم ؟؟ إنكم تزدروننى لأنى فقير لا لأنى ثمل ، وإلا فلم لا تذهبون

إلى الملاهى الكبرى وترون الخمر على من تدار من ساستكم والمسيطرين عليكم ؟؟ فأنتم لاتزدرون فى شخصى السكر ولكنكم تزدرون الفقر »

فالتفت إليه وأقررته على ما يقول ثم قلت له : انك أعقلنا فيما قلت ،

نعم لقد خبرت بنفسى فى لبنان بلد الإشعاع ، كيف يصبح السائس عندما تولى رعاية الناس فى مجلس الحكم أو مجلس التمثيل ، يصبح فى عالم يغاير عالمه الأول ، فالملهى الذى يزوره لا عهد له به من قبل ، والسيارة التى تقله لم يركبها فى حياته الماضية ، والمآدب التى يمدها أو يدعى لها لم يتسن له الجلوس إليها من قبل ، وهكذا خبرته فى كل بلد عربى يفحش فى خلواته إلى زملائه بالقول والفعل طوال ليله ، حتى إذا بزه النهار إلى مكتبه أو مكان حكمه أحدق به الجمهور يسألونه حقوقهم فراح يخطبهم ويمعن فى الإبراه عن أنه قطع ليله وهو يفكر فى أمورهم ويستعرض قضاياهم .

ورأيت رؤساء حكومات يبيعون الشركات الأجنبية فى بلادهم مصادر ثروة البلاد قبل أن يترأسوا ليمدوهم بالمال أيام الانتخاب فيبذلوا لهم عشرات الآلاف من الدنانير ليتقاضوها ملايين فيما بعد ، وتنهال هذه الأموال من رؤسائنا على الأفاقين من رعاع الأمة الذين يتقنون فن الهرج والمرج فى الأزقة ، فاذا بالرئيس العتيد يصبح رئيساً واقعياً وإذا به يبيع الأمة بما أسلف من شرائها ، ثم إذا به يجلس على منصة الحكم فيوقع العقوبة على السارق ليستر فقره والسكير أو المقامر ليغطى بؤسه .

هؤلاء الذين يشهدون الخمارة والماخور وهم سادة الأمة المسيطرون عليها باسم الحكم ، ثم الذين ينتهكون الحرمات فى خلواتهم ، يشرعون فى مجالس الحكم العقوبات عليها ، هؤلاء هم الذين يعلون المنابر فى المحافل ويتصدرون المجالس فى المجتمعات فتتدفق البلاغة من جوانبهم وهم يعدون الأمة بالصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزئون »

هكذا يفعل الساسة فى الأمم وخاصة أمتنا العربية يكذبون ويخونون تحت ستار السياسة القائلة بزعمهم : ان الغاية تبرر الواسطة » وتقرهم هذه الأمة

الملعونة على الخيانة والكذب ثم لا تؤاخذهم بهما ، وإنما تصب اللعنات على المسكين فى الشعب الذى يضطره بؤسه أو فقره لأن يسكر أو يسرق ثم تذهب منها الوفود إلى هؤلاء الساسة اللصوص الخونة فيطالبونهم بسجن الفقير البائس وتأديبه .

وهكذا لا نزال نرى هذه الأمة الضالة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان حتى اليوم تتلمس الأعذار له ولأعقابه من بعده فى انتهاكهم حرمات الله وتشريعهم للأمة الكذب والنفاق وهتك المحارم بدافع السياسة ، وأنها تبيح للحاكم من وراء اجتهاده أن يفعل مالا يسوغ فعله لغيره ، فقد رأينا معاوية رأى العين ينحرف عن الدين فى أمور سجلتها أقلام الفقهاء المؤرخين من أئمة الأمة ، ورأينا أعقابه من بعده حتى اليوم يفعلون فعله ، ثم رأينا بعد ذلك من هؤلاء الأئمة الغافلين من يلتمس لهم العذر ويجيز الرضى عنهم والتماس الرحمة من الله عليهم

من هنا وصلنا إلى انتشار الظلم والفساد فى العالم ، ومن هنا سادت الفتنة فى الصدور ، وساد الإجرام فى الرؤس ، وساد الظلم فى الحكم ، وسادت الفوضى فى الرعايا ، وأصبح كل امرئ غير أمين على ماله ولا عرضه ولا دمه ، كل ذلك نشأ عن كذب السائس ونفاقه وريائه وخيانته ومروقه ، فلو أخذنا بكتاب الله حيث يقول : إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بايآت الله» فلا نحكم إلا الصادق ، ولو أخذنا بسنة محمد حيث يقول : كبرت خيانة أن تحدث أخاك وهو لك مصدق وأنت له كاذب » فنجبر السياسة من حكم الخائن ، أقول : لو رجعنا إلى الكتاب والسنة فى اختيار الحاكم لما عمت الفتنة فينا وساد البغى علينا ولرأينا الملائكة كيف تفر من ساستنا أميالا من نتن ما يخرج من من أفواههم فى المحافل وعلى أعواد المنابر .

علي

وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرِق لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ، لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ، أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ، أَما أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذلك ضَرْبٌ بِالمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الهام، وَتطِيحُ السواعِدُ وَالأَقدام وَيفعلُ اللهُ بعد ذلك مَا يَشاء.

هذه كلمات تصور للقارئ النبيه شخصية على بن أبى طالب التى ضربها التاريخ مثلا فى الجرأة والإقدام يوم الأحزاب إذ بارز عمرو بن عبد ود، ويوم خيبر إذ بارز مرحبا، وقد تحامى أصحاب رسول الله وأنصاره الأبطال مبارزة كل منهما، أقول: من هذه الكلمات فقط يشعر القارئ بعظمة أبى الحسن فى نفسه، وعلو مكانته من بلاغة القول وسداد المنطق، ثم ما يكمن وراء قوله من همة فى حزم وقوة فى عزم واستخفاف بالحياة فى سبيل العز.

يا لله لهذه القوة فى المنطق، وهذه البلاغة فى القول، ثم لما يكمن وراءهما من جرأة فى الإقدام، وحرص على الموت بين يدى سلطان الحق فى نفسه، يا لله لهذا كله ينكره عليه من لم يؤت حظاً من فقه الرجال وإنصاف الحق من الباطل، فقد رأيت بعض السذج من أئمة الفقه، رأيتهم يقولون: ليس فى عمل على تضحية ولا فداء لأن رسول الله قال له: لن يخلص إليك شئ تكرهه منهم» فهو إذن آمن مؤمن.

عجيب قول هؤلاء وهم حفظة القرآن وفيه خطاب للرسول: الله يعصمك من الناس» ثم هم يقرون بأن محمداً أشجع الناس ثم لاينكرون هذه التضحية وهذا الفداء على أبى بكر إذ أمنه رسول الله فى الغار بقوله: لاتحزن إن الله معنا .. » ثم ماذا ينكر ابن تيمية على على بن أبى طالب مما يخوله أن يتنكر له ؟؟ فقد رأيته يجعل

أكبر الأحاديث قيمة فى على موضوعة ، بينما لا نجده يتحرى الأحاديث المرفوعة فى فضل معاوية بتكذيب ولا تصديق ، وابن تيمية يكاد يكون قديساً فى نظر الغالبية من جمهور المسلمين ، فكيف يبيح لنفسه تنقص الإمام على دون غيره من الخلفاء الراشدين وهو أفضلهم فى نظر الغالبية من هذا الجمهور ؟؟

فقد روى أحمد بن حنبل وهو إمام ابن تيمية قال : ما ورد لأحد من الصحابة ما ورد لعلى من ثناء رسول الله عليه » وفى السيرة الحلبية عن ابن عباس ما نزل فى أحد من الصحابة ما نزل فى على ، فقد نزل فيه ثلاثمائة آية » فعلى ماذا نحمل ابن تيمية فى تنكره للإمام على وجحوده فضله بتكذيب جل ما روى له فى أمهات السير ؟؟ أفليس فى هذا ما يثبت كرهه لعلى ؟؟ وما هى منزلة كاره على عند رسول الله وهو يقول : لا يبغض علياً مؤمن ؟؟

يعتذر البعض عن مثل ابن تيمية وأضرابه من السلفيين بأن قولهم هذا فى على لم ينشأ عن كره ولكنه تهوين من شأن على حذراً من الغلو فيه المؤدى إلى وضعه فى منزلة الألوهية وقد كان هذا بالفعل فقد أحب قوم علياً حتى ألهوه »

ما أسفه الإنسان إذا ركب رأسه وهو يسمع ويبصر ثم لا يعقل ، من يسمع ؟؟ إن شيوخنا السلفيين أرادوا أن يهونوا من شأن على خشية أن يرفعه محبوه إلى رتبة الألوهية ، أليس هذا من الحمق ؟؟ إن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان كان أهون خلق الله على خلقه ثم نرى أناساً ألهوه وهم حتى اليوم يعبدونه فى جبال سنجار من شمال العراق ، فهل كان الخوف من تألهه باعثاً لهؤلاء الشيوخ على التهوين من شأنه ؟؟ بل نجدهم على العكس فان الغزالى وهو إمام لهؤلاء أنكر لعنه وأوجب الرحمة عليه لاحتمال أنه تاب ، فثبوت وقعة الحرة وقتل الحسين بن على فى عهده وتحت سلطانه لا يوجب اللعن عليه ولكن احتمال توبته ولو من طريق الظن يرفع اللعن عنه ويوجب الترحم عليه ، هذا هو منطق شيوخنا الذين لا يزالون منا فى مكان التقديس .

يحاولون أن يهونوا من شأن على بن أبى طالب وهو أول مستجيب لرسول الله فى الإسلام وآخر مضح فى سبيله ، خشية من أن يصبح معبوداً ، ولكنهم يجبنون ويخسأون ويطاطئون رءوسهم حتى تتعفر جباههم بتراب الأرض عندما تمر بهم

فرية من القول تشير إلى فضل معاوية الفاجر المارق من دين محمد فيقرون له ما روى عن ابن عمر مرفوعاً إلى الرسول أنه قال لمعاوية : أنت منى وأنا منك لتزاحمنى على باب الجنة كهاتين » يشير إلى أصبعيه ، يقرأون ذلك ويقرونه أو يسكتون عليه ، أما إذا وقفوا على حديث يشعرهم بفضل على فتراهم يتأولون ويتمحلون ، ذلك لماذا ؟؟ ليس لشئ إلا أن الله قد شاء أن يميز فينا الخبيث من الطيب ، والغريب فيما أقرأ أن صاحب السيرة الحلبية يذكر عثمان فيأتى على محاسنه ومساوئه وأما معاوية فلا يذكر له غير المحاسن حتى كأنه أول مؤمن بالله وبرسله وآخر مؤمن ضحى فى سبيله، فليسمع من كان له أذنان ثم يحمل كاتب هذه السطور على التعصب إن شاء .

ان العبودية فى الناس للناس ليست وقفاً على ما نرويه من أخبار ترفع أناساً وتحط آخرين ولكن هذه العبودية وقف على الجهل والفقر فى الناس فان الذين ألهوا علياً أو غير على لا يزالون إلى الآن يؤلهون سليمان المرشد فى غرب سوريا بدافع جهلهم وفقرهم، فمن شاء رفع هذا العار عن الإنسانية فليؤد رسالة محمد فى الناس ينقذ كرامة محمد وأمة محمد من عار العبودية ، ورسالة محمد قائمة على الأخلاق والعلم ، وهذان زعيمان فى أن يخضع العقل البشرى للحق فقط ، فلنهذب أمتنا برسالة محمد كما نزلت ولنثقف عقولها بالصدق فيما نسنده إلى محمد من قول والإخلاص فيما نخلفه به من عمل ثم نترك الحق يفعل فعله فى الأمة .

فلنعد بعد هذا الاستطراد إلى بلاغة على فى صدر هذا البحث فنقول : ان المنطق فى قول على هذا ليأبى على أى عبقرى يقرأه إلا أن يشعر بأن علياً يفرض عليه احترامه وإكباره وتقديسه ، إذ جمع فى هذه الكلمة الموجزة مالا يحيط به سفر جامع من بطولة الرجال ، انى لأتحدى أى أديب أو شاعر يمر بهذا القول ثم لا يقف عنده ممعناً فى الخضوع لاعجازه .

لقد كان فى عناية الشريف الرضى بجمع أقوال الإمام أو أهم أقواله ، عناية من الله فى إظهار على بالمظهر الذى شاء له الله ورسوله والمؤمنون به ، فان فى هذه الأقوال بين خطب وكتب ، وبين أحاديث وحكم ، أقول : ان فى هذه الأقوال عصمة للتاريخ من أن يجار عليه بالتنكر للحق فى شخصية الإمام،

على بن أبى طالب ، فلقد أمعن الأمويون مائة سنة ، والعباسيون مائتى عام جاهدين فى طمس آثار هذه الشخصية التى لم يكن ليقوى العالم على طمسها، وعين الحق ترعى وتهيمن .

ان ما رواه أصحاب السير من صحابة وتابعين فى فضل على لا يجعله فى مصاف الخلفاء الراشدين ، ولعلهم لم يرووا له فضيلة إلا وفى سيرهم لمعاوية بن أبى سفيان أمثالها ذلك مما أعمل معاوية وحزبه الضال فى صلب التاريخ من دس وتضليل ، إذ اتخذوا من أصحاب رسول الله ثلاث فئات أخضعوها لأهوائهم ، أولها ، وهى أطوع الثلاث لهم وأكثرها استجابه لدسهم فى سبيل حطام الدنيا ، كانت تخلق الفضائل لمعاوية وأهله خلقاً ، والثانية وهى أكمل الفئات استجابة لهوى النفس ، فكانت تروى للصحابة وتتناسى علياً والأئمة من صلبه ، والثالثة هى أشد الفئات جرأة على الله ، ولم تكن تتأثر بغير ما فطرت عليه من الكفر إذ كانت تفترى على الله بخلق المساوئ لعلى وأهل بيته .

ثلاث فئات ساعدت الأمويين على تأصيل هواهم فى صدور الأمة ، ثم بعثه فى الأجيال بدعاً سيئة يشب عليها الصغير ويهرم الكبير حتى يومنا هذا ، ولسنا فى صدد تفصيل هذا المجمل فان كتب السير مشحونة بجهود قرنين أموى وعباسى أعملوا دعاتهم فيهما على تضليل المسلمين فى الأسانيد حتى لم يستطع بعدهما محقق إثبات سند أو قطع سند ، وحتى أصبحت الرواية قلقة متزعزعة لا يطمئن الباحث الحر إلى سند واحد مهما تظافرت عليه الرواة .

فخذ مثلا : مولد رسول الله، مكانه وزمانه، وخذ بعثه : مكانه وزمانه، ونزول الوحى عليه : مكانه وزمانه ، وهجرته : مكانها وزمانها ، ثم موته : مكانه وزمانه ، كل ذلك مختلف فيه ، وهكذا تستطيع أن تجد هذا الخلاف بين الرواة فى كل حركة أجازها الرسول إلى حركة أخرى ، وفى كل فريضة نزلت ، وآية نسخت ، فى كل صحابى آمن ، وآخر نافق . فى كل غزوة غزاها وسرية أنفذها ، وحكم أثبته وآخر نفاه ، كل ذلك نشأ عن تلاعب أعداء الإسلام من أمويين نفسوا على رسول الله سلطانه ، ومن شعوبيين حقدوا على الأسلام ، ويهود ومجوس دسوا عليه وكادوا له .

أقول : لسنا فى هذا السفر بصدد البحث أو التنقيب عن مصادر هذه الفتن ومواردها ، ولكن الغرض الذى نستهدف له فى هذا البحث حملنا على الإشارة إلى شئ من هذه القصص التى زخر ولا يزال يزخر بها تاريخ الإسلام حتى اليوم ، فكلامنا الآن على الإمام على وهو الذى تضاربت فيه أقوال المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، فالبعض غالى فى تعظيمه حتى قال قائلهم فيه :

كل من والى على المرتضى لا يخافن عظيم السيئآت
حبه الأكسير لو صب على سيآت الخلق صارت حسنات

والبعض غالى فى انتقاصه حتى قال قائلهم فيه لدى قتله على يد ابن ملجم :

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش إحسانا
انى لأذكـــره يوماً فأحسبه أو فى البرية عند الله ميزانا

والبعض الآخر وقف وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء من أهل السنة المنصفين والشيعة المعتدلين .

ولكن هؤلاء جميعاً لم يضعوا الميزان الحق لمكانة على من الإسلام لولا « نهجه » الذى هو بين أيدينا والذى يلقى على شخصية على بن أبى طالب ضوءاً كشافاً لا يرقى إليه الشك فى وضعه الذى اختاره له أخوه محمد منذ إسلامه ودفاعه عنه ، وأصر على هذا الاختيار حتى فارق الحياة وهو يقول : سيكون بعدى فتنة فاذا كان ذلك فالزموا على بن أبى طالب » بعد أن أعلن المسلمين فى حجة الوداع بقوله : من كنت مولاه فعلى مولاه » فكل فضل لعلى قائم ، فى تحقيقه والتثبت منه ، على ما جمعه الشريف الموسوى من أقواله فى كتاب أسماه « نهج البلاغة » فهو الذى يحكى عنه ويأخذ منه ثم يعود إليه .

الله

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

لا أعتقد أن « من » هنا للتبعيض كما يقول النحاة ، فيكون المعنى : أن بعض الناس يشترون اللهو . وإنما هي للتكثير كما أقول أنا ، لأنا نجد اليوم سواد الناس الأعظم يشترون لهو الحديث كتابة وخطابة ، شعراً ونثراً ، ليضلوا أنفسهم أو يضلوا غيرهم ، فان تسعين من كل مائة طالب علم ، لدى الإحصاء الدقيق يبذلون صباح كل يوم ومساءه ، من المال الذى وقفه ولاة أمورهم على تثقيفهم ، جزءاً غير يسير ثمن هذا اللهو فى أحاديث تنشرها الصحف الزائفة ، وهل هنالك صحيفة غير زائفة ؟؟ ، أو فى كتب أمعن مؤلفوها الفكر فى تضليل الشباب ، أو فى ملاهٍ قام على مسارحها بهلوانات يبيعون هذا اللهو .

ان طالب العلم اليوم ، وأقول هذا عن خبرة لأنى قطعت شطراً من حياتى معلماً ، أقول : ان طالب العلم اليوم حديثه وقديمه ، لايدخل معهده الدراسى صباحه ومساءه إلا وهو يتأبط بعضاً من هذه الصحف أو تلك الكتب التى يبذل منشئوها ألوف الدنانير على رأس كل شهر للدجالين المضللين من أرباب الأقلام فى سبيل تخريجها للشعب ، وفى صميمه أولئك الأحداث ، ثم لا تجد من ولاة الأمور المسيطرين على الأمة سياسة وثقافة من يفكر فى الغاية التى كتب لها الكاتب وقرأ له القارئ .

ينقل لى المجاهد الحاج أمين الحسينى عن فترة تشريده فى ألمانيا أيام الحرب العالمية الأخيرة : أن وزير الإرشاد الألمانى استدعى صحافياً ضمت صحيفته حديثاً عن فنان إيطالى غير جدير بالتشهير ثم سأله الوزير : كم دقيقة يستهلك هذا الحديث من وقت القارئ ؟؟ فقال خمس دقائق ، قال وكم نشرة تصدر صحيفتك هذه على الملأ الألمانى ؟؟ قال : مليونا وبعض المليون ، فقال الوزير :

إذن أنت تشغل مليون إنسان أو أكثر ،خمسة ملايين دقيقة من الوقت فى قراءة إنسان لاقيمة له ، ثم هو إنسان غير ألمانى ، أفيبلغ به إيمانك بالإنسانية والقومية إلى حد شغل الملايين من أمتك ملايين من دقائق الزمن بالتافه من الحديث ؟؟ ثم كال له الجزاء عن لهو الناس بما يضل عن سبيل الحق »

فياليت وزير الإرشاد الألمانى يزور اليوم بيروت وبغداد ودمشق والقاهرة ، وهذه أمهات المدن العربية الإسلامية ليقرأ ما تنشره أمهات الصحف تحت سماء العروبة التى أظلت نبي الإنسانية محمداً زمناً غير قصير كان فيه طوال حياته الخطيب البارع والمتحدث البليغ والكاتب العبقرى ، ثم غادر هذه الأرض إلى سمائه وقد خلف قرآناً بين أيدينا يقول : ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ، ويقول : ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ، وترك حديثه يقول : إن الله ليسألكم يوم القيامة حتى عن النفخ فى الرماد »

رجل ألمانى بعيد عن الإسلام بروحه وعقيدته ولكنه بعقله ، فى صميم الإسلام ، هذا الرجل يحاسب الصحافى والكاتب فى بلده البعيد عن التشريع السماوى المنزل على محمد العربى ، يحاسب الصحافى على ما يكتب أو ينشر أهو فى صميم الحق فيهدي قومه ، أم هو باطل فيشركهم فى ضلاله ؟؟ رجل ألمانى يفعل هذا وهو بعيد عن مهبط الوحى ، ثم لانجد فى أمة محمد مهيمناً أو مسيطراً يسأل الكاتب عما يكتب والصحافى عما ينشر والخطيب عما يتحدث وفى صميم هذا اللهو المضل جل ما يكتبون وينشرون ويخطبون ؟؟

كنت أقرأ قبل عامين وأنا فى العقد الخامس من سنى حياتى ، كنت أقرأ للأديب محمد التابعى فى صحيفة « آخر ساعة » وقد أشرف على الستين من حياته ، مغامراته مع المغنية آمال الأطرش المعروفة بأسمهان ، وفى أوائل هذا العام قرأت للشاعر كامل الشناوى فى نفس الصحيفة ، مطالعاته فى سيرة أبى نواس العارية ، وقرأت للسيد إحسان عبد القدوس فى صحيفتيه : روزاليوسف وصباح الخير ، فصولا مكشوفة الأدب ، وقرأت للسيد مصطفى أمين فى بعض مؤلفاته أشياء كأشياء عبد القدوس والشناوى ، وكل من هؤلاء قد ودع شبابه

إلى غير رجعة ثم أجازوا جميعاً دور كهولتهم مثقلين بعبء السنين الحافلة بالعبث واللهو .

كنت أقرأ ذلك كله أو بعضه ثم أفكر فأتساءل ونفسى : أيكون فى هؤلاء قدوة للشباب الحالى من أعباء الحياة ، والبادئ فى تلقى دروسها على ألسنة وأقلام هذه الفئة من قادة الفكر ؟؟ لقد كنا فى عهد الشباب العارم أشد قسوة منهم على قلوب الأحداث فيما نكتب أو نخطب ولكنا لم نجز دور الصبى الغاوى إلى الكهولة حتى فطنا إلى ما يأخذنا به واجب الحياة من حكمة فيما نقول وإخلاص فيما نوجه .

وأرى هؤلاء ، وأمثالهم كثيرون فى القبيل الواعى ، قد أجازوا الكهولة إلى الشيخوخة وأوشكوا أن يفقدوا السوادين فى الرؤس والأعين . ثم لايزالون فى معزل عن توجيه الشباب إلى الحق ، فمن يعمد إلى بناء الأمة عن طريق اللسان والقلم إذا لم يعمد هؤلاء ؟ وهل فى بلاد العرب أرجى للعرب من مصر ؟؟ ثم هل فى قادة الشباب العربى المفكر أحرص على الشباب من قادة الفكر فى مصر ؟؟ ولو لم تكن مصر قبلة العرب ، وأدباؤها قادة العرب ، وصحافتها مرآة العرب لما تمثلت مصر وأدباءها وصحافتها بين يدى تشخيص هذا الداء القابض على نفوس الشباب العربى فى محافل الوعى ومعاهد التدريس .

اللهو فى الحديث أمام الواحى « الراديو » فلا نسمع خلال عشرين ساعة ، تدفع الأمة ثمنها مالا ودماً ، أكثر من ساعتين أو ثلاث فى جد من وعظ وتوجيه ، ثم يطغى عليهما خليط من اللهو الصفيق بين غناء وعزف يسفان بالروح إلى مستوى الخنوع والضعف ، من شعر أو زجل لا عهد للناظم والزاجل فيهما بالفكرة والديباجة اللتين يرفعان بهما وعى السامع من حضيض الأمية إلى ذروات الشعور بكرامة الفكر الإنسانى القائم على العلم .

واللهو فى الحديث أمام الصحيفة ، فلا تقرأ إلا ما سهرت على تحبيره عيون لم تبصر غير المجون فيما يقول الناس وغير الجريمة فيما يفعلون ، فالقصاص جل همه أن يثير غرائز الأحداث فيما يبدع ، والكاتب أهم ما يحدوه للكتابة فصول تكبت النفس أو تثير الفضول ، والشاعر أعلق ما يكون ، وهو ينظم ، بالتافه من الفكر والمائع من الأسلوب ، فالأمة العربية اليوم تعانى من كوارث الحياة

أقسى ما تعانيه أمة فى العالم تحت وطء الزمن ، فهى فى أمس الحاجات إلى كاتب أو خطيب أو شاعر أو قصاص ، يبعث فيها روح التمرد على الظلم ، والخروج على الجمود والجحود ، إذا بها تمنى بالمخانيث والمجان ذوى الروح الانهزامية المائعة ممن يحترفون الأدب والفن ولا يفقهون من حدودهما إلا أنهما مثلث قائم على العبث واللهو والمجون .

واللهو فى الحديث أمام الخطيب على منبر قلما يطأه قائل موجه ، فلا نسمع إلا قرقعة نجتر من ورائها فكراً أكل الدهر عليه أجيالا من العفن ، أو زمزمة نلمس من ورائها غاية تعصف بعقل الناشئ فيستقبل الحياة بقلب أغلف وبصيرة هوجاء ، ذاك يزعم أنه داعية دين ثم لا يفقه من الدين إلا أنه كمامة تلجم الفم وإسار يغل اليد ، وهذا يزعم أنه داعية دنيا وهو لا يفقه من دنياه إلا أنها دار متع هو والحيوان الأعجم فيها سواء .

ذلك هو اللهو الذى يأخذ به الله ويفرض علينا الاعتصام بالعقل من أن نفكر ثم لا ينتهى بنا التفكير إلا إلى أننا خلقنا عبثاً ، فالحياة إنما كانت لنعمل فيها تحت ظل الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على رسل الله الذين كانوا الصلة بين عالمى الأرض والسماء ، والذين إنما بعثوا بنواميسهم ليعضدوا العقل بالعلم ، ثم ليحققوا بالعلم وحدة الكون فيصعد أهل الأرض بفضل هذا الناموس إلى العالم العلوى متى شاءوا ، وليهبط أهل ذلك العالم إلى غيره من اجرام الكون متى شاؤا ، ذلك ما يفكر فيه قادة الفكر اليوم بفضل العلم ، ولو فكروا قليلا بصعود محمد وعيسى إلى السماء لفقهوا أن صعودهما رمز لاختلاط الاجرام وتواصلها بفضل الناموس الذى أنزل عليهم ، وليس هذا الناموس إلا رسالة الحق القائمة على العلم والعدل .

تلك هى الغاية من وجود الإنسان ، فأى قول أو عمل يصرفه عنها فهو لهو ولغو لا ينبغى للإنسان أن يأخذ منهما إلا بمقدار ما يشوقه إلى إنسانيته كما يأخذ الظامئ التائه فى البيداء من ماء الغدر الآجنة ما يتبلغ به القوة التى تبلغه الهدف الذى يرمى إليه وراء البيداء ، وبعبارة أوضح : إن الإنسان لا ينبغى أن يتخذ من اللهو غاية لحياته كما نرى كثيراً من الملوك وقادة الأمم الذين يمعنون فى التهالك

على سيادة العالم ليظفروا باللهو فى الحياة ، وينبغى أن نأخذ من اللهو بما نفقه أنه لهو كما نقبل أحياناً على السخيف من القول أو العمل لنعلم كنه السخيف ونميزه عن الطريف .

من أجل هذا يعلم العلماء ضرورة كون الإنسان خليطاً بفطرته من الخير والشر وكونه مأموراً بالعقل يعصمه من الاسترسال فى الشر وأن وجود الشر فيه إنما هو إيذان بسمو الخير عليه ، فلولا الظلم لم ندرك ميزة العدل ولولا القبح لم نشعر بروعة الجمال ، وهكذا نصعد فى فقه الحياة إلى أن وجود الشر فيها ضرورى لمعرفة الخير ، وبضدها تتميز الأشياء :

أذكر أنى كنت فى حداثتى ، وأنا أتلقى العلوم الابتدائية ، كنت منصرفاً ليلى ونهارى إلى العلم ، ولكنى كنت كبقية زملائى فى المدرسة ، نترقب ليالى الأعراس والأعياد لنشهد اللهو واللعب ، وكنت أرى كبار الغواة من ملحنين ومغنين يحاذرون أن يشعر بهم شيوخ البلدة وعلى رأسهم أبى الذى كان موضع احترام الشيوخ والشباب ، وكان بيته مفزعاً لهم إلى الله ليالى الجمع وأيام التفرغ للعبادات فى شهر رمضان وأيام العشر المحرم ، وهو الذى تسبب فى بناء المسجد للعبادة ، وإشادة النادى لإقامة المآتم ولائتمار أهل البلدة فيما يعنيهم من أمور دينهم ودنياهم .

كان لأبى هيبة فى صدرى لم أقو معها على سؤاله عن سبب حجره اللهو واللعب على شباب القرية ولكنى كنت أسمعه يقول : ما أسفه الإنسان يلعب وقد خلق ليجد » وكان حريصاً على وعلى إخوتى من أن نشهد الملاهى ، فكنا نتسلل إليها خفية عنه ، وكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوز بعقله السمح ويقول : ما دمتم تقومون بواجبكم فى طلب العلم فسوف يحول العلم نفسه بينكم وبين سوء العقبى من لعب الناس ولهوهم »

كنا نسمع أن فى القرية التى هى مولدى ومنشأى ، قصاصاً وحكائين يقرؤن سيرة بنى هلال وعنترة العبسى ، والحصون السبع ، وألف ليلة وليلة وغير ذلك من نتائج العقول المتردية فى سفاسيف العبث بالحياة ، أقول : كنا نسمع أنهم ، والفصل شتاء ، يجتمعون حول موقد عظيم فى منزل كبير لهم يقص

عليهم من هذه السوالف أحياناً ومن مختلفاته أحياناً أخرى ، فيمضى الشتاء وهم يتندرون فى النهار بما يسمعون فى الليل ، وكنا نحن الصبية نتحسر على شهود مجالسهم ، وما أسرع ما دهمت الإنسانية أيام الحرب العالمية الأولى ، وبدأنا نسمع ونشهد المخترعات والمكتشفات من معجزات الأثير والكهرباء وغير ذلك من عجائب العلم الحديث وكان كل أولئك السامرين طعمة للحديد والنار فى الحرب ، واستمرت هذه العجائب من بدائع العقل الجبار تترى على مجموعة الإنسان فى حربه وسلمه حتى وصل إلى مناجاة الكواكب ، ثم لا يزال خلائف أولئك الذين درجوا ونشأوا على سير بنى هلال وبنى عبس وعلى خيالات واضعى ألف ليلة وليلة ، لا يزالون إلى اليوم يتغنون بتلك الذكريات ويروون أبناءهم سير الزير أبى ليلى المهلهل وأبى زيد الهلالى .

هذا اللهو الذى استهلك أجيالا من المسلمين ثم تأنق حتى صار بفضل الفنون الغربية مسارح ومراسح ، فزاد فى استهلاك أعقاب تلك الأجيال منا ، وأصبحت الملاهى تغص بالشباب شباب محمد الذى ضمن لهم المشى على الماء والصعود فى السماء بالقرآن والمسجد ، بينما نجد المساجد وقفاً على العجزة والمعتوهين ثم نطلب مع ذلك رقينا من جديد ، واسترجاع ذلك المجد الذى كان وليد محمد ورسالته إلى العالم ، يوم كان العلم والدين صنوين فى تدعيم البيت الذى نأوى إليه ، والصراط الذى نرد عليه ، أقول : هذا اللهو هو الذى أبقى علينا فى الدرك الأسفل من حضيض الهون .

ولنتحدث قليلا بعد هذا كله عن مجالس اللهو وغزاته فى عهدنا الحاضر ، وكيف يستغله ذوو النفوس المريضة من أعداء الإنسانية لأهوائهم ونزعاتهم : عندما زرت مصر فى عودتى من أمريكا إلى وطنى لبنان ، زارنى أحد مواطنى اللبنانيين ، وكان يعمل فى معاهد التمثيل ، وقال لى : ألا تحب أن تزور مكان عملى ؟؟ انك ستسر عندما ترى مصدر التمثيل السينمائى فى القاهرة ، وإلى أى مدى بلغ به النبوغ العربى ، قلت : سأفعل .

ودخلت معه المعهد فى اليوم التالى ، واسمه « ستوديو نحاس » وظل ساعة يطوف بى على الأبهاء والغرف والآلات المعدة لتكبير الأصوات والأشخاص

والأمكنة التى يتخرج عليها هواة الفن من هذا المعهد ، حتى إذا وصل بى إلى غرفة سرية حافلة بالرياش والأثاث الفخم ، قلت : ما هذه ؟؟ فقال : هذه خاصة بفلان « الممثل » يخلو إليها مع أية ممثلة أحبها من زميلاته

وكنت حريصاً على الاجتماع بهذا الممثل لأسبغ عليه ما أكنه له من تقدير وإعجاب ، إذ لم أشهد له « فلماً » إلا وهو بالغ الدعوة إلى الأخلاق فى توجيه الشباب ، قلت لمرافقى ، وهو أديب جابر : أحقاً تقول ؟؟ فقال : وكيف أكذب عليك ، أفتحسب أن ممثلا أو ممثلة دخل هذه القاعة وهو يحمل صفة العامل النزيه الذى يخدم الإنسانية عن طريق الفن ؟؟ هذا الذى أقص عليك خلواته بزميلاته هو رأسهم فالى من أذهب بك بعد ؟؟

ويتحدث إلىّ الأستاذ فايد العمروسى عن هذا السلك قال : ان مدير الفنون للتمثيل وهو فلان ، لا يقبل أية فتاة تعرض نفسها للانخراط فى ذلك السلك حتى تعطيه عهداً مخطوطاً وموقعاً بيدها أن لا ترد له طلباً ولو أفضى بها إلى أن تقف أمامه عارية من كل ما يسترها ، قال : وقد نشر ذلك بعض الصحف فى معرض التشهير بسفاهة الحكم القائم على تهذيب الجيل وتثقيفه .

ولقد أدى انهيار الخلق العربى فى بعض محترفى الصحافة إلى أن يخصصوا فصولا مطولة فى صحفهم اليومية والأسبوعية ، تعنى بالشؤن الداخلية من حياة اللاهيات واللاهين ممثلين وممثلات ، ومغنين ومغنيات ، فتملأ بحور هذه الصحف القائمة على مال الشعب العربى ودمه ، من توافه ما يصدر عن حياتهم وحياتهن حتى الوقوف أمام المرآة والجلوس إلى المائدة ، وهذه هى أمهات الصحف فى مصر لا تزال إلى الآن تستغل ذكرى ناريمان ومارغريت فى زواجها وطلاقها ، ثم ذكرى فاروق فى مباذله ومخازيه ، ثم طلاق شادية من عماد حمدى وزواج سامية جمال من فريد الأطرش وإشغال القراء أياماً وليالى بسفساف ما ينشأ عن مثل هذه التوافه فى الحياة .

وماذا يعنى الأمة ، وهى تئن تحت وطء العبودية والاستعمار وتنوء بعبء الجهل والفقر ، من ذكرى ناريمان صادق مع فاروق ، أو ريتا هايورت مع على خان ، أو أمير موناكو مع عروسه ، أو ذاك البريطانى الشاب الحدث الذى

أحب آثار الفراعنة ، أو تلك الفتاة المتمصرة التى أحبت شاباً أمريكياً من وراء المذياع .

أقول : ماذا يعنى الأمة من مثل هذه الأحداث التى شغلت العالم العربى أكثر من شهر فى أهم صحفها ؟؟ أيعنيها أكثر من أن تحيط علماً بها فى سطور كخبر حدث فى العالم؟؟ انه لا شك تقليد لصحف الغرب التى أتخمها الجد فراحت تلهو بالمهازل ، ولكن أين الجد من صحافتنا التى نقرأ ما يهمنا بها فى بضعة أنهر بينما زخرت أنهرها بالجرائم واللهو والتضليل ؟؟ كل ذلك ليلهو الشعب عمداً أو خطأ ، عن تفادى ما يحدق به من أخطار تكاد تأتى على بقية ما يتعلل به من تراث ، هذه الصحافة التى يسندون إليها السلطة الرابعة فى الأمة تحترف مثل هذه المهن ، فماذا يكتب المصلح وكيف يقول ؟؟؟

ان هذه المجالس القائمة على الفسق والفجور فى داخلها ، وعلى اللهو والإغراء وسوء التوجيه فى خارجها تكاد تغمر النشء الحديث فى العواصم العربية والمدن التى تليها بالضخامة والرقى ، لقد تأثرنا بها الغربيين على غير بصيرة ، فان التخمة المادية التى أغفلت قلوب الغربيين عن روحانية الحياة فصرفتهم إلى اللهو واللعب ، لم ينلنا منها حتى الخبز ، فمعدل إنفاق الفرد شهرياً فى انكلترا لا يهبط عن عشرين ديناراً ، ومعدل أجر العامل فى شمال أمريكا لا ينحدر إلى أقل من أربعة دنانير يومياً ، فاذا هبطت إلى المستوى الأدنى فى أوروبا وأمريكا فلا تجد فيهم أثراً للعوز فضلا عن الإحساس بالعرى أو الجوع .

أما نحن ، فالعامل عندنا فى أرفع مستوى ، لا يناله من الأجر أكثر من ربع دينار يومياً ، وأما الذين يقفون بأجورهم اليومية عند الثمن أو العشر من الدينار فهم السواد الأعظم من العاملين ، والعاملون لا ينهدون إلى العشرة بالنسبة للمائة من العاطلين ، وأكاد أصيب الحق إذا قلت إن مجموع الأمة العربية البالغة مائة مليون لا يزيد متوسط حياة الفرد الشهرى فيها على ربع دينار ، ومن الناس من يحيون ، وهم كثر ، حياة لا تطيقها البهائم من شظف العيش وخشونة الحياة القائمة على الجهل والفقر .

فأين لنا أن نفكر فى اللهو واللعب من حياتنا هذه ؟ أيكفى مجرد وجود

عدد ضئيل لا يتجاوز واحداً فى الألف ، يملك وسائل البذخ والقصف منا ، بينما نجد التسعماية والتسعة والتسعين قابعين فى زوايا الخمول والهون ، أقول : أيكفى ذلك مبرراً لأن ننصرف عن تحرير هذا السواد الأعظم من ذله وفقره وجهله وبؤسه ، إلى نعيم وترف يكاد يستحيل إلى دموع تترقرق فى محاجره ، وعرق يتصبب من جبينه ؟؟

هل اللهو والعبث والدعارة فى صحافة الأمة وأدبها وفنونها ، وأنديتها ومحافلها ، قاصر فى توفره وضرورة وجوده ، على استطاعة النزر اليسير من أمتنا ، بينما نرى الجمهور منها يتردى فى حضيض يأكل معه التراب ؟؟ وهل الغربى الذى نقلده فى السفاسيف مسؤل عن تردينا إذا لها واسترسل فى لهوه ، وهو العامل المكدود ليله ونهاره بما يفزع معه بما يكد وينصب ، إلى ساعة يفرغ لها ويلهو بها ؟؟ ان اللهو واللعب يكادان فى الغرب يصبحان من ضروريات الحياة لكثرة الجد عندهم فى العلم والعمل ، أما نحن ، والعلم فى بلادنا لا ينال الواحد من كل مائة إنسان ، والعمل يكاد يكون قاصراً على البؤس والجوع ، بينما نجد الأمية فى الغرب أندر من اليقظة عندنا ، والعمل عندهم مضمون للفرد من المهد إلى اللحد .

أقول : أما نحن فبماذا نبرر تهالكنا على مجالس اللهو والدعارة ، وبماذا نبرر صموت الحكومات القائمة على دنيانا ، وجمود الكهنوت المهيمن على ديننا ، بماذا نبرر عمل النشء القاصر على اللهو وهو المأمول فى غدنا لكل ما نرجوه من حرص على تراث وسعى فى سبيل حياة ؟؟

ان أثر هذا التحرر فى امتهان الفتية والفتيات منا بدائع الفنون الجميلة من رقص وغناء وتمثيل ، أقول : ان أثر ذلك تغلغل فى صدور الأحداث من الشعب ، من شهد هذه الفنون ومن سمعها على السواء ، فلقد نقل لى بعض هواة الفن وقرأت فى الصحف الغاوية أن فتيات المسارح يتلقين آلاف الرسائل فى كل شهر من شبابنا العتيد ، وفى كل رسالة تفيض عواطفهم المرجوة لخير الأمة بالتهالك على أقدام الفنانات ، وكثير من هذه الرسائل يكون مصحوباً بصور المرسلين الحافلة بالتخنث .

ولقد دخلت بيت صديق لى فى بغداد فرأيت على جدره صوراً بالغة العناية لآمال الأطرش المعروفة « بأسمهان » فسألته ، وهو من أسرة متفقهة فى الدين ، فقال : إن حسناً ، يعنى ابنه الشاب فى كلية بغداد الطبية ، إن حسناً من هواة صوتها الملائكى ، وإنه لا يجلس لطعام ولا لشراب إلا مستقبلا صورتها ولاهجاً بذكرها ، وشهدت كثيراً من المجالس الخاصة يحتدم فيها الجدل بين الشباب حول الممثلين والممثلات والملحنين والمغنيات ، كأنهم فى مؤتمر يعالج قضايا الأمة

بينما ينقل لى فى الشام بعض التجار المتصلين بألمانيا فى عهد هتلر قال : لقد طلبت إلى عاملة فى الفندق الذى أنزل له تحت سماء برلين ، أن تزور معى المتاجر لشراء بعض ما يلزم النساء لضعف لغتى ، فلبت الطلب ، ولما هبطنا إلى الشارع قالت : كن متأخراً عنى وأنت تتأثرنى ، مترين أو ثلاثة ، قلت : ولماذا ؟؟ قالت : ان الفوهرر أصدر أمراً بأن لا تصحب المرأة فى الشارع غير زوجها أو أقرب الناس إليها نسباً ، فعجبت من ذلك ، وأدركت هى عجبى فقالت : فضلا عن حجره الأفلام المثيرة لغرائز الشباب والقائمة على الخلاعة والمجون .

ولقد علمت من الدكتور صبحى أبى غنيمة أن اللواط كان فاشياً فى ألمانيا قبيل عهد هتلر حتى أن بعض الصحف كانت تخصص فى أنهارها فصولا للدعوة إليه والإغراء به ، فلما ولى هتلر الحكم كان يأمر بالقاء اللائط والملوط فى قعر البحر بعد أن يوضع الثقيل من الأصفاد الحديدية فى أيديهم وأرجلهم ، وقرأت فى بعض الصحف أن روسيا منعت مسارحها من عرض الأفلام الداعرة حرصاً على عواطف النشء من الانهيار .

فالفنون الجائرة على روح الأمة ليست قاصرة على اللهو بصرفها إلى توافه الحياة ، وإنما تتعدى ذلك إلى قتل الرجولة فى الأحداث وهى تدرج إلى مضمار السباق العالمى فى استباق العز والكرامة ، ولقد أجمع قادة الفكر الاجتماعى فى أوروبا للعهد الأخير على أن السبب الذى تردت به فرنسا بين يدى حربها مع ألمانيا ، هو أن الزمن الذى قطعه هتلر فى ترويض الشباب الألمانى على الانتقام

لكرامته والثأر من أعدائه ، كانت فرنسا تقطعه فى جو من اللهو الغامر ، وكان شبابها لاهين عن تراثهم والحرص عليه ، بمحافل يعقدونها لانتخاب ملكات الجمال .

تلك هى عقبى اللهو فى الأمة المفتقرة إلى قوة تدفع الضيم عنها ، وتدفعها إلى الحضارة والنمو لتثبت وجودها فى العالم ، وذلك ما أحببت أن أعقب به على قول الله عز من قائل ، من الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ... إلى قوله : أولئك لهم عذاب مهين .

محمد

لَا يَنْظُرْ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فِي الْخَلْقِ أَوِالْخُلُقِ أَوْ الْمَالِ،وَلَكِنْ لِيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ

هذا الحديث من مثبطات الهمم إذا لم يقرنه الواعظ أو الراوى بالآيات والسنن التى تأمر بحسن التخلق وبالعمل جهد الطاقة ، وتحصيله فما يجب أن يسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول الداعى إلى الحق به : ليعمل أحدكم فى سبيل المال حتى يكل ، وليعمل فى اكتساب الخلق الفاضل حتى يستحيل إنساناً كاملا ثم ينظر بعد ذلك إلى من هو دونه فى المال والخلق وليغض عمن هو فوقه فيهما إذا لم يكن فى طوقه أن يكونه .

لقد كان أبى يقرأ على هذا الحديث حتى كاد يطبعنى على القنوع والخنوع لأن جل همى كان فى الحياة وأنا ناشئ أن الحظ من هو دونى فى الكسب أدباً ومادة ، وأن أغضى عمن هو فوقى بهما ، دون أن أفكر فيما يدفع بى إلى أن أتحرى الأسباب التى جعلت فوقى من هو فوقى فآخذ بها ، وأن أتحرى الأسباب التى جعلت دونى من هو دونى فأتحاماها ، أليس من الجائز أن يكون الكسل هو الذى قعد بى عمن هو فوقى ، والنشاط هو الذى سما بى عمن هو دونى ؟؟ إذن فعلى من يعظ بهذا الحديث أن يفكر فى عقبى ما يترتب عليه من فهم سيئ لما يرمى إليه .

أذكر ، وأنا صبى حدث ، أنى كنت أعول أبوى العاجزين محترفاً أوضع المهن فى نظر العامة ، فكنت أقنع عما أنتج مساء كل يوم ، وهو مالا يزيد على عشرة دراهم ، وكنت مغتبطاً بهذا الفئ وأنا ألحظ من هو دونى فى الإنتاج ومهنته مهنتى ، ولكن زميلا لى سألنى مرة : كم تنتج فى يومك ؟؟ فقلت : نصف ريال ، فقال : أراك غير نشيط فى عملك ، تعال نعمل معاً فأنت شريكى وأنا أخوك وأبواك عاجزان فعلى أن أعينك ، وشد ماكنت حى الأعصاب كبير القلب وأنا معه نجوب الشوارع ونعلن بضاعتنا لانفتر لحظة عن الدعاية لها والتأنق فى عرضها ، وإذا بى لبضعة أيام أضيف إلى دخلى أضعاف ماكنت أنتج .

كان زميلي ، وهو يتحمل عني كثيراً من العبء ، يقول لي : أنت رفيقي في المدرسة وأبوك معلمي فعليّ أن أكون بعونك في عمل لم تخلق له ، انظر إلى فلان وفلان من زملائنا لايبيت أحدهما ليله إلا على نصف دينار فلماذا نبيت نحن على دراهم معدودة ،إنهما ليسا بأقوى منا أعصاباً ،ولا أصح تفكيراً ولا أشد للمال فقراً ، فلماذا يكونان أوفر منا إنتاجاً ،إنا إذن لموتى وإنهما لجديران بالحياة ؟؟

قلت له : صدقت إن الحياة قبل أن تكون عملا واجباً وجهاداً مستمراً ، هي زحام وتنافس ، ولن يبعث في الصدر همة وحرصاً على الجهاد والكفاح سبب أوثق من المباراة في ميدان العمل والتسابق إلى الغايات المثلى في حلبة الحياة ، ان المرء ، وهو يعمل ، عليه أن يلحظ من فوقه ليمعن في الكفاح ثم يلحظ من دونه ليحمد الله على أن أجازه وأربى عليه .

ان التزاحم في الحياة بين أهلها على إحراز أكبر قسط من القوة فيها ، مفروض على الإنسان بفطرته والدين يقره مالم يسيء إلى العدالة بين المتزاحمين ، وإلا فما هو معنى الكلمة المأثورة لأحد أئمة المسلمين القائلة : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ؟؟ وما هو معنى الآية التي تأمرنا باحراز القوة : وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة»إذا كان عدونا يستعد لقوة لم نعملها اكتفاء بما لدينا من قوة دون قوته .

ولقد ثبت أن الإنسان بروحه وبدنه ، ينمو على الرياضة ، فكلما ازداد ترويضاً لعقله على التفكير زاد علماً ، وكلما ازداد ترويضاً لجوارحه على الحركة زاد قوة، ومناط هذه الرياضة التزاحم والتنافس في الحياة ، ولذلك نجدالرياضيين بعقولهم إنما أحدثوا هذه المعجزات في وسائل الحياة والرياضيين بأبدانهم إنما بهروا الأعين بالرماية والصراع وحمل الأثقال ، إنما كان ذلك منه بفضل الرياضة التي لا يحمل الإنسان عليها إلا الطموح والنظر إلى من هو فوقه في إخضاع الحياة .

أذكر ، وأنا في المدرسة الأولى ، كنت غراً بما أقول وأفعل حتى كنت في كثير مما آتيه موضع الهزء والسخرية من زملائي ، إذ كنت قروياً وهم مدنيون لأن المدرسة الوحيدة التي كانت تضمنا يومئذ تأسست في مدينة النبطية التي هي حاضرة جبل عامل الذي أنتمي إليه بنشأتي ، والقرية التي درجت فيها تبعد

بضعة أميال عن هذه الحاضرة فكنت أرد على المدرسة صباحاً وأغادرها مساء ، وقبل ذلك قلما كنت أزور هذه الحاضرة التى كانت ملء سمع الأحداث من لداتى إذ يذهب آباؤنا إليها ويعودون بالسلع والهدايا لأنها البلدة الوحيدة ، بين مآت القرى ، تتمتع بسوق عامرة بالتجارة والصناعة .

والمدينة دائماً مصنع النباهة لناشئتها ، ومبعث العادات القائمة على الرقى والتحضر ، أما القرية فكانت ولا تزال ، إلى السذاجة والوحشية فى نشئها ، أقرب منها إلى النباهة والنشاط فيهم ، لهذا كنت وأنا ابن القرية ، محط أنظار زملائى المتمدينين فى مدرستهم ، يلتفون حولى ويستطلعون أمرى لأقول أو أفعل ما يضحكهم ويغريهم بالهزء منى ، على أنى كنت حذراً جداً من أن أجعل لهم سبيلا إلى التمادى فيما يرمون إليه ، لأنى كنت ، إلى سذاجتى ، ذكياً سريع التأثر سريع الانطباع بكل خلق يتواضعون على أنه من صميم الرقى والتقدم .

ولقد كان فى المدرسة صبية غيرى هم قرويون مثلى ، وكانوا كما كنت مثار التفكه والدعاب لأبناء البلدة التى ثقفتنا معاً ، وكنت أشعر أنهم دونى فى الذكاء وأداء الوظيفة ، مما جعل المعلم يهتم بى دونهم ، ويتوسم فىّ الخير فوق ما يتوسمه فيهم ، لذلك كنت أتعالى عليهم وأوجه نظرى إلى زملائى المدنيين فأتحسس من عاداتهم وأزيائهم فأعمل على تقليدهم ، ورأيتهم يتباهون بتفوقهم على أبناء القرى فى إحكام الدرس وحفظه وحسن أدائه بين يدى المعلم ، ثم يدلون على غيرهم بدرجات الفوز فى الفحص آخر السنة ، فمضيت مجارياً لهم أعمل ليلى ونهارى فى التمكن من واجباتى الدراسية ، وتفهم الدرس قبل حفظه ، ثم الادلاء به أمام الأستاذ كأحسن ما يؤدى الطالب درسه فلا أسمع منهم إلا الهمس ومناجاة بعضهم للبعض الآخر بقوله : انه قوى وشاطر وجدع .

ثم لم يمرر بى أكثر من بضعة أشهر حتى وجدتنى قريباً منهم محترماً فيهم ، يتبارون فى القربى إلى والتحسس منى ، وخصوصاً أبناء صفى ، إذ كانوا يتهافتون على دعوتى إلى منازلهم ومبيتى عندهم ، ولكنى كنت أخشى أن أكون موضع احتقارهم بتصرفاتى إذ لا أزال قروياً بطعامى ومباذلى حين أخلو إلى نفسى وآوى إلى فراشى ، ومضيت فى جهادى حتى أنهيت عامى الأول وإذا بى أقفز

صفين فى سنة واحدة وشاع ذلك فى المدينة وهالهم الأمر أن تلميذاً قروياً قد استطاع أن يجتاز صفين فى عام واحد حتى زار المدرسة زعيم البلدة واسمه « فضل الفضل » ليرى هذا التلميذ ويسمعه ، وقد كنت عند ظنه الحسن .

ولقد بلغ تأثرى هؤلاء الذين كانوا فوقى فى المال والعلم وبالدين طبعاً لأن الدين بالمال والعلم أسمى منه بالفقر والجهل ، أقول : لقد بلغ تأثرى إياهم وتحدىّ لهم بعد سنتين أن أصبحتُ الطالب الأول فى المدرسة وأصبحت وكيل المعلم إن غاب أو مرض وأصبحت مرجع زملائى جميعاً بما يستعصى عليهم من الدروس ، إذ كنت أجدهم فى انتظارى خارج المدرسة صباح كل يوم ، ليسألونى ما غاب عنهم من فهم جملة علمية أو قضية حسابية ، ولم تمض سنون ثلاث حتى أجزت صفوف المدرسة الست وكنت الأول فيها .

لقد كنت فى ذلك كله مديناً إلى التنافس والمباراة والحرص على أن لا أكون دون من هو فوقى ، فلم أكن لأنظر إلا إليه ، ولم أكن لأقنع بما أنحدر به عنه ، وها هم رفاقى لايزالون فى النبطية التى لاتنهد إلى عشرة آلاف من الأنفس يحترف بعضهم التجارة والبعض الآخر الصناعة أو الزراعة ، وأنا أتقلب فى المدن ذات الملايين من البشر بين الغرب والشرق ولا أحترف غير الأدب الذى يعده كثير منهم مجلبة فقر وعناء ، أما أنا فقد وجدت فيه الخير والبركة وأحسبنى أنفق على بيتى أضعاف ما ينفقون ولا أزال طموحاً أنظر إلى من هو فوقى فى علمه وأدبه وماله ودينه وخلقه وخلقه وأعمل جهدى لأكون فوقه أو مثله وآنف أن أنظر إلى من هو دونى فى كل شئ .

ذلك لأنى ما وثقت بصحة هذا الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أو لعلى ما وثقت بصحة الرواية التى أسند الراوى بها إليه حديثه هذا ، وأرى أن صحة هذا الحديث رهن بتصرف الراوى والسامع تصرفاً يحول دون جمودهما فى الحياة ، فأنا مؤمن بأن هذا الحديث إنما يتوجه إلى من جاهد قدر ما يطيق فى أن يكون الإنسان الأكمل حتى إذا عجز عن أن يكونه وجب عليه ، ليخفف من آلامه ، أن يلحظ من هو دونه ويغضى عمن هو فوقه ، ذلك هو معنى الحديث إن صح ، وذلك ما يليق أن نحمل عليه قول محمد فى جوامع الكلم .

علي

أَشْجَعُ مِنِّى مَنْ شَرِبَ مِنْ إِنَاءٍ مُغَطًّى

أذكر أنى سمعتها من أبى ومن زميل له يدعى أمين قاسم بدرالدين ، قالاها أو قالها أحدهما فى النادى الحسينى أيام نشأته فى القرية التى نشأتُ على أرضها وهى « حاروف » إحدى قرى جبل عامل ، وقد كان للفئة الخاصة من أهل القرية ، أدباء وعلماء وشعراء ، مجالس تعقد لدينهم ودنياهم فى هذا النادى إبان شبابه ، وكان الأدب والشعر يسود هذه المحافل ، وكان للنادى مكتبة تضم نفيساً من الآداب والعلوم قديمها وحديثها ، أذكر منها شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وديوان العراقيات ، وإنما أخص بالذكر هذين الكتابين لأنهما وحدهما كانا متداولين فى المجالس تحدثاً وإنشاداً .

وأذكر ، وأنا صبى إذ ذاك ، أنى سمعت هذه الكلمة النبيلة منهم فأمعنت مفكراً فيما يقصد الإمام منها وكيف يكون أشجع منه من شرب من إناء لم ير الماء فيه ؟ ثم تساءلت ونفسى : إذن كل قومى الموالين للإمام أشجع منه لأن إناءهم الوحيد الذى يشربون منه جميعاً هو هذا الأبريق من الفخار الكثيف الذى لا يشف عما فيه ، وشد ما سمعنا ورأينا أناساً يشربون منه فاذا بهم يقذفون الماء فجأة من أفواههم لحشرة قذرة أو سامة تسربت إلى الأبريق وهو فى مخدعه وهم غافلون عنه ، ولقد بلغنى أن بعض الشاربين من هذا الأبريق نزل فى جوفه فرخ ثعبان لا أدرى ماذا دهاه منه .

أما الخنافس والعقارب والصراصير والديدان وغيرها من حشرات الأرض فكانت فى كل بيت وقفاً على مخدع الجرة والأبريق اللذين يحويان هذا الشراب العزيز من ماء القراح ، وما أندره فى هذه البقعة من الأرض ، قلت لنفسى ، وكنت أجهل علم البيان ، كيف نكون أشجع من الإمام على ولا يزال العالم منذ أكثر من ألف عام يروى النوادر عن بطولته الخارقة ؟؟ ثم لم أسكت عن هذا التساؤل حتى أفضيت به فى المجلس فضحك بعضهم ولعله أخى أو أبى ،

ثم قال : ستقرأ علم البيان فتفهم أن الإمام يعنى زجر الظامئ عن أن يشرب ماء لم يره ، وأن الإقدام على شرب هذا الماء كالإقدام على الموت والإقدام على الموت ما لم يكن فى سبيل حياة غير سائغ فى عقل ولا دين ، وشجاعة الإمام قائمة على هذا فقط ، والذى يقدم على الموت دونما عقل يفكر فى الحياة هو بلا شك أشجع ولكنها شجاعة حيوان لا إنسان »

ذلك هو مضمون ما سمعته ولما أزل فى مطلع العقد الثانى من سنى حياتى أتأدب على أبى وإخوتى ، وهذا المضمون هو ما أتخيله اليوم أنه معبر عن تفكيرهم فى إجابتى يومذاك ، لأن المجال بين هذه الفترة التى أحبر بها هذا السفر تحت سماء مصر الجديدة ، وبين تلك الفترة البدائية من حياتى تزيد على أربعين عاماً فقدت أهلى جميعاً وجل أصدقائى خلالها فلم يبق منهم من أذكر معه لحن هذا القول .

شئت أن أدخل من هذا الحديث إلى صلب هذا الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على محمد والخيرة من أهله وأصحابه ، وفى صميم هذا الناموس علم التربية ، وقد مر بالقارئ فى هذا السفر شئ من تربية محمد لأمته فى حياتهم الاجتماعية ، أما خليفته على وهو باب مدينة علمه ، فيقفنا على التربية الصحيحة فى كلمته تلك فما أعجب هذه الفئة من الناس فى هذه الفترة من الزمن على هذا الصعيد من الأرض ؟؟ نفر أميون ، فى زمن جدب قاحل من العلم والحكمة ، على أرض كانت ولم تزل منذ تاريخ البشرية حتى اليوم أفقر بقاع الله إلى نبع الأرض وغيث السماء .

هذه الفئة تنشأ فى ذلك الزمن على تلك البقعة وفى هذه الظلمة من الحياة ، قائمة على تعاليم إنسانية يفتقر إليها العالم فى عصر النور ، وسوف تبقى هذه المجموعة التى تعمر الأرض من بنى الإنسان مفتقرة إلى تلك الفئة فى ناموسها الأعظم الحافل بالحكمة إلى نهاية العالم ، فى هذه الكلمة المأثورة عن تلميذ محمد تربية صحية للإنسان فى تناوله الماء الذى هو عنصر أول فى تقويم الكائن الحى ، كم فى أسلوب هذه الجملة من بيان ؟؟ « أشجع منى من شرب من إناء مغطى » وكم فيها من ردع للإنسان عن أن يشرب ماء لا يراه ؟؟ وكم فيها من علم عريق

يكشف الجراثيم وما تحمله من فتك بالإنسان لا يقدم عليه إلا من رأى الموت رأى العين وألقى بنفسه فيه ؟؟

أفلا تكون عناية المدنية الحديثة اليوم بتنزيه الماء وتنقيته من الجراثيم ، وتطهيره بالمواد الكيماوية أو بتصفيته فى مصانع تشاد خاصة به ، أقول : أفلا تكون هذه العناية وليدة ذلك الناموس الذى شرعه محمد وقام على تعزيزه على ؟؟ ان القرآن يجعل الماء عنصر الحياة الأول إذ يقول : وجعلنا من الماء كل شئ حى » فلم لا يكون تطهيره قوام ذلك العنصر ، ثم لماذا لا يكون على ، وهو وصى محمد ، قائماً على ذلك التطهير وداعياً له ؟؟ وهل أبلغ فى الدعوة إليه من قوله : أنا على الشجاع الأول فيكم لا أجرؤ على شرب الماء دون أن أراه لأتثبت من نزاهته وخلوه من الجراثيم الفتاكة ، فمن لم يفعل فعلى كان أشجع منى باقدامه على الموت والله تعالى يقول : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »

هكذا ينبغى أن نشرح قول على ، أقول : على وأعنى به إمام الشيعة وقديسهم الأكبر تحت سماء الرافدين ثم أرى هؤلاء الغلاة فى حب الإمام عليه السلام لا يحفظون أو لا يحتفظون بكلمة جامعة من نهجه ، فلقد زرت العراق من أجل هذا الإمام العظيم وفى صميمى أن أدرس فقه محمد إلى جواره ، وكنت أعتز بما أستظهر من بلاغة الإمام ، وكانت هذه الكلمة الرائعة نصب عينى أينما كنت وحيثما حللت ، حتى وردت العراق ويممت وجهى شطر الغرى مرقد البطل على ، ومر بى الركب على مدينة فى قضاء الهندية تدعى « طويريج »

ويالله من طويريج . . نزلنا فى خان محاذ لشاطئ الفرات ، وبحين وقت الصلاة فأرد هذا الشاطئ للوضوء فاذا الشاطئ كله يكاد يستحيل قاذورة من كل ما يمجه الإنسان وهو يبول ويتغوط ، بحيث لا أرى مكاناً لقدمى بين هذه الخبائث ، ثم ألحظ على بعد أمتار نساء يحملن الجرار ويردن هذا الشاطئ ليغترفن الماء الذى يشربن منه ويتوضأن به ، تلك الصدمة التى كانت أول عامل فى ثورتى على تأخر قومى وانحطاطهم فى التماس الحياة .

ولقد هون على هذه المصيبة بعد ، والجرح يسكنه الذى هو آلم ، أنى وردت النجف ، ونزلت فى رحاب أبى الحسن مشرع الإسلام والقائم على

تراث محمد عبقرى العالم ، فرأيت ، ويا لهول ما رأيت مما يبرأ منه على ومحمد ، رأيت شوارع النجف وأزقتها وضواحيها نسخة مكبرة عن شواطئ مدينة « طويريج » ماذا فعلت بى تلك الرؤية ؟؟ وبماذا شحنت صدرى من تردى هذه الجماعة التى يعمر بها أشرف مكان فى العالم بعد الحرمين ؟؟

ماذا يقول على لو رأى شواطئ الفرات ودجلة فى ضواحى المدن التى تكتظ بشيعته ، وهو ينهاهم عن أن يشربوا الماء ما لم يروه بأعينهم نزيهاً عن كل قذى ؟؟ وماذا يقول محمد وقد جعل النظافة عنوان الإيمان فى المسلم ، لو رأى الفقهاء من أمته والداعين إليه بما يقولون ويفعلون يلبسون من الثياب ما يغطيه القذر حتى يأكل أجسامهم ، ويأكلون من الأطعمة ما يغمره الذباب حتى يسبقها إلى أفواههم ؟؟ ثم ماذا يقول محمد وعلى ، وقد شرعا لنا أن نأكل الطيب ونشرب الطيب ونلبس الطيب ، ماذا يقولان إذا طلعا علينا اليوم ورأيانا لا نأكل إلا الخبيث ولا نشرب إلا الأخبث :

ففى رجب هذا العام كنت ضيف الروضة النبوية فى الحرم النبوى ، وكنت أجلس صباح كل يوم بعد الصلاة والزيارة إلى بعض أروقته مع ثلة من كرام الأصدقاء أذكر منهم الحاج صالح القزاز المشرف على ترميم الحرم ، والأستاذ أحمد حسين رئيس حزب شباب محمد فى القاهرة ، ثم يغشانا الشيخ ابراهيم الغلايينى الدمشقى ومعه جماعة من أتباعه وهو صوفى عريق فى الافتنان بما يدعو إلى الدين والفقه فى الرواية عن محمد .

جلس إلينا هذا الفقيه ، ونحن نشرب اللبن ، ورآنى إذ وقع ذباب على كوبى آنف من شربه ، فقال : اغمس الذباب فيه واشربه فان السنة تشير إلى ذلك ، ثم تناول الكوب منى وغمس الذبابة فيه ثم أخرجها بعد أن سلقتها حرارة اللبن وشرب الكوب كله ، وهو يقول : إنما أشربه لئلا تقول : أمرتك بما لم أفعل »

فما هو هذا الفقه ؟؟ ومن هم هؤلاء الفقهاء ؟؟ ثم من هو هذا الراوى الصادق الثبت الذى يروى لنا سنة غمس الذباب فى الشراب الساخن وشربه بعد إخراجه ؟؟ أهذا هو مثل من نظافة محمد التى سنها لنا ؟؟ يا ليت محمداً وعلياً عادا إلينا اليوم ورأيا ورثتهما فى الجامع الأزهر والحرم النبوى والمسجد العلوى

كيف يحيون فى أماكن مغمورة بكل ما يزهق الروح من وضر وقذر ، كيف يعيشون كالحشرات فى مدن أو قري تغص شوارعها وتموج دروبها بالصبية الأحداث أقذر ما ترى الأعين وتشم الأنوف وتسمع الآذان ، ثم يريان شوارع باريس وبرلين ولندن ونويرك كيف تُغسل بالصابون سحر كل يوم ، وكيف تغص هذه الشوارع بما لم نعهده إلا فيما يعداننا به فى ظلال الفردوس ، ثم نزعم أنا لهما تبع وأنهما من القوم براء .

لقد شهدت بعيني محفلا دينياً فى أحد بيوت الفقهاء العامليين بالنجف ، وكان يتوسط الحفل فى باحة المنزل ، حوض ماء ، لا تزيد دائرته عن بضعة أمتار ، ورأيت أحد هؤلاء الفقهاء يطأطئ على الحوض ويغمس فيه وجهه ثم يتمخمض ويستنشق بمائه بينما جلس إلى جانبه على نفس الحوض بعض آخر يغسل رجليه من وضر حذائه ، والحوض ماء غير جار وليس فيه من الماء ما يستهلك أوضار الأرجل والمخط والبصق ، ولكم كنت ثائراً على أمين الريحانى إذ كتب عن هذا الحوض فى أحد مؤلفاته يبالغ فى عفنه ونتنه وأنه مرجع الشيعة فى تطهير أوانيهم منه والتبرك بمائه وأنه ينجس كل عشرين يوماً مرة فلا يطهر حتى ينزح ويبدل ماؤه أو يصلي عليه الشيخ .

صحيح أن فى هذه التهم فرية على الشيعة ولكن بعضها كائن ، وهو قذارة الحوض ولا سيما عند شح الماء ، وغسلهم الوجوه والأيدى والاستنشاق والمخمضة وتطهير الأوانى للشراب والطهى بمائه وتكاد النفس تتقزز من نتن ريحه ، فى هذا أوافق الريحانى ولكنى أخالفه فى أن ذلك مشروع وأن الحوض يطهر بعد تنجسه بصلاة الشيخ عليه وأنهم يتبركون بالشرب منه وأنهم يستعملون مياهه للطهى ، وأنه من القذارة بحيث يقضى على الزائر الغريب عندما يدنو منه ، كل ذلك مبالغ فيه ويقصد الريحانى منه تشويه المذهب وتحقير الطائفة التى تدين لله به وتستقبله على نهجه .

ومهما يكن من أمر فان شيعة علي بن أبى طالب لا تتأثره فى جوهر ما شرع لهم من مذهب ، والنظافة هى أولى دعائم السنن التى نبههم إلى الأخذ بها وخاصة فى الماء الذى يشربونه لأنه العنصر الهام فى تقويم حياة الإنسان ، من أجل ذلك

أرى أن الإمام بعد أن أرسل كلمته الجامعة التى تبسطنا فى تحليلها هنا ، أراه لا يرضى عن شيعته ما داموا متهاونين فى الأخذ بها ولعلهم بعيدون عنها ، ولعل أقذر ما تقع العين عليه فى بلادهم هى الينابيع ومصانع المياه .

مماذا هذا ؟؟ إنه من الجهل بالعلم المفضى بالإنسان إلى الجهل فى الدين ، فلو أخذنا بأن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، لاتسعت آفاق الفكر ولسما العقل بالإنسان عن أن ينحدر إلى حياة الحيوان فلا يفرق بين الدين الذى هو قول وبين الدين الذى هو عمل ثم لا يفرق بين العمل الذى هو حياة والعمل الذى هو موت ، هذا الإنسان الجاهل الذى يفهم أن كل طاهر نظيف وكل نجس قذر ثم يأبى أن يفهم أن كل نظيف طاهر وكل قذر نجس ومن ورائهم محمد يقول : «النظافة من الإيمان ، وعلى يقول : أشجع منى من شرب بإناء مغطى . . . .

الله أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟؟

يقول لى الشيخ محسن شراره ، وكان زميلى فى النجف أيام دراستنا الفقه ، وكنت أبحث وإياه علم البيان ، قال لى ، ونحن فى بيروت بعد مغادرتنا العراق ، وكان رحمه الله يعانى آلام الصدر ، يقول : تعال معى إلى مختبر الطبيب أحمد سلامة وانظر بعينيك قلبى ورئتى تحت أشعة رنتجن ، وراقب بنفسك انتظام القلب فى نبضه والرئتين فى تنفسهما فقد أصبحت فى شك من صدق الأطباء لأنهم يلحظون المادة قبل كل شئ يتصل بالإنسانية ..

ورافقته إلى المختبر وأنا أفكر : كيف أرى القلب والرئتين رأى العين ؟؟ وما هى تلك الأشعة التى تخترق الجسم الكثيف حتى يشف عما وراءه ؟؟ وكيف يمكن أن يكون فى الوجود شعاع أقوى من أشعة الشمس المهيمنة على الوجود ولا نراها تخترق أبسط الأجرام الكثيفة حتى الورق ؟؟ ان لله فى خلقه شؤناً ، ولا يزال حتى اليوم يجول فى روعى قول مؤدبى لى وأنا فى صباى : ان ما ظهر لك يا بنى من أسرار الوجود يتضاءل حتى لا يبدو شيئاً بين يدى ما خفى عنك لو اطلعت على غيبه » آمنت بالله وصدق مؤدبى .

ولما دخلنا المختبر قادنا الممرض إلى غرفة الأشعة وأقفل علينا النوافذ حتى أصبحنا فى ظلام دامس ، شعرت إذ ذاك برهبة مما استقبل ، وكان كل ما أرى جديداً على فلا أفقه من الحياة إلا أنى حذقت علوم اللسان العربى وشيئاً من تطبيق الفقه الشرعى وأحسبنى كما كنت أتلقن من أساتذتى الفقهاء أن علوم العالم هى وليدة علم آل محمد وعلم آل محمد كما يزعمون : هو هذا الذى حشرته فى صدرى من كتابى قطر الندى وألفية ابن مالك فى النحو ، وكتابى الشمسية والحاشية فى المنطق ، وكتاب المطول للتفتازانى فى البيان ، والمعالم والكفاية واللمعة فى الفقه وأصوله ، أما العلوم التى تكشف لى الآن عن قلب زميلى حتى أراه بعينى كيف ينبض فهذا ليس من العلم فى شئ .

وفجأة برق هذا الشعاع الخاطف مسلطاً على جسد الزميل فلم أر منه غير قلبه معلقاً فى الهواء وأراه ينتفض بدقاته كالرقاص فى ساعة الجدار ، يا لهول ما أرى ! ! قلباً فقط ومن ورائى الطبيب يضبط دقات هذا القلب على ساعة يده ، وتمر لحظات فاذا بنا نتحادث على ضوء الشمس والشيخ محسن يسألنى وهو مأخوذ بما أخذت به : كيف رأيت من عجائب العلم الحديث ؟؟ هل رأيت غير قلبى ؟ قلت : لا والله ، وأسأل الطبيب : ما كنه هذه الأشعة ؟؟ وكيف تخفى بعض الجسم وتظهر بعضه ؟؟ قال : انها أشعة قوية تتولد من زيت اكتشفه العالم رنتجن ، فسميت باسمه ، وأن العلم سخرها لكل ما يريد من الاطلاع على بواطن الأجسام الكثيفة ، فان شئت رؤية القلب دون بقية الجوارح كان ذلك كما رأيت ، وإن شئت رؤية الرئة أو غيرها من الأعضاء الداخلية كان لك ما شئت ، ثم إذا أردت إخفاء الجسم كله لترى ما فيه من معادن كرصاصة دخلت فيه من مسدس ، أو مسمار أو دبوس دخله عن طريق الفم أو غيره ، كان لك ما أردت » .

إلى هنا أقف ثم أعود إلى الآية الكريمة فى مطلع البحث : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟ » فاللطيف يقابل الكثيف كالروح يتغلغل فى البدن ولا يتأثر به للطفه ، أعنى أن كيان البدن الذى هو هذا الهيكل بكل ما فيه مما ترى العين من لحم وعظم ودم وأعصاب ، تحتله الروح مغلغلة فى كل جزئى منه ولا يتأثر بها فى خلل أو نقص أو زيادة ، وكالنور يتغلغل فى الكائنات ولا تتأثر به من حيث هذا الكيان الذى تتقوم به ، فالبيت يدخله النور ويبقى بيتاً ، والحى من إنسان وحيوان ونبات يتغلغل فيه النور ويبقى إنساناً ونباتاً وحيواناً ، ولا ينافى ذلك أن يكون النور مقوماً لحياة الحى لأن الحياة لطيفة أيضاً فلا ينافى تأثرها بالنور كون الجرم الحى لا يتأثر بالنور فى كيانه .

وهكذا نصل إلى أن الهواء لطيف ويتغلغل فى الاجرام الكثيفة دون أن تتأثر به فى كيانها الجرمى ، فقد سمعت من بعض علماء الطبيعة أن البئر لو سدت وطليت بالجبس ثم دهنت بالزيت لم يمنع ذلك دخول الهواء قليلا أو كثيراً إلى غيابتها ، فاللطيف من خصائصه التحكم بالكثيف والهيمنة عليه لأنه أقوى منه ،

فالاجماع عند أهل الفكر أن الماء فى جرمنا الأرضى يهيمن عليه بقوة إذ هو ألطف منه ولذا كانت الأرض محمولة على الماء ثم أن الهواء يهيمن على الماء بقوته إذ هو ألطف منه ، ولذا كان الماء محمولا على الهواء ، ثم نصل بعد ذلك إلى أن تيار الكهرباء العام هو مهيمن على الهواء لأنه ألطف منه ، ولعل من اليقين الثابت عقلا أن تيار الروح المعبر عنه بالحياة فى الوجود هو المهيمن على هذه القوى المتداخلة لأنه ألطفها .

من هنا نعلم أن بارئ الكون المهيمن عليه هو مصدر هذا اللطف الخفى المتغلغل فى الكائنات حيوانا وجماداً ونباتاً ، على أن عظمة اللطيف وهو يتغلغل فى الكون كليه وجزئيه إنما هى قائمة على الخبرة والدراية ، من أجل ذلك أردف اللطيف بالخبير ليدل على أن اللطف لايوجب العلم فى اللطيف ما لم يكن مشفوعاً بالخبرة فى إدراك ما يتغلغل فى كنهه ، فدخول الهواء ودخول النور فى الكوائن لا يعطى النور أو الهواء علماً بكنهها حتى يكون للنور والهواء خبرة فى إدراك ما كانت له من أسرار .

فامعانك فى ترادف الوصفين : اللطيف الخبير .. لإثبات العلم بالمخلوق : ألا يعلم من خلق .. يقف بك عند الروعة والإكبار لما طويت عليه تلك الآية من بلاغة وحكمة وبيان ، فاللطيف الأول فى الكون والذى هو مصدر كل لطف فى القدرة على الايغال والتغلغل فى كل كائن ، والخبير الذى هو مصدر كل خبرة فى إدراك ما ظهر وما خفى من أسرار ذلك الكائن ، هذا اللطيف الخبير الذى هو فوق كل خبير لطيف إذا أخلق شيئاً كان خلق بعامه وإدراك كنهه .

ما أروع قوله : ألا يعلم مَن خلق ؟؟ ، أهو يخلق الخلق ثم لايعلم خلقه ؟؟ أأنا فورد خالقَ السيارة ،أو سنجر خالقَ المخيط الأوتوماتيكى ، أو أديسون خالق المصباح الكهربائى ، أأنا أحد هؤلاء لا ينازعنى أحد فى أنى أدرى من كل أحد بما خلقت ، ثم الله ، تعالى الله ، خالق الإنسان ينازعه الإنسان نفسه فى علم نفس الإنسان ؟؟ ما أعظم خالق الإنسان وهو يتنازل لإقناع الإنسان

بالبرهان ، وما أسفه الإنسان وهو يتغاضى عن عظمة خالق الإنسان وسمو حكمته فيه !!

كم يكون الواحد منا مزهواً بنفسه إذ يدرك الجمال فى الحديقة وهو يتحسس من شكل الزهر فيها ولونه وعطره ، كم يأخذه الزهو إذ ذاك فيدل بنفسه على ما دونه من عوالم تنحدر عنه بالعقل والفكر ، ولكنه إذ تسائله نفسه عن سر الألوان لم تتحد فى جذور النجم والشجر وفى فروعه وأوراقه ، ثم تختلف هذه الألوان فى الأزهار والأثمار لوناً وطعماً وعطراً ، لكنه إذ ذاك يخسأ عن أن يجيب نفسه ثم يطرق معترفاً بالضعف خاضعاً لقوة الإعجاز فى قوله عز من قائل : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه «القرآن» الحق :

ومن عجب ما يمر بالإنسان من عبر ثم لا يعتبر : أن خالق السيارة أو الطيارة أو أية آلة حديثة يدرك مواطن الخلل فيها إذا اختلت بتحسسه من صوتها وهى تعمل ، ثم ننكر على خالق الإنسان إدراكه مواطن الخلل منه وهو يعمل ، باشرافه عليه وتحسسه منه ، كيف ؟ ولماذا نجيز لأنفسنا القدرة على اكتناه السر فيما نعمل إن كان صالحاً أو فاسداً ، وننكر هذه القدرة على خالقنا فيما عمل فنعجب لإدراكه الخلل فى القلب إذا ران عليه الشر وفى العقل إذا جال فيه الخير ؟؟ هكذا نصل مما نفقه إلى أن الحكمة فى الإنسان هى إحكام العين فيما تبصر كيف تبصر ؟؟ وإحكام الأذن فيما تسمع كيف تسمع ؟؟ ثم إحكام القلب فيما يفقه كيف يفقه ، وأن الإنسان مسئول عن هذه الحكمة فى نفسه : ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤلا .. ثم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟؟؟

محمد ﷺ تَرِبَتْ يَمِينُكَ فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ؟ ؟

قال ذلك عندما سئل عن المرأة : أتغتسل من الاحتلام ؟؟ فقال : إذا رأت ماء ، فقيل أترى ماء ؟؟ فقال للسائل : تربت يمينك فبم يشبهها ولدها ؟؟

منذ ثلاثين عاماً حدث نقاش عنيف بين الشيخ عارف الزين صاحب مجلة العرفان فى صيداء عاصمة جبل عامل ، وبين الطبيب شريف عسيران فى تفسير آية : فلينظر الإنسان مم خلق ؟؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » أذكر أن حديث النقاش يومذاك شاع فى أنحاء جبل عامل لما فيه من شطط فى جرأة الطبيب على الآية وأن تفسيرها كما زعم صاحب العرفان هو خرافة محضة .

سمعت أن الشيخ أجاب السائل عن الصلب والترائب بأن المنى الذى يتكون منه الإنسان أول خلقه والمعبر عنه بالماء يخرج من صلب الرجل وصدر المرأة ويلتقيان فى رحمها ثم يتكون هذا المخلوق منهما معاً » ويثور الطبيب على عقيدة أن المرأة تشارك الرجل فى تكوين حملها من حيث أصل المادة التى هى الماء ، وإنما تشاركه فى تربية الرحم للنواة بالغذاء من دمها فى الرحم ثم من حليبها فى الخارج وهو الصادر عن ترائبها »

هكذا أستطيع أن أوجه رأى الطبيب وإن لم أسمعه إلا مجملا ، والا فلا يتوجه إنكاره للماء مع وجود كلمة : الترائب » إلا إذا اعتبر الخرافة عن الآية وأعيذ الطبيب من الإلحاد ، هذا توجيهى ، وأما قول بعض الذين أنكروا على الطبيب إنكاره على الشيخ فيقولون : وما الذى يمنع من الحكم عليه بالإلحاد ؟؟ فقد شهدته قبل دخوله الجامعة الأمريكية لا يقطع فرضاً من صلاة أو صوم ، ولقد شهد لى من أثق بصدقه أنه كان يتهجد ، ثم لانشعر به إلا وقد خرج من معهد الأمريكان ينكر وجود الخالق » هذا ما دار حول ذلك النقاش يومذاك ولعله نزر يسير مما ساد ألسنة الناس بالقذف والإرجاف .

على أن الطبيب قدم على ربه ونحن فى سبيل إخراج هذا السفر إلى العالم ، فكل ما نرجوه أن يكون قد ختم حياته بصلاح نفر من أسرته المعروفين بالتقوى ولكن هذا لا يحول دون التبسط فى البحث حول هذه المشكلة ، لقد كان هذا الطبيب متأثراً دعاة الغرب لا يرى ميزة لشرقى على الإطلاق ، من أجل هذا كان إذا تحدث أو حاضر أو كتب جعل براهينه المنطقية أو التاريخية وقفاً على الاستشهاد بأقوال الغربيين أياً كانت ، ويضع أقوال الشرقيين ، وخاصة رجال الدين الإسلامى ، موضع السخرية من حديثه أياً كانت ، ما فى ذلك ريب إذ تحققته بنفسى .

أذكر ، وأنا فى بغداد وفى منزل الشيخ رضا الشبيبى أو منزل السيد عبدالكريم الأزرى لجلسة يقيمها نادى القلم ، ولعل ذلك فى السنة السادسة والأربعين بعد التسعماية والألف لميلاد المسيح ، أذكر آنذاك أن الحرب اليهودية العربية كانت قريبة الحدوث ، ودعاة العرب واليهود لها كانت تشغل العالم ، والخاصة من العرب علماء وأدباء وساسة آخذون بأسباب القطعية لليهود ، أذكر إذ ذاك أنى سمعت الدكتور شريف عسيران يخاطب أحد رجال النادى بقوله : ما دخل العلم فى هذه الأحداث ؟ ان العلم شئ والسياسة والدين والقومية أشياء أخر ، هب أن العرب يقاطعون اليهود سياسياً أو اقتصادياً ، أما ثقافياً فهذا لا يقره المنطق فانا فى أمس الحاجات إلى علوم اليهود .

وانتفضت إلى جانبه ثم قلت له : لقد سبق الجواب عن قولك هذا على لسان عمر بن الخطاب قبل ألف سنة ونيف عندما أمر بتنحية نصرانى له شأن فى علم الحساب وكان قابضاً على ضبط المال وتصريفه من خزينة الدولة ، فقال له بعض الحاضرين من رجاله : إنا فى حاجة إلى مقدرته الحسابية وليس فينا من يملأ فراغه إذا أخرجناه ، فغضب عمر وقال : لقد مات النصرانى والسلام » أفلا ترون من يقوم مقامه بعد موته ؟؟ إنكم إذن لخاسرون ثم قلت للطبيب وزميله الذى أمن على قوله : هبوا أن يهود العالم منوا بخسف حتى لم يبق منهم أحد ، أفتفقدون بفقدهم وسائل العلم ؟؟

ان مقاطعتهم فى الثقافة يجب أن تسبق مقاطعتهم فى السياسة أو الاقتصاد

حتى نثبت للعالم ، كما أثبت أجدادنا ، أن فى طوقنا أن نستقل عن العالم ثم نصبح قدوة للعالم » فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يزيدوا على أن تبادلوا الابتسامات التى تخفى وراءها الهزء بقول من لم يدرس فى جامعتهم ولم يتلقن دروسهم على أيدى المبشرين بالإلحاد عن طريق العلم ، ولم يعلموا أنى درست العلوم الحديثة قبلما درسوها ثم أضفت إليها العلوم القديمة ، وانى أوغلت فى أمريكا شمالها وجنوبها فدرست بحواسى كلها كل ما كشفوه وأبدعوه ، بينما هؤلاء الساخرون لم يدرسوا علوم الغرب إلا عن طريق الغيب .

ولنعد إلى نقاش الطبيب مع الشيخ فى أن المرأة هل تمنى كالرجل أم أنها حاضنة لمنيه فقط ؟؟ الحق أن الآية الكريمة تحتمل الأمرين معاً : فيمكن أن يكون تكوين الإنسان من مائين أحدهما يدفق من صلب الرجل والآخر من صدر المرأة ويلتقيان فى الرحم ثم يمتزجان فيتكون منهما معاً هذا الإنسان ، والتركيب الكيماوى بين أيدينا يعلمنا أن كثيراً من الأشياء يتولد من تمازج كثير منها ، ويمكن أن يتكون الإنسان من نطفة الرجل كنواة أولى ثم تحضنه المرأة فى رحمها فيتغذى من دمها وبعد أن تلده تغذيه من لبنها الصادر عن ترائبها ، أعتقد أن العلم يقر هذا أيضاً ولا ينكر تأثر الولد بأمه عن طريق هذه الحضانة وهذا الغذاء الأولى كما يتأثر بأبيه الناشئ عنه .

ولكن تأثره بالأم عام وأما تأثره بالأب فخاص والعام لا يعطى الشبه الذى يعطيه الخاص ونعنى بالشبه العام هو الصفة المشتركة بين الإنسان والإنسان بدافع التكوين العام الذى يشترك فى خلقه الله والبيئة والمجتمع ، وتتميز الفروق العامة بين الأناسى لدى الباحث فى الألوان والأشكال والأحجام من سكان الأرض عامة ، فلو كانت المرأة حاضنة فقط لما أشبهها ولدها شبهاً خاصاً بحيث يدل عليها ، ولكانت دلالته عليها دلالة عامة كدلالة الزنجى أو الصينى أو الأوروبى كلاً على بيئته قبل أن يدل على أمه .

فالذى يدفع الثانى ويقر الأول هو قول النبى صلوات الله وسلامه عليه فى صدر هذا البحث : تربت يمينك فم يشبهها ولدها إذن ؟؟ ينكر الرسول هنا أن يكون شبه الولد أمه عن طريق الحضانة التى هى تكوين ثان أى عام للإنسان

لاتكوين أول أى خاص ، فالشبه المحسوس أو الشبه الخاص بين الوليد ووالديه لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التكوين الأول الناشئ عن تمازج النواتين فى الرحم ، وبرهان ذلك أن العلوم الحديثة لم تصل بعد إلى إمكان تربية نواة الرجل ليكون إنساناً فى غير رحم المرأة .

وقد أجرى العلماء تجاريب كثيرة فى عصور مختلفة لإنتاج الإنسان من منى الرجل فى غير رحم المرأة فأخفقوا فى أرحام الحيوانات وأجواف الآلات التى كيفوها بمثل حرارة رحم الأنثى ورطوبته ، ومما يقوى برهان أن الوليد مزيج من المائين : أن البيضة التى تحتوى على ماء الدجاجة التناسلى فقط ، أى لم تلقح بمنى الديكة ، هذه البيضة تفسد تحت الآلة الحديثة المولدة وتحت أمها الدجاجة عند توليدها أيضاً ، من هنا نعلم أن التوليد فى حاجة إلى المائين معاً ، فالمرأة وحدها أو مع غير الرجل لاتلد كما أن الرجل وحده أو مع غير المرأة لا يلد .

صدق الله وصدق رسوله ويخفق كل علم يعاند الوحى وليس فى العالم وحى حق يعاند العلم ، فالدين الصحيح يرافق كل علم ، كما أن العلم الصحيح يعزز كل دين .

علي

إِنَّ أَعْظَمَ الخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ وَإِنَّ أَفْظَعَ الغِشِّ غِشُّ الأَئِمَّةِ

رحم الله أبى كان على قلة حظه من العلوم، فقيهاً يحسن الفتوى لمن يجهلها من عشرائه فى هذه القرية المتواضعة التى أنبتنى تحت سمائها قرية «حاروف» ، لقد كان فقيهاً لأنه تفقه على رسائل الفقهاء من معاصريه أمثال السيد اسماعيل الصدر فى كربلاء والسيد كاظم اليزدى فى النجف وكثير من فقهاء جبل عامل ، إذ كان بيتنا فى هذه القرية منزل هؤلاء ، وكان أبى جليسهم أيام زيارتهم قريتنا تلك .

وكان كثير الشخوص إلى العراق ليتزود من ضريح أبى الحسن وأشباله ما يفد به كريماً على الله ، وليتفقه فى دينه على أيدى أولئك الأعلام من ورثة النبى وحملة قرآنه ، وكان إذا مرت به سنة لا تبلغه صوم شهر رمضان فى النجف ، ولم تلبسه حداد عشر المحرم فى كربلاء ، كان إذ ذاك يحسب تلك السنة عارية من حياته ، لا أترجم لأبى فى هذه الكلمات ، ولكنى أحببت أن أدل على أن فقه الحياة بله الدين لا يقف عند حد الإمعان فى العلوم والفنون ، وإنما يتجاوز هذا الإمعان أو ينحدر عنه إلى الإلمام بشىء منه ، ولقد كان أبى من هؤلاء الذين فقهوا الدين وأدبه ملمين به دون إمعان فيه .

سألته ذات يوم ، وأنا أقرأ فى سورة الفتح ، قوله تعالى يخاطب رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام : انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويهديك صراطاً مستقيماً » سألت أبى : كيف نوفق بين عصمة الرسول وبين هذه الآية التى تنفى بصراحة عنه العصمة ؟؟ سألته ذلك وكنت لما أزل فى دراستى الأولى ، فقال : أتفهم إن أجبتك بما لا عهد لك به أم تترك هذا حتى تنضج فى علومك ؟؟ فقلت : أحب أن أسمع وإن لم أفهم ، فقال :

« ان حكم الله على الخاصة من الناس كالأنبياء والأولياء ومن قرب منزلة منهم غير حكمه على العامة منا نحن أميين أو شبه أميين ، فذنب العالم على قدره وذنب الجاهل على قدره ، فقد يكون المكروه من الخاصة محرماً عليهم كما قد

يكون المحرم فى العامة مكروهاً منهم ، وأضرب لك مثلا قريباً من فهمك : أنا نرى مكروهاً من الشخص العادى أن يبول وهو واقف أليس كذلك ؟ فقلت بلى ، قال فاذا فعل الشيخ عبد الحسين صادق أو السيد مهدى ابراهيم ذلك أيكون مكروهاً منهم أم تراه محرماً عليهم ؟؟

وهذان الشيخ والسيد من الفقهاء المجاورين لبلدتنا ، وقد كانا محل التبجيل والإكبار منا ، فقلت : أعوذ بالله أيمكن أن يبولا واقفين ؟؟ وإلا فلا يصح لنا أن نتخذهما إمامين فى الصلاة فضحك ثم قال : وهكذا نصعد إلى الرسل والأولياء، فان الله يعتبر المكروه منهم ذنباً يستحق عفوه وغفرانه ، فقد يكون رسولنا الأعظم قد ظن أن الفتح أى فتح مكة غير قريب وأنه كائن بعد عام أو عامين ، فكان ظنه هذا غير حسن بالحق الذى يدعو له ، وهو مكروه بالنسبة إلينا ولكنه بالنسبة إلى الرسول الأعظم إثم يفتقر إلى عفوه تعالى فعبر عنه بقوله عز من قائل : ليغفر لك الله ، وهكذا ينبغى أن نتأول كل ما يشتبه ويستعصى علينا فهمه من كتاب الله لنوفق بين العصمة فى الرسل،وإلا كنا وإياهم فى صعيد واحد وهذا باطل ، أفهمت ؟؟ »

لقد وفر على أبى كثيراً من جهد التفكير فى مستقبل حياتى وأنا أدرس القرآن وأرى نسبة الاثم لكل نبى قبل محمد ، فكنت كلما مرت بى شبهة من ذلك رجعت بالذكرى إلى قول أبى فاطمأن بى الحكم على أنها مؤولة وأن الرسل لاينبغى أن يشاركونا فى الاثم ، وإلا لقلت الثقة فيما يشرعون لنا من دين ولصح فيهم قول الملاحدة من أنهم أناس حاولوا السلطة والتمسوا السيادة فى الناس عن طريق الدين ، أفليسوا بشراً مثلنا يخطئون ويصيبون ؟؟

وأرى أن هذا التأويل يوفر كثيراً من العنت على طائفة من المسلمين يقصرون عصمة الرسل على الوحى فقط وأنهم فيما عدا ذلك بشر مثلنا يجوز عليهم الخطأ ، ويستشهدون لذلك بأن النبى كان فى كثير من المواطن يرى رأياً فينكره بعض الصحابة عليه فيجيب بقوله : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، مما يدل على أن العصمة فى الدين لا فى الدنيا ، وهذا هو عين الخطأ فى الفكر لأن الدنيا ليست خارجة عن نطاق الدين ، وكان الأولى بهؤلاء أن يجعلوا هذا الحديث وأشباهه فى عداد

الموضوعات ويرجعوا إلى الحكم بعصمة النبى فى كل ما يقول ويفعل لأن قوله وفعله تشريع ، وإلا فما معنى شق صدره وتطهير قلبه ؟؟ ألتقبل الوحى فقط ؟؟ أم لتنزيهه عن كل إثم ؟؟

على أنى بعد أن نضجت فى تفكيرى أعود إلى سيرة أبى فى هذا فأتساءل ونفسى : إذا اعتبرنا أن المكروه من العامة هو محرم على الخاصة فلم نحكم على الخاصة بالعصمة إذن وقد اقترفوه وهو محرم عليهم وإن كان مكروهاً منا ؟؟ أليس الله قد عبر عنه بأنه إثم ؟؟ إذن فهو إثم وفاعله غير معصوم ، إلا أن يقال : إن العصمة إنما تثبت لهم فى منطوق الناموس العام الذى هو الدين وهو قانون كلى ، وأما التأويل فهو استثناء ينال الجزئى منه ، ولعله من قبيل الشاذ فى المنطق ، والشاذ لايقاس عليه .

فلنعد الآن إلى صلب الموضوع بعد هذا الاستطراد ، الذى يستلزمه قول الإمام : إن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأن أفظع الغش غش الأئمة » لقد صدق إمام البلغاء سلام الله عليه فان الخيانة عظيمة ولكنها من الخاصة التى تهيمن على الأمة أعظم ، وأن الغش فظيع ولكنه من الإمام المقتدى به أشد فظاعة لأن السواد الأعظم من الخلق يشخص فى قوله وعمله إلى هذا الصنف من الناس وليس عبثاً قولهم السائد : الناس على دين ملوكهم » .

مررت بمصر لدى عودى من أمريكا فى حدود العام الثانى والثلاثين بعد التسعماية والألف من تاريخ الميلاد ، وكانت مصر تموج بالهتاف لسعد زغلول الزعيم الوطنى ، وكان ذكره مدوياً على كل لسان وفى كل مكان فكان ذلك ، مضافاً إلى ما سمعت ، باعثاً فى نفسى له التجلة والإكبار ، وشئت أن أراه وأصررت على ذلك ، ثم فوجئت بأنه كان لايأكل الطعام قبل أن يقدم له شراب الخمر وأن صفة خمير لاتكاد تصدق على غيره وعلى غير زميله الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف ، ولما تحققت ذلك تضاءلت مكانته من نفسى ورغبت عن الاجتماع إليه وأصبح فى نظرى واحداً من الناس وإلا لكان محل التبعة فى خيانة الأمة .

ويقول لى الأستاذ موسى كاظم حاكم لواء العمارة فى العراق : لقد تحدث

إلىّ رجل ما ملء سمعي أدباً وعلماً حتى أكبرته ورأيت أنه من خيرة من نقتدى بهم فى غمرة هذا الفساد ، وصممت على نصرته وتعزيز ما يدعو إليه من هدى ، ولكنى إذ بلوته علمت أنه لا يصلى وأنه يرى الصلاة إضاعة للوقت فسقط من عينى كأن لم يكن ذاك الذى تحدث إلىّ من قبل فملأ صدرى جلالا وهيبة ، ثم قال : وأما أنت فقد كنت فى نظرى من عامة الناس إذ علمت أنك مررت بالناصرية وأنا حاكمها فلم تتصل بى وأنا المسؤل وأنت تزعم أنك أديب والاديب حريص على التحسس من كل من يتحمل تبعة الإصلاح فى الشعب ، ولكنى إذ سمعت من مضيفك هنا أنك حريص على الصلاة أكبرتك وأحببت أن أراك »

سقت هذين المثلين لا لأبرهن على أن من لوازم القيادة فى الأمة أو الهيمنة عليها أن يكون القائد المهيمن مصلياً أو بعيداً عن الخمرة ، ولكن لأشير إلى أن الأمة عندما يتضمن دستورها الاجتماعى وناموسها الروحى حجر شئ وإباحة آخر كان على سائسها والحاكم الأول فيها الخضوع لناموسها والعمل بدستورها قبل كل فرد منها وإلا كان خائناً وكان عليه أن يتحمل تبعة هذه الخيانة فى كل من يقتدى به منها ، فالشعب العربى والأمة الإسلامية لا ناموس لها غير الإسلام ولا دستور لها غير القرآن فأى رجل سادها كان عليه أن يمعن فى تطبيق هذا القانون على نفسه قبل أمته ليكون فيها المثل الأعلى الذى تشخص إليه أبصارهم وتهوى عليه أفئدتهم .

لذلك قر فى نفوس المسلمين أن الخير فى الأمة لا يصدر إلا عن خيرها والشر لا يصدر إلا عن شرها ، كما قر فى نفوسهم أن انحدارهم وانهيار عزهم إنما نشأ عن المثل السئ فى قادتهم منذ تسامحوا فى تطبيق الناموس الأعظم الذى هو القرآن ، على نفوسهم ومنذ سنوا هذا التسامح لرعاياهم فسادت الخيانة فيهم حتى قعدوا وحتى فقدوا مقومات هذا التراث الذى عزوا به وضمن لهم سيادة العالم .

ان الغربى لا يتأثر قائده والمسيطر عليه بأخلاقه لأن المفروض فى القائد أن يتسم بطابع القانون والقانون عندهم هو هذا الذى يتحلل من كل ما نسميه أخلاقاً أو ديناً ، والمادة التى وفرها له العلم والنصب فى سبيل الحياة أمسكت عليه دنياه بمقدار ما أمسكت علينا دنيانا أيام تحللنا فى ديننا وأخذنا من العلم بالنصيب الأوفى

تحت السلطان العباسى أو الأموى من قبله ثم أعقب ذلك فينا هذا الانهيار الذى لا نزال نعانى هوله إلى يومنا الحاضر وسيستمر بنا جارفاً إلى يوم القيامة مالم نتلاف الأسباب التى رزحنا بها تحت وطئه .

أما الشرقى وأعنى به العربى خاصة أو المسلم على عمومه فيحيا حياتين مادية وروحية بخلاف الغربى القاصر على الأولى، وفى كلتا حياتى المسلم يفتقر إلى الدين لأنه يضمن الحياتين لمعتنقيه معاً ، وربط إحداهما بالأخرى بحيث لا يستقيم حياً كاملا إلا بهما معاً كما لا يستقيم الإنسان كامل الحياة إلا بروحه وجسده فاذا انسلخا بعضاً عن بعض فقد الحياة وخرج عن كونه إنساناً ، هذا هو المفروض فى المسلم ، أما غيره فليس له من تراثه ناموس يشرع له الحياة مادة وروحاً كناموس الإسلام .

فاذا كان دستور المسلم ينص على أن دينه الرئيسى الإسلام كانت رسالة محمد سيد المسلمين أمانة فى عنقه وكان عليه أن يؤديها على أتم وجه فى قوله وعمله لأنه إمام الأمة وقدوة الشعب فعليه وحده تقع تبعة الإخلال بالنظام من سواد الأمة إذ هو حامى دستورها والداعى إلى الاعتصام به فاذا خان هذه الأمانة كان المسئول الأول ،وإذا غش فى أدائها كان المجرم الأول لأنه الأول فى شعبه والرأس من أمته .

فشرب السيد الخمر ولعبه الميسر وأكله السحت وتركه الصلاة أو الصوم أو الحج ، وتعمده الكذب أو الغش أو الخديعة ، ونبذه الصراحة والصدق والإخلاص فى القول والعمل ، كل أولئك جزئيات قد لا يضر بعضها فاعله وإنما هى فى مجموعها كيان هام يتألف منه كلى عام يصمد معه الحكم القائم عليه إلى أجل ثم يطيح به وبسلطان أمته آخر الدهر ، من أجل هذا كانت الخيانة فى الرئيس أعظم وكان الغش فيه أفظع ، لأن خيانة الفرد وغشه محدودان ولكن خيانة الرئيس أو الإمام أو القائد لا حد لها إلا فى حدود الأمة جمعاء.

الله

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » .

لقد كان أمين الريحانى الأديب العربى المعروف فى طليعة هؤلاء الذين يسفهون الناس ، وأعنى بالناس ما عناهم القرآن فى هذه الآية وهم المؤمنون ، فالناس والأناس والأناسى والإنسان والأناسين ، كلها ألفاظ تعبر عن الإنسانية أو تشير إليها ، ويأبى العقل أن ينسب غير الإيمان لمن يتصف بها ، ولذلك يحجبون صفة الإنسانية عمن عقها من أبنائها فيقولون للمجرم أو للجاهل ليس بانسان وإنما هو حيوان أو جماد .

فالأستاذ الريحانى كان كثير الاستهزاء والاستخفاف بهذا الصنف من الناس، وكان يدعو للعروبة والتحلل من الدين ، ففى الكثير من مؤلفاته كثير من هذا التحلل الذى يسميه احياناً تحرراً ويعزو إليه حرية الراى وحرية الفكر والتجدد وما اشبه ذلك من مصطلحات هذه الفئة التى بليت بها العروبة قبل أن يبلى بها الإسلام .

أذكر أنى قرأت له فى آخر كتبه عن العالم العربى وهو ما يختص بالمغرب الأقصى ، ولعلى لا أخطئ هذا الحدس ، قرأت له ما مضمونه : إنك لتصغى إلى البعض من أهل العلم وهو يتحدث إليك فتملأ أذنيك حكمته حتى إذا خلط حديثه بالدين سمعته يخبط ويهذى حتى تحسب السفه وقفاً على عقله » ويؤسفنى أن أقرأ هذا له بعد موته فلا يسمع ما أرده به كما سمع من قبل ردودى عليه فى انحرافه عن الإخلاص للتاريخ وهو يحرر كتبه الأولى « ملوك العرب » وكلماته فى بعض الصحف الأمريكية بلغة السكسون عن العادات الغريبة فى الشرق .

كنت إذ ذاك أرده فى صحف لبنان ليسمع وكان يسمع ويقرأ وأحياناً أجتمع إليه فيتعذر ويمعن فى الابراه عن نيته الحسنة ويعد بأنه سيبيض ما سوده

فى الطبعات التالية لكتبه ، ولكنه مع الأسف لم يبيض وبقيت كتبه سوداء فى كثير مما لفته إليه ، ومن شاء فليقرأ أعداد جريدة لسان الحال فى بيروت ومجلة العرفان فى صيداء لسنتى ٢٦ و ٣٢ على ما أذكر ، أقول كنت أردده ليسمع .أما اليوم فأردده ليسمع التاريخ :

ينسب السيد الريحانى من يعتنق الدين ويدافع عنه إلى السفه والهذيان ، وأن العلم شئ والدين شئ آخر ، فماذا يقول فى الحكيم ابن رشد الذى قطع حياته وهو يبنى فلسفته على الصلة الوثيقة بين الدين والفلسفة وهو الوحيد الذى سفه الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » إذ زعم هذا بعد الفلسفة عن الدين ثم ألف ابن رشد كتاباً يرد به الغزالى وأسماه تهافت « التهافت » .

وما قول السيد الريحانى فى الرئيس ابن سينا وهو يقول فى مقدمة أحد كتبه ولعله القانون وقد قرأتها بنفسى ، يقول فيها ما مضمونه : كنت إذا اعترضنى فيما أدرس مشكل علمى واستعصى علىّ حله ، أعتكف للصلاة والصوم فما أغادر المسجد إلا وقد ألهمنى ربى حل ما أشكل على » .

وما قول السيد الريحانى فى العلامة جابر بن حيان الرياضى المشهور ، والذى ينسب إلى اسمه علم الجبر والذى لا تزال كتبه إلى جانب مؤلفات ابن رشد والرازى وابن سينا تدرس فى جامعات الغرب ، ؟ ولقد سمعت من الدكتور يحيى الهاشمى الحلبى ، وهو يحمل شهادته العلمية من برلين ، قال لى ونحن على شاطئ بردى فى دمشق : إن علماء الألمان يحارون كثيراً فى أمر هذا الرجل « جابر » الذى لا يزال كثير من آرائه رموزاً لا يقدرون على حلها .

ثم يزيد فى حيرتهم أنهم لم يقفوا على أستاذ درس عليه غير جعفر بن محمد الصادق ، وهذا لم يأخذ العلم إلا عن آبائه وبطريق الوحى والإلهام ، إذ رأوا جابراً يقول عند كل قضية يدعمها ببرهان يقول : قال سيدى جعفر ... حتى تركتهم يعقدون المؤتمرات للبحث فى أن العلم الأولى مصدره الإلخام والإلهام الحق لا يصدر إلا عن الأديان » .

ما قول صاحبنا الريحانى فى اعتصام هذه الفئة بالدين منذ ألف عام ولا تزال محل الثقة عند علماء الغرب حتى اليوم ؟؟ أكانوا يهذون ويخلطون إذ يبحثون الدين؟؟

أو كانوا سفهاء فى حكمتهم وعلومهم التى لاتزال مناراً للعلم حتى اليوم ، أكانوا سفهاء فى تدينهم واستلهامهم ما أبدعوه من علوم وفنون عن طريق الأخذ بالدين والاعتصام بناموسه ؟؟

وهذا جبران خليل جبران الذى لم يصل إلى حد العبقرية إلا من وراء كتابه « النبى » الذى ترجم إلى أربعين لغة ، وقد قرأته فلم أجد فيه جملة إلا مقتبسة عن الأنجيل والتوراة والفرقان . كتب الأنبياء ومصادر الوحى والتنزيل ولذلك أسماه « بالنبى » كما صرح بذلك مراراً لا أنه ادعى النبوة كما يزعم الذين واروا جثته وكتبوا على قبره « النبى جبران » افتراء عليه .

ثم ما قول السيد الريحانى فى كتاب نهج البلاغة الذى كان هو نفسه يقدسه ، والذى كان صاحبه الإمام على موضع تقديس الريحانى عندما جاء على ذكره ، وما قوله فى العلوم التى انبثقت من جزيرة العرب بفضل محمد حتى أنارت العالم وكانت هذه البدائع وليدة انبثاقه ، والدين الذى يسخر منه كان الطابع الأول لمحمد وخلفائه من بعده ، أكان هؤلاء سفهاء فيما بنوا وجددوا ولا يزال من يتأثرهم يبنى ويجدد باسم محمد ودين محمد وعلوم وفنون محمد وأهل محمد ؟؟ أكان أولئك هاذين بدينهم مخلطين فى الدفاع عنه والدعوة إليه ؟؟؟

فلنعد إلى كلمة « الناس » هنا وروعة استعمالها فى لحن القول : ينقل التاريخ فى الأدب العربى : ان عائشة بنت طلحة زوجة الأمير المصعب بن الزبير كانت أجمل نساء عصرها وأكثرهن تديناً ، وكانت تحرص على أن لا يفوتها فرض صلاة فى المسجد حتى صلاة العشاء ، وكان المصعب يغار عليها فى مثل هذا الوقت فيمعن فى إقناعها أن لا تذهب وتأبى أن تجيبه إلى طلبه ، وقد كانت مطبوعة على العناد وقاسية فى معاشرة الزوج أبية على كل طاعة ، وذلك ما كان يعزز حبها فى نفسه .

فعمد ذات عشية إلى تأثرها خفية وهى تذهب للصلاة وكان الجو مظلماً ثم خالفها الطريق وكمن لها فى أحد المنعطفات ، فلما أجازته ولم تره غمزها بيده فى كفلها وعاد إلى كمينه فرجعت من حيث أتت ، فكان هو أسبق منها إلى المنزل عن طريق آخر وفى عشية اليوم التالى قعدت عن الذهاب إلى الصلاة فى المسجد فسألها السبب

فقالت : كنا نذهب إذ الناس ناس ... فليتأمل من أوتى حظاً من بيان العرب روعة هذا الجواب ثم ليغد إلى فرقان محمد وقوله فى صدر هذا البحث : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ... قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟؟

فالله ، تعالى الله ، يعتبر محمداً وأصحابه الذين عرفوا الحق فآمنوا به أناساً ، وأما المنافقون إذ ذاك فاعتبروهم سفهاء ، وهكذا لايزال حتى يومنا هذا منافقون يصمون المؤمنين بالسفه لأنهم آمنوا بمحمد وبدين محمد ... ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . فقد نفى عنهم العلم لأن العلم إذا صح فى الإنسان هداه وكان ثالث ثلاثة لايتصل بحقيقة الكون ووحدة الوجود غيرهم بشهادة الفرقان إذ يقول : شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم » فادراك وحدانيته إدراك سر الوجود وهو عين الإيمان بالحق فى الكون .

محمد ﷺ

وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ .. الحَقُّ مَعَ عَمَّارٍ مَا لَمْ تَغْلِبْ عليهِ دَلْهَةُ الْكِبَرِ ..

أما أن عماراً تقتله الفئة الباغية فقد صدق رسول الله فيه ، وأما أن تغلب عليه دلهة الكبر المعبر عنها بضعف الشيخوخة فقد كذب سعد بن أبى وقاص الأموى على رسول الله بنسبة ذلك إليه .

الحديث الأول مجمع على صحته فى كتب الحديث ولذلك أجمعوا على أن معاوية بغى على على ، وصدق رسول الله فى أنه قائد الفئة الباغية التى قتلت عماراً ، وأما الحديث الثانى فهو من وضع الأمويين ليحطوا من قيمة عمار ويدفعوا لعن التاريخ عن معاوية ، وليس ذلك بهين على من فقه التاريخ وعرف كيف يتلقى الحديث عن رسول الله ، وكيف يمحصه ويدفعه إلى محكمة العقل فى إثبات صحته أو فساده ؟؟

لقيت الأستاذ عباس محمود العقاد فى مصر الجديدة ومعى الشيخ فهمى هاشم ، وكان العقاد قد أصدر مؤلفاً عن معاوية بن أبى سفيان وأنصفه فى سلب العظمة عنه من نفوس الضعفاء ، لقيت الأستاذ العقاد فهنأته بكتابه الجديد وجرأته على الباطل فقال :

« لا أدرى لماذا أجد فى نفسى كرهاً متأصلا للأمويين وعلى رأسهم معاوية ، هؤلاء الذين أساؤا إلى تاريخ الإسلام ولو طال بملكهم الأجل لما وصل إلينا من جوهر الدين شئ »

هذه « الدلهة » قتلتنى قتل الله من قالها مفترياً على الله وعلى رسوله بها ، لم لم تغلب دلهة الكبر هذه على أبى بكر وقد تولى الخلافة وهو أكبر سناً من عمار ؟؟ ولم لم تغلب على عثمان وقد جعله عمر فى رجال الشورى وبايعه عبد الرحمن ابن عوف وهو أكبر سناً من عمار ؟؟ أفكان عمار وحده المعرض لغلبة دلهة الكبر عليه فيكون على غير حق بانحيازه إلى على بن أبى طالب نافراً من الطلقاء وناقما على الوزغ بن الوزغ مروان بن الحكم وأبيه ثم على الباغى معاوية بن أبى سفيان ؟؟

أكان عمار مع الحق طوال حياته حتى عمد إلى نصرة على على معاوية فغلبته دلهة الكبر فكان على غير حق ؟؟ مالكم أيها الناس ؟؟ وكيف تحكمون ؟؟

أيقول رسول الله لعمار : إنك مع الحق إلا أن تغلبك دلهة الكبر » وكيف تغلبه دلهة الكبر ؟؟ ومتى غلبته ؟؟ أحين خلع بيعة عثمان ؟؟ وهل بقى مسلم لم ينقم على عثمان حتى عبد الرحمن بن عوف الذى أسند إليه الخلافة يوم الشورى ؟؟ إذ هجر عثمان ولم يكلمه حتى مات ناقماً عليه ؟؟ وحتى على بن أبى طالب قعد عنه ناقما عليه استخذاءه لعشيرته يعيثون فى الأرض فساداً على مرأى منه ومسمع ؟؟ أكل هؤلاء لم تغلب عليهم دلهة الكبر وقد غلبت على المسكين عمار بن ياسر ؟؟؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

أم غلبت دلهة الكبر على عمار إذ كان فى صف على يوم حربه لمعاوية ؟؟ ولماذا اعتزل إذن ذو الكلاع جيش معاوية بقومه ليرى أية الفئتين تقتل عماراً إذ ثبت لديه حديث : يا عمار تقتلك الفئة الباغية ؟؟ أكان ذو الكلاع وهو سيد قومه حمير غافلا عن ذيل الحديث الذى رواه بن أبى وقاص : إلا أن تغلب عليه دلهة الكبر » ؟؟ ولم أجمع المحققون فى تاريخ الإسلام على أن عماراً كان على حق وأنه مات شهيداً لو صح لديهم حديث ابن أبى وقاص عن رسول الله ؟؟؟

من يضع هدنة بينى وبين معاوية يا قوم ؟ فقد أعلنت عليه حرباً لا هوادة فيها منذ فتحت عينى على التاريخ ، فما تورعت ولن أتورع أبداً عن إدانته بكل ما فدح الإسلام والعروبة من خطب وما دهمها عن عاصف ، ولست أعنى بالحرب هذه التى يتبادل فيها المتخاصمان ضروب القتال ، ولكنها حرب يتصارع تحتها حق أنتصر له وباطل لايزال يجهز عليه منذ ألف عام فى صدور أكل الجهل والحمق عليها أجيالا من العفن .

ولقد شفا نفسى أناس محصوا التاريخ قبلى فابتلوا بأناس حجب الله عن أعينهم أن تبصر نور الحق ، وعن آذانهم أن تسمع صوته وعن قلوبهم أن تفقه برهانه ، من هؤلاء الذين محصوه وهم على وعى الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « الإسلام المفترى عليه ، والأستاذ العقاد فى كتابه « معاوية بن أبى سفيان » والأستاذ سيد قطب فى كتابه « العدالة الاجتماعية » والشيخ محمد الطيب النجار

فى كتابه « الموالى فى العهد الأموى » لقد شفى هؤلاء نفسى بصراعهم طغيان معاوية فى صدور من لا يزالون يرزحون تحت وطئه من جيلنا الحاضر، ليرفعوا غشاء الجهل عن ناشئة الفكر الحر فى عصر لا يسود أهله غير العلم الصحيح والدين القيم .

ولقد أعربت لهؤلاء عما شفى جهادهم فى الله من نفسى فعلمت أن أناساً ناوؤهم فيما أبرهوا عنه من حق ، وأن هذا المناوئ يرى خيراً فى معاوية ونهجه ، وأن له على الإسلام فضلا لا يزال قائماً حتى اليوم ، فعمدت إلى استفهام هؤلاء بنفسى وهم من فقهاء مصر والعاملين على إحياء التراث الإسلامى .

أذكر أن كامل السوافيرى الأديب الفلسطينى كان مرافقى إلى أحد هؤلاء وكان إلى جنبه عندما سألته عما دار بينه وبين السيد قطب من مناظرة فى مجلة الرسالة ، فانتفض ثم انهال على القطب بالسباب والشتائم ،ولكنى صدمته دون أن أحرج وأنا فى بيته إذ قلت : لم نجئك لنسمع الشتيمة ولكن السيد السوافيرى نقل لى أنك رددت السيد قطب فى طعنه على معاوية وابنه يزيد ، فأحببت أن أعى ما رددته به ، ويا لله منه إذ حملق وزمجر ثم قال : ومن هو السوافيرى :؟؟ انه لا يستحق أن يكون مسماراً فى نعل يزيد » فقال السوافيرى : وانا مالى ؟؟ » أما أنا فلم أملك نفسى من الضحك .

ثم التفت صاحب المنزل إلى وقال : وأنت ما قولك فى صحابة رسول الله يا أستاذ ؟؟ أليس من الصواب أن نرضى عن محسنهم ونستغفر لمسيئهم ؟؟ فقلت : دون أن أحابى ، أما أمثال على وأبى بكر وعمر وسلمان وأبى ذر وعمار فنعم ، وأما أمثال معاوية ومروان وابن العاص فما أطيق أن أسمع بهم إلا عن طريق الشتم واللعن والتجريح . فانكفأ على السوافيرى ويكاد ينفجر من الضحك ثم قال : ان صراحة الحومانى محببة إلى النفس ، وليس لى أن أقول شيئاً وهو عندى وأنا أحبه ، ثم انتهى بنا الحديث إلى موعد نجتمع فيه بأخيه لأرى عقله ومكانته فى حجر التاريخ .

ويلتقينا الشيخ صباح يوم الجمعة ونشرب القهوة وعصير الليمون ، ووجهه لا ينضب من البشاشة والترحيب ، ثم نتبسط فى الحديث القديم إلى ذكر السلف

فيمعن فى الرضى عنهم والاستغفار لهم وأن المتأخرين لم ينصفوهم ، وأن فى الجيل الناشئ من يجرؤ على النحت من اثلتهم بينما لم يصلوا إلى أدناهم منزلة » فقلت : صدقت ، وإذا به من وراء مجاملتى له يترحم على يزيد ، فأعجلته عن القول وقمت أودع خشية من أن أسمع بأذنى رضاه عن إبليس .

وبعد ذلك أصبحا لى صديقين ، أدناهما إلى قلبى أصغرهما سناً بما فطر عليه من صراحة وعصبية فى الرأى القائم على اعتصامه بالدين وأن المسلمين اليوم لا يعلق بهم من الإسلام إلا أنهم يشخصون إلى مصدره بالذكرى وليس فى صدورهم ما يعتز به الإسلام من قول ولا عمل ، ففى نظره كل مسلم كاذب فى إسلامه والإسلام برئ منه ، وأن الإصلاح فى المسلمين يكاد يكون مستحيلا .

ولنعد إلى دلهة الكبر هذه المعبر عنها بالشيخوخة الغافلة ، هذه المخلوقة للأمويين والمفترى بها على الله ورسوله ، هذه الدلهة لم نجد رسول الله قد خص بها إلا عماراً المكنى ، لشدة يقظته ، بأبى اليقظان ، دلهة الكبر هذه قد نالت عماراً إذ خلع بيعة عثمان ولكنها لم تنل عثمان وهو يحمل آل أبى معيط على رقاب المسلمين ويملأ حجورهم وأحجارهم من مال الأمة حتى كان منهم مروان ومعاوية ويزيد ملوكاً وخلفاء لله ولرسوله فى العالم ، هكذا أصبحنا فى عهود الفكر الحر نتحرج عن أن نغمز الكتب « الصحاح » التى لاتغمز من الصحابة عليهم رضوان الله إلا من أنكر على الأمويين بغيهم وأقام النكير عليهم أمثال أبى ذر وعمار وعلى ابن أبى طالب ، وهكذا يجب أن نطأطئ رؤسنا لمن يروى عن رسول الله ويجعل معاوية بن أبى سفيان أحد أسناده ، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

علي

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا على مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ وَجُوعُهَا طَوِيلٌ

فى القرآن أكثر من آية يشير إلى قلة الصفوة من بنى آدم ، وهم الهداة القادة إلى الحق ، فيقول عز من قائل : وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ، ويقول : وما آمن معه إلا قليل ، وقوله : وقليل ما هم ، وهكذا . يغزز الإمام قول الله بنسبة القلة للسالكين سبل النجاة بقوله : لقلة أهله ...

ولنتساءل الآن عن السر فى قلة المهدى وكثرة الضال ، وفى ندرة المؤمن وطغيان الكافر ؟؟ أهو قلة الهادى وكثرة الضال فى الخارج أم ضعف العقل وقوة العاطفة فى الداخل ؟؟ أرى أن سهولة الظفر بما يرضى العاطفة وصعوبة الوصول إلى ما يدعو العقل هما السبب الأول فى اندفاع الإنسان إلى الكفر وإحجامه عن الإيمان ، فالفضيلة محفوفة بقيود يشق على العقل كثيراً تخطيها ليعصم الإنسان بها من مزالق الحياة ، وأما الرذيلة فطريقها سهل إذا تحلل المرء من الدين وأمن سطوة القانون ، فكيف إذا نبذ الدين وظفر بالسلطان ؟؟

هذه هى النقطة التى وقف عندها الإمام بين يدى سلطانه وهو يقول لمن يتهمه بضعف السياسة : والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيمة » ويقول فى موطن آخر : قد يدرك الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله ثم ينتهز فرصتها من لا حريجة له فى الدين » ويقول أيضاً : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب »

عند هذه النقطة أى نقطة التحرج من الدين ليتغلب على معاوية بالغدر والنفاق وهدر المال المحجور من ورائهما فى سبيل الغلبة والسلطان » أقو ل : عند هذه النقطة وقف الإمام : أيعمل بالقاعدة القائلة : الغاية تبرر الواسطة ؛

وقد كان يفعلها محمد صلوات الله عليه فى سبيل التأليف أيام تشريعه، أم يعتصم بناموس محمد بعد أن ختمه بقوله : اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فلا يرى بعد ذلك مساغاً للتصرف بالدين تصرف المشرع الأول والمستهتر الأخير ؟؟

وآثر أخيراً أن يخسر هذا السلطان وهو يتأثر محمداً وأصحابه على أن يظفر به وهو ينافس معاوية فى احرازه عن طريق التحرج والتحلل ، لهذا قال : ان الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل » فما أروع هذا التشبيه وما أبينه للغافل الذى يفوته معرفة أن السلطان الجائر كالمائدة التى تشبع آكلها إلى أجل ثم يعقبها جوع بغير أجل ، فكم تمتع معاوية وأصحابه بالشبع من تلك المائدة ؟؟ إنها أعوام قصيرة ثم انقلبوا إلى حيث يحصدون ما زرعوه من غدر وخيانة وكفر ، فى عالم لو أخلفوا فيه ما أخلفه محمد وأصحابه البررة لما بقى غير مسلم فى العالم .

وإذا أمعن القارئ فى نهج الإمام يجد أن نقمته على الغدر فى سياسة الناس والخيانة فى الساسة منهم ، يجد أنها العامل الأول فى تشاؤمه بالحياة وخوفه على الدين ، لاعتقاده أن السياسة هى العنصر الهام فى تقويم الأمم وطبعها بالطابع الذى تخلد أو تفنى معه ، فالسائس أو القائد أو الرئيس أو الخليفة أو الملك أو الحاكم ، خذ ما شئت من هذه الألقاب تجدها المثل الأعلى للناس يتأثرونه ويقتدون به وينسجون على منواله ، ولهذا قيل : الناس على دين ملوكهم ، لما قر فى الأذهان من أن ملك الناس هو أسمى الناس شخصاً فينبغى أن يكون فيما تخلق به أسمى الناس اخلاقاً ، فاذا كان هذا الملك أو هذا السائس مثلا أدنى فيما يسوس ويملك والناس وراءه ، فماذا تكون عقبى المسوس له والمملوك به فى الأمة ؟؟

إذن : فالإمام يرى : أن قلة السالك فى طريق الهدى يرجع إلى قلة الإيمان وقلة الإيمان أو كثرته إنما يتأتى عن الجور فى السلطان أو العدالة فيه لأن السلطان هو بابٌ الأمة إلى حق أو إلى باطل ، والمسيطر على الأمة ما لم يكن أفضل الأمة فلا يصلح أن يكون مثلا أعلى لها ، وإذا لم يكن كذلك طبع الأمة بطابعه

فكانت مثالا عنه ، لأن الرئيس فى الشعب بمنزلة الرأس من الجسد ، وظيفته القيادة ووظيفة الجوارح الخضوع له والائتمام به ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد وإذا فسد فسد .

فلنستعرض ، على ضوء ما يشرعه الإمام ، ساستنا اليوم وقادة الفكر فينا ، وولاة الأمر منا ، هل يتسع لهم طريق يفضى بهم إلى نجاة ؟؟ ولنعمد أولا إلى البحث عن علل الفساد فى الحكومات كيف تدمرها وكيف تدمر شعوبها آخر الأمر ؟؟ ان ما اتفق عليه حكماء كل عصر منذ فجر التاريخ الذى تتقوم به العصور ، هو أن للإنسان غرائز كانت معه فى أزليته ، وأخلاقاً هبطت عليه باستلهام أو بوحى من ربه ، هذه الغرائز وتلك الأخلاق تتقوم بها إنسانيته ، فالغرائز تدفعه إلى الحياة ، والأخلاق تهذبه فى اندفاعه معها كيلا تغلب حيوانيته إنسانيته ، فهو يندفع بطبعه نحو المرأة مثلا فيمسكه العقل الذى هو وليد الشرع أو القانون عن أن يجنى أو يجنى عليه .

فالعقل الملهم لم يشرع ضرورة الصدق مثلا للإنسان إلا لأنه عنصر هام فى تقويم حياته الإنسانية ، وهكذا نجد أن الأمانة والوفاء والرحمة والعفاف والمحبة والإباء والتضحية وأمثال هذه ، إنما هى نواميس شرعها العقل الحكيم لبقاء الإنسان وحجر عليه اضدادها كالخيانة والغدر والقسوة والفسق والأنانية والخسة وأمثالها حذراً من تلاشيه ، وقد جرب الإنسان فى كل عصر أن يغير أو يبدل من حلقات هذه السلسلة التى تواضع الحكماء على أنها ضرورية لبقاء الإنسان فلم يستطع ولعله جرب فى سائر عصوره الإخلال بهذا النظام فكان سببا فى دماره .

والآن نجد فى عصرنا الحديث بعض الشعوب يتجاوز هذا النظام فى بعض بنوده فيتحلل من العفاف الذى نسميه الزواج أو الإمساك عن الزنا ، فيقع فى مشاكل تنحل معها إنسانيته وتنهار بها قوميته كما أصاب إيطاليا وفرنسا فى فى عصورهما المتأخرة واسمع ما قاله رئيس جامعة « إنآبر » فى ولايات مشغن من أعمال أمريكا الشمالية ، قال فى حفل كنت من شهوده سنة «١٩٣١» عندما شرعت هذه المملكة تحريم السكر والبغاء ، قال يعلل ذلك : إن تحرر الفتى والفتاة

عندنا من العفاف حال دون التزاوج وأصبحت المرأة أحرص ما تكون على جمالها من الحمل والولادة وخشيت الحكومة أن تنقرض الأمة بعد جيل أو جيلين لذلك شرعت تحريم البغاء ، ورأت أن الجرائم التى تنشأ عن السكر تفوق الجرائم التى تحدث عن أى شذوذ آخر فى الأخلاق فشرعت تحريم الخمر » .

ولكن أمريكا الشمالية هذه رجعت بعد عامين عن هذا التحريم لأنها لم تجده فعالا ما لم يتضامن العالم معها على تحريمه وعلى تحريم الخيانة والكذب اللذين كانا سبب إخفاق هذا القانون فى الشعب الأمريكى إذ شرع فى تهريب الخمور باسم الأشربة المختلفة الألوان ، وفى اقتراف الزنا باسم الحرية فى الصداقة بين الرجل والمرأة وهما أجنبيان .

أما الكذب والخيانة فيكفى للتدليل بهما على هتك الإسلام وتضليل المسلمين ما كان من معاوية وابن العاص الأمويين على عهد على بن أبى طالب من حمل قميص عثمان ورفع المصاحف على رؤس الرماح يوم صفين إذ غطى معاوية على شهوته للسلطان بنشر قميص عثمان على منبر الخطابة فى الشام وهو مضرج بالدم يدعو الناس لأخذ الثأر من على وهو برئ من قتله ، وإذ غطى على جبنه فى صفين برفع المصاحف على الأسنة يدعو جيش على لتحكيم القرآن عندما شعر بالهزيمة ، فكان من ذلك تضليل المسلمين والقضاء على الحق فى ذلك الحين ولم يزل هذا التضليل وهذا القضاء على الحق قائماً فى المسلمين إلى يومنا هذا ، لأنه أصبح سنة فى السياسة أن يكذب السائس ويخدع ويضلل ، والناس على دين ملوكهم .

وكان من نتائج ذلك أن بدأ الإسلام ينحدر بأهله منذ أغمض على عينيه حتى تلاشى ملك الأمويين بعد قرن فى الشرق ثم ذر قرنه فى الغرب فسار على نهجه الزائف وانهار بعد قرن والقرن أو القرنان بل القرون قليلة جداً فى أعمار الأمم ، وهكذا تلقف العباسيون من الأمويين هذا السلطان وساروا فيه بسيرتهم فانهاروا آخر الأمر ووليهم مثلهم وولى هذا المثل أمثال من فاطميين وأيوبيين وعثمانيين فلم يحيدوا عن سيرة معاوية فكانت بعدهم هذه العقبى المؤلمة للأحفاد اليوم ، وحسبنا تدليلا على ذلك ما قاله الزعيم الألمانى بسمارك : ان على كل

مسيحي أن يقيم تمثالا لمعاوية فى داره يبقى نصب عينيه إذ لولاه لما بقى غير مسلم فى العالم .

هذه نتائج الكذب والخيانة فى السياسة بالأمس وأما نتائجها فى سياسة اليوم فلا نضرب مثلا عاماً ونحكم إجمالا على أن هذه المجازر البشرية منذ قرن لم تكن إلا وليدة السياسة الخرقاء القائمة على الكذب والغش والأنانية ، وإنما نضرب للقارئ مثلا محسوساً هو أقرب إلى إدراكه من العموميات ذلك هو : أن بريطانيا التى كانت منذ مائتى عام ولم تزل حتى الأمس القريب أدهى الأمم ، تدعى لنفسها لقب « بريطانيا العظمى » وقد قامت سياستها منذ سادت العالم على هذه الخلال التى سنها لنا معاوية ووزيره عمرو بن العاص ، وخذ واحدة من هذه :

عندما أقنعوا الحسين بن على أمير مكة أيام الحرب العالمية الأولى فى آن يسهم معهم بدحر الأتراك كان إقناعه قائماً على وعدهم الشفهى والكتابى فى أن يساعدوه على تحرير الجزيرة العربية وتنصيبه ملكاً عليها من اليمن جنوباً إلى حدود الأتراك شمالا بدون استثناء أى جزء منها ، وفى نفس الوقت كانوا يسجلون على أنفسهم وعداً لليهود باعطائهم فلسطين وطناً قومياً لهم فى قلب المملكة العربية ، فلما انتهت الحرب تكشفت عن هذه الخديعة فكانت سبباً لمشاكل عربية طوال خمسين عاماً وأصبحت الآن مشاكل عالمية ربما يزول بزوالها العالم كله ، والأحداث التى هى بين سمعنا وبصرنا تشير بصراحة وإقناع إلى ذلك كله ، تلك هى عاقبة الخيانة والكذب والخديعة والتضليل فى السياسة ، ولم تكن لتفعل فعلها فى العالم لو كانت فى الأفراد ثم لا تتجاوزهم إلى الحكومات كما قدمنا .

امش معى فى الساسة العرب لأدلك على أخلاقهم اليوم : قال لى صديق يسكن جنوب لبنان : أترى هذا الذى أصبح اليوم رئيساً لمجلس الوزراء فى مملكة « كذا » من أقطار العرب ؟؟ قلت بلى وأعرفه يعمل للأجنبى وهو من أجراء السكسون ، قال : إنه يحمل صفة أخس من الخيانة الكبرى ، فقلت هات ... فقال : لقد كان رفيقى أيام دراستنا فى « مرج العيون » وكان مأبوناً يأتيه أكثر الطلاب حتى ضج منهم وجاءنى يقول : أنا لك ... واحمنى من هؤلاء الذين يطاردوننى ليل نهار حتى أقضوا مضجعى ، فأنت أولى بى منهم »

ويقول لى الصديق الأستاذ العلايلى : لقد ذهبنا إلى فلان .. أبى النبع ، ورجوناه قبول الدخول فى مجلس التمثيل إذ دعى إليه فأبى ، ونحن نعلم إفادة الشعب منه إذ يحكم ، فأجابنا بقوله : لقد زرت باريس سنة كذا ونزلت فى فندق كان صديق لى ينزله وهو طالب حقوق ومرموق من زملائه، وتعلق عليه أسرته أملا كبيراً بعد عوده ، ففقدت من غدى حذاء كنت وضعته عند النوم خارج الغرفة لينظفه ماسح الأحذية ، فسألت عن الحذاء خدم الفندق وجبرتى فلم أعثر له على خبر ، وجئت هذا الزميل فشكوت إليه سرقة الحذاء فقال : لا تضع حذاءك خارج الغرفة لأن الفرنسيين لصوص .

وبعد أسبوع نسيت وصيته فوضعت حذائى الثانى خلف الباب ابتغاء تنظيفه ففقدته وهرعت إلى الزميل فلامنى وقال : لقد نصحتك فلم تسمع ، وجمعنا الخدم واتصل الخبر بمدير الفندق فأجرى تحرياً دقيقاً بين القائمين على الخدمة والنظام فلم نعثر له على أثر ، وامتنعت إذ ذاك من وضع الحذاء خارج الغرفة حتى انتهت زيارتى ، وفى صباح اليوم الذى أغادر فيه باريس كنت خارجاً من من الحمام ومربى طريقى على غرفة الصديق فأجلسنى لنشرب القهوة ، ويشاء الله أن تسبق عينى إلى الحذائين فى غيابة السرير ، فأصبت برعدة مما أرى وودعت فرنسا وأنا ناقم على الحياة التى تؤهل مثل هذا لأن يصبح سيداً فى قومه من بعد »

ويقول لى هذا الصديق : وبعد أنهى الأمير حديثه حدق إلينا ثم قال : أتريدون منى أن أدخل حكومة يرأس مجلسها التشريعى سارق أحذية ؟؟ ان هذا لكثير على بلد يدعى أنه بلد اشعاع ويرأس أكبر مجلس فى حكمه لص . . . » .

وأعرف رئيساً يكاد يكون الأول فى حكم قطر عربى آخر ، وله ولد ، ولعله كبير أنجاله ، قد عبث بمال الأمة حتى اقتنى طائرة خاصة تحمل خليلته إلى مصيفها فى لبنان ، وكان قد زارنى وأنا فى بيروت زعيم وطنى من ذلك القطر وقد أسهم فى تحريره إذ كان من رجال الثورة على المستعمر فيه ، فقلت له : هل زارك وزير بلادك المفوض فأجاب سلباً ، فعمدت إلى التلفون وهتفت بالوزير فأجابنى أحد موظفيه بأنه صعد إلى بعض المصايف لنزور الآنسة «فلانة» وسألت بعد ذلك نفس الوزير عن هذه الآنسة التى يهتم لها بالزيارة بينما يفرط

فى زيارة المجاهدين فقال لى : انها خليلة نجل الرئيس وأرجوك أن تستر على »
ولقد سترت عليه .

ويقيم أحد الوزراء المفوضين لبعض الحكومات العربية ، حفلة ميلاد لمليكه الهاشمى فى بيروت وتصعد تكاليف الخمور فيها إلى خمسمائة دينار . ما هذا ؟؟ وكيف يقام حفل لميلاد ملك مسلم ينفق فيه على الخمور هذا المال الذى يعوز كثيراً من حياة الأمة العربية بلد الإسلام ؟؟ وأسأله فيجيب : هكذا يسير العرف هذا العصر » إذن المسألة مسألة عرف ولو عارض الدستور الإسلامى الذى يملك الملك ويرأس الرئيس ويحكم الحاكم باسمه .

وينقل لى وأنا فى نويرك ، صديق صادق : أن بعض الوزراء العرب أقام حفلا للتعارف هناك ، وطلب من الفندق الذى أقيم فيه الحفل أن يشتمل السماط على شئ لم يسبق أن اشتمل عليه فى حفل قبله ، وإذا بالجمهور المدعو للحفل يفرغ إلى مأدبة تحف بفسقية تصب من أنابيبها الخمر فى بركة صفت على ضفافها الكؤس لمن شاء الزلفى إلى الله بأن يشرب أو يسقى على شرف نبيه محمد ... »

هذا بعض من كل أردت أن أدلل فيه على أن قادة الأمة هم مرجع الأمة فى صعودها وانحدارها وأعمالهم هذه هى التى حالت دون تقدم الإسلام ورقى أهله ، وبالتالى أخلت هذه الأعمال طريق الرشاد من أهله فكانوا قلة ، وسيبقون قلة إلى يوم القيمة ما دامت سياستنا هذه يتأثر بها الساسة معاوية ويضربه وخلفاءه من بعده أمثالا يسير على نهجها والناس يسيرون خلفه .

الله إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

يروى الأعلام فى السير عن رسول الله صلوات الله عليه أنه سئل : هل يسرق المؤمن يا رسول الله ؟؟ فقال : قد يسرق المؤمن ، فقيل : وهل يزنى المؤمن ؟؟ قال : قد يزنى المؤمن ، قيل : وهل يسكر المؤمن يا رسول الله ؟؟ قال : قد يسكر المؤمن ، قيل : وهل يكذب المؤمن قال : لا .. لقوله تعالى: إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بالله . » يضعف هذا الحديث أنه ظاهر عليه الوضع من حيث الترتيب فى أسلوبه ، ومن حيث أن الكذب أسهل على المؤمن من الزنا والسكر والسرقة ، وجرأة المؤمن على السهل من الاثم أقرب إلى الإمكان من جرأته على الصعب ، على أن « قد » هاهنا تفعل فعلها فى التقليل لنفى العصمة عن المؤمن ، ولعل التشريع هو الدافع لترتيب هذا الحديث بجعل الكذب الذى نراه سهلا فى مصاف الكبائر التى لا يأتيها أولو الايمان لما يأتى :

أولا : ان الكذب على الله وعلى رسوله فى التشريع يسئ إلى العالم أجمع ، ولهذا أجمع الأئمة على أن الرسل معصومون فى تبليغ رسالتهم عن الكذب .

ثانياً : ان الكذب من خاصة الناس ، وهم قدوة ، فى منزلة الكذب على الله ورسوله لأنه يسئ إلى الناس كافة إذ ترى الأمة مثلها الأعلى فيمن يقودها ويسيطر عليها حتى تطرف بعض الفقهاء فى وجوب طاعة الرعية للراعى ولو كان فاجراً .

ثالثاً : الكذب فى حقيقته ، سواء صدر من الخاصة أو العامة ، يسئ إلى الروابط الإنسانية القائمة على الصدق لأن التفاهم عنصر أول فى تقويم الحياة فاذا ساده الكذب فسدت الحياة .

إذن ، فالزنا والسكر والسرقة ونحوها من الجرائم الكبرى تأتى بعد الكذب فى الإساءة إلى الإنسان من حيث هو إنسان ، فكثيراً ما يزنى الإنسان أو يسكر أو يسرق فلا يضر إلا نفسه ، وقد يتعدى نفسه إلى قليل من الناس ، ولكنه

إذا كذب وكان مشرعاً أفسد الدين ، وإذا كذب وكان راعياً أفسد الرعية ، وإذا كذب وكان سياسياً خرق القانون ، ثم إذا كذب وكان من سواد الناس ضلل كثيراً من الناس ، وليس كذلك غيره من الكبائر ، وفى يقينى أن الخيانة والغش والغدر والرياء والتدجيل والتضليل ، كل أولئك من قبيل الكذب لأنه داخل فى حيز التمويه وستر الحق وهو عين الكذب .

وفى يقينى أيضاً أن بلاء العالم ، منذ ساده البلاء ناشئ عن الكذب ، وأن هذا القلق فى عالمنا المضطرب وما سبقه من عوالم ، أكثره إن لم يكن كله قائم على الكذب فى الساسة من خلف وعود ، ونقض عهود ، ومن تضليل وتدجيل فى أساليب الدعاية القائمة على أنانية الفرد أو المجتمع وعن جشعه وعصبيته لقبيله أو عنصره ، وفى كل هذا خرق لنظام الإنسانية وهتك لناموس الحق المهيمن على العالم .

فالكذب الذى هو أدهى ما يأتيه الإنسان بين يدى شهواته ، هو أكثر الجرائم تفشياً فى عصرنا الحاضر ، هذا العصر الذى ملأ العالم نوراً بحضارته الحافلة بالعلوم والآداب والفنون ، أصبح الكذب فيه من الفنون ولعل الفنون والآداب فيه حالت أكاذيب وأضاليل ، من أجل ذلك سادت فيه الجرائم وملك القلق والاضطراب عليه أن يطمئن بعلومه وفنونه وآدابه إلى لون ثابت من ألوان الحياة ، هذا العصر الذى شبك العالم وحبكه حتى كاد يصبح أمة واحدة فى جيل واحد ، نراه أبعد عن السلام والاستقرار من عصور الظلام أيام كان الإنسان وحشاً يفترس أخاه الإنسان .

فاذا كان الكذب أفظع إجراماً عند الله من الفجور والفحش والسكر والبغاء فياويلنا نحن أبناء هذا العصر من عقبى حياة نصير إليها ونحن كذابون فى كل ما نقول ونفعل ، وكل منا أفحش فى كذبه من سكير وزناء ، انا هذا الذى يرانى جل من عرفنى مسلماً وأنا أكتب أو أخطب ، لا يمر بى يوم إلا وأستهدفه تحت سمائه للكذب ، على عمومه ، فى بيتى وبيوت الناس ، على المنبر وامام المذياع ، قائلا أو كاتباً ، ولعلى كاذب فى طعامى وشرابى وفى لباسى وسكنى .

أجلس إلى المائدة فى المطعم وكل هواى فى أن آكل حراً بيدى ، ولكنى

مكره على أكلى بالشوك والسكين إشعاراً لمن يرانى بأنى متمدين وأنا أبعد الناس بطبعى عن هذه المدنية الزائفة ، وأغادر فراشى لمقر عملى فأعمد إلى الياقة أشد بها خناقى وإلى الحذاء الملعون أضغط به صدرى لا رجلى، وكل هواى فى أن أطلق عنقى وصدرى للهواء الطلق تحت سماء مصر اللاهبة وأن أنفس عن رجلى بصندل فوق رمضائها الكظة وعلى ضفاف نيلها الراكد وبين حدائقها الخاشعة لقيظها المعتوه .

ولقد أثثت منزلى فى مصر بأثاث بعضه قديم وبعضه جديد ، والويل لى كل الويل من أهل بيتى عندما يسألنى سائل زائر عن القديم ان صدقته بأنه قديم ، وشريت سيارة بألف جنيه على أقساط تستهلك عاماً واحداً ، ويا ويلى من بناتى ان قلت للسائل إنه بالتقسيط ، واستحضرت معى من العراق أغطية فاخرة للسرر ثمن الواحد ثلاثة دنانير وهو عينه فى مصر يساوى ثمانية ، فقامت على قيامة أهلى إذ صدقت فى جوابى للسائل عن ثمنه ، ويالها ليلة لم أنم من السخط ولم يناموا .

وهكذا كلما طرق الباب علينا زائر وفى محب ولكنه غير مرغوب فيه لأهلى ردوه مدعين أنى غائب ، وأنا حاضر أسمع قول السائل والمجيب ، فاذا لقيته يوماً ما وأنبأنى بزيارته كنت ملزماً بأن أكذب لأدفع الغيبة عن أهلى ، وهكذا كدت أنكر حقيقتى فى الناس وكدت أجهلها بين أهلى وأنا ممعن فى الكذب ، وكدت أنسى أن لغتى خليط من الحقيقة والمجاز لا أنها مجاز فقط ، فياويلى ويا ويل الناس جميعاً وهم على شاكلتى ، من خلة الكذب التى غطت على كل صفة نتجمل بها ونحسب أنها زينة فاذا بنا فيها أحقر عند الله من الفجار مقترفى الكبائر .

محمد «إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امرأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ» .. قالها لرجل أَخَذَتْهُ الرِّعْدَةُ إِذْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ.

يقول لى السيد عبد الهادى الصالح ، وهو من خيرة شباب العراق ثقافة وإخلاصاً ، يقول ، ونحن نستعرض العصبية الجاهلية فى الأسر حتى يومنا هذا ، قال : عندما استوزر الملك فيصل الأول توفيق السويدى وهو فى غضون شبابه ، ذهبنا وفداً من الشبان لتهنئته بالوزارة على اعتبار أنه أول شاب وزير ، ولما أدى قائلنا هذه الرسالة أجاب الوزير علها بقوله : لا تهنئونى بأنى أول شاب أستوزر ، ولكن هنئونى باسناد الوزارة لأبناء الأسر العريقة فى المجد ... »

لقد كنت صممت قبل أن أسمع هذا على إغفال كتاب وضعته للعظاميين من كل عاض بهن أبيه وأسميته « عنفص » لكثرة من مر بى منهم وآلمنى بتبجحه واعتماده على عظام آبائه وأجداده فى كل ما يفخر به ويسأل الناس إكباره من أجله ، أقول : كنت صممت قبل أن أسمع السيد عبد الهادى على إغفال هذا الكتاب لما سيحدثه من عداء بينى وبين كثير من أصدقائى وجلهم من هذا القبيل ولكنى لم احتمل عنفصة الأستاذ السويدى هذه وعدت فصممت على إخراج كتابى « عنفص » هذا للناس .

أذكر من شخصيات كتابى هذا رجلا من بلدة شقراء فى جبل عامل ومن أسرة نبيلة أنجبت كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وهى أسرة قشاقش وكنت فى مطلع شبابى معلماً لمدرسة هذه القرية ، وكان لى حظوة عند شيوخ هذه الأسرة وشبابها ، وكنت أعانى من عظاميتهم هذه ، وكان أكثرهم تبجحاً بعظاميته هذا الذى أنقل عنه حديثى الآن واسمه السيد محمد جواد وكنت كثيراً ما أصارح أستاذى السيد حسن المحمود وهو من جلتهم ، كنت أصارحه بمضايقتى من هذه العصبية المقيتة فيقول : هؤلاء شباب وللشباب شذوذه فلم أقنع بذلك .

كان العلامة السيد عبد المحسن الأمين رأس هذه الأسرة ولم يكن على شئ من هذه الخلة وإنما كان متواضعاً لايفرق بين إنسان وإنسان إلا بفضل ، وكان

قد اتخذ موطنه فى الشام فخطب أحد الشبان من آل مروه احدى نجائبه فلبى السيد إذ رآه أهلا وعلم أن بينه وبين ابنته حباً نشأ عن صلات رحم من حيث الأمهات ، وكان العلامة يصطاف كل سنة فى بلدته شقراء ، فلما وردها تلك السنة قامت قيامة شباب الأسرة عليه إذ زوج ابنته العريقة فى نسبها من شاب لا يزيد على أنه واحد من الناس .

وكانت ابنته المخطوبة تصطاف معه فألبوها على خطيبها نساء ورجالا حتى فسخت خطبتها منه وعلم الشاب الخطيب فسقط فى يده وألزمته الحمى فراش المرض العضال ، ويزور رأس أسرة الخاطب المرحوم الشيخ على مروة ، وكان من العلماء الأفذاذ ، يزور شقراء ليصلح بين الخطيبين حرصاً على حياة المريض فيجتمع بشباب الأسرة وكهولها فى دار المسجد ، ثم يدلى بالمهمة التى من أجلها زارهم ثم يمعن فى سرد الآيات الكريمة والأحاديث المأثورة فى أن المؤمن كفؤ المؤمن وأن جدهم صلوات الله عليه يقول : إذا جاءكم من ترضون دينه فخذوا منه وأعطوه » سيما وأن بين الخطيبين رحما وأن الخاطب على فراش الموت ، فلم يجبه منهم إلا هذا الشاب بقوله : لانعطيه يا شيخ لأنا سادة الناس والناس عبيد لنا وليس بين السيد والعبد كفاءة ... » وانتهت هذه العصبية بفسخ الخطبة ومن ورائها موت الخاطب .. ويشاء الله أن تبقى هذه الفتاة عانساً إلى سن الأربعين ثم تزوجت من رجل ليس له نسب هؤلاء الأفذاذ ولا نسب الخاطب الأول ..

سقت هذه الكلمة بين يدى قوله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذا البحث لأدلل على أن العظامية ليست من الدين ولعلها مما ينكره الدين الحنيف الذى ضرب لنا مثلا فى إنكار الذات فضلا عن النسب عند قوله عز من قائل : يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، وقوله : ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، وعند قول رسوله هذا ؛ إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد ، فالتقوى والعمل الصالح هو ميزان الإنسان لا أبوه مهما علا ولا ابنه مهما نزل .

من هنا كان الشك غالباً على اليقين فى صحة ما ينسب إليه صلوات الله عليه من حديث : أنا خير من خير من خير . . . .

لما يشعر من تبجح بالنسب بينما هو ينهى عنه وقد أثبت القرآن أن ابراهيم كان

أبوه وثنياً فلم يقدح ذلك فى نبوته، وهكذا نجد قوله عليه السلام : كلكم من آدم وآدم من تراب، ومن جعل مقياس الإنسان فى سموه وانحداره راجعاً إلى عمله لايفخر بنسبه ليكون القدوة الصالحة لمن لانسب له والله تعالى يقول : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، فحسبنا أن نثق بعصمة الرسول لا أن نضفى هذه العصمة على آبائه إلى آدم ولا على أبنائه إلى أغاخان .

فمحمد صلوات الله عليه لم يكن أفضل الخلق لأنه من هاشم فان منها أبا لهب وهو عمه ، بل كان أفضل لأنه رسول ، ولم يكن أفضل الأنبياء لأنه ذو رسالة ، فان الأنبياء قبله كانوا ذوى رسالات ربانية كرسالته، ولكنه كان أفضلهم من أجل أن رسالته أعم وأمته أوسع انتشاراً وأنضج إنسانية ممن سبقه أنبياء ورسلا ، وكلما اتسعت دائرة العمل آذنت بسعة فضل العامل ، وليست قريش أفضل وفيها بنوأمية الذين أبرهوا على أنهم أخس العرب فى إهمالهم رسالة العرب التى هى الإسلام.

وهكذا نستطيع أن نقول : إن الدين لم ينبئنا بأن العرب أفضل الأمم لأن منهم محمداً ، فان غيرهم من الأمم بعث الله منها الأنبياء والرسل فلم يكن ذلك باعثاً على أنهم أفضل الأمم ، وهكذا نستطيع أن نثبت شرعاً وعقلا أن الفضيلة لاتدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ، ولكنها ، كما ينص الدين ، خلق حسن يتصف به الإنسان دون غيره فيعلو عليه ، وأن الرذيلة لا تدور مدار الإنسانية ولا القومية ولا القبلية ولكنها كما يفصح الدين ، خلق سيئ يتصف به الإنسان دون غيره فينحدر عنه .

هكذا ينبغى أن نفهم الدين وهكذا ينبغى أن يفهمه الجاهل منا ، فان محمداً وأى إنسان فى العالم ، يشتركان فى الإنسانية لحما ودما وعظما ، ثم سمعاً وبصراً وفكراً ، ولكنهما يختلفان عملا ، والذى فضل به محمد أباه وعمه هو عين الذى فضل به محمد أى إنسان فى العالم ، وإلا فأى معنى أو أية ميزة لقول الرسول الأعظم : لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟؟ وقوله : من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا .

فكل حديث ، مهما صح سنده ، يثبت فضل قريش على العرب ، هو من وضع الأمويين ، وكل حديث مهما صح نسبه أيضاً ، يثبت فضل هاشم على

قريش هو من وضع العباسين أو العلويين ، ان الدين واضح بين وان القرآن هو الفرقان بين أيدينا ، فليتعظ كل منا بقوله الكريم : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلم يقل : إن أكرمكم عندى العرب بل قال : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يقيموا حدود ما أنزل الله » .

وأى حديث صح سنده نؤوله ، فان التأويل من لوازم الدين فى مواضع الشبهات ، واللغة ليست حقيقة فقط وإنما هى مجاز وحقيقة والقرآن مشحون بالمجازات ، فحديثه صلى الله عليه وسلم : أصحابى كالنجوم ، يعنى أصحابه الذين اتبعوه باحسان لا الذين صحبوه ولو لينافقوا أو ليتحسسوا منه ويؤلبوا عليه وهؤلاء كثر وعلى رأسهم بنو أمية ، ويعنى القرآن بقوله حاكياً عن رسوله : قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » يعنى بالقربى آل بيته الذين فرضت الصلاة عليهم معه فى ليلنا ونهارنا إلى يوم القيمة ، والمقصود من أهل بيته هم الذين أتموا رسالته من بعده وهم على والحسين وبقية الأئمة الهداة كالصادق والباقر والرضى والكاظم .

وأعنى باتمام رسالته تعزيزها والحرص عليها والتضحية فى سبيل قدسها والاعتصام بها ، فنصرة على لابى بكر وعمر فى إقامة هذه الرسالة بسيفه ورأيه ولسانه هو من إتمام هذه الرسالة ، وتضحيته بحقه فى الهيمنة عليها أول الأمر والتزامه الصمت عن الإصرار عليه هو من إتمام هذه الرسالة ، فانه مما لاشك فيه ، لو أن الخلافة أسندت لعلى أول الأمر ، وهو الموثوق على لسان رسوله ، ثم بما برهن به عن حزمه واعتصامه بالحق حتى آخر حياته ، لحالت سنوه الثلاثون دون الهنات التى مكنت آل أبى معيط من هتك الدين وسن البدع السيئة على أيديهم وألسنتهم إلى يومنا هذا .

وهكذا نجد أن تضحية أبنائه الذين تحملوا مسئولية هذه الرسالة من بعده كالحسن فى تنازله لمعاوية كى يكشف للمسلمين عن سوء نوايا معاوية وقد ثبت ذلك فى بطون السير ، وكأخيه الحسين الذى عمد إلى التضحية بدمه ودماء أصحابه وأهل بيته ليفضح الأمويين ويعصم رسالة جده من كفرهم بها ونيلهم منها ، ثم

انصراف أحفاده الباقين من تأييدها بدمائهم إلى تسجيلها فى دواوينهم وإملائها على أصحابهم بغية خلوصها من دس معاوية وآله فى الدين ما ليس من الدين ، إذ قرأت فى السيرة الحلبية : أن المؤمنين المتكتمين على أنفسهم فى عهد الأمويين أمعنوا فى إملاء ما وعوه من فضل على على تابعيهم خشية الطغيان الأموى عليه وانتهى قولهم فى على إلى أنه قد نزل فى فضله ثلاثمائة آية من القرآن »

هؤلاء هم القربى وهؤلاء هم أهل البيت وآل محمد ليس غير ، فانما شرفهم الله فى كتابه وعلى لسان رسوله لأن وظيفتهم إتمام رسالته بالحرص عليها والتضحية فى سبيلها . وإلا فليست قرباه وآله من غير جبلتنا ولا هم صنف من الملكوت الأعلى هبط علينا ، فعقيل بن أبى طالب الذى لاذ فى كنف معاوية من أجل حطام الدنيا هو أخو على الزاهد فيها ، وجعفر الكذاب هو أحد أحفاد الإمام جعفر الصادق الذى يقول فيه أبو حنيفة : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً يصلى أو يقرأ القرآن » هؤلاء هم آل محمد ومكان القربى منه وهم المفضلون فى كتاب الله وعلى لسان جدهم صلوات الله عليه وعليهم وعلى الآخذين برسالتهم والناهجين فى الاعتصام بها نهجهم .

لم يفضل هؤلاء غيرهم من الناس بكونهم من صلب محمد ولا بكونهم من سلالة هاشم ، ولا لأنهم تحدروا من أصلاب مضر ومعد وعدنان ، وكيف يكون ذلك كذلك ، وقد صح عن جدهم عليه الصلاة والسلام أنه قال لابنته : يا فاطمة اعملى فلن أغنى عنك من الله شيئاً ؟ وأنه قال : إنما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف عفوا عنه وإذا سرق الوضيع أدانوه ، أما والذى نفسى بيده لو أن فاطمة سرقت لقطعت يدها » وأنه صلى الله عليه وآله قال بلسان ربه فى حديث قدسى : أدخل جنتى من أطاعنى ولو كان عبداً حبشياً وأدخل نارى من عصانى ولو كان سيداً قرشياً » صدق رسول الله : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لرجل على امرأة إلا بالعمل الصالح ، بمثل هذا ندين ، وهكذا يجب أن نفهم الدين .

وبعد فما أحب أن يفوتنى فى هذا الموضوع حدث لا يزال يحز فى نفسى منذ خمس وعشرين سنة إذ كنت فى أمريكا الشمالية فى ولاية بنسلفانيا

ضيف نفر من المهاجرين العرب ، وإذ كان حديث الزعامة فى جبل عامل من جنوب لبنان موضوع ذكريات هؤلاء الأخوة الذين يحدقون بى آنذاك : يسألنى أحدهم السيد على الحاج من قرية قيليا فى ناحية مشغرة : هل لاتزال عبودية الزعماء مسيطرة على شعبنا المسكين ؟؟ فضحكت وقلت له : لعل عندك شيئاً من هذا وتريد أن تقصه علينا ، فتفضل :

قال ، وهو يتألم ، لقد مر بى ثلاثون عاماً وأنا بعيد عن وطنى وفى طوقى أن أعود إليه ، ولعل هذا العود أغلى أمنياتى ، ولكن كلما ذكرت السبب الذى من أجله فارقت وطنى رسبت نفسى فى أعماقى ثم قالت : مت هنا ولا تعد ، فان موتك بعيداً عن وطنك وأنت عزيز خير لك ألف مرة من أن تحيا فيه وأنت ذليل ، فاحتسب آمالك وآلامك عند الله فان لك ولهم عنده حساباً غير بعيد » ثم قال : فى جوارنا بلدة « الخيم » كان يسودها وما جاورها من القرى زعيم يدعى الحاج محمد عبد الله ، وكنا من المدلين عليه بدافع هذا الجوار ، وكنت شاباً عاتياً اعتد بقوتى وجرأتى ، ويشاء الله أن أكون رسول هذا الزعيم إلى زعيم أكبر يدعى كامل الأسعد » تعرفونه جميعاً ، وكانت بلدة « الطيبة » التى هى حصنه تبعد عنا عشرة أميال .

وكان من الطبيعى أن أحمل هذه الرسالة شاكراً حتى إذا دخلت على الزعيم الأكبر وأسلمته الرسالة ثم انقلبت من ديوانه عائداً إلى مضيف أمثالى ، وكان فى مؤخرة الديوان أخوه عبد اللطيف الأسعد فتلقانى وأنا أجتاز البهو إلى الخارج بصفعة على وجهى فقدت معها بصرى آنئذ ثم وضعت يدى على عينى وأصغيت أسمعه يقول : تخرج مولياً ظهرك للزعيم يا كلب ؟؟ أما كان عليك أن ترجع متقهقراً ؟؟ انك لحمار » ، ولما استعدت بصرى خرجت ولم أعد إلى بلدى ، ولكن كانت وجهتى بيروت ثم هذه الديار العزيزة علينا ، والتى لم نر الخروج من تلك العبودية إلا تحت سمائها ، ونحن كما ترى ، لانعود إلى الوطن حتى يتحرر من فرنسا خارجياً ومن الزعامة داخلياً ، فان العبودية واحدة ، ولعل الشاعر مصيب إذ يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على الحر وقع الحسام المهند

كذلك شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكون أحراراً إذ يربينا على الجرأة والحرية بقوله للداخل عليه وهو متهيب وجل : هون عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد ، وهكذا أبينا هذه التربية ورزحنا تحت عبودية السادة الكبراء من زعمائنا ، ندخل مجالسهم زحفاً على الركب ثم نغادرها متقهقرين حرصاً على الغطرسة فى نفوسهم وعلى الخنوع والذل والعبودية التى ربوها فى نفوسنا ، فليسجل تاريخ جبل عامل ، وهو وليد أبى ذر الغفاري الذى ذهب ضحية إبائه وعزته ، فليسجل تاريخ هذا الجبل تلك المآسى وهذه العبر للأجيال .

علي

وَاللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا ،
وَلَا أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا

قالها عليه السلام يعلل بها قوله قبلها بنفس الخطبة حيث قال : والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت ، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله ، ألا وانى مفضيه إلى الخاصة ممن يؤمن ذلك منه ، والذى بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صدقاً ، وقد عهد إلى بذلك كله ، وبمهلك من يهلك ، ومنجى من ينجو ، ومآل هذا الأمر ، وما أبقى شيئاً يمر على رأسي إلا أفرغه فى أذنى وأفضى به إلى . . . »

فى القرآن مثل هذا الأسلوب ، أعنى تعليل المعجز باستحالة أسبابه ، قال عز من قائل ؛ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، ففى الشطر الأول من هذه الآية إعجازهم عن إدراك سر الروح ، وفى الشطر الثانى تعليل هذا الإعجاز بأن العلم وحده هو الذى يكشف هذا السر ، ولم يؤتوا منه إذ ذاك إلا القليل الذى لا يمكن السائل من فهمه ، لذلك نهى رسوله عن أن يخوض مع السائل فيه .

وهكذا نجد أن الإمام أدلى بمعجز فى صدر كلمته التى يجرى حولها البحث حيث قال : والله لو شئت الخ ... ثم علل ذلك بقوله عليه السلام : والله ما احثكم الخ ... كانه يثبت أن علم الغيب ممكن إذا توفرت أسبابه . ومن أسبابه العصمة ونضج العقل المعبر عنه بالثقافة ، أما العصمة فقد أشار النبى إليها فى أحاديثه القدسية حاكياً عن ربه قوله : يا عبدى أطعنى تكن مثلى أنا أقول للشئ كن فيكون وأنت تقول للشئ كن فيكون » وقوله فى حديث قدسى : ما زال عبدى يتقرب إلى بالطاعة حتى كنت عينه التى تبصر وأذنه التى تسمع .. وقوله صلوات الله وسلامه عليه : المؤمن يرى بنور الله .

وأما الثقافة فقد دعا إليها بقوله تعالى : هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟؟ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ، وقول رسوله عليه السلام:

أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، أطلبوه ولو فى الصين ، العلم نور » فرسالة محمد القائمة على العلم والعصمة تضمن للمسلم المؤمن العامل بعلمه علم الغيب ، لأن إدراك ما تقدمك علم ، وإدراك ما أحدق بك علم ، ثم إدراك ما تستقبل علم ، فكما أن للعلم بأحداث الماضى قواعد وأصولا تدرك بها ، وللعلم بأحداث الحاضر قواعد وأصولا يدرك بها كذلك للعلم بأحداث المستقبل قواعد وأصول تدرك به ، ولسنا بسبيل الكشف عن قواعد وأصول علمى الماضى والحاضر لأنا ندرسها وندرسها أبناءنا وهى بين سمعنا وبصرنا ، وأما أصول وقواعد العلم الذى يكشف لنا مغيبات أو أحداث المستقبل فهى هذه التى وردت فى كتاب الله وعلى لسان رسوله من دعوة إلى الحق فى كل ما نأتيه من قول أو عمل ، ومعرفة الحق رهن بتثقيف العقل وإخضاع النفس بالعمل فى الحياة بين يدى هذه الرسالة التى جاءنا بها محمد .

فلقد أثبت العلم قديمه وحديثه أن لصفاء النفس وخلوصها من شوائب الحياة الدنيا ، أثراً كبيراً فى استلهام الفكر أسرار الحياة ، وقد أوردت شواهد كثيرة فى هذا الكتاب ، نقلا وعقلا ، تثبت أن العلم ليس وليد الدراسة فحسب ، ولكنه قد يتجاوزها فى كثير من أمهات ما يسن ويشرع إلى الاستلهام عن طريق الرياضة الروحية كما كان يفعل الرئيس ابن سينا والحكيم ابن رشد ، والرياضى جابر بن حيان ، فضلا عن سيد العلماء والحكماء محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، ونعنى بخلوص النفس من شوائب الحياة ، اعتصامها بتعاليم الدين الصحيح القائم على ما هو بين فى كتاب الله وما يتصل به من قول رسوله المأثور ، فاعتصامها ذاك هو عين عصمتها ، وهو عين العلم الذى تكشف به أسرار الحياة فيما تستقبل فضلا عما أجازته وما تضطرب فيه من حياة .

كنا فى منزل العلامة الشيخ محمد المدنى محرر رسالة الإسلام فى القاهرة مساء يوم ما ، كنا اثنين فقط لاثالث لنا إلا الصفاء وإلا البحث العلمى السليم ، وقد خضنا فى النقاش حول العصمة فى الأنبياء والأوصياء ، وأقوال المذاهب الإسلامية فيها بالأمكان وعدمه ، فمنهم من ينكرها حتى فى الأنبياء لأنهم بشر .. ومنهم من يثبتها حتى فى الأوصياء بعدهم ، ولقد رأيته مقتنعاً بالرأى الأول فى نفى العصمة

عن الأنبياء إلا فى الدين ، وحجته أنهم بشر فكنت بالطبع نقيضه ، وكان حديثى مجملا ورأيت أن أتبسط فيه بعد جلوسى إلى مكتبى ولم أشأ أن أهمله فكان مفصلا فيما يأتى :

العصمة ممكنة لكل إنسان عقلا وشرعاً وإن كانت ممتنعة عادة ، أما عقلا : فأى إنسان وهو حر مختار لا يستطيع صرف نفسه ، وهى ملكه ، عما لا يحب ؟؟ فلقد أثبت فى غير مكان من هذا الكتاب وفى كتابى « الأصفياء » نفى الجبرية عن الإنسان بأنه مختار وهى صفة وهبها الله له وقد شارك فيها ربه كصفات الكرم والإحسان والعلم والبصيرة ، فكما يقال : الله الكريم المحسن العالم البصير ، كذلك يقال فى الإنسان مثله ، ولكن هذه الصفات وأشباهها تختلف بين الخالق والمخلوق من حيث المصدر قدماً وحدوثاً ومن حيث الكنه قوة وضعفاً ، إذ هى قديمة بصدورها عن الخالق وحديثة بصدورها عن المخلوق ، كما أنها قوية فى كنهها وهى إلاهية وضعيفة فى هذا الكنه وهى إنسانية ، وهكذا كلمة مختار . فأى عقل يحول بين المرء وبين حسن اختياره ويقصره على السوء فى هذا الاختيار طالما هو حر فى اختياره ؟؟

وأما شرعاً : فكيف لا تكون العصمة فى الإنسان ممكنة وهو مأمور بها من ربه ؟؟ أيأمره الله أو ينهاه بما لا يستطيع فعله وعما لا يطيق تركه ؟؟ ان الآثام التى تحول بين المرء وبين العصمة محدودة ومعلومة فى الكتاب والسنة وقد أجملها الله وفصلها نبيه ثم نهانا عنها فلو لم تكن ممكنة لنا لكان النهى عنها من العبث ، والأحكام التى نحن مكلفون بها شرعاً هى أوامر ونواه ، ومعنى العصمة هى أن تأتمر بأمر ربك وتنتهى عما نهاك عنه ، فلو كانت غير ممكنة لما أمرنا بها أو نهانا عنها كما قدمنا ، إذن فالعصمة ممكنة شرعاً وليست فى البشرية طبعاً ، وإلا لزم الجبر فى القضاء وهذا ممتنع على ما فصلنا .

لم أفهم السبب الذى يعللون به عدم العصمة فى الإنسان إلا أنه أمر عادى ، وهو يعود إلى التربية ، فما رلايب فيه أن رهبة السلطان فى نفوس الرعية تقلل من الجرأة على انتهاك القانون ، والاستخفاف بهذا السلطان يزيد من تلك الجرأة

فتكثر الجرائم هنا وتقل هناك ، وإذا تظافر العلم والدين ورهبة السلطان العادل فى الرعية كان سبباً قوياً فى عصمة الإنسان ، أو على الأقل كان سبباً قوياً فى الحد من الجرائم ، ومعنى الحد من الشئ هو القابلية للزيادة والنقصان فيه ، وإذا قامت هذه القابلية فى الإنسان طبعاً كان معنى ذلك إمكان صعوده إلى العصمة وإمكان هبوطه إلى الاجرام ، فليس لدينا وسط فى الطبع وإنما لدينا قابلية فى الإنسان لأن يكون بالتربية المفروضة عليه عقلا وحكماً وشرعاً ، أحد الملائكة ، وبعدمها أحد الشياطين .

فمن أين جاء الذاهبون مذهب عدم العصمة عن الأنبياء لأنهم بشر ، أقول : من أين جاءوا بأن البشرية علة لعدم العصمة ؟؟ فهل قال الشرع ذلك ؟؟ وهل قال الرسول : انا مثلكم بشر أخطئ وأصيب أم قصر هذه البشرية عليه بكونه يأكل ويشرب ويمرض ويسقم؟؟ فالأنبياء مثلنا فى البشرية المطلقة من حيث الطبيعة لا من حيث التطبع والكسب ،والشرور ليست من طبيعة الإنسان ولكنها من كسبه وإلا لكان مفطوراً على الشر وكان أمر الله باجتنابه عبثاً كما قدمنا .

أما نسبة الخطأ فى القرآن إلى الأنبياء فقد مر بنا تعليله فى غير مكان من هذا الكتاب وأنه محمول على التأويل الذى يتبع المجاز وأن المجاز أحد جزئى اللغة لا تتحقق فى التفاهم إلا بهما معاً ، وبينا أن كل شئ نسبى فى الحياة ، فقد يكون الأمر المكروه فى الناس محرماً على الرسل فيترتب عليه حكم التحريم وهو التأثيم للفرق بين العالم والجاهل وبين المحكوم والحاكم من شؤن واعتبارات جعلت أحدهما تابعاً والآخر متبوعاً ، فعلى المتبوع الذى هو قدوة أن يتحرج حتى فى المكروه والمستهجن ،وإلا كان آثماً لأن المكروه فى عامة الناس قد يجرهم إلى المحرم .

بقى علينا أن نوضح إمكانية العصمة فى الناس : لماذا تكون نادرة ؟ قدمنا أن الرعية على قدر خوفها من الراعى واحترامها له ، وعلى مقدار هيبة سلطانه فى صدورها يكون إقدامهم أو إحجامهم فى خرق القانون ، وعلى مقدار خوف الطفل من أبيه واحترامه له يكون ائتماره بأمره وانتهاؤه بنهيه ، وعلى مقدار خوف التلميذ وهيبة معلمه فى نفسه يكون امتثاله لأمره واجتهاده فى درسه ثم على مقدار

حب العاشق حبيبه وعلى مقدار تلهه فى هذا الحب يكون إخلاصه له وحرصه على رضاه واستجابته لإرادته .

وهكذا نصل إلى النبى أو الوصى أو المؤمن ، وفى غير مكان من هذا الكتاب أشرت إلى ما أوجزه هنا من أن الدكتور أحمد زكى العالم المصرى كتب فى مجلة الرسالة المصرية نقلا عن أستاذه فى جامعة برلين قوله لتلامذته وهو منهم قال : يا أبنائى إذا قيل لكم إن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون فى الهواء بأنفسهم لا بوسائل أخرى فصدقوا ، لأنا بفضل اكتشافنا للتيار الكهربائى جئناكم بهذه المعاجز فبماذا نجيئكم لو اكتشفنا تيار الروح الذى راضوا أنفسهم به وهيمنوا عليه بينما هو يهيمن على الكون ؟؟ ، انتهى قوله بإيجاز وتلخيص .

فالتيار الروحى ، أو عالم الروح ، كما نطلق على ما يقابله عالم المادة ، يختص بالسيطرة على المادة لأنه أقوى منها ، وهنالك عالم آخر يسيطر على الروح لأنه أقوى منها وهو عالم العقل ، وأقرب شئ يمكننا من تصور هذه العوالم الثلاثة مجتمعة هى السيارة التى بين أيدينا ، فالماده هى الصلب الذى يتقوم به هيكلها القائم المحسوس ، والروح هى الحرارة الناشئة من البترول الذى يخرج به الصلب من عالم السكون إلى عالم الحركة ، والعقل أو إذا شئت أن تسميه علماً ، هو بمنزلة السائق من السيارة يوجهها كيف شاء .

فعلى مقدار خضوع المادة ، التى هى الآلات ، للحرارة بالحركة يكون تأثير البترول مصدر الحرارة فى الآلات دفعاً إلى الهدف وإلا تحطمت ، وعلى مقدار خضوع الحرارة للسائق وهو يتحكم فيها ، يكون تأثير العلم والعقل فيها توجيهاً للمادة وإلا انفجر البترول وهلك الثلاثة معاً ، فوظيفة المادة التى هى الآلات المؤلف منها هيكل السيارة ، وظيفتها أن تتحرك بحرارة البترول التى نعبر بها عن الروح ، ووظيفة هذه أن تحرك تلك ، وأما وظيفة السائق الذى نعبر به عن العقل فهى توجيه الروح التى هى الحرارة فى دفع الهيكل الذى هو المادة إلى حيث يشاء ، وهذه المشيئة يجب أن تقوم على الحق الذى يستلهمه العقل .

ثم نرجع إلى التمثيل مقلوباً فنقول : إن على مقدار إخلاص العقل الذى هو السائق فى الهيمنة على الروح الذى هو البترول ، وعلى المادة التى هى الهيكل ،

أقول : إن على مقدار هذا الإخلاص فى الهيمنة يكون إخلاص البترول والصلب فى الخضوع لإرادته ، ويتحقق إخلاص العقل الذى هو السائق بالتزامه الحق فيما يريد من تحريك سيارته ، وهذا الحق يقوم على فن التحريك الذى تلقنه علما خاصا بالسيطرة على المادة ، وعلى نبل الغاية التى من أجلها تحمل المسئولية فى قيادتها وتوجيهها ، وفى تركيب الإنسان شبه كذلك يلقى ضوءاً على العوالم الثلاثة ولكنه أدق منه فى السيارة لذلك عمدنا إلى الأخف حكماً والأسرع فهماً .

ولنعد الآن إلى صلب الموضوع فى قول الإمام وهو إحاطته علماً بما كان ويكون من الغيب ، وكونه قائماً على العصمة ، ثم كون العصمة ممكنة لمن يؤمن بالحق ، وهذا أى الإيمان بالحق ، ممكن لمن يضع بين يديه الناموس الذى تنزل به الروح الأمين على محمد فخضع له ثم عرضه محمد على أصحابه فخضع له منهم من خضع وتحرر منه من تحرر ، وكان الإمام على أرحب صدراً لتلقى هذا الناموس ، وأكبر قلباً للتأثر به ، ثم كان أنضج دماغاً فى الأخذ منه والإيغال فيه ، حتى أصبح موضع ثقة محمد فى الحرص عليه والتضحية بين يديه من بعده ، وحتى كان مرجع الخلفاء الراشدين ، وأصحاب رسول الله الذين اتبعوه باحسان ، فكانوا يحدقون به ويشخصون إليه شخوصهم إلى رسول الله فى استلهام الحكمة واقتباس النور ، وذلك ما حمل عمر ، وهو أشد الصحابة أسراً ، على أن يقول : لا أبقانى الله لمعضلة ليس لها أبو حسن .

من هنا تفيض الحكمة وتتحقق العصمة ، فلكل هدف يشخص إليه الإنسان طريق نسميه علماً ، ولهذا العلم قواعد وأصول لا يمكن الوصول إلى ذلك الهدف إلا بادراك هذه القواعد والإخلاص فى استخدامها إذ يشخص إلى غايته ويمعن فى التوجه إليها والوقوف عليها ، وبين أيدينا كثير من أولى العلم الذين يشخصون إلى كثير من الأهداف ويحققون كثيراً منها بعد أن يمعنوا فى الإخلاص للعلوم التى تؤدى إليها ، فهنالك علماء الفلك وعلماء الطب وعلماء الكيمياء وعلماء الطبيعة ، ولكل منهم غايات شخصوا إليها فتمكنوا من الحصول عليها حتى جاؤنا بمعجزات تحار بين يديها العقول .

فعلى مقدار ما يخلص العالم لعلمه يكون شخوصه إلى الهدف ووصوله إليه ،

وعلى مقدار حبك لأى شئ تعمل على الظفر به يستجيب لك ذلك الشئ بالخضوع لإخلاصك ، فهل بعد ذلك عجب فى أن تكون العصمة ممكنة لمن أحب وغلا فى الحب حتى ضحى فى سبيل محبوبه كل ما يحول بينهما من حياة ؟؟ وكم نتمثل بالكلمة المأثورة : صاحب الحاجة أعمى لايرى إلا قضاءها » والكلمة الأخرى القائلة : حبك الشئ يعمى ويصم » ثم نمر بها ولا نمعن فى تحليلها ؟؟

فاذا أحب محمد أو على أو سلمان أو أبو ذر ، إذا أحب أحد هؤلاء ربه وغلا فى حبه ، وكانت غايته الوصول إليه فلم لايكون أعمى عن كل ما يصرفه عنه ، ويحول دونه ، ؟؟ ومثل هذا الحب للمتصوف ألا يعمى ويصم عن كل شئ دونه ؟؟ ثم أليست هذه هى العصمة ؟؟ أو ليس بلوغها ممكناً لمن آمن ؟؟ أو ليس الوصول إلى الله هو غاية الغايات ؟؟ فلم لايكون هؤلاء معصومين وقد ضربوا لنا الأمثال فى حبهم لله واستحالتهم فيه ؟؟ ولم لايكونون بعد ذلك ملهمين منه ، يعلمون باطن الحياة وظاهرها ويحيطون علما بما كان وما سيكون ؟؟

الله أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .

تجيئ هذه الآية بعد ذكره تعالى أنبياءه ورسله .

كثيراً ما يسألني أناس حرصوا على مصيرهم بعد الموت وهؤلاء كثيرون فى المهجر الأمريكى إذ فارقوا وطنهم ثم يئسوا من العودة إليه وأشرفوا على مغادرة الحياة الدنيا ، وكان لى عندهم مجالس يفيضون فيها القول على تقرير هذا المصير ، وكنت أرثى لدموعهم وهم يقولون : نخشى أن نخسر الحياتين معاً ، فهل لك أن تدلنا على طريقة تفضى بنا إلى الفوز بالأخرى بعد أن خسرنا الأولى ؟؟

ولقد مر بى ، قبل ذلك ، زمن وأنا حائر فيما حاروا فيه أتساءل ونفسى : إلى أين نمضى ؟؟ وما هى الحكمة من وجودنا ؟؟ ومن هو هذا الموجد ؟؟ وغير ذلك من الأسئلة التى يصطدم بها الفكر إبان نضجه ، وكنت أقنع بأن العقل أعجز من أن يصل إلى كنه الخالق بينما هو يعجز عن اكتناه أبسط مخلوقاته ، وإذا عجز العقل عن أن يكتنه خالقه عجز عن إدراك الحكمة من وجوده ومن حياته وموته ثم بعثه وحسابه ، لأنها جميعاً تتعلق بالخالق ، ولقد مر بى هذا التساؤل وأنا فى العقد الثالث من سنى حياتى وأشرت إليه فى ديوانى « نقد السائس والمسوس » المطبوع فى لبنان سنة ١٩٢٨ حيث أقول :

وكم قائل لىَ : أين الآلــــه   فصف ذاته لى وصف مسكنه؟؟
أرى الكون ضلت لديه العقول   فكيف تحيــط بمن كــونه

أقول : كثيراً ما يسألنى من يثق بى : عما يحملنى على ما أدين به مطمئناً إليه حريصاً عليه ، دونما برهان أقدمه بين يدى عقيدتى فى أن دينى خير الأديان ، وأن ربى هو الذى لا إله إلا هو فى الأرض والسماء ؟؟ فما أطيق الجواب عن ذلك بغير الجمل التى صدرت بها كتابى هذا ، وهى التى جرت على لسانى إذ فكرت فى إخراج هذا السفر للعالم وشرعت فيه ، تلك هى : عرفت الله بمحمد وعرفت محمداً بعلى ، إن مالا يرده عقل سليم : أن يقلد الجاهل العالم وأن يقتدى

العالم بالأعلم ، من أجل ذلك نرى كل ذى فضل من علم أو فن ، إذا كتب أو قال ، أسند ما يحتج به لصحة رأيه فيما يقول ويكتب ، إلى رأى من يثق هو ويثق سامعه بأنه أفضل منه ، وما أكثر ما نسند اليوم آراءنا فى تدعيم حججنا علماً وأدباً ، إلى علماء الغرب وأدبائه لأن ما أسدوه إلى الإنسانية من علوم وفنون طغى علينا حتى لم نبصر غيرهم فى تراثنا علماء وأدباء .

لقد كنت من هؤلاء الذين لا يرون وجهاً للحياة إلا تحت سماء الغرب ، ولا يثقون ، فى قول أو عمل ، إلا إذا كان مصدره الغرب ، ثم يحتقرون كل قائل أو عامل لم يستند فى التدليل على صحة قوله وعمله إلى الغرب حتى كأن لم يكن الشرق يوماً ما مصدراً لكل أو بعض ما يأتيه الغرب من هذه البدع فى تعزيز الحياة ، من أجل ذلك عمدت إلى دراسة الغرب فى الشرق والغرب ، بعد أن درست الشرق فى الغرب والشرق ، وأكثرت من التنقل بين العالمين القديم والجديد حتى أصبحت عريقاً فى معرفة الشعوب قديمها وجديدها فخرجت بعد عشرين عاماً بهذه النتيجة التى لا يستطيع فكر أن يتعداها فيما يقول عن الغرب تلك النتيجة هى فيما يلى :

ان الغربى قد وصل فى تفكيره إلى أبعد ما يصله مفكر فى كنه الحياة الدنيا من علوم وآداب وفنون ، خليقة أن ترفع الإنسان من مستواه الحيوانى إلى مستواه الإنسانى ولكنهم لم يتخذوا علومهم هذه وسيلة إلى ذلك وإنما اتخذوها وسائل تفضى بهم إلى تعزيز الجشع والأنانية والاستئثار حتى آلت بهم إلى الانحدار من مستوى الإنسانية إلى مستوى الحيوان الأعجم ، وبرهان ذلك ما نرى ونسمع من تناحرهم فى سبيل حياة لم يفكروا فى الغاية من وجودهم تحت سمائها .

ورجعت من أمريكا وأوروبا ، بعد سنين وسنين تقلبت فيها على نعيم القوم ، ولم أحرم نفسى من كل ما يعلونه فى صميم الحياة من ترف ورفاه ، رجعت بهذه النتيجة التى مرت بالقارئ قبل سطور والتى ضربوا المثل بها قائلين : الحياة هى أن تملأ جيبك وتركب سيارتك ، أقول : رجعت بعد ذلك إلى ما كان يغذينى به أبى ، ذلك الرجل الأمى الذى لم يدرس من الحياة إلا القرآن وبعض الحديث ، ولم يفقه من الدين إلا ما اشتملت عليه رسائل الفقهاء من مسائل

وتعليقات ، ثم لم يوث من حطام الدنيا أكثر من الخبز الحقير والادام التافه .

رجعت إلى ما كان يغذى هذا الشيخ الجليل به روحى من نصائح ومواعظ بأن أدرس العلوم والآداب والفنون ما استطعت ولا أغفل عن الغاية التى يرمى إليها العلم والأدب والفن ألا وهى الإنسانية التى دعا إليها الله فى كتبه السماوية وعلى ألسن رسله وأوليائهم » ثم إذا أمعنت فى استفهامه معنى هذا الإنسانية لم يزد على قوله : انها معرفة الله والإيمان به وبرسله ، فأقول له : وكيف يتسنى لى ذلك ؟؟ فيقول : أدرس القرآن والحديث ونهج البلاغة ففيها الكثير مما تحب أن تعرف »

ولقد مات ، رحمه الله ، وفى نفسه حسرة أن يرانى قبل موته فقيهاً وشاعراً ، أما فقيهاً فلأخدم الحق بفقه الحياة عن طريق الدين ، وأما شاعراً فلأفهم كلام الله وكلام رسوله وكلام إمام البلغاء على بن أبى طالب ، وكان كثيراً ما يصارحنى بذلك ، وطالما مهد لى السفر إلى النجف لأدرس الفقه وأنا غض العود وكنت قد أنهيت دروسى الابتدائية فى مدارس الحكومة ، وشرعت فى دراسة المقدمات للفقه من نحو وصرف وبيان ، ثم فاجأتنا الحرب العالمية الأولى ولم أنهد إلى الخامسة عشرة من سنى حياتى ، فقضى نحبه وهو يوصينى بتحقيق أمله فى أن أدرس الفقه وأتقى الله .

وتضع الحرب أوزارها عن كتل بائسة من البشر وأشلاء أمعنت فى صهرها الحرب على النار والحديد ، وأرانى بعد ذلك حريصاً على تنفيذ وصايا أبى ، ولعلى كنت أحلم بتنفيذها ، ولم أفق من حلمى هذا إلا وأنا فى النجف أجثو على ركبتى متلقياً فقه محمد وآل محمد على أعلام الأمة ، وكنت أحس بثورة عارمة فى نفسى على هؤلاء الذين هم قادة خمسين إلى سبعين مليوناً من شيعة أهل البيت ، ولم أر فيهم إلا من يتجه بفقهه إلى الآخرة وهو أعمى عن كل ما يحدق به من دنياه ، وإلا من يتجه بفقهه إلى الدنيا وهو معرض عن كل ما يشير به إلى أخراه ، وما زلت أحمل هذه الثورة فى صميم نفسى حتى عدت من أمريكا بعد خمسة وعشرين عاماً وزرت العراق ووضعت كتاب « وحى الرافدين » يحمل تلك الثورة العارمة .

أقول : لقد عدت بعد تنفيذ وصايا أبى فى درس الفقه إلى حد ما ، واحتراف

الشعر إلى حد ما ، فعكفت على دراسة القرآن والحديث ونهج البلاغة بعد ثلاثين عاماً مرت على وفاة أبى ، وكنت خلال هذا الجيل من الأعوام ، قد صعدت وانحدرت مراراً فى تيار هذا العصر الجارف متأثراً بالغرب المادى تارة وبالشرق الروحى تارة أخرى حتى وقفت عند تراثى النفيس الذى غرسه أبى فى صدرى قبل أن أفقه الحياة ، وكم للتراث من أثر فى النفس يغلب كل أثر ولو بعد حين .

وانتهيت من دراسة هذه الكتب إلى أن التقليد فيما يستعصى على العقل حله من مشكلات العلوم القائمة على اكتناه الحياة وراء ما نحس، هذا التقليد هو أمر لا محيد للعقل عنه، فان التفاوت بين العقول كائن، وان هذا التفاوت حجة على الإنسان فى أن العلم لا حد له ، من أجل ذلك كان على المرء أن يفكر فى حياته وأن يمعن فى هذا التفكير للوصول إلى الغاية التى من أجلها كان حتى يصل فيقف مطمئناً إلى حياته ، أو يعجز فيعمد إلى من هو أنضج عقلا وأسمى تفكيراً منه ، فيتأثره ويمضى على نهجه مطمئناً كذلك إلى حياته ، وفى يقينى أن هذا الاطمئنان هو العامل الأول فى توفر الإنسان على العمل الذي خلق له على هذه الأرض وتحت هذه السماء كائناً حياً .

والدراسة التى رضت نفسى عليها فى حياة محمد وناموسه الأعظم من فرقانه ، ومن سيرته على ألسنة الصحابة وأقلام المؤرخين من قدماء ومحدثين فى شرق الأرض وغربها ، هذه الدراسة التى بدأتها وأنا مقبل على الحياة فى شبابى ، وانتهيت وأنا ريان منها فى كهولتى ، هذه الدراسة أوقفتنى عند قوله عز من قائل : فبهداهم اقتده » مفكراً فى أن الاقتداء عنصر هام وسبيل أول يفضى بالإنسان إلى الحق الذى ينشده والهدف الذى يرمى إليه من وراء تفكيره .

ورأيت أن قادة الفكر فى العالم من قبل ومن بعد مجمعون على أن العبقرى الأول فى مجموعة الإنسان هو محمد بن عبد الله ويليه على بن أبى طالب ، ثم رأيت من دراستى ثانيهما أنه لم يحد عن طريق الأول قيد لحظة فى حياته وبعد موته ، وأنه لو خامره أقل ريب فى دينه لبذ معاوية فى غدره وفجوره ، ولكان أقوى منه فى شراء الضمائر واستهواء النفوس المريضة بالمال والرتب ، ولكان عباد الشهوات أكثر إقبالا عليه منهم على خصمه ، ولكن إيمانه العاصم من وراء

عقله الجبار المشبع بتعاليم محمد ، وقف به عند التضحية بما يفنى فى سبيل الخلود .

فبعقل على هذا الذى كان مرجع الخلفاء بعد محمد ولا يزال إلى اليوم مصدر العبقرية فى الوجود ، بهذا العقل الذى كان كذلك ثم لم يتهافت بين يدى حياته الدنيا مع قدرته على امتلاكها ، أدركت أن وراء هذه الحياة حياة أسمى ، وخلف هذه الدار داراً أبقى ، عرفها محمد قبل على عن طريق الوحى وعرفها على بعد محمد من تلقين محمد إياه ، إذ يقول : والذى بعث محمداً بالحق واصطفاه على الخلق .. لقد عهد إلى بمنجى من ينجو ومهلك من يهلك ... وما أبقى شيئاً يمر على رأسى إلا أفرغه فى أذنى وأفضى به إلى ... »

فاذا كنت أحقق أمراً علمياً أو أدبياً أو فنياً أو فلسفياً وأقتنع بصحة رأيى فيه من تأثرى من هو فوقى فى العلم والأدب والفن والفلسفة ، فلماذا لا أقتنع بصحة رأيى فى فقه الدين من تأثرى من هو فوقى فيه علماً وعملا وإخلاصاً ؟؟ إن سجل عباقرة العالم منذ عشرات القرون حافل بفكرة الدين وأنها حق ، ثم ان سجل عباقرة العالم منذ ألف وأربعمائة عام حافل بعظمة محمد وعلى فى جبروت العقل فلم لا أتخذ هؤلاء جميعاً قدوة لى فيما أدين الله به وأنشد الخلود له ؟؟ إنى إذن لخاسر وسفيه .

محمد

اللهمَّ أَرِنا الحقَّ حقّاً وارزُقنا اتّباعَهُ وَأَرِنا الباطِلَ باطِلاً وَارزُقنا اجْتِنابَهُ

شهدت فى منتدى رابطة الموظفين بمصر ، حفلا أقيم لنشر الثقافة والدين ، وتكلم فيه الشيخ محمد أبو زهرة أحد علماء الأزهر ، وجاء فى كلمته على ذكر أبى طالب رحمة الله عليه ورضوانه ، مثبتاً أنه مات مشركاً ولكنه أثنى عليه بما هو أهله من رعاية محمد وحمايته من عتاة قريش .

وكان لابد لى من التعقيب على هذه المحاضرة ، إذ كنت حريصاً ، وفى أى حفل ، على أن لايفلت منى حق مظلوم حتى أرد ظلامته ، وكان لابد لى أيضاً من الثناء على المحاضر قبل أن أقول كلمتى ، لما أفاض فيه من قول جليل ، ثم خلصت من الثناء إلى اللوم والعتاب على أن يفقه العالم حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى الرضى عن أبى سفيان وعن سخله معاوية ، ثم عن مروان وعن عمرو بن العاص ، بل عن يزيد كما يروى لنا التاريخ فى سيرة أبى حامد الغزالى الذى لم ير حرجاً فى ضرورة الترحم على يزيد لأنه ثبت لديه إسلامه ، أما كيف ثبت إسلامه فلم يتحدث إلينا به أقول :

يفقه العالم فينا حقيقة الدين فيصل به فقهه إلى الرضى عن هؤلاء والتوقف عن طلب الرحمة من الله لأبى طالب ، وقد أجمعت الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن أباطالب عصم رسول الله من عدوان المشركين طوال حياته ، كما أجمعوا على أن أولئك قد حاربوا رسول الله طوال حياته ، فكيف نقول ثم ماذا نقول لهؤلاء البسطاء الذين أوتوا العلم وفقدوا العقل الذى يوجه العلم إلى حيث يسمو به الإنسان عن قبيل الحيوان ؟؟

قلت فى موقفى ذاك معقباً على محاضرة الأستاذ ابى زهرة : بالأمس قرأت فى صحيفة « لواء الإسلام » التى يحررها جماعة من العلماء وعلى رأسهم الشيخ أبوزهرة ، قرات كلمة لأحدهم تشير إلى فضل الإمام جعفر الصادق ، وتنقل أن اباحنيفة قال : ما دخلت على جعفر إلا وجدته صائماً او مصلياً او يقرأ

القرآن ، فاذا كان جعفر كذلك وهو إمام ستين مليوناً من المسلمين شيعة أهل البيت فلم لا نأخذ قول هذا الإمام حجة فى ثبوت إسلام أبى طالب ؟؟ على أن هذا الثبوت لم يقتصر على الشيعة وإنما رواه بعض أهل السنة فى السيرة الحلبية ، فلماذا نأخذ برواية معاوية فى صحيح البخارى ولا نأخذ برواية جعفر بن محمد الصادق أستاذ الأئمة الأربعة ؟؟

وإذا كان رسول الله قد بكى عمه أباطالب واسترحم له ربه وشكا بعده ضعفه وتشريده وطلب الحماية من قريش بعده فلم يجره أحد ، وإذا كان قد أعلن بعد انتصاره واستعلائه على المشركين ، سخطه على الطلقاء من آل أبى سفيان ، وإذا كان هؤلاء حققوا بعد موته صدقه وعدله فى هذا السخط إنما فعلوه فى الدين من الهتك والتجريح ، أقول : إذا كان ذلك كذلك فهل يبقى فى وجوهنا قطرة من حياء وفى رؤسنا ذرة من عقل إذ نعمد إلى أبى طالب فنتحرج من الترحم عليه ونعده مشركاً ثم نعمد إلى معاوية فنتحرج من السخط عليه ونعده صحابياً ومسلماً فنغدق عليه الرضوان والرحمات : ما أسفه الإنسان إذا لم يعقل فيما يقول أو يفعل ! !

ويقوم الشيخ أبوزهرة بعد ذلك فيقول : أما أبو طالب فانما نعده من المشركين ليكون على إشراكه بما أسداه للإسلام فى حماية محمد والذود عنه أفضل من الكثير بعد الفتح على إسلامهم وفى هذا ما فيه من تعظيمنا لأبى طالب ، وأما الشيعة فهم فى صميم الإسلام وفقههم فقه أهل البيت وكثيراً ما نلجأ إلى آراء الفقهاء منهم فى التفسير والأصول والاستنباط ، وإمامهم جعفر هو إمام الأئمة » ويجلس بعد ذلك إلى فيقول : لقد كنت فى مطلع شبابى مغرقاً فى حب الإمام على وممعناً فى تفضيله على سائر الصحابة ، ولكنى بعد أن وعيت وفقهت رجعت إلى أن علياً كرم الله وجهه أحد أصحاب رسول الله وأنه يفضل بعضاً منهم ويفضله البعض الآخر .

ها هنا أحببت أن أقف وأتمثل بقول الرسول فى صدر هذا البحث ، اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه » ولم أشأ أن أسأله السبب الذى من أجله كان يرى علياً أفضل الصحابة فى شبابه ثم أصبح

فى كهولته يراه مفضولا لبعض هؤلاء الأصحاب ، لم أشأ أن أسأله ذلك لأنه من الصعب على المرء وهو مقبل على الشيخوخة أن يصحح رأياً كان عليه وهو فى غمرة الشباب ، ولقد كنت هممت أن لاأغادر النادى حتى أقول له : رب شباب يستلهم العاطفة خير ألف مرة من شيخوخة يستعبدها العقل .

ان العاطفة التى هى وليدة الطبع أصدق فى الإلهام من العقل الذى هو وليد المجتمع ، والمجتمع هو هذا الذى نراه لايزال منذ ألف عام يطبع حياته بطابع الدين التقليدى الذى أمعن أعداء الإسلام من عرب خانوا رسالتهم وعجم أخلصوا لوثنيتهم ، أمعنوا فى تشويه الإسلام الصحيح الذى شرعه محمد وارعاه البررة من أصحابه وعلى رأسهم على يملى عليهم تأويله وتعزيزه والتضحية فى سبيله ، ليت الشيخ أبا زهرة ذكر السبب الذى من أجله فضل على على بعض أصحاب محمد مستلهماً بذلك طبعه لا تطبعه ، فان الذى بين أيدينا مما نطبع به أنفسنا ثم نطبع عليه ناشئتنا لايقره منطق ولا يصح عليه تفكير .

لمثل هذا قال رسول الله عليه صلوات الله وسلامه كلمته تلك التى تشعرنا بأن الحق لايكون حقاً فى الواقع حتى نراه كذلك ونؤمن بأنه حق ، ثم لانكون بعد ذلك محقين حتى نعمل به ونتبعه ، وأن الباطل لايكون باطلا فى الواقع حتى نراه كذلك ثم نؤمن بأنه باطل وأنه يجب علينا اجتنابه ، وأى حق أوضح من على فى حياة محمد وبعد مماته خليق بأن نتبعه ، وأى باطل أكبر من أن نتجاهل فضله السائد بعد محمد أو أن نتنكر له ؟؟

ويا ليت أبا زهرة ومن قال قوله من علمائنا الأعلام يا ليتهم ذكروا السبب الذى من أجله وثقوا برواية من أثبتوا أن أبا طالب مات على الشرك ، ولم يثقوا برواية من ثبت لديهم أنه مات على الإسلام ، وإذا صح لدينا أن بعض الرواة كجعفر بن محمد الملقب بالصادق والثابت أنه من أهل بيت رسول الله وأنه صاحب مذهب الإمامية الذين يفضلون عدداً بعض المذاهب الأربعة ، أقول : إذا صح لدينا أن أباطالب مات مسلماً عن طريق جعفر ابن محمد فلم لم نعمل به ؟؟ أنجعل رواية أبى هريرة وأمثاله فى صحيح البخارى وأمثاله أصح من رواية جعفر بن محمد وأمثاله فى إثبات إسلام أبى طالب ؟؟

لم لا نعول على أضعف الروايات وندحض بها أصح الروايات فى سبيل الحق الذى تقربه عين محمد الباكية على عمه أبى طالب ؟؟ أيغضب رسول الله أن أخذنا برواية ابنه جعفر الصادق فى تنزيه أبى طالب عن الشرك ويرضى ان أخذنا برواية بعض الناس أنه من المشركين الذين لا يصح أن نرضى عنهم وأن نستغفر لهم ؟؟ أيصح لنا أن نرضى عن معاوية الذى سن لعن على وأهله بعد الصلاة والذى أخذ البيعة لابنه يزيد والسيوف مشرعة على رؤس الصحابة ، حتى أباح مدينة الرسول وحماه لعتاة جنوده ، ثم نؤمن بأن معاوية مأجور فى ذلك لأنه مجتهد ، ونتحرج فى الرضى عن أبى طالب ونعده مشركاً ؟؟ فسبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .... اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه يا رب .

علي

لَوْ ضَرَبْتَ فى مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِيَبْلُغَ غَايَاتِه ما دَلّتكَ الدلالةُ إلا على أَنّ فاطِرَ النملة هو فاطِرُ النَّخلَة ، لِدَقِيقِ تَفصِيلِ كلِّ شيءٍ . . .

وغامض اختلاف كل حى ، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوى والضعيف فى خلقه إلا سواء »

كان كثيراً ما يملى أبى على : إن الأئمة يا بنى فى عصمة عن الخطأ كالأنبياء لأنهم ورثتهم ، وكما أن محمداً سيد الأنبياء كذلك على فانه سيد الأوصياء ، والأوصياء كالأنبياء فى علم الغيب ، ومن أغرق فى أقوالهم ير العجب من رموزهم وإشاراتهم إلى كل ما حدث وسيحدث فى العالم ، ألا تسمع قول الإمام وهو يصف الأرض بقوله: وأسكنها، على حركتها، من أن تميد بأهلها » فانه يشير إلى أن الأرض متحركة والعلم الحديث يعزو هذا الكشف إلى العلماء المحدثين .

ومن قول الإمام ما أسمعنيه بعض الرواة ولم أقرأه فى النهج ، قوله : لو شئت لجعلت لكم من الماء نوراً يكشف الظلم » يشير عليه السلام إلى الكهرباء وقد مر بالقارئ فى غير مكان من هذا الكتاب قريب من ذلك ، وقد قيل لى ان كثيراً مما نسب إلى الإمام لم يسجله الشريف الرضى فى نهج البلاغة لاختلاف الرواة على صحته ، على أن الشريف ليس جامعاً محيطاً بكل ما قال الإمام ، فقد يكون ما فاته منه فوق ما عثر عليه ، وإذا كان ما اتصل بنا عن رسول الله خلال اثنتى عشرة سنة قد ملأ الطوامير فكيف نحصر ما اتصل بنا عن على ، وهو باب علمه ، ففى نهج البلاغة مالا يكاد يستوعب قول الإمام عن عام واحد وقد لبث أربعين عاماً يقول ويكتب ويخطب وهو أعلم الصحابة بعد رسول الله وأبلغهم وأقضاهم ؟؟؟

فلنعد إلى عظمة العقل فى قوله : ما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوى والضعيف فى خلقه إلا سواء » فان غاية ما وصل إليه العلم الحديث فى

تعليل الكائنات هو عين ما أشار إليه الإمام بقوله هذا ، فقد تحدث إلى ، وأنا فى مدينة ديترويت مشغن إحدى ولايات أمريكا الشمالية تحدث إلىّ الدكتور محمد كاشف الغطاء آنذاك ، وكان يدرس فى جامعة مشغن ، قال : لقد شهدت رئيس محفل الأتوم بالأمس يلقى محاضرة فى بحث الذرة ، جاء فيها قوله :

« ان العنصر الأول فى تقويم كل كائن والذى كان يسميه الحكماء الأقدمون بالجوهر الفرد ، هو ما نسميه الآن بالذرة ، وهى تصغر عما تراه العين ثلاثة ملايين ضعف ، ولقد كشف العلم الحديث عن أن هذه الذرة غير بسيطة كما كان يعتقده الحكماء فى الجوهر الفرد ، ولكنها مركبة من نواة تدور حولها كهارب على شكل نظامنا الشمسى ، وسرعة هذه الكهارب فى دورانها حول الذرة كسرعة الكواكب فى دورانها حول الشمس فكل كائن حى أو جماد يتقوم بهذه الذرة المركبة من نواة تدور حولها كهارب تختلف قلة وكثرة فيختلف الكائن المركب منها صلابة ولينا ، فعناصر التركيب فى الماء مثلا هى عينها فى الفولاذ ، وما نأكله هو عين ما نلبسه » يقول محدثى : وفى نهاية البحث حنى المحاضر ظهره ثم يقول : آمنت أن خالق الكون واحد لأن طراز خلقه واحد .. »

وكلام الإمام جلى فى إثبات وحدة الخالق من دقة الصنع ووحدة الطراز فى هذه الدقة وتساويها فى الأشياء والأحياء كبيرها وصغيرها كالنخل والنمل حتى كأنه يتنبأ للعلم فى هذا العصر أن يكون طريقاً للاقرار بواحدانية الخالق ، وحتى كأن أول من صدقت فيه نبوءة الإمام هو هذا العلامة الأمريكى الذى ألقى بحثه من على منبر الأتوم فى جامعة مشغن على طلاب هذا العلم وفيهم الأستاذ العراقى محمد كاشف الغطاء ، فاعجب لعظمة الإلهام فى نفس على وهو تلميذ محمد قبل ألف عام يبعث فى عصر النور هذه العظمة القائمة على اكتشاف الذرة وتفجيرها فى نفوس الأعلام من علماء القرن العشرين .

أجل : لا فرق بين النملة الحقيرة الصغيرة ، وبين النخلة الجليلة الكبيرة من حيث الخلق الأول ثم من حيث الدلالة على أن خالقهما واحد ، فدقة الصنع والتفصيل إلى غموض الخلاف بين المخلوق والمخلوق ، يعودان إلى وحدة فى الخلق سواء ، وفى ذلك دلالة على وحدة المصدر الذى كانتا منه »

هكذا يقول، أو يريد أن يقول علىّ اليتيم تلميذ محمد اليتم ، وكلاهما تخرجا من أرض قفر خلاء لاأثر لحضارة الإنسان تحت سمائها ، ولعلها قفر خلاء من كل ما يؤهل الإنسان لأن يتحضر ، يريد علىّ ربيب محمد وتلميذ حكمته ، أن يشير بقوله هذا إلى أن دقة الصنع فى الكبير مهما ضخم حتّى يملأ فضاء العين ، وفى الصغير مهما تضاءل حتّى لاتدركه العين ، يريد أن يشير إلى أن هذه الدقة تستعصى على العقل أن يدركها أو يحيط بها ، ولا سبيل للعقل فى إدراكها إلا أن يخلص فى إيمانه بعظمة خالقها فتنكشف بين يديه عن أسرار الحق فى صميمها وحدة وجلالا كما تكشفت لأستاذه محمد وتكشفت له بعده دونما قراءة فى كتاب أو دراسة لعلم .

هذا القول وأشباهه من أمالى أولى الوحى وسدنة الالهام هو الذى جعل المفكرين فى جامعة برلين يعقدون المؤتمرات ، عندما أكبروا جابر بن حيان باعث الجبر المشتق من اسمه ولم يقفوا له على مصدر للعلم الذى وضعه ولم يزل أكثره رموزاً لم تتبينه عقولهم ، أقول : هذا الذى جعلهم يأتمرون للتفكير فى إمكان تلقى العلوم والفنون عن طريق الإلهام ، إذ ثبت لديهم أن جابراً هذا لم يدرس على غير جعفر الصادق ، وإن علم جعفر وراثى عن آبائه حتّى محمد ، وقد أشرنا إلى ذلك فى غير هذا المكان .

أذكر وأنا صبى ، سمعت من خطيب منبر يذكر : أن فى سبى الطاغية يزيد بن معاوية لأهل بيت محمد اللواتى وردن من العراق بعد قتله الحسين على الشام ومثلن بين يديه ، كان فيهم زين العابدين على بن الحسين وهو صبى لم يراهق وقد نجا من القتل فى كربلاء لأنه كان مريضاً ، يقول الخطيب : ان هذا الصبى عندما مثل السبى بين يدى يزيد وهو فى مجلس حافل بأعيان الشام ، طلب الإذن فى القول فأبى يزيد أن يأذن له ، فقال له بعض جلسائه : دعه يتكلم فماذا يحسن أن يقول وهو فى حداثته هذه ؟؟ فقال يزيد : اسكت انهم أهل بيت زُقّوا العلم زقّاً »

سألت أبى عند انتهاء الحفل ، وكان لذكرى الحسين شهيد كربلاء ، سألته عن معنى : زقوا العلم زقا » فأجابنى بقوله : ان يزيد يعنى بقوله هذا أن أهل

بيت الرسول علماء غير معلمين بما تلقوه عن أبيهم وجدهم من علم الله بطريق الوحى » وهذا مصداق ما جاء عن رسول الله بالسند الصحيح قوله : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » وقوله : من زهد فى الدنيا علمه الله بلا تعلم وهداه بلا هداية وجعله بصيراً وكشف عنه العمى » وليس الزهد فى الدنيا تركها وإنما هو الأخذ بحلالها والعزوف عن حرامها ، وهو عين الإيمان الذى ينظر العبد من ورائه بنور الله ..

الله

أَقِيموا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فيهِ . . . إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فى شَىْءٍ . . .

يخاطب ، جل وعلا ، بقوله هذا أنبياءه من نوح إلى ابراهيم ثم إلى محمد .. وإذا خاطب الله رسله بحكم فانما يسوق هذا الحكم إلى عباده عن طريق رسله ، فكل آية فى القرآن تشتمل على تشريع أو عظة يأمر بها الله أنبياءه فانما يقصد بها التبليغ على ألسنتهم إلى سائر خلقه ممن يعقل لئلا يكون على الله حجة فى عدم التبليغ وهو المسئول عن عباده . ولقد كرر سبحانه حكمه هذا فى تحذير عباده من الفرقة فى الدين فقال فى موطن آخر : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ » ولست مع من يفسر الفرقة فى كنه الدين فتختلف الأمة فى التوجه وعدمه وإنما الفرقة فى الدين هى الخلاف ضمن حدوده ، وهو ما نسميه باختلاف المذاهب ، لأن الخلاف بين التوحيد وعدمه ليس خلافاً فى الدين وإنما هو خلاف بين دين ولا دين .

فالفرقة التى ينهانا الله عنها فى صميم الدين وهى عين هذه الفرقة السائدة فينا باسم شافعية ومالكية وحنبلية وحنفية وجعفرية ، وزيدية ، وغيرها من المذاهب. ثم بين شاذلية ونقشبندية ، ورفاعية وقادرية وغيرها من الطرق ، هذه الفرقة التى كثيراً ما أفضت بذويها إلى التنابز والتشاحن ، وإلى التباغض والتناحر ثم إلى التفسيق والتكفير ، فقد نقل لى السيد على محى الدين البقاعى وهو مهاجر فى نويرك ، نقل لى أيام نزولى ضيفاً عليه فى أمريكا قوله :

لم أعرف نفسى مسلماً إلا فى هذه البلاد لبعدى فيها عن تناحر المسلمين فى أوطانهم باسم الدين تحت وطء الفرقة فى المذاهب » ثم قال : أذكر وأنا صبى سمعت ليلة ما ضجة كبيرة فى بلدى فسألت بسببها فقالوا : مر بالقرية رجل رافضى فتعقبوه خارج البلدة حتى غربت الشمس وقضوا عليه ثم واروه فى غار ، فأصبت إذ ذاك على صغرى بمثل القشعريرة من تأثير ما سمعت على حواسى ، ولم أزل إلى اليوم أحاسب قومى فى نفسى على ذلك العمل الشنيع .

وينقل لى السيد أديب خان فى دمشق ، ونحن نستعرض الفرقة فى الدين وما أدت إليه من ضعف فى أخلاق المسلمين ، والسيد أديب هذا هو من أنسباء أمان الله خان ملك الأفغان السابق ، تحدث إلينا فى منزله بالشام فقال : شهدت ذات ليلة اجتماعاً دينيا فى مدينة كابل فطاف علينا صاحب المنزل بطبق فيه مثل حب الهال ،وكان كل منا يتناول حبة ويأكلها فكنت كذلك ولكنى إذ مضغت هذه الحبة لم أكد أسيغها طعما وريحا فسألت من هو بجانبى عن كنه تلك الحبة ؟؟ فقال : هذه قطعة من لحم رافضى يدين بمذهب خامس ، وأصحاب الزوايا إذا ظفروا برجل من أتباع هذا المذهب قتلوه ثم جففوا لحمه وقطعوه كما ترى ليطوفوا به على رواد زواياهم عند الذكر تقرباً إلى الله بأكله »

فليسمع من له أذنان ، وليفكر من له عقل فى المسلمين إلى أية مرحلة بلغ بهم الجهل والسفه فى الحياة من وراء تفرقهم فى الدين ، لهذا كنت مغتبطاً إذ وردت مصر واجتمعت إلى نفر صالح من علمائها يديرون مؤسسة تدعى : « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ويصدرون صحيفة باسم « رسالة الإسلام » ناطقة بلسان أولئك الجماعة وحافلة بروائع الفكر الحديث فى الإسلام بأقلام مفكرين معتدلين مخلصون للحق فيما يكتبون ، عاملين على تنزيه الإسلام من أوضار الفرقة فى أهله ، وقد عززوا هذه الصحيفة بمؤسسة علمية أسموها « معهد الدراسات الإسلامية العليا » ولقد شهدت بعض ندوات هذه المؤسسة وسمعت أقوال الاعلام من رجالها .

ولقد تحدث إلىّ باعث هذه الفكرة العلامة الشيخ محمد تقى القمى الإيرانى القائم على هاتين المؤسستين الصحيفة والمعهد،قال : الحقيقة أنا لم نقدم على هذه المهمة الإسلامية للتقريب بين مذاهب أهل السنة أو مذاهب أهل الشيعة ، وإنما عملنا يستهدف للتقريب أولاً وقبل كل شئ بين مذهبى السنة والشيعة على إطلاقهما لأنهما المذهبان الوحيدان اللذان يتقوم بهما الدين الإسلامى ، وتباعد ما بين المذهبين لم ينشأ عن جعفر بن محمد الصادق إمام الشيعة ، ولا عن أبى حنيفة وزملائه من أئمة السنة،لأنهم كانوا قدوة صالحة فى تقدير بعضهم بعضاً ، ولكن التباعد نشأ من أتباعهم وبعد قرون مرت على زوالهم ، واعتقد أن للدخلاء على الإسلام

قبلا وبعداً كل ما أوجب الفرقة بينهم ، فعسى أن نتوفق لإزالة هذا السم الخبيث المتأصل فى نفوسهم من رواسب ذلك الدس »

أقرأ على الدوام بعض الصحف الإسلامية فى القاهرة وخاصة مجلة لواء الإسلام ، وأخرج منها بأن الإسلام قاصر على المذاهب الأربعة ، إذ يجيب محرروها ما يلقى عليهم القراء من أسئلة تتعلق بأحكام الإسلام ، يجيبونهم بفتاوى قاصرة على الأئمة الأربعة : أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد ابن حنبل ، ولم أجد أحداً منهم يجيب السائل بفتوى جعفر الصادق وهو معلم الأئمة الأربعة ومحل تقديرهم ، فكنت إذ ذاك أتساءل ونفسى : لماذا هذا ؟؟ أليست هذه فرقة فى الدين ؟؟ ثم صممت على سؤال المجلة بفحوى ما أنكرته عليها من ذلك فكتبت للصحيفة ما يلى :

اخوانى الأفاضل محررى ندوة لواء الإسلام

أراكم فى إصدار الفتاوى الشرعية لسائليكم من قراء المجلة تحصرون هذه الفتاوى بالأئمة الأربعة وتهملون الإمام جعفر بن محمد الصادق الذى نقلتم فى مجلتكم هذه إكبار الإمام أبى حنيفة له بقوله : ما دخلت على جعفر بن محمد إلا وجدته صائماً أو مصلياً أو يقرأ القرآن وانكم لتعلمون أن فقه جعفر هذا يدين لله به من المسلمين ما يزيد على خمسين مليوناً ، ولعل أتباعه يربون على اتباع أحد الأئمة الأربعة ، وتعلمون أيضاً أن المكتبات الإسلامية مشحونة بفقه جعفر ، وأن مدارس النجف حيث يرقد بطل الإسلام على تضم عشرات الألوف من رواد الفقه الجعفرى منذ قرون ، وان لجعفر هذا آراء يرتضيها بعض أهل السنة فوق ما يرتضى آراء تناقضها فى المذاهب الأخرى .

وتعلمون أيضاً أن التنكر لهذا العدد الذى يناهز الخمس أو السدس من مجموع الأمة الإسلامية والذى يطلق عليه اسم الشيعة الإمامية الجعفرية ، ان هذا التنكر يسيئ إلى الوحدة الإسلامية القائمة على قوله تعالى : أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، وقوله عز من قائل : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ » فلم لا تتقربون فى فتاواكم هذه من الشيعة لتقربوهم إليكم ، ثم لم لم تتجاوبوا معهم فى تجديد الفقه الإسلامى ؟؟ ولم لم تدعوا لتعزيز جماعة التقريب

بين المذاهب الإسلامية ؟ وبعد ذلك لم لم تنادوا بضرورة المؤتمرات العلمية لتعزيز الفقه الإسلامى فى الأزهر وتدعوا أعيان علمائهم ليشهدوها ويسهموا فى تعزيزها ثم يعمدوا هم لعقد مثل هذه المؤتمرات فى النجف ويدعوكم لتشهدوها وتسهموا فى تعزيزها ؟؟

انى أرى أن فى الطليعة من صحف الإسلام مجلة الأزهر ومجلتكم ومجلة رسالة الإسلام ، فلم لم تتضامن هذه الصحف فى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بتوحيد هذه المذاهب التى تتفق وأصول الإسلام ثم تختلف بالفروع التى هى إلى القشور أقرب منها إلى اللباب؟؟ لم لم تتركوا هؤلاء الأئمة مرتاحين فى مراقدهم لايقلقهم تناحرنا باسم المذاهب التى لم يشرعوها لنا إلا لنتحد فى حظيرة الإسلام وننضوى تحت لوائه ، ألا يصح لى أن أكون مسلماً ومسلماً فقط ؟؟ دون أن أكون حنفياً أو جعفرياً ؟؟ إذن ماذا كان محمد وأصحابه الأبرار فيما يدينون لله به ؟؟

ولقد وقفت على شواهد من هذا التناحر بين أتباع كل مذهب وأشياع المذاهب الأخرى مالو شرحته فى هذا السفر لخرجت من دينى ، لأن تصور صدور هذه الأجرام التى يقترفها معتنقو كل مذهب ضد معتنقى المذاهب الأخرى أقول : ان مجرد تصور تلك الجرائم يبرأ الإسلام منها إلى باعثه ويناجيه أخيراً كما ناجاه أولا بقوله : ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ ..

وحسبى أن أنقل شاهداً واحداً هو بين سمعكم وبصركم ، ان الدكتور على عبد الواحد وافى روى لى أنه كان فى العراق يسمع بأذنيه شتم آل البيت من بعض أهل السنة لأنهم يعتقدون أن الشيعة يلعنون أبا بكر وعمر ، فمن هو هذا المسلم الذى يلعن آل بيت الرسول ؟؟ ثم من هو هذا المسلم الآخر الذى يلعن عمر ؟؟ هل هما مسلمان ، وهل الإسلام حملهما على ذلك أم الفرقة فى الإسلام التى هى وحدها اختلاف المذاهب؟؟ هل أوصى جعفر بن محمد الصادق إلى شيعته بلعن عمر أم أوصى أبو حنيفة أتباعه أن يلعنوا أهل البيت ؟؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ...

محمد

لا فَضْلَ لِعَرَبيٍّ على عَجَميٍّ وَلا لِعَجميٍّ على عَرَبيٍّ ، وَلا لأَحمرَ على أَسودَ وَلا لأَسْوَدَ على أَحْمرَ إلا بالتّقوى . .

هذا كلام خليق بأن يقوله محمد لأنه وليد قول الله تعالى : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ولأنه دليل على أن قائله مرسل من ربه إلى الناس كافة لا لصنف منهم دون آخر ، ومن أعجب ما سمعت قول الشيخ محمد أبى زهرة أحد علماء الأزهر ، وهو يتكلم على منبر الشباب المسلم فى القاهرة ليلة الهجرة النبوية قال : أن السر فى الهجرة من مكة إلى المدينة ، ومؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار برهان على أن هذا الدين لا مكان له ولا قومية فهو مشاع للإنسانية أينما كانت وحيثما نبتت ، ثم استشهد بالحديث الذى يدور حوله هذا البحث .

وإنما كان هذا القول عجيباً لدىّ لأنى شهدت المتكلم الذى أقر هذا الحديث وحبذه ، شهدته يقر الحديث المروى عن أبى بكر أنه قال فى حجاجه الأنصار يوم البيعة تحت السقيفة : الخلافة فى قريش ، ولأنى سألته عن مبلغ الصحة فى الحديث القائل : اختار الله من العالم العرب ومن العرب مضر ومن مضر هاشم واختارنى من هاشم فأنا خيار لخيار من خيار، فأقره

فكيف نلائم بين هذا وبين ذاك ؟؟ أكرم الناس على الله أتقاهم فالخلافة ينبغى أن تكون فى الأبر الأتقى لا فى قريش ، والخيرة لله فى العالم لا تخص عنصراً ولا شخصاً وإلا لكان الجبر فى الخلق ، فهل خلق الله الناس من طين وخلق العرب من ذهب ؟؟ وهل كانت قريش من جوهر والعرب من خزف ؟؟ أم كلنا لآدم وآدم من تراب ؟؟ وما أعظم ما قاله على وهو يجهز الرسول للدفن عندما بلغه قول أبى بكر « الخلافة فى قريش » فقال : إذن نحن أولى منه لأنا من هاشم وهاشم أقرب إلى الرسول من قريش » وكان الإمام ينكر أن تكون هذه الخلافة فى قريش وإنما يجب أن تكون فى الأبر الأتقى .

يخطئ كل من يفضل العرب على العجم ، كما يخطئ كل من يفضل قريشا على غيرها فى الخلافة إذا لم يكن مناط هذه الخلافة فضيلة وتقوى سائدتين فى الخليفة على فضيلة غيره وتقواه إذ يقول الله : ولا ينال عهدى الظالمين ، يقول هذا لابراهيم إذ طلب من ربه جعل هذا العهد فى ذريته ، وان حديث : الخلافة فى قريش مكذوب على أبى بكر لا على رسول الله لأن مفتريه يرمى إلى هدم الإسلام حيث انتهت فيه الخلافة إلى معاوية فأثار بالعصبية العربية عصبيات الأعاجم وأطاح بروعة الإسلام فى قوله صلوات الله عليه : لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

هذا الحديث هو الذى مشى بالقرشيين قادة حتى انتهوا إلى معاوية وابنه يزيد وأبنائه من بعده إلى مروان الحمار ، وهو الذى انتهى بالهاشميين قادة حتى انتهوا إلى آغاخان الذى هو الإمام الأربعون عند ملايين من المسلمين يقدسونه ويعتقدون فيه الحلول ، لو كانت الخلافة بعد محمد محصورة فى قريش لما مات دون أن يصدع بها ، ولما فارق الحياة حتى أوقف على منبر الخلافة قرشياً وهو يقول : هذا هو الخليفة عليكم من بعدى ، ولوقف من الخلافة موقفه من النبوة وهو واثق من أن الله يعصمه من الناس .

ان الكتاب الكريم قد أوضح أمر الخلافة بقوله : « لا ينال عهدى الظالمين » وهل هناك أصرح من هذا فى وجوب كون الولى لعهد الله هو أفضل الخلق بعد نبيه ؟؟ فلينظروا الأفضل ويلقوا إليه مقاليد أمورهم سواء كان عربياً أو عجمياً ، والغريب فى أمر هؤلاء الذين يصححون مثل هذه الأحاديث التى وضعها بنو أمية ليعززوا دعوتهم إلى العروبة دون الإسلام ، كيف يصححون مثل هذه الأحاديث فيجعلوا العرب خير الناس لأنه خرج منهم خير الناس محمد ثم يقرأون قوله تعالى : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى »

ولو كان طيب محمد من طيب عنصره لما عدا هذا الطيب عمه أبا لهب ، ولكان هذا الطيب منحدراً من صلبه حتى نال آغاخان فحال بينه وبين أن ينفق ملايين الدنانير يوم زواجه من المؤمنة الصالحة « ريتا هايوارت » ولو كان فضل قريش هو الذى يؤهلها للخلافة لما كانت قريش أجرأ الناس على تكذيب محمد

ونبذه وتشريده ثم تعذيب أصحابه بالنار والحديد ، وأغرب من هذا كله أن العنصريين من العرب يفسرون قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقوله : جعلناكم أمة وسطا .. بأن الأمة هى أمة العرب ولم يلتفتوا إلى التناقض إذن فى الآيات ، وبأدنى تفكير يصلون إلى الحق فى أن المقصود هنا بالأمة أمة محمد التى خلفت أمم الأنبياء قبله فان عصره خير العصور وأمته خير الأمم ، ولم يقل أحد أبداً فى التفاسير الحقة أن المعنى بأمة محمد هى أمة العرب ،وأما كونها وسطا فلأنها وسط بين الدنيا والآخرة إذ بعث نبيها بين يدى الساعة .

ولقد برهن العرب بعد محمد على أنهم ليسوا بأهل لحمل رسالته إذ لم يمر بهم قرن واحد حتى خذلوا هذه الرسالة ، وحتى نازع بعضهم بعضاً على الملك وتبددوا شيعاً فى الأرض ، وحتى الآن نرى المسلمين الأعاجم خيراً لحمل رسالة محمد من العرب فان العرب لاينهدون إلى مائة مليون ، وقد تفرقوا إلى دول عشر بينما نجد معاصريهم من المسلمين الأعاجم كأندنوسيا والباكستان لم ينحدروا انحدارهم فى الفرقة والتنابذ ، ثم بعد ذلك نتساءل وأنفسنا : هل للعرب رسالة غير الإسلام ؟؟ فأين احتفاظهم بهذه الرسالة ؟؟ وكيف يضمنون لصوتهم السيادة فى العالم إذا لم يضطلعوا بعبء الرسالة التى جاء بها محمد ؟؟

ومن يقول : إن العرب خير أمة أخرجت للناس ؟؟ القرآن يخاطب المسلمين بذلك لا العرب ، انه لم يقل أبداً أيها العرب وإنما يقول أبداً أيها الناس ، أيها المؤمنون ، ألكون محمد من العرب كان العرب خير الناس ؟؟ وإذا كان الله قد اختار من بنى آدم العرب ، كما يرويه الحديث الأموى الموضوع : فلم خاطب الله بنى إسرائيل بقوله : أنى فضلتكم على العالمين ، أفلم يكن العرب يومئذ من العالمين ؟؟ ولم نفضل العرب على السكسون أو الجرمان أو السلافيين ، وها هى مدنيتهم فضلت ، ألف مرة ، مدنية العرب حكمة وعلما ؟؟ أى العرب قاد العالم قيادة غاندى ؟؟ وأيهم ساسه سياسة الاسكندر ، وأى علماء العرب فضل بعقله انشتين أو ماركونى أو أديسن ؟؟ تقولون : محمد فالجواب : ان محمداً رسول وعلمه لاهوتى ورسالته سماوية ، ولقد سبقه كثير من الرسل كانوا كمحمد فى كونهم يمتازون عن البشر برسالاتهم اللابشرية .

ان محمداً أفضل البشر برسالته لابقومه ، ورسالته هذه لم تكن وليدة الأرض التى نبت فيها ، ولا الأمة التى تحدر منها ، ولكنها وليدة خالق الأرض والسماء الذى يتعهد خلقه بنواميسه زمناً بعد زمن على أيدى وألسنة من أهلّتهم لحمل هذه النواميس عناية الله بهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته من أفراد خلقه لا من شعوب أرضه ، ففى كل أرض ينبت الصالح والفاسد معاً . ولله فى خلقه شؤن حيث يقول : ومن الأرض قطع متجاورات وزرع ونخل تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل »

وآخر القول : إذا كانت أمة العرب هى خير أمة أخرجت للناس فما بالها نامت تحت وطء الزمن واستيقظ غيرها ؟؟ لماذا انحدرت فى زمن بلغ العالم فيه ، إلا العرب ، مبلغاً لم يحلم به مجد العرب من قبل ولا من بعد ؟؟ أفيتخيل العرب بساط الريح ، ونور الكهرباء ، ودفع البخار ، ونجىّ الواحى ، وتفجير الذرة ويحقق ذلك كله غير العرب ثم نتشدق بأن أمة العرب هى خير الأمم ونسخر لهذا التشدق قول الله وقول رسوله ، ؟؟ إنا إذن من السفه لفى سبات عميق .

ان العالم العلوى اليوم ، وأعنى به عالم العلم ، يتنادى على رأس كل عام ليأتمر فى أنبغ رجل عالمى ليمنحه شهادة الشرف « نوبل » وهى الشهادة التى تحمل إقرار هذا العالم بسمو من ينالها على غيره فى العلوم أو الفنون أو الآداب ، فهى كما تمنح شهادتها تلك للرجل الشرقى كتاغور الشاعر وغاندى الحكيم ، كذلك تمنحها للرجل الغربى كجورج برناردشو الأديب وأنشتين العالم ، فهل كان السر فى نبوغ تاغور أو غاندى هو تفوق العنصر السنسكريتى على غيره من العناصر فى الشرق ؟؟ أم هل كانت جرمانية «انشتين» و«سكبسونية» برناردشو أشرف خلقاً من غيرهما فى عناصر الغرب ؟؟ أم هل نجول ونصول فى حلبات القول ثم نعود فنطمئن إلى قول محمد : كلكم لآدم وآدم من تراب » إذن فالسر كله فى هذا التراب .

علي لبئسَ المَتْجَرُ أنْ تَرى الدُّنيا لِنفسِكَ ثمناً

أول ما فتحت عيني على حياتي الشاعرة ، كنت معجباً بما أستظهره من الشعر المنسوب للإمام الشافعي وهو قوله :

أمطري لؤلؤاً جبـــال سرنديب وفيضي آبار تكروت تبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا

وتمر بي سنون وفي نفسي من هذه الأبيات أثر لايزحزحه أي أثر من مكانه ، حتى أملى عليّ بعض أساتذتي بيتين من الشعر في عزة النفس وهما :

عليّ ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

فسألت الراوي عن قائلها فقال هو نفس الشافعي أيضاً ، فازدادت عندي منزلة الإمام الشافعي سمواً وعلواً ، ولما قرأت نهج البلاغة ووقفت على قول أبي الأئمة فيه : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً » ثم علمت أن الشافعي ينتسب للإمام علي فقلت : انها بلاغة آل محمد لم تزل تتحدر في أصلابهم حتى خاطبهم الشاعر بقوله :

ورثوا السيادة كابراً عن كابر فهم كعقد الدر جل الناظم

هذه الأبيات قصمت ظهري في الدنيا ، فما تنفس لي صبح عن بصيص أمل في دنياي إلا عرضت لي هذه الأبيات فزوت نفسي عن ذلك البصيص ، لأن حياة في هذه الدنيا يصيبها الإنسان عن طريق العفة والإباء لم توجد في هذا العالم القائم على التملق والخسة والغدر والهوان ، أذكر أن حفلا أقيم لي في ديترويت مشغن بولايات أمريكا المتحدة عام إحدى وثلاثين وشاء القائمون على الحفل أن يدعوا للتبرع في سبيل تكريمي ، وكان نزول الخبر علي كالصاعقة إذ علمت أنهم سيفعلون ذلك بين سمعي وبصري ، واعترضتني إذ ذاك أبيات الإمام

الشافعى فأبيت وأصررت رغم أن الحفل إنما أقيم لهذه الغاية وأنها لن تكون بغير ذلك ففضلت أن أعود كما دخلت على أن أتحمل هوان التبرع لمساعدتى وأنا شاهد ، وعلى أن أتناسى ما أستظهره من الشعر الذى خالط لحمى ودمى فى الإباء .

ولقد أشرفت على أن أدخل برلمان لبنان أو أن أظفر بما يعزز دنياى من المسيطر الافرنسى الذى لم يصل إلى برلمان لبنان أحد إلا من وراء ركوعه بين يدى ذلك المسيطر ولا يزال هذا الركوع إلى الآن سبباً أول فى سيطرة هذه الفئة على الحكم والتمثيل فى لبنان ، لأنها لا تزال قائمة فى مجالس الحكم على الرواسب فى نفوس الشعب الذى أذلوه فاستخذى لهم بالجهل والفقر والذل ، لقد كنت ، وأنا أصدر مجلة العروبة وأقود حزب الإصلاح ، وأعمر النادى الحسينى ، أقول : لقد كنت قريباً من كل ما أطمح إليه فى سبيل حياتى الدنيا لو حملت نفسى على ما ينصحنى به صديق قريب من المسيطر الأول ، وكنت كلما فكرت فى هذه النصائح وجال فى خاطرى المثل السائد فى أخلاف معاوية بن أبى سفيان على لسان ميكافيللى من أن الغاية تبرر الواسطة ، عرض لى قول الشافعى هذا فلفظت القلم وعفت الدواة وفزعت إلى قول الإمام : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا .

يقول لى الأمير شكيب أرسلان رحمه الله ، وأنا ضيفه فى لوزان من أعمال سويسرا أيام عودتى من أمريكا ، يقول لى ، ونحن نستعرض جهاد الثائرين العرب على الاستعمار فى عهد فيصل بن الحسين الهاشمى ، قال : لم يحلل من نفسى محل التجلة والإكبار أحد كالسيد عبد الحسين شرف الدين الذى قاد ثورة جبل عامل على الافرنسيين سنة ١٩١٩ ، والذى ورد إلى دمشق بعد قمع الثورة متوارياً وفيصل ملك عليها ، قال الأمير : لقد بعث الملك ببدرة فيها خمسة آلاف دينار من الذهب إلى السيد هذا بيد ناموسه الخاص احسان الجابرى فرفض السيد قبول البدرة وقال : نحن لم نثر على العدو من أجل المال ولكنها عقيدة دينية نستجيب لها كلما خشينا على تراث محمد أن يصاب» يقول الأمير : ان ذلك مما أكبر هذا السيد فى نفسى ، وسأتحدث بخلته هذه ما حييت .

لقد بقى قول الأمير قلقاً فى نفسى حتى أجتمع إلى السيد إحسان الجابرى

وآخذ الخبر من مصدره ، ويشاء الله أن أمر بحلب وأنا فى طريقى إلى العراق ، وأن يدعونى السيد الجابرى إلى منزله وأن أتحدث إليه بما سمعت فقال : إن الأمير روى لك ما قصصته أنا عليه وأن السيد الجليل رفض المال باباء ونحن نعلم أنه طريد مشرد وفقير ، ولدى ان أعدت المال إلى الملك وقف إجلالا له ثم قال : هذا ما لم أعهده فى حياتى ولم يمرر بى رجل ممن احترم فى رجال الأمة من يحمل هذا الإباء ويتحلى بهذه الكرامة »

وينقل لى السيد طعان وهو من خلطاء المرحوم كامل الأسعد زعيم جبل عامل أيام هذه الثورة قال : خرجنا عندما ظفر الجيش الافرنسى بالثورة وشرد الثائرين ، خرجنا لاجئين إلى الشام حيث كان الملك الهاشمى فيصل ، وكنا قرابة أربعين شخصاً نحدق بالزعيم الأسعد ، وليس معنا من المال إلا النزر اليسير ، وقد كان الزعيم حيث حل ينتظم مجلسه وسماطه الجماعات التى لا تحدق إلا بموائد الملوك والأمراء .

يقول السيد طعان هذا : ان فى الشام أسرة من آل الجارود يدعون القربى من الوائليين الذين هم أصل لعشيرة الأسعديين ، ولعل زعيمهم الجارودى أحس بحاجة الزعيم إلى المال فجاء ببدرة من الذهب ينوء بحملها بعض خدمه ثم وضعها على المنضدة أمام الزعيم قائلا : هذا قرض منى لك ترده على لدى عودك إلى أهلك فظهرت علامات الغضب على وجه الزعيم ولكنه كبت نفسه الثائرة وشكر قريبه ثم قال : ان إقدامك على مثل هذا دون أن تأخذ رأيى لجرأة ما فوقها جرأة ولقد كان جزاؤك كبيراً لولا الرحم . فاحمل مالك وإياك أن تعود إلى ما فعلت »

قال السيد طعان : ولما خرج الرجل كاسف البال أحدقنا بالزعيم ناقمين إذ لم يبق معنا ما يسد العوز ثم قلت له ، وكنت مُدلا عليه ، ما يمنع عطوفتك من قبول هذا المال وهو قرض ، فان أيدينا صفرت من المال ونفقاتنا باهظة وقد تمتد بنا الهجرة شهوراً فماذا نصنع يا سيدى ؟؟ فنظر فى وجهى محدقاً ثم قال : إلى الآن لم تعلم أنى مخلوق لأعطى لا لآخذ يا طعان ؟؟ وان نفسى لتأبى أن أمد يدى لقرض أو هدية من طريق لا أطمئن معه إلى عزتها وكرامتها »

ومن طريف ما أذكر فى معرض الإباء وكرامته على النفس الشريفة : أن

العلامة شرف الدين السابق الذكر أسس معهداً للعلوم فى جبل عامل من جنوب لبنان ، وناشد رئيس الجمهورية العون لهذا المعهد من المال المخصص للمعاهد الحرة ، فبعث إليه الرئيس بشئ ضئيل بينما أموال الدولة تتدفق على معاهد الإرساليات التبشرية فى لبنان ، فأعاد السيد إلى الرئيس هبته مصحوبة ببرقية فيها أبيات من الشعر أظنها لأحد أجداده الشريف الرضى ، قال :

أخطأت فى طلبى وأخطأ فى ردى ، ورد يدى بغير يد
فلأجعلن عقـــوبتى أبداً أن لا أمد يدى إلى أحـــد
فتكون أول زلـــة سبقت منى وآخــــرها إلى الأبد

وتتجاوب أصداء هذه البرقية فى الآفاق العربية حتى صكت مسامع العامليين فى المهجر الأفريقى ، فتنادوا لإغاثة المعهد الجعفرى الذى حمل السيد على تنازله بالطلب ، فتطوع المهاجرون له بمليون دينار لبنانى كانت نواة لكلية داخلية فى مدينة صور لا تزال منذ عشر سنوات تضرب الرقم القياسى فى رقيها وتقدمها تحت سماء لبنان .

فالإمام الشافعى والعلامة شرف الدين لم يأتيا بدعاً بالتضحية فى سبيل الحرص على كرامة النفس لأنهما تحدرا من صلب من طلق الدنيا ثلاثاً وهو يقول : لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً .

الله — قُلْ لَا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إِلا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى

يتمحك بعض المفسرين فى صرف هذه الآية الكريمة عن أهل بيت الرسول تعصباً للأمويين فى العهد الأول ، وعداء للشيعة المتفانين فى حب آل البيت فيما تلا ذلك العهد من عهود ، فيفسرون القربى بالرحم المطلق أى أن الرسول مأمور بأن يطلب أجراً منا على تبليغ رسالته أن نحب أرحامنا ، لأن التواد فى الأسرة أساس عمران المجتمع وهذا ما يدعو إليه الدين ، وأكثر المفسرين على أنه صلوات الله عليه مأمور فى هذه الآية أن يطلب منا أجره على التبليغ محبة أهله وذوى قرباه ، وقد أجمع المسلمون على وجوب هذه المحبة ولكنهم لم يفكروا فى السر من هذا الغرض ، وحتى المفسرون لم يذكروا السبب الذى من أجله أمر الله رسوله أن يطلب ذلك منا .

ولقد اختلفوا فى تحديد هذه القربى وفى تعيين أهل البيت الذين طهرهم الله فى كتابه الكريم ، فمنهم من يطلقه على من آوى إليه النبى فى مسكنه من نسائه وأبنائه ، ومنهم من قصر أهل البيت والقربى على على وفاطمة والحسن والحسين وهم الذين قدمهم بين يديه عند المباهلة ، ومنهم من أبعد فى ذلك فجعل سلالة الرسول من على وأبنائه جميعاً هم أهل بيته وقرباه ، حتى رووا عنه صلوات الله عليه قوله : أكرموا تقيهم لله وشقيهم لى ، فعلى هذه الرواية نحن مأمورون بمحبة من تحدر منه شقياً كان أو تقياً .

هذه أقوال ثلاثة ، أما الأول فمن غلاة الأمويين فى كره على وأهله ، وأما الأخير فمن غلاة الشيعة فى حب على وأهله ، وأما الوسط فعليه يقوم هذا البحث فى تعليل هذا الحب والأمر به من الله ، والقائلون به أيضاً على خلاف ، بعضهم حصر القربى فى أولئك الذين قدمهم بين يديه وهو يباهل ، وبعضهم تجاوز هؤلاء إلى ما شاء الله من أعقابهم على أن يكونوا فى المنزلة الأولى من الأمة علماً وتقى وشجاعة وهم الشيعة الزيدية ،ومنهم من حصر القربى فى اثنى عشر إماماً

يبدؤهم على ويختمهم محمد بن الحسن العسكرى ، وهم الشيعة الجعفرية ، ومنهم غير أولئك كالاسماعيلية والبهرية والنصيرية وكثير أمثال هؤلاء الذين لايستحقون البحث .

فالاعتدال كائن فى الوسط وهم الشيعة الجعفرية الذين يعتبرون القربى من الرسول هم الأوصياء الاثنى عشر إماماً المرضى عنهم لدى الفرقتين الاسلاميتين الكبيرتين وهما أهل السنة والشيعة الجعفريون ، هؤلاء الأئمة هم : على والحسن والحسين وزين العابدين على بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضى ومحمد الجواد وعلى الهادى والحسن العسكرى ومحمد بن الحسن ، ويعتقدون بما ثبت لديهم من النص أن لكل رسول من أولى العزم أوصياء اثنى عشر يعززون رسالته من بعده حتى تتمكن من هيمنتها على العالم .

هذه النقطة على ما أعتقد ، هى السر فى وجوب محبتهم ، أعنى أن محمداً إنما سألنا أن نحب قرباه الذين تأثروه بعد موته ، لأنهم حملة رسالته والقائمون عليها تعزيزاً وحرصاً وتدوينا ، والذين يدفعون عنها كل غائلة تضطرهم للتضحية فى سبيل تلك الرسالة بأعز ما عندهم وهو النفس ، لذلك نجد أكثر أهل البيت هؤلاء ذهب ضحية الحرص على الدين والاحتفاظ برسالته إما قتلا أو سما ، ولقد رأيت أسماء هؤلاء الأئمة مثبتة على دعائم الحرم النبوى مع أسماء الخلفاء الراشدين فعلمت أنهم عند رضى المسلمين جميعاً ، كما قرأت تراجمهم فى كتب التاريخ الإسلامى محفوفة بالتجلة والإكبار من جميع المسلمين علىاختلاف نحلهم ومللهم .

فى عقيدتى أن محمداً أراد بأهل بيته وقرباه المفروض علينا محبتهم والصلاة عليهم فى صلواتنا كما ذهب إلى ذلك كثير من الفقهاء الأعلام ، أقول : إنما أراد محمد بأهل بيته ، وهو يدعونا إلى محبتهم ، أراد هؤلاء الذين تضافروا من بعده على تعزيز رسالته ورعايتها من العبث والدفاع عنها كل من سولت له نفسه بالتنكر لها والانتقاص منها ، ولقد رشحهم لذلك إذ قال فى أولهم : أقضاكم على » هذا فى معرض الحكم والفصل فى أحكام الدين ، وقوله : أنا مدينة العلم وعلى بابها » فى معرض الفقه فى الدين ، وقوله : على منى وأنا من

على » فى معرض الحرص على ناموس الدين والفناء فيه ، وقوله : من كنت مولاه فعلى مولاه » فى معرض السيادة والقيادة ، ثم لم يقل هذا أو مثله لأحد من الصحابة قط ،وأما ما رواه بعض المجانين من أن النبي قال : معاوية منى وأنا من معاوية فالرد عليه من الجنون ..

ولقد قام الإمام على بوظيفته خير قيام إذ راقب السير فى تعزيز هذه الرسالة على عهد أبى بكر فرضى عنه وشد أزر الخليفة بما يحفظ على الدين تأييده وانتشاره والتضحية فى سبيله ، ثم راقب السير على عهد عمر فرضى عنه وشد أزره فكان الخليفة الثانى لا يأتى أمراً جليلا إلا بمشورة على حتى روى عنه قوله : لا أبقانى الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، وهكذا استمر فى رعايته ناموس الدين على عهد الخليفة الثالث عثمان فكان منه ما أنكر الإمام عليه كونه ، فأخلص له النصح وبالغ فى دعوته إلى الله ورسوله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم يجد ذلك فقعد عنه ولم يؤذه ولكنه لم يكن منه مكانه من الشيخين فكان آخر الأمر ما كان .

أرجو أن يعتبرنى القارئ وأنا أستطرد فى بحثى هذا إلى أشياء قد يظن معها أنى طائفى أتحيز لفرقة ما من فرق المسلمين ، أقول : أرجو أن يعتبرنى مسلماً فقط كما اخترت لنفسى منذ فقهت الإسلام ورأيت الشذوذ من الفرقتين الشيعة والسنة على السواء وحملت عليهما معاً فى عدد من مؤلفاتى كوحى الرافدين و « من يسمع » وغيرهما،لقد أخذت على كلتا الطائفتين هنات أكبرت الأئمة الخمسة عنها فرجعت إلى ما كان عليه المسلمون قبل هذه المذاهب ، آخذ منها ما أعقل وأثق من صدوره عن الله ورسوله ، وأترك مالا أثق به من أسانيد يريدون منا أن نعمل بها تعبداً دونما رجوع فيها إلى عقل أو إلى تمحيص نقل ، فانا مسلم فقط ، أفلا يمكن للأنسان أن يكون مسلماً وحسب ؟؟

ولنعد إلى صميم البحث . هؤلاء النفر الذين عناهم الرسول بقوله : انى تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتى أهل بيتى .. » كما رواه أحمد فى مسنده وكما يرويه جعفر عن آبائه ، وفى رواية إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى الخ .. أقول : هؤلاء النفر الذين يبدأون بعلى وينتهون بالإمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكرى وقد رأيت أسماءهم

مثبتة فوق دعائم الحرم النبوى المقدس كما مر فسألت متجاهلا ، الشيخ صالح القزاز وهو القيم على الحرم ويكاد يكون أتقى وأبر مسلم عرفته فى الحجاز ، سألته عن هؤلاء الذين يشاركون رسول الله والخلفاء الراشدين فى قيام أسمائهم على أروقة الحرم القدسى فقال : هم أهل بيت رسول الله .

وعلمت آخر الأمر أن رسول الله لا يدعونا لمحبتهم إلا لأمر عظيم ، ولا عظمة عنده لأمر إلا فيما يدين لله به ، لذلك نجدهم فى سيرهم يرقبون كل من توسد الأمر لحكم أو سلطان بعد رسول الله ، فان عدل وآمن وصدر فى قوله وعمله عن كتاب الله وسنة رسوله وثقوا به وعززوه ونصروه . وإن جار وبغى واعتسف واتخذ دينه هواه ثاروا عليه كثورة على على معاوية وثورة الحسين على يزيد ، أو قعدوا عنه كقعود على عن عثمان وقعود بقية الأئمة عمن أعقب معاوية ومن جاء بعده من ملك عضوض ، وخلال قعودهم كانوا عاملين على تثبيت الإيمان بالله ورسوله فى صدور أتباعهم ، وتسجيل ما يفصل إجمال القرآن بالسنة الصحيحة التى يروونها عن آبائهم وأجدادهم إلى رسول الله ، هذا هو السر فى عناية الله بهم وأمره نبيه فى أن يسألنا الأجر على تبليغ رسالته محبتهم والاعتصام بهم .

ولقد عجبت ، وأنا مسلم صريح ، من أن « صحيح البخارى » ويكاد يكون الثقة الأولى فى نفوس أهل السنة يتقبل الحديث المسند إلى رسول الله عن معاوية بن أبى سفيان مراراً وعن أمثال أبى هريرة صاحب الغرائب فى رواياته ، ثم لا نجده يروى عن جعفر بن محمد الملقب بالصادق عند المسلمين جميعاً ، لماذا هذا ؟؟ وإلى أى مدى تردى المسلمون بعد نبيهم ولما يزل غضاً فى قبره ؟؟

محمد

عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمَانِهِ.
لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَه.

ذكرت بهذين الحديثين إحدى ليالى الشهر العابر من هذه السنة التى أحرر فيها كتابى هذا ، كنت أجلس تلك الليلة وحدى فى مصر الجديدة وليس لى سمير غير الواحى « الراديو » إذ كان أهلى فى مصيف لبنان ، وإذا بى أسمع مذيع الشرق الأدنى يقول : لقد منحت حكومة العراق مائة فدان فى ضواحى بغداد « للآباء اليسوعيين » وهم النفر الذين يؤلفون إرسالية التبشير الافرنسى البغيض ، يقول : منحتهم الحكومة تلك الرقعة ليبنوا عليها كلية للعلوم والفنون .

لقد صعقت من هذا ، وكنت أقرأ قبله بأيام ، اجتماع اللجنة السياسية للجامعة العربية بدعوة من العراق لمقاطعة فرنسا « ثقافياً » واقتصادياً وسياسياً ، وأن اللجنة أجلت البث فى الموضوع فخرج مندوب العراق وهو صاخب ثم أعلن وزير الخارجية العراقى للصحف : أن بعض الدول العربية أبت تنفيذ هذا الاقتراح وهو فى صميم العروبة » ، فليسمع من له أذنان : مندوب العراق فى الجامعة العربية يقترح مقاطعة فرنسا ثقافياً ، وحكومته فى بغداد تمنح هبة لأشد الإرساليات التبشيرية وطأ على العروبة والإسلام وأفظعها كيداً بما تدس فى تثقيفها النشء العربى على دين محمد وعروبته ، تمنحه مائة فدان فى بغداد ليعزز رسالته هذه القائمة على الدس والتضليل .

والله يشهد أنى أمعنت ملياً فى التفكير بما يجرى فى الأمة العربية من محن على أيدى رجالها وقادتها الأول ، ثم رحت أتساءل ونفسى : أيجهل العراق أعمال هذه الفئة فى عالمنا العربى وخصوصاً لبنان الذى هو بين سمعنا وبصرنا ، فقد تخرج فيه على أيدى هؤلاء السماسرة للاستعمار آلاف من شباب لبنان مسلميه ونصاراه كانوا ولا يزالون شجى فى حلق العروبة وشوكة فى عين لبنان كما كانوا ولا يزالون إلى ساعتنا هذه أداة للاستعمار الفرنسى بين عيون تجس.

وأيد تتحسس من مواطن الضعف الآخذ بأسباب الرقى واليقظة فينا ، لا يزال لبنان وقد مر على انسلاخه من الجسد التركى المقيت عشرات السنين ، أقول : لا يزال هذا القطر الجميل مشوّه الجمال بما يسود أهله من فرقة وتباغض وتناحر باسم الدين على أيدى منظمة الآباء اليسوعيين .

وعمدت صباح ليلتى تلك إلى التفكير فيمن أكتب إليه من العراق لأطمئن : أحقيقة هذا أم هو خبر يحتاج إلى تحقيق ؟؟ فلم أجد أقرب إلى من سفير العراق فى القاهرة وهو صديق لى وعريق فى عروبته وإسلامه ، وهو بعد ذلك مقرب من الملك الهاشمى وله شأن فى قومه ، فكتبت أطلعه على ما سمعت وأستطلعه صحة النبأ ، وأنكرت على العراق ، إذا صح الخبر ، فعل ذلك مهما يكن لون العذر ، فإنا إلى تطهير أرضنا من القوم أحوج منا إلى سربلتها بمخازيهم التى لم تترك فينا حساً إلا وهو جريح بما تحمل إلينا من آلام وآثام »

ويجيب السفير الذى لم أشأ ذكر اسمه حرصاً على كرامته ممن آثروا التجارة بالوطن والدين على التضحية فى سبيلهما من بغاة الحكم وعبدة السلطان الزائف ، أقول : يجيبنى السفير وفى مجلسه القائد أحمد حلمى والأديب كامل كيلانى بقوله : ليس عندى ما أجيبك على غيرتك فى رسالتك إلى ، إلا مثل عامى عندنا أحب أن أرويه لك : قيل : سئل الجمل عن السبب فى اعوجاج عنقه فأجاب : أى عضو من جوارحى غير أعوج حتى يستقيم العنق ؟؟ » ثم قال : وفهمك الختام ... »

من هو المسئول عن هذا الحدث الجسيم تتعمده حكومة العراق فى عهد فيصل الثانى وهى ألصق الحكومات العربية بالعروبة والإسلام؟؟ وأنتظر اليوم تلو اليوم والأسبوع تلو الأسبوع لأسمع ضجة حول هذا الحدث فلم أسمع ولم أقرأ كأن هنالك أمراً مدبراً أن لا يتصل نبأ هذا الإجرام بالصحافة أو أن الصحافة متآمرة مع الحكومة على إخفاء هذا الحادث ، وكم تألمت أن لا يكون لى رفيق فى إنكار هذا ، لأن الأفراد الذين تحسسوا من خفايا اليسوعيين فى لبنان أقل من القليل الذى أنا منهم .

ان الفرقة التى تسود لبنان اليوم وقبل اليوم وستسودها بعد اليوم حتى يوم القيمة ، ليس لها وكر تحلق منه أو جحر تأرز فيه غير هذه الكهوف وتلك المغاور التى أسسها الإفرنسيون باسم الثقافة والدين فى مدن لبنان ودساكره وعلى

قممه وفى سهوله ، حتى لم يبق شبر منه إلا وفيه ذئب يعوى أو أفعوان بجار ، كل ذلك كان فى سبيل القضاء على تركيا التى حمل الإسلام وزرها حين تحملت أوزار الغفلة والتعاجز عن الاضطلاع بعبء الرسالة المحمدية وانصرفت إلى السياسة الغاشمة بظلم أرحامها من العرب وسوء سياستها مع جيرانها من أهل الكتاب .

يقول بعض السفهاء من المسلمين : ان الآباء اليسوعيين خدموا لغة العرب بصحفهم ومؤلفاتهم ومعاهدهم ومكاتبهم » ولكن هؤلاء غفلوا عن إساءتهم إلى لبنان بالفرقة فى أهله والقطيعة بينه وبين جيرانه العرب، فان رجال الجزويت هؤلاء بتلقينهم للنشء المسيحى دروس البغض والكراهية لجيرانهم المسلمين ، وبتلقينهم للنشء المسلم دروس الإلحاد والتشكيك فى دينهم أحدثوا هوة سحيقة بين اللبنانيين مسيحيهم ومسلميهم ، فلن تجد حياً مسيحياً يقطنه مسلم ولا حياً مسلماً يقطنه مسيحى ، ولن تجد مجلساً إسلامياً يشهده مسيحى ولا مجلساً مسيحياً يشهده مسلم ثم لا تجد لغة تسود أسرة مسلمة هى عين اللغة التى تسود أسرة مسيحية فجميعهم غرباء فى بلد واحد وتحت سماء واحدة وعلى صعيد واحد .

وأما القطيعة بين لبنان وبين جيرانه العرب فلا تجد مسيحياً لبنانياً إلا ويخشى كلمة وحدة سورية أو وحدة عربية ، وقد بلغ شؤم هذه الكلمة فى نفوس مسيحيي لبنان أن أصدر مطرانهم اغناطيوس مبارك سنة ١٩٤٧ كتاباً وجهه إلى المهاجرين فى أمريكا يحثهم على العمل ضمن هيأة الأمم المتحدة لاحتفاظ لبنان بكيانه المسيحى وإخراج مسلميه إلى سوريا على أن يحل محلهم مسيحيو سوريا ، ويقول فى الكتاب نفسه ، ويشهد لى بذلك الأستاذ الفريد أبو سمرة صاحب جريدة القلم الصريح فى جنوب ابنان ، إذ كنت وإياه تلك السنة مسافرين إلى شمال أمريكا وعثرنا على هذا الكتاب فقرأناه معاً .

يقول المطران المبارك فيه : إذا لم ينشأ وطن قومى لليهود فى فلسطين فلا حياة لنا نحن مسيحيي لبنان فى جوار العرب ، ولكننا إذا تضامنا مع اليهود نستطيع أن نعيش مطمئنين إلى حياتنا ونتفادى تنكيل العرب فينا وثوراتهم علينا » هذا قليل من كثير ذلك الكتاب ولم يكن ليصدر هذا عن كاهن عربى لولا مؤسسات الجزويت وأخواتها من الإرساليات التبشيرية باسم المسيح محب السلام وفادى العالم.

أما دسهم فى مؤلفاتهم وخاصة صحيفة « المشرق » التى يصدرونها على رأس كل شهر ، أقول : أما دسهم فيها على العرب والمسلمين بل على العروبة والإسلام فهى بين سمعنا وبصرنا ، ولقد تناولت مرة وأنا مع أحد أدباء الحجاز ، وكنا فى مكتبة صادر ببيروت ، تناولت من يده مجلة المشرق أبحث محتوياتها فلم أر فى الفهرس ما يشير إلى رسالتها التبشيرية ، ولكن موضوعاً لفتى إلى قراءته تحت عنوان « القضاة فى أواخر العهد العباسى » فقلت قد وصلت إلى ضالتى ، لعلهم يدسون شيئاً فيه كعادتهم وإذا بالكاتب يبحث عن لباس القضاة ، ويعلق منه بالجبة فقط وأنها كانت ذات كمين ينتهيان إلى بضعة أمتار طولا ومتر عرضاً وأن لكل قاض إذا خرج وصيفين يحملان كمى جبته ، ومن قرأ هذا البحث شعر بكل حواسه أن الكاتب يتنقص الإسلام فى شخص القاضى عهدئذ وهو يلبس جبته ويتجنح وصيفيه .

وكم عثر المسلمون فى معاهد هذه الإرساليات ، على كتب تطعن فى محمد وهى تدرس بين أيدى الطلاب من محمديين وعيسويين فتثور ثائرة المسلمين المستخذين ويتظاهرون فتعمد الحكومة إلى الاكتفاء برفع الكتاب من أيدى الطلبة ، أما رفع الحقد من صدور المبشرين « بالحق » على شخص محمد النبى الإنسانى الذى قدس عيسى وأمه ، ودحض عنهما تهم اليهود ، أما هذا فلم تعمل فى سبيله ولكنها تغاضت عن مدرسة المطران مبارك وتضامنه مع اليهود فى وجه أمة محمد .

كل ذلك كان وليد اليسوعية فى لبنان فهل حسدنا العراق حكومة وشعباً على حياتنا هذه متنافرين متقاطعين فى بلد واحد ، فعمد إلى تعزيز اليسوعية فى بلاده لتنشئ لهم كلية يتخرج عليها أمثال المطران مبارك فى لبنان ، ويصدر عنها صحيفة كصحيفة المشرق تحت سمائه ؟؟ والأغرب من ذلك أن بعض العراقيين فى مصر يبرر عمل حكومة العراق بأن بلدية بغداد احتاجت إلى هدم مؤسسة اليسوعيين لاعتراضها شارعاً أجمع المهندسون على ضرورة شقه فعمدت إلى إرضاء الآباء القديسين بمنحهم مائة فدان فى مكان آخر من بغداد ، ولم نسمع فى العالم أن حكومة هدمت داراً أو مسجداً أو معهداً يعترض طريق الرقى والتمدين ثم عوضت

أهله بناء أو أرضاً وإنما تعوضهم مالا ، فلم لم تفعل حكومة العراق ذلك وتنقذ شعبها من هذا الطغيان ؟؟

ان الهوان والذل والاستكانة التى شملتنا نحن المسلمين فى لبنان من جهاد اليسوعيين وزملائهم الجزويت فينا بتحقير الإسلام فى نفوس ناشئتنا الغضة التى لم تجد غير معاهدهم منتجعاً للعلوم والفنون ، وبتعالى المسيحيين علينا فى رقيهم العلمى والفنى ، أقول : ان الهوان الذى لحقنا هو فى ذمة تركيا من قبل ثم فى ذمم القائمين على الوعظ والإرشاد فينا إذ لم يصلوا إلى أن العلم والعلم وحده هو الذى يعزز الدين وهو السلاح الذى يحول دون امتهانه وانتقاصه .

من هنا نستطيع أن نصل إلى نظرة محمد فى مستقبل رسالته على أيدينا بقوله : على المسلم أن يكون بصيراً بزمانه » وقوله : لاينبغى لمسلم أن يذل نفسه» وأى ذل أصاب المسلمين فوق ذلهم هذا الذى لحقهم من إقبال الأمم على العلوم واعتصامنا بالجهل ؟؟ ، وأى عمى فى أبصارنا وعمه فى بصائرنا فوق حسباننا أن الدين هو محض صلاة وصوم دونما فقه فى الصلاة لماذا وجبت وفى الصوم لماذا فرض ؟؟

وكيف يكون المسلم بصيراً بزمانه » وهو بجاهل يمكن عدو دينه وقوميته من عرضه ينهشه ومن كرامته ينحت أثلتها ؟؟ ثم كيف يتوخى المسلم لنفسه العزة ، ويتفادى لها الذل والهوان ، وهو يضعها بين يدى عدوه يمعن فيها تحقيراً وتعزيراً؟؟ فهل نحن العرب ، بتمكين إرساليات الجزويت الغربى منا أفرنسياً وغير افرنسى ، أقول : هل نحن على بصيرة فى زماننا ؟؟ وهل نحن من وراء ذلك ننشد العزة والكرامة لأنفسنا ؟؟ كلا إن أية حجة لنا فى تمكينهم منا لاتنهض دليلا على أنا ورثة محمد وحفظة رسالته .

علي
كَفَى بِالأَجَلِ حَارِساً

دعتني الجالية العربية في مدينة « كراند رابدس » لزيارتها أيام وجودي في الولايات الأمريكية المتحدة سنة ١٩٤٦ ، فلبيت طلبها وأعددت عدتي للسفر في قطار الساعة الثامنة من صباح ليلتي ، وهو قطار « بولمن » أجمل وأفخم وأسرع القطر الأمريكية ، وقد أبرقت لهم بذلك لينتظروني في المحطة إذ لم يكن لديّ عنوان أحد منهم ، وفي الصباح شيعني اخواني في مدينة ديترويت مشغن إلى محطة القطار وقبل خروجه بدقائق ، وتركتهم ودخلت المحطة الجبارة ، ويشاء القدر أن أصل إلى قطاري متأخراً دقيقة واحدة ، وهو يغادر أرض المحطة وأنا أراه وأتحسر على أن فاتني على غير إرادة مني .

كانت صدمة لنفسي أن لم أدرك القطار وأني سأنتظر ساعة ليتحرك غيره ، وأن القطار الآتي بطيء ورديء وأن لا وسيلة لإعلام المهاجرين الذين سيصلهم القطار ولست فيه وأنه يجب علي أن أجلس في القاطرة التي ستجرني بعد ساعة خشية أن تفوتني أيضاً إذا عدت إلى بهو المحطة ، وأياً كان فقد جلست متألماً متحسراً ناقماً على القضاء والقدر الذي لم ينصفني وأنا أخدم الحق في كثير من مواقفي بين العرب في تلك الديار .

واشتدت نقمتي عندما تحرك قطاري الأخير ورأيت فيه نموذج القرن التاسع عشر : لا جمال ولا سرعة ولا نظافة ولا تدفئة ، وأرى الأرض والسماء من تساقط الثلوج لا تمتاز إحداهما عن الأخرى ، وقطعت فيه أربع ساعات كانت كأنها أربعة أعوام ، بينما القطار الذي فاتني يقطعها بساعة ونصف الساعة ، ويكاد يستعصي على فكري ولساني وقلبي ما يسوده من جمال القرن العشرين وجلاله ، وكم تساءلت ونفسي : لم تخلى الله عني ولم أكن لأكفر به طرفة عين ؟؟ ولقد وقفت لساني وقلمي على خدمة الحق منذ فهمت الحق ، فلماذا أرى الحق يعصف بي أحياناً فلا أعي في نفسي سبباً يستنزل بها ذلك العصف ؟؟

ومع الساعة الثانية بعد الظهر أشرفنا على المدينة وكل ثقتى بأن لا أرى فى المحطة من يرشدنى إلى ندوة القوم أو ندىّ زعيمهم ، ولشد ما أذهلنى ما رأيت ، من جموع يضيق بها بهو المحطة الرحب ، ولدى أن وطئت الأرض تدافع أبناء العرب يستبشرون ويهنئون بسلامة الوصول ، ولكنى شعرت بأن التهنئة لسلامة غير هذه السلامة المعتادة إذ رأيت فى وجوههم الشحوب والكلح والرعب فسألت بالسبب فقالوا ألم تبرق لنا أنك ستردنا فى قطار بولمن على الساعة الثامنة صباحاً ؟؟ فقلت أجل ولكنه فاتنى بدقيقة ثم ركبت القطار البطئ فى التاسعة .

فعلا هتافهم : الله أكبر .. الله أكبر .. وزاد عجبى وتسآؤلى فقالوا : إن قطار البولمن تدهور ولا يزال رجال المكافحة ينقلون القتلى والجرحى منه منذ ثلاث ساعات ، وكنا ننتظرك أن تنزل بنا قتيلا أو جريحاً ولكن الله سلم ، وأن علينا أن نبسط لك الليلة الفداء ، فأهلا وسهلا .. » فصحوت إذ ذاك من فكرة كانت سكرة وشعرت بكل جوارحى خطأ ظنى السئ فى خالقى اللطيف بى ثم عدت أتمثل قول الإمام : كفى بالأجل حارساً »

ودعانى نفر من المهاجرين العرب فى جزائر « لاص بالمص » التابعة لأسبانيا ، دعونى وأنا عائد إلى أوروبا من أفريقيا الغربية فنزلت عليهم أسبوعاً كاملا ، وكان فيهم شاب درزى متأدب لازمنى وأشعر بى صحف هذه الجزيرة فزارنى وفد منها يمثل جريدة الشعب الشيوعية وكانت الثورة فى أسبانيا قد أخمدها القائد « فرانكو » وبقى للشيوعيين بصيص يتبينون منه الوثوب مرة أخرى ، زارنى هذا الوفد وأعدت له الزيارة مع الرفيق الدرزى فى عمارة الجريدة وهى فى ثلاثة أدوار .

ويشاء الله أن يكون ائتمار بين أعضاء الحزب الدموقراطى لنسف بناية الجريدة الشيوعية وأن يتضامن الحزب على تنفيذ الخطة ساعة وجودى فى العمارة وأنا أملى على محررى الصحيفة حديثاً سياسياً عربياً ، وينفجر الديناميت ساعتئذ فاذا بالصاعقة تنقض فتصم الآذان وإذا بعجاجها يغشى الأبصار ، وإذا بهول الفاجعة يذهلنا عن أن نعى ما نفعل فنشعر بأن الأرض تدور من تحتنا ، وأن السماء تطبق علينا ، ثم لا نظفر بالوعى إلا ونحن على بعد عشرات الأمتار من البناية ، ونرى الإسعاف ورجال الأمن والمكافحين ينتزعون الضحايا والجرحى من تحت

الأنقاض ، وإذا بنا نتساءل وأنفسنا : لم لم نكن أحد هؤلاء المحمولين على الأكتاف وفى حوافل الاسعاف ؟؟ ثم التفت إلى رفيقى أقول : كفى بالأجل حارساً » .

وأعود إلى ذكريات الصبى فأذكر : ان من مصائب الحرب العالمية الأولى وباء الهيضة « الكوليرا » وأن لبنان ناله القسط الوافر من هذا الوباء ، وقد تحملت قريتى أكثر من ألف إصابة به وتكاد نفوسها لا تزيد على المئتين بعد الألف ، وكنت إذ ذاك فى الخامسة عشرة من سنى حياتى ، وقد تولى أهل القرية الرعب القاتل إذ يرى بعضهم بعضاً ينهارون فى الأزقة ، وبين الجدران ، وعلى الطرق ، حتى امتلأت فرج الساحات بالجثث وتعفن الهواء وليس فى البلدة من يطيق مواراة هذه الضحايا ، إذ كان الشبان فى الجهاد ولم يبق إلا النساء والصبية والشيوخ .

وكان أبى فى عقده السابع يكاد ينهد إلى الشيخوخة ، ولكنه إذ رأى ما رأى وسمع ما سمع من أن أغنياء البلدة وجبناءها أغلقوا بيوتهم على أنفسهم فراراً من الموت ، قال لى : قم يا بنى نعمل لله فقمت وقادنى إلى منزل الحاج محمود أيوب ، وكان رجلا صالحاً ، وناداه من خارج فلباه مذعناً ، وأمن على طلبه إذ قال أبى له : أنترك الموتى فى الأزقة للكلاب والطير ونحن ندعى الإسلام ، ثم مشينا الثلاثة ، نحمل هذه الجيف المتفسخة إلى الحفر حيال المقبرة فنواريها دونما صلاة ولا غسل وتمر بنا أيام حتى لم يبق جثة إلا وهى مواراة .

وهكذا كنا نطوف القرية لإغاثة من ينهار بالمبردات والشاى وغيره مما يقبض الأمعاء ويحول دون الإسهال المميت ، دون أن يشفق أبى وعمى على نفسيهما ولا على شباب هذا الصبى الذى واساهما فى الجهاد بنفسه وهو فى غمرة من فقه الحياة ، وتنظف القرية من الوباء حيث يسودها النظافة من السكان ونحن الثلاثة فى عصمة من كل هذا ، وكلما عرتنى أو عرت عمى الحاج محمود رعدة لمنظر مؤلم أو مشهد مروع ، نظر أبى فى وجهينا ولم يزد على قوله : جاهدوا فان إمامكم يقول : كفى بالأجل حارساً »

وأذكر أنى ، وأنا فى مطلع ربيع حياتى ، غادرت مدينة بيروت بين الظهر

والعصر إلى صيداء راجلا ، إذ لم يكن لدى ما أكترى به ركوباً يحملني آنذاك لقلة ذات يدى ، وكنت قد وردت ببروت أنشد عملا أدفع به غائلة البؤس عن أبوى العاجزين فى غضون الحرب العالمية الأولى وأخفقت فيما نشدته .

ومررت بصيداء مغيب الشمس أجتازها إلى بلدى الذى لا أغشاه إلا بعد منتصف الليل ، وليس فى يدى ما أدفعه لمبيتى فى صيداء إن تفاديت وحشة الليل فى طريق وعر لا مذهب فيه إلا للقوافل ، ولا مسلك على جانبيه إلا للوحوش الفارسة ، وصممت على المغامرة من وراء عقل يتضاءل بين يدى طيش الشباب الأرعن ، حتى إذا انتصف الليل أو كاد ولم يبق لى إلا خمسة أميال على أن أقطعها فى واد تكسو جانبيه والجبال المشرفة عليه غابة قل أن تطأها قدم إنسان فى وضح النهار فأين منها مسارب الإنس تحت هذا الليل الحالك الرهيب ؟؟

رأيتنى ، وأنا أنساب فى منعطفات هذا الوادى السحيق « وادى النمرية » ، والليل غير مقمر والسماء عارية من الكواكب يكسوها غمام الخريف ، أقول : لقد شعرت بى إذ ذاك شبحاً فاقد الحس لا أعى كيف أطأ وأين تسر بى قدماى حتى كدت أطير فلا أسمع صوت قدمى ولا أبصر موطئهما ثم لا أحس فى هذه الظلمات المتراكمة بين ليل يدلهم بالغمام وغابة تتكاثف بالخوف ، لا أحس همساً يخرق سكون هذا الأفق الذى يحدق بى إلا ضربات قلب يكاد ينشق عنه صدر أخذ يعلو ويهبط حتى أحسست أن وراءه مقامع من حديد .

وفجأة تبدد عنى هذا كله إذ جال فى نفسى خاطر لحظت معه أنى إنما أخوض هذه المخاطر فى سبيل أبوى ، إذن فالله معى وأنا منه فى حصن يقينى من كل شر ، ولحظت أن أبى فى مثل هذه الساعة من كل ليلة ، قائم فى محرابه يصلى ويدعو لى ، ثم لحظت آخر الأمر قول إمامى أبى الحسن : كفى بالأجل حارساً » فمن يصدق أن صبياً لم يراهق ولم تتجاوز سنه بضع عشرة سنة يقدم على اقتحام غابة يوغل فيها كل نوع من الوحوش الضارية والسباع الكاسرة ، يقتحمها هذا الصبى بعد منتصف الليل ، بينما يتحاماها الأبطال فى وضح النهار ؟؟ إنى ، وأنا أنهد اليوم إلى الستين من عمرى ، لا أزال كلما مرت بى ذكرى تلك الليلة أرعد ويكاد الرعب يقذفنى من حالق أربعين سنة إلى حيث أخبل وأجن .

فليس الأمر أمر شجاعة أو إيمان ولكنه أجل سبق به قضاء الله أن يتجشم مثلى الأهوال ويقتحم المخاطر ثم لا يحزمه كائن ما، وهو يعمل للحق، فلم أكن بعملى إذ ذاك أتلقى التهلكة عامداً ، ولكنى مرغم بطبعى على جهاد يضطرنى للاضطلاع به شرفى وإنسانيتى ودينى ، ذلك هو بين يدى الحق الذى يفرض علىّ أن أضحى بكل ما أملك حتى نفسى فى سبيل أبوى الشاخصين إلى الله من أجلى

الله

رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا

. هؤلاء السادة الكبراء الملعونون على ألسنة أتباعهم يوم القيمة كثيرون بين أظهرنا منذ فجر التاريخ ، ولسنا نتحدث فى ظل هذه الآية الكريمة عمن سبق منهم ولكننا نعرض قبيلا من هؤلاء الذين هم بين سمعنا وبصرنا ،والذين يقراؤن هذه الآية أو تتلى عليهم وهم معرضون عنها ، فليسمع قارئ هذا البحث وليفكر :

سمعت أحد مهاجرينا العرب فى أمريكا ، وهو من جنوب لبنان ، وقد بلغنى أنه عاد إلى وطنه بعد هجرة ثلاثين عاماً فلم يلبث أكثر من بضعة أشهر ثم رجع إلى مهجره ، سألته السبب فى ذلك فقال :

جاءنى مختار البلدة صباح يوم ما وقال : ألا تحب أن تزور معى زعيم القضاء فلان ؟؟ قلت : وما شأنى وشأن زعيمكم ؟؟ انى غريب عنكم وقد قطعت حياتى فى بلاد لا زعيم لها إلا العمل الحر ثم عدت لأموت بين أهلى وعشيرتى لا لأحيا حياتكم هذه القائمة على العبودية والاستخذاء ، فقال : لا بد من هذه الزيارة لأن الزعيم عرف بعودك إلى وطنك ، والعرف يقضى على كل قادم أو مقيم بزيارة سيد البلاد ، وما عليك من هذه الزيارة وأنا معك فستكون محترماً ومكرما عنده

فاستجبت للصديق وهبطنا معا إلى المدينة حيث يقيم الزعيم ثم دخلنا عليه قصره وإذا به مستلقياً فى البهو على ظهره يطالع إحدى الصحف ، وكان الحاجب قد آذنه بنا فأذن لنا ، وحييناه بسلام الإسلام فلم يجب بالسلام ولكنه خاطب المختار بقوله : كيف أنت أبا فلان ؟؟ ولكنه قال ذلك دون أن يتحرك أو أن يحول بصره عن الصحيفة ، وعبثاً حاول صاحبى أن يلفته إلى الزائر الجديد بتلويحه وتلميحه ، وجلسنا بضع دقائق دون أن نظفر من الزعيم بضيافة أو ترحيب ، فخرجت إذ ذاك بغير إذن ثم لم يعلم بى أحد إلا وأنا أبحر من بيروت عائداً إلى مهجرى هذا .

وهكذا يتحدث إلى السيد عبد الكريم الزين أحد وجهائنا فى بيروت ، أن ابن عمه جاء من مصر ليتقاضى ثلاثين ديناراً كان قد اقترضها أخو هذا الزعيم أيام دراسته فى مصر ولم يردها له ، فدخل عليه نفس البهو ووجده بجلس نفس المجلس مستلقياً وحذاؤه فى رجله فلم يكلمه ولم يتساءل ونفسه عن الزائر بعد أن تقدم الحاجب إليه معرفاً عنه وعن السبب الذى جاء من أجله ، ولبث فى الثوى صامتاً وغريمه صامت ما شاء الله أن يلبث ثم خرج ولم يشعر الزعيم بدخوله ولا خروجه » يقول لى السيد عبد الكريم هذا : لقد سألت ابن عمى لدى عوده عما فعل ؟؟ فقال : بقيت نصف ساعة فى منتدى الزعيم أعد مسامير حذائه الذى استقبلنى به » ثم لم يزد .

وقد تحدث إلى الطبيب شريف عسيران فقال : عندما احتل الحلفاء لبنان نزل من إحدى البوارج التى مرت بساحل صيداء بعض الضباط الانكليز وسألوا عن فلان .. وهو أبو الزعيم الآنف الذكر وكان زعيما أكبر من شبله ، قال الطبيب ، وقد كنت حديث السن فسألت أبى عن السبب الباعث لهم على هذا السؤال ومن أين عرفوه ؟؟ فلم يجبنى بما أطمئن له »

« ولكنى عندما دخلت الجامعة الأمريكية كان لى زميلة من طرابلس ، كنت أجلس وإياها إلى ظلال الشجر فى باحة الجامعة ونتبسط فى الحديث ، والحديث شجون ، فسألتها مرة أليس لك حبيب ؟؟ وهى مسيحية ، فقالت بلى وأخرجت من حقيبة يدها صورة ترينى بها ضابطا بريطانياً أحبته أيام الاحتلال حيث أرست البارجة التى أقلته فى ميناء طرابلس ، وأصعدها معه إلى ظهر بارجته ثم قدم لها تلك الصورة .

يقول الطبيب : ولكنى عجبت إذ رأيت فى الصورة زعيمنا هذا إلى جنب الضابط فسألتها السبب فى وجوده معه ؟؟ فقالت : لقد سألته عنه فقال : هو أحد موظفى الاستخبارات عندنا فى جنوب لبنان » قال الطبيب : حينئذ أدركت السر فى سؤال الضباط الذين هبطوا صيداء قبل سنين عن هذا الزعيم ، من أجل ذلك لايزال ولده هذا حتى اليوم يتقلب فى وظائف الدولة الكبرى من حكومة لبنان التى كانت ولا تزال صنائع المستعمر .

وزعيم آخر من هؤلاء السادة أتحدث إلى قارئى عنه وقد كان أكبر زعيم فى لبنان ، ولقد شهدت مجلسه فى قصره مع أحد الوجهاء ، وكان الزعيم قد استدعى بنّائين ليضيف إلى برجه العالى برجاً أعلى ، فسأله رفيقى : وهل مقر الزعيم فى حاجة لتعزيز ؟؟ فقال : لا ، ولكنى أحببت أن أزيد فى ضخامته ليشرف على جهات الأفق الأربع فيراه الغادى والبادى وتتحدث الركبان عن أثر فلان » يعنى نفسه ، أقول : لقد سمعت هذا وكنت حدثاً لم أجز عنفوان شبابى فسخرت فى ذات نفسى من زعيم شاء أن يخلد بقصر يبنيه فى عصر لاخلود فيه إلا للعمل الصالح .

وقال له مرافقى : أرى أن تلبى يا سيدى رجاء الطائفة ببناء كلية لأبناء رعيتك ، فبدا الغضب على وجهه ثم قال : نعلمهم ليركبوا ظهورنا ، أليس كذلك ؟؟ » ثم قام فاحتجب ، ولما خلوت برفيقى ونحن عائدان من حيث أتينا ، قلت له : ماذا ترى ؟؟ فهز رأسه وقال : لقد تنادى هو وبعض الزعماء والفقهاء منذ حين لبحث هذا الأمر ثم انفض اجتماعهم عن لا شئ وكنت شاهد هذا الإخفاق فلم تبرد حسرتى حتى أشعت بيتين من شعرى فى الأوساط وهما :

أرى الزعماء والفقهاء طرا ... قد اجتمعوا لما لا خير فيه
كلا الأخوين ظراط ولكن ... شهاب الدين أظرط من أخيه

لقد كان هذا السيد أقوى زعيم على إصلاح قطر يسوده ربع مليون إنسان لا يمتازون عن الحيوان إلا بالعبودية لصنم متحرك هو هذا الزعيم ، ولكن الزمن بالمرصاد لكل من حاول أن يخلد بغير حق فان ذكر هذا الراحل يزداد سوءاً كلما ازداد وعى الشعب الذى أخضعه زمناً ما لجلاوزته وكلاب صيده .

وهكذا نجد زعيما آخر فى هذا القطر كان يتوفر لديه من ملكه الخبيث ما يزيد على خمسين ألف دينار لبنانى كل عام يقيم بها مأدبة فخمة يلتف حولها أعيان لبنان حكومة وشعباً وتدق حولهم الطبول والمزاهر ، على أنغام الناى والأرغل من شعب قضى الله عليه أن يكون عبيداً وخولا لهذه الفئة من طغاة الأمة يقيمون المآدب لأمثالهم من دم الشعب وعرقه بينما لا نرى فى الشعب من يحلم بطعامه وكسائه ، يقيمون هذه المآدب لرجال الدولة وزبانية الحكم وهياكل التمثيل ومن

لف لفهم فى سبيل الوصول إليهم والانخراط فى سلكهم ليتخذوا الشعب مطايا إلى مآربهم وأهوائهم .

ونجد فى مكان آخر من هذا القطر زعيما آخر قطع أيام درسه الحقوق فى أوروبا يعيش فى حدود شهواته على ما يجنيه من سرقة الأحذية فى الليل عن أبواب الغرف فى الفندق الذى يقطنه ، حتى إذا أنهى علومه عاد ليكون محامياً ثم قاضياً ثم رئيساً لمجلس التشريع وإذا به بعد ذلك كله يشغل أكبر منصب للدولة أجنبية فى عالم البترول .

ونجد مثل ذلك زعيما آخر ما انفك طوال حياته يشغل وزارة قيمة فى مجلس الدولة يصل بها إلى أخس ما يتخلق به الدنئ الخسيس فى سلوكه وأخلاقه إذ شاع أنه احتجب عن الوزارة أسبوعاً ضج ذوو المصالح من تغيبه ، ثم يعود إلى عمله معصوب الرأس مهشم الوجه من لكمات فاجأه بها ضابط سكسونى وهو يغزو خليلته « الحرة » بعد منتصف الليل ، ويالها معركة حدثنى بها من رأى الوزير وهو ينهار من أعلى السلم إلى أسفله مغشياً عليه من لدمة شج منافسه بها رأسه فأطاحت به من أعلا البناية ثم لم يفق من إغمائه إلا وهو فى الزقاق بين الحمالين ومساحى الأحذية .

وأعرف زعيما آخر من هؤلاء السادة يسود منافسيه فى الانتخاب لمجلس التمثيل كل عام بما يبذله من ماله الوفير لموتى الضمائر من شذاذ الآفاق فيقومون بغرائب الدعاية له من وراء التضليل والتدجيل ، فعلى كل جدار ، وفوق كل منصة ، وتحت كل شرفة ، وعلى كل عمود ، أثر من هذه الدعاية يعلنه أولئك الأوباش معلنين أهليته لتمثيل الأمة ، والأمة بأسرها تعرف من أين جاء بماله الذى ملأ به الجيوب وأشرق النفوس ، ولو سألت أياً رأيته عن مصدر هذا المال أجابك : انه من زراعة الحشيش المسكر وتهريب الأفيون المخدر ..

وهكذا عرفت زعيما آخر كنت أزوره إبان موسم الانتخاب النيابى فأجد أوراق النقد بين يديه أكداساً يوزعها على تلك الزبانية ، فأعجب لإنفاق مئات الآلاف من الدنانير فى سبيل منصب لا يجنى منه الآلاف ، كيف يكون ؟ ومن أين يأتى بسد العجز وهو مملق ؟؟ ويجيبنى من هو خبير بمصادر المال

المتدفق على رعاة الأمة ، فيقول : انها الشركات الأجنبية التى تمتص دماءنا ، تغدق عليه ليفوز بالنيابة فالوزارة فالرئاسة ، وعندئذ تتقاضى هذه الشركات منه ما تستغل به الأمة وخزينة الدولة من واردات محتكرة وخالصة الضرائب .

وأعرف زعيما سورياً كان يطوف أمريكا فيخطب المهاجرين العرب داعياً للتعاون مع فرنسا ، وزعيما سورياً آخر كان يطوف طواف زميله داعياً للتعاون مع بريطانيا ، وكلاهما كان يتفانى فى خدمة الأجنبى بينما كان الأول يناصب العداء للملك فيصل الأول ، والثانى يناصب العداء للملك عبد العزيز بن سعود ، وكلاهما يفضل الاستخذاء للأجنبى على التحرر من نير الاستعمار ، كل ذلك فى سبيل المناصب التى يتنافسون عليها فى بلادهم ..

وأعرف زعيما عراقياً مسلماً كان قد رأس مجلس الوزراء العراقى أكثر من مرة ، وقد صارحنى عندما زرته لأخذ حديث عن مقاطعة العرب إسرائيل لنشره فى مجلتى « العروبة » أيام صدورها فى بيروت ، صارحنى بقوله : أن من الخطأ مقاطعتنا اليهود لأنا فى أمس الحاجات إلى إنتاجهم العلمى والعملى ، وكان مرافقى الدكتور أحمد نسيم ، فلما خرجنا حدقت إليه مستفهماً عما سمع فقال : لا تلمه انه يرأس جمعية يهودية اقتصادية ويكاد يكون نصف ثروته الفاحشة من رئاسة هذه الجمعية » .

ولعل القراء يكونون أشد عجباً إن قلت لهم أن مرافقى الدكتور أحمد نسيم هذا كان يهودياً ثم دخل الإسلام ، ويكاد عقله يملى عليه إخلاصه لإسلامه .

وهكذا نجد فى كل قطر بل فى كل بلد سيداً يملى على من يسوده فى قوله وعمله ما يضله به من فسق أو دعارة أو خيانة أو إسراف ثم لايقيم وزناً للشعب الذى يتخذه مطايا لشهواته فى دوائر الحكم أو مجالس التمثيل ، وإذا مارست حياة هؤلاء السادة وعبيدهم تجدك كل يوم فى أو فى كل لحظة متمثلا بالآية الكريمة حاكية قولهم يوم القيمة : ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا »

محمد

إِذَا أَرَادَ اللهُ إِنفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِى الْعُقُولِ عُقُولَهُم حتى يُنْفِذَ فِيهِم قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ

فى طى هذه الكلمة عبرة مارستها بنفسى فى حياتى وحياة غيرى ، ولعلى أكون مطمئناً إلى الحق فيما أقصه على قراء كتابى هذا مما حدث لى أكثر مما أطمئن إلى الحق وأنا أقص عليهم ما سمعت مما حدث لغيرى ، ولعل كل بصير بما يمر به من أحداث الزمن يسجل على نفسه أو لغيره مثل هذه العبر فيطويها فى كيانه أو ينشرها فيبعثها إلى الأجيال عظة بالغة الأثر فى صميم التاريخ .

أنا محمد على الحومانى الذى يسجل على نفسه بين يدى الحق هذه العبر ، أنا هذا الذى شرق فى الأرض حتى أشرف على الصين ، وغرب حتى هبط بلاد السكسون ، ثم أمعن فى غربته حتى خاض بحر الظلمات إلى العالم الجديد « أمريكا » شمالها وجنوبها وما بين هذين ، ثم أمعن فى طوافه حول العالم حتى أحدق بأفريقيا وطوقها من جهاتها الأربع ، أنا هذا الشيخ الذى قطع الربيع من حياته يجوب قطراً أو يغادر قطراً ، من بلد إلى بلد ومن شعب إلى شعب ثم من حياة إلى حياة ، أنا هذا الرحالة العالمى ، أقص على قارئى عبرة واحدة من العبر التى مرت بى ، وهى كثيرة ، فآذنتنى بالرجعى إلى أن الإنسان مهما نضج فكره وحصف عقله لا يزال مفتقراً إلى اكتناه ما يحدق به من أسرار .

أما هذه العبرة فمنشؤها مصر الجديدة ، فى هذه الشرفة التى تطل بى على قاهرة المعز والحدائق المنبثة حولها تنبثق من فجر النيل الخالد على الدهر ، لقد وردت مصر هذه قبل خمسة أعوام ، وكنت قلق النفس مضطرب الفكر أنشد الطمأنينة والاستقرار ، بعد أن لبثت عامين فى دمشق ، وأعواماً فى بغداد فى سبيل هذا الاستقرار وتلك الطمأنينة ، فلم أقف لهما على ظل ، وكنت قد يئست من بلدى لبنان الذى يطمح إليه كل دخيل ، ويستقر لديه كل أجنبى ، ويخفق بين يدى سمائه الضاحية وأرضه الناضرة كل من نبت على أرضه ، وتفيأ ظلاله ، وتنسم هواه ، أقول : بعد تقلبى هذا فى آفاق العروبة أنشد السكينة والهدوء

لم يستجب لى أفق عربى إلا على ضفاف النيل وتحت سماء مصر .

هذا البلد الذى يطمئن الأديب فيه إلى أدب ، والعالم إلى علم ، والشاعر إلى فن ، وفى كل أولئك هواى ، مشفوعاً بجو معتدل لا إلى الزمهرير ولا السموم ، قلت لنفسى ، وقد نزلت مصر ، وقالت لى ابنتى : ها هنا مهبط الروح ومسرح الأحلام ، أفلا تسكن وتهدأ وتطمئن وتستقر ؟؟ قلت بلى يا بنية ، أرى أن مصر تشبع روحى بهوائها ومائها ، ثم بالأندية والمحافل القائمة فيها على العروبة والإسلام ، ها هنا نستقر إذا الله شاء لنا الاستقرار ، وعمدنا ، ابنتى وأنا ، إلى اختيار الحى ، فكان مصر الجديدة ، ثم إلى اختيار الشارع فكان شارع السعود ، ثم إلى اختيار السكن فكان هذا البرج الشامخ من ناطحات السحاب ، نستقبل فيه الشمس وهى تشرق ، ونودعها وهى تغيب ، ولقد قطعنا من الضعف قوة فى تأثيث المنزل بما يتفق وحياتنا المتواضعة ، وكان خبر الاستيطان فى مصر نغماً يتردد على ألسنة الأحبة من أصدقائنا ، وفى آذان المعجبين بالأدب والشعر من محبينا .

وتودعنى سلوى إلى لبنان لتعود بأمها واخواتها وألبث منتظراً هذا العود وحدى فى هذا المنزل أجلس إلى شرفتى وحدى ، وأصغى إلى الواحى وحدى ، وأستلهم كواكب السماء والأرض وحدى ، ثم آوى إلى فراشى وحدى ، ذلك مما أعاد إلى خيال الشباب واستيحاء الشعر مدكراً ذكريات الشباب العارم على شاطئ بحيرة مشغن فى أمريكا ، وعلى ضفاف بردى فى دمشق ، وتحت افياء النخيل فى العراق ، ثم على صخر شوران وتحت ظلال الصنوبر وفى أحضان الأرز ، على قمم لبنان وبين يدى شمسه الضاحكة ونسيمه البليل .

على هذه الذكرى عدت إلى الشعر فكانت باكورة نظمى فى الجمال «الشمس الغاربة» بعد أن مر عشر سنوات على نظمى «ديوان حواء» وكنت قد أوشكت أن أركد وأن تتبخر عواطف الحب فى صدرى ، وأعود إلى التماس حياة أسمى من حياة اللعب واللهو والدعة والخيال ، حياة الجد والحزم والخلود فى ظل حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، حياة العمل الباقى بعد ركود الجسد وانتفاض الروح .

لقد أفقت ساعتئذ من سكرة رانت على قلبي عشرات الأعوام لم أحسب معها للحياة حساباً غير العبث والمجون ثم تساءلت ونفسي ؟ : أيشرف الإنسان على شيخوخته ثم يفارق الحياة وهو غافل ؟؟ فلو لم يكن فى قلب المرء إلا ذرة من الأيمان بالحق انه حق لكان فى ذلك ما يدعوه لأن يفكر ثم يحتاط لما يستقبل بعد الموت ، ألا وإن التربية التى درجنا فى كنفها ، ونشأنا على الاحتفاظ بها حتى أصبحت جزءاً من حياتنا ، ان هذه التربية لتجرى فى دمائنا ، وتنبض فى صدورنا ، وتخفق فى جوانحنا ، مهما حاول المجتمع أو المدرسة أو العشير أن يحول دون بروز تلك النواة وغلبتها آخر الأمر .

فكرت فى كثير من هذا ، وأنا تحت تأثير روعة هذه « الشمس الغاربة » التى تودعنى عشية كل يوم لتستقبلنى فى صباحه ، وأنام بعض ليالىّ مفكراً فيما آتيه من غدى لأشبع به روحى الجائعة إلى الطمأنينة والاستقرار ، وإذا بى أشعر ، وأنا أحلم ، بيد أبى تنخسنى قبيل الفجر بأصبعه السبابة التى عودتنى هذه النخسة أيام كنت حدثاً يطيب لى نوم الصباح فأقوم للصلاة مكرهاً متثاقلا ، أما اليوم وفى هذا السحر فقد شعرت أنى عدت إلى حياة أحسب العود إليها كل ما آمله من حياتى ، تلك هى حياة الطهر والقداسة فى كنف أبى وتحت رعايته ، وبين يدى تهذيبه وتأديبه .

وهنا تأتى العبرة التى من أجلها حبرت هذا البحث وأرسلته فى صميم التاريخ ، لا على هامشه ، إلى الأجيال التى تستقبل مثلما أستقبل ، قمت إذ ذاك أصلى وكأن أبى أمامى وكأن ذكراه أعادت إلىّ تلك الليالى الحافلة بدموعه وتسبيحه فى جوف الليل وهو يصلى ، فصليت ما شاء لى الله أن أصلى ثم بكيت ما شاء الله لى أن أبكى ، وسألت الله ساعتئذ أن يوفقنى إلى « الرجعى » بعمل يمحو السىء من حياتى ويبقى على الخير فى نفسى ، وغمرتنى إذ ذاك روحانية كشفت لى عن صدق ما أرجوه فى نفسى وتحقيقه فى مستقبلى ، وأن الله سامع لى ومجيب دعائى .

وكان أول ما جال فى روعى أن أقدم بين يدى ، وأنا أستجيب لعقلى وإيمانى ، ما قدمته بين يدى وأنا أستجيب لهواى وطيشى ، ذلك هو الفن الذى فطرت عليه ، ونبهت به ، وأعرقت فيه ، ذلك هو الشعر الذى سلخ الشطر

الأول من حياتى ، وأنا عابث ، أحببت أن يسلخ الشطر الأخير من هذه الحياة وأنا جاد ، فسأعاقب نفسى وأنا أستقبل شيخوختى بنفس العامل الذى عاقبتنى به وأنا أنهد إلى الشباب . ذلك العامل هو الفن الذى يعصر الشباب إثماً وتعصره الكهولة بله الشيخوخة حكمة وحزماً .

عاهدت ربى على أن أنسخ من صدرى كل هوى يحملنى على العبث فيما أجيل به فكرى ويفصح عنه لسانى ثم يسجله قلمى ، ورجوته أن يفتح السبل أمامى بين يدى سفر أقصر فكرى على تخريجه الفنى ويكون قاصراً على الإشادة برسالة محمد الذى بث أبى فى روعى محبته وتقديسه ، والذى لم أجد بعد أن فقهت الحياة ، حياً خالداً يحمد إليه الفكر حديثه وقديمه ، روائع الحضارة القائمة على العلم والخلق والدين ، أقول : لم أجد بعد فقهى الحياة حياً خالداً غير محمد ، على هذا صممت وشرعت أبعث الفن فى زوايا نفسى ، وعطلت كل أداة تتصل به وتحيله إلى أى شئ من حطام الدنيا ، وكانت قصيدة « الشمس الغاربة » أول أغنية مدوية فى العالم بأمجاد محمد .

كنت إذ ذاك أتوقع مفاجأة الأسرة لى عائدة فتحول دون إغراقى فى تخريج سفرى الجديد « انت انت » ولكن الله شاء لى أن استرسل فى استلهامى هذا الأفق ، وأن أطمئن إلى وحدتى فى استيحاء جماله وجلاله ، لذلك حال بينى وبين أسرتى سنة كاملة ، وأنا أحمد إليه تلك الحيلولة ، حتى أتممت رسالتى فى ديوان « انت انت » ولو كنت بين أهلى لأفضت بى رعايتهم إلى تعطيل فنى وعجزى عن أداء تلك الرسالة .

وسألت الله بعد وفائى بالعهد له أن يتولى بفضله طبع هذا السجل الذى يرهقنى بتكاليفه إن أقدمت على تخريجه بما أملك من مال نزر ، فيشاء ربى أن أغشى ندوة الشورى وأن يكون فيها ثلة من أهل الفضل والسياسة وأن يطلب منى مؤسس الندوة أثناء المجلس شيئاً من شعرى الجديد ، فأمليت عليهم قطعاً من إحدى ملاحم الديوان ، ويشاء الله أن يتأثر بعض شهوده فيتطوع لطبعه وينجز الرجل وعده ، فاذا بالديوان بعد شهرين فى أيدى هواة الأدب والشعر .

وهنا وقفت مطمئناً إلى ما كان ، ولكن الله الذى وفق للإخراج لم يقف

لطفه بى عند هذا الحد وإنما ألقى فى روعى أن أبعث بضع نسخ من الديوان إلى سدنة الحرمين فى مكة والمدينة فاذا ببعض أولئك يفتح لى طريق الجو إلى روضة القدس حيث يرقد محمد صاحب ديوان « انت انت » ثم إذا بى أنزل فى مهبط الوحى وإذا بالوزير السعودى الشيخ محمد سرور الصبان يتلقانى فى وادى العقيق وإذا به يصحبنى إلى أكثر من عشرين حفلا تحت سماء طيبة أنشدهم فيها من ديوان « انت انت » وإذا بمدينة محمد تطبق على من فيها بذكرى « انت انت » على لسان شاعر جديد ورد الروضة القدسية ليضع فيها أول نسخة سبّح اللهَ بها العالم من ديوان « انت انت » .

ثم إذا بالوزير يأبى أن يغادر المدينة المنورة إلا وأنا معه فى البر عن طريق « بدر » مصدر الأمجاد فى الإسلام ، ويأبى هذا العبقرى إلا أن أصحبه إلى جدة فأنزل عنده المنزل الكريم ، وإلا أن أرافقه إلى مكة فنكرن فى قصره « كرمة الجود » ويأبى إلا أن أرافقه إلى مدينة الطائف ثم يأبى آخر الأمر إلا أن أكون وإياه معاً فى الوفود على مليك الحرمين سعود بن عبد العزيز الذى دعانى لزيارة مقره فى الرياض ، ولبيت الوزير إلى كل ذلك ، وأنشدت المليك إنشادى أعيان المدن الحجازية جمعاء ، ويكون عطف الملك على الشاعر ، بفضل محمد ورب محمد ، كعطف الوزير عليه قبل ذلك ، وإذا بى أعود إلى مصر وأنا مثقل بنعم ربى من وراء تلك الرسالة التى أخلصت فيها إلى الحق ، فكانت هذه أولى بوادر الطمأنينة والاستقرار فى نفسى ، تلك هى العبرة التى كنت مسيراً بها وأنا أتمثل قوله صلوات الله عليه : إذا أراد الله نفاذ أمر سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أمره .

فتهيئة الجو لنظم الديوان ، بوحدتى فى أجمل بقعة من الأرض ، وتسخير الطابع له دونما أجر إلا تأثره برسالة محمد ، ثم التوفيق لزيارة الأماكن التى بعثت فى نفسى عوامل الوحى حتى كأنى ، كلما وقفت على مكان منها ، كنت قد وقفته فى عالم الغيب وأنا أنظم الديوان .

هذه الأسباب التى توفرت لدى من وراء يقينى بالله وإيمانى بالحق ، هى التى وقفت بى آخر الأمر موقف الموقن المؤمن ، أليس فى ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر ؟؟

ثم لم يقف قضاء الله وقدره فى تعزيز « انت انت » عند هذا الحد وإنما تجاوزه إلى إحرازى بفضله جائزة المجمع اللغوى المصرى الأولى للشعر هذا العام ، فلم أحرز بواحد من دواوين شعرى الستة هذه اليد من مجمع مصر العلمى الموقر لولا ديوان « انت انت » حتى شافهنى العلامة عباس محمود العقاد ، وهو أحد أعضاء المجمع ، قال لى : مما يجب أن نفخر به أن المجمع لم يجمع على جائزة أولى فيما سبق وإنما كان يمنحها بأكثرية أعضائه ، وأما ديوانك « انت انت » فقد تجاوز الاجماع إلى الإعجاب » ذلك من فضل الله علىّ أحببت أن أسجله فى هذا السفر وأبعث به عبرة إلى الأجيال .

علي

ستعرفوننى بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي

لا أحب أن ألفت القارئ إلى بلاغة هذه الكلمة ، لأن كلام الإمام إمام الكلام ، ولكنى أحب أن أستطرد إلى ما ترمى إليه كلمته هذه من بعيد ثم أتساءل ونفسى ؟؟ هل عرفه أهل العراق بعد خلو مكانه ؟؟ ومن ذا الذى قام مقام الإمام بعد تخليه عنهم ، ونجاته منهم ؟؟ حقاً لقد نجا منهم بالموت الذى كان حياة له بعد موته فيهم .

هذا الذى كان يتقدمهم فى الحرب ، ويعرفون منزلته من رسول الله ، وأنه مع الحق ، وأن مناوئه باغ عليه ، وأن الله أمر بقتال الباغى ، هذا الذى يعرفون جيداً أنه أول من أسلم لله مع رسوله ، وآخر من جاهد فى الله بعد رسوله ، يعرفون ذلك كله ، وهو إمامهم وأمامهم فى الجهاد ولكنهم أبوا رغم ذلك كله ، إلا أن يلحقوا به فى مقدمة الصفوف يوم صفين ، ولم يبق بين قائد جيشه مالك الأشتر وبين مضرب معاوية إلا بضعة أمتار ، والإمام يعظهم ويمنيهم بالظفر الوشيك ، ويذكرهم بسابقته وخلافته وقرابته من رسول الله أن يثبتوا ويصبروا ، ولكنهم أبوا إلا أن يعلنوا حرباً عليه أو أن ينزل على حكم عمرو بن العاص فى الاحتكام إلى القرآن ، فيأمر قائده الأشتر بالرجوع ، ويغمد هو سيفه بعد أن علموا أن معاوية قد وضع رجله فى ركابه ابتغاء الهزيمة .

هذا الإمام المظلوم قد خلا مكانه فيهم بعد هذه الكارثة التى نزلت بالعراق واستمر العراق تحت وطئها مئة عام ، فمن ذا قام فيهم مقامه خلال هذه الأعوام الطويلة الآجال ؟؟ حسبنا أن نذكر اثنين فقط ممن جلسوا للحكم فى العراق وتقمصوا إمارته بعد أمير المؤمنين سلام الله عليه ، هما عبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، أولهما يمثل يزيد بن معاوية ، والثانى يمثل عبد الملك ابن مروان ، وكلاهما أحدث فى التاريخ الإسلامى حدثاً ما زال العالم الإسلامى وسوف يبقى إلى يوم القيمة حافلا بروعة هذين العهدين وما نشأ عنهما من

تقويض دعائم الإسلام التى قامت على سواعد محمد وأصحابه فى الدعوة إلى تحرير الإنسانية ووحدة العالم .

وإنما اخترت هذين لأدل على مبلغ استخذاء العرب للحاكم المستبد إذا استشرى فيهم ، فقد عرف يزيد أن الآباء العراقى لا يخضع إلا لمن لا يعرف للحق وزناً ، ولا يقبل لله حكماً ، من أجل ذلك كتب لعبيد الله بن زياد بن أبيه ، وزياد هذا هو ابن سمية المجهول الأب ، وقد استلحقه معاوية بأبيه أبى سفيان لأنه كان يفسق بها وشاع أنها شهدت على نفسها بأن ابنها زياد هو من أبى سفيان .

فعبيد الله بن زياد هذا كان والياً لمعاوية على البصرة فكتب إليه يزيد بعد استخلاف أبيه له وخروج أهل الكوفة عليه باستقدامهم الحسين بن على بن أبى طالب ليقوم فيهم مقام أبيه ، أقول : كتب إليه يزيد يستقدمه للكوفة ليحول بين الحسين وبين قوم أبيه ، فقدم ابن زياد على الكوفة قبل الحسين ودخلها فى الظلام يتشبه فى مشيته وبزته ونقبته ولحيته بالحسين ، فتلقاه أهل الكوفة وهو متنكر وهم لا يشكون فى أنه الحسين بعد رسوله مسلم بن عقيل الذى بشر بقدومه ، فكان ابن زياد كلما مر بقوم منهم رحبوا به وقالوا : مرحباً بابن رسول الله ، وهو صامت لا يجيب والناس يزدحمون خلفه يتأثرونه إلى قصر الإمارة ، فلما دخل القصر رفع اللثام وأمر الحجاب أن يغلقوا باب القصر ويعلنوا الجماهير أن الأمير عبيدالله بن زياد يأمركم بأمر أمير المؤمنين يزيد أن تفدوا عليه مبكرين بأسلحتكم ومن تأخر قطعت رأسه .

وبالفعل فقد تدحرجت الرؤس فى الصباح ممن لم يمتثلوا أمره ، فاذا بكوفة الجند كلها مدججة بالسلاح تحدق بقصر الإمارة ملبية أمر الأمير لا ثائرة عليه ، وإذا بالأجناد تسير لقتال الحسين بن فاطمة ريحانة رسول الله ، وإذا بهذه الكتائب التى كانت بالأمس معدة لنصرة الحسين تخرج عليه فتثأر ليزيد الفاسق منه ، وإذا بها لا تقف عند قتله حتى تلحق به أهله وبنيه ثم تدوس جثثهم بسنابك الخيل وتحمل رؤسهم وتسبى نساءهم إلى ابن زياد هذا الذى لم يدع كرامة فى العراق إلا وضعها تحت قدميه . هذا ابن زياد الذى قام فيهم مقام على يأمرهم

بذبح الحسين سبط الرسول الذى لقبه بسيد شباب أهل الجنة ، يأمرهم بذبحه فيطيعونه ، وأما على فكان يأمرهم بقتال الفئة الباغية فيعصونه .

وأما الحجاج بن يوسف فقد بعث به عبد الملك بن مروان إلى العراق مؤدباً لهم وكانوا يحصبون كل أمير يردهم من بنى أمية ، ولكن الحجاج قبل أن يحصبوه صعد المنبر وهو متنكر فلم يتكلم حتى هموا بحصبه ، وإذا به يضع العمامة على رأسه ويقول :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ثم انهال عليهم بالقذف والتحقير والشتائم والتهديد حتى لم يترك فى قاموس الفحش صخراً إلا قذفهم به .

يقول : يا أهل العراق ويا أهل الشقاق والنفاق وسيئ الأخلاق ، يا بنى اللكيعة وعبيد العصا ، وأولاد الإماء » إلى آخر ما هنالك من قذف تندى له الجباه وهم ساكتون واجمون ، قد فارقتهم تلك النفوس العاتية التى حاصروا بها دار عثمان من قبل ، والتى غزوا بها معاوية بقيادة الأشتر النخعى يوم صفين .

ثم قال الحجاج لغلامه : اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عبد الملك فبدأ الغلام قراءته : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى أهل الكوفة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، فلم يردد التحية أحد ، فقال الحجاج يخاطب القوم : أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون السلام أما والله انى لأرى رؤساً أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ، والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، ولأؤدبنكم غير هذا الأدب ، ثم التفت إلى الغلام وقال اقرأ ، فلما وصل الغلام إلى قوله : سلام الله عليكم فلم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

وهكذا بدأ الحجاج يسترقهم ويستضعفهم وينزل بهم الضربة تلو الضربة والفجيعة تلو الفجيعة فى نفوسهم وأموالهم ودينهم وأعراضهم حتى لم يبق بيت فى العراق إلا دخله الرعب وران على قلوب أهله القلق والاضطراب ، أما الدماء التى أراقها الحجاج من أعيانهم وكرامهم ، وأما الذل والاستكانة والانكسار

الذى ساد به عروبتهم ، أما ذلك كله فحسبنا أن التاريخ لم يزل منذ ألف وثلاثمائة عام يحدثنا عن مبلغ ما وصم الحجاج به شرف العروبة وعز الإسلام . هذا هو الذى قام مقام الإمام على فى العراق بعد ابن زياد ، وتلك هى حالة العراق بعد أن خذلوا علياً وقتلوا ابنيه وهتكوا حرائره .

وليس هذا غريباً فى عراقنا العربى ، فان استخذاء هذه الأمة للجبابرة لايزال يصمنا به التاريخ منذ كانت أمة ، فان جبروت عمرو بن هند فى الجاهلية بلغ فى قومه مبلغاً أطلقوا عليه معه لقب مظرط الحجارة ، لشدة وطئه عليهم وقسوة حكمه فيهم ولم يجرؤا ولم يتقرب إلى الحق بدمه واحد منهم ، كما لم نجد فى العراق طوال ستين عاماً سادهم فيها ظلم الأمويين وعسفهم ، لم نجد مضحياً واحداً يقدم على قتل ابن زياد إذ قتل إمامهم ، ولا من أقدم على قتل الحجاج وقد ترك بعد موته خمسين ألفاً منهم فى سجن بلا سقف تحت شمس العراق .

ويحمل التاريخ المظلم لنا عن فاجعة التتر أيام غزوهم بغداد أن المرأة منهم كانت تدخل المنزل على عشرين أو ثلاثين شاباً عراقياً قد اختبأوا فيه من هول الفاجعة ، أقول : كانت تدخل هذه التترية عليهم وبيدها خنجر فتذبحهم عن آخرهم دون أن تثور فى شاب منهم حمية أو تدفعه للدفاع نفس أبية .

وهكذا كان يحكم مكة فى العهود المتأخرة أحد الشرفاء الجبابرة حتى بلغ من عسفه أنه كان يطلق فيلاً له فى الشوارع والأسواق فيأكل ما يأكل ويتلف ما يتلف ولا يجرؤ أحد على ردعه ، وقد جمعهم مرة رجل مرموق منهم وحرضهم على أن يتضامنوا ثم يصارحوا الشريف الحاكم فى إنكار ما يأتيه الفيل من إتلاف ، فأجمعوا أمرهم وانقادوا للناصح فمشى بهم إلى دار الحاكم ولما بدأ يصعد السلم بدأوا ينفضون عنه حتى دخل على الشريف وحده ، وكان قد بلغ الشريف ما أجمعوا عليه ، فلما رآه وحده صاح به قائلا : أين عصابتك ؟؟ وماذا تريدون ؟؟ ولماذا اجتمعتم ؟؟ فقال : جئناك يا سيدى لنرجوك أن تأتى بأنثى لهذا الفيل العزيز علينا خشية أن يموت وينقرض نسله »

وما أجمل أن أستطرد بقارئى إلى وطنى جبل عامل فى لبنان فقد كان هذا الجبل الذى يضم ربع مليون من اقحاح العرب الأباة ، لقد كان أول من ثار فى

وجه الفرنسي المستعمر حتى ضرب المثل للأقطار العربية فى التضحية والجرأة والحرص على الكرامة ، ولما ساده أذناب الاستعمار هانت تلك الكرامة عليه ، فكان آخر عهد الافرنسيين سبة على العروبة باستخذائه لزعماء تأنف العبيد أن تستخذى لهم ، لقد حكمهم ضابط فرنسى أعرج أعور يدعى بتشكوف ففعل بهم أضعاف ما فعله الحجاج بن يوسف فى العراقيين من قبلهم ، إذ كان يطوف قرى هذا الجبل ويأمر بأن يخرج أهل كل قرية لاستقباله يقبلون يديه كما يقبلون يدى كل فقيه فيهم ، ولقد زار مرة أم القرى « بنت جبيل » فتعلدوا تقبيل يديه إلى أن حملوه مع قرينته بمقعدهما على عواتقهم ، فهل بعد هذا خذلان وانكسار ؟؟

وهكذا كنا نرى كل معقل من معاقل العروبة أيام احتلال الأجنبى لبلادنا ، من العراق إلى سوريا إلى شرق الأردن إلى فلسطين إلى لبنان إلى مصر ، نرى كل معقل يخضع ويستخذى لزعيم ساد قومه بخضوعه للمستعمر على حساب هؤلاء المساكين ، فقد كان عبد الرحمن شهبندر يسود الشام بنفوذه البريطانى ، وجميل مردم يسودها بنفوذه الفرنسى وهكذا قل حتى اليوم فى أمثال هؤلاء من كل قطر ثم لم نجد عربياً واحداً ضحى بنفسه فأقدم على تضحية واحد من هؤلاء فى سبيل أمته وكرامة وطنه وأمجاده بينما كانوا يترامون على الحديد والنار فى ثوراتهم على الاستعمار .

وهكذا نصل إلى الطائفة النصيرية فى سوريا ، وهم عرب اقحاح بلغ بهم الإستخذاء لزعمائهم أن ألهوا بعضهم وهو سليمان المرشد ، وهكذا نجد أن جيرانهم وهم الطائفة الاسماعيلية التى ترى فى آغاخان بدعاً من الربوبية وتعطيه نص الآية القرآنية : لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، هؤلاء وأولئك من قادة الأمة ورعاتها هم خلفاء معاوية وابن زياد ويزيد والحجاج وعبد الملك بن مروان وأضرابهم ممن قفى على آثارهم بتأسيس الزعامة على الرجس والإفك والسحت والخيانة والكذب والتدجيل ، فالإمام إنما يعنى أمثال هؤلاء بقوله : ستعرفوننى إذا خلا مكانى وقام غيرى مقامى ، فكأنه ، سلام الله عليه ، قد أشار إلى أن الأمة إذا لم تستجب للهداة من قادتها فستمنى بقادة يجشمونها أشق موارد الهول فى الحياة .

الله

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

محمد

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا

أريد أن أخوض فى هذه الكلمات المترادفة على معنى واحد : القربى ، آل النبى ، أهل البيت ، العترة النبوية ، وغير ذلك مما يشير إلى سلالة محمد وخاصة أهله ، أقول : أريد أن أخوض فى هذه الألفاظ التى قدسها بعض المسلمين إلى حد العبادة ، وتنكر لها البعض الآخر إلى حد السباب والشتائم .

قرأت كتاباً لإسعاف النشاشيبى أسماه الإسلام الصحيح فكان فيه على أهل بيت رسول الله أقسى من معاوية ، حتى أنه نفى كون الآية القائلة : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » نفى أن يكون المقصود بها غير أهل بيته بالمعنى العرفى الذى يتناول نساءه وبناته ومن يؤيهم إليه ، أو المسلمين عامة على اعتبار أنهم جميعاً أهل بيت الرسول ، هكذا قرأت فيما قرأت لهذا الرجل الغريب الأطوار ، ثم قرأت فى نفس الكتاب تهجما على الإمام جعفر ابن محمد الصادق الذى كان الأئمة الأربعة أول الناس تقديساً له وإكبارا ، ثم قرأت لاشباه النشاشيبى من حملة الأقلام للتنقص من آل الرسول فى الشام وبغداد وبيروت ممن شايع النشاشيبى فى تهجمه وصوبه فى تقرير ما جاء به .

أقول ذلك لأنهم لم يكتبوا ليحققوا فى التاريخ ولا ليخدموا الإنسانية فى توجيه الأجيال ، وأعجب من ذلك أن النشاشيبى فى كتابه المذكور يفسر الآية التى يخاطب بها الله رسوله بقوله : قل لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى :

بأن الله يأمر نبيه أن لا يطلب أجره من المسلمين على شقائه فى تبليغ رسالته إلا أن يحب كل مسلم قرباه : فهل هنالك تفسير أغرب من هذا ؟؟ وهل الحيوان بله الإنسان فى حاجة للحض على أن يحب أهله ؟؟ أو يحبه أهله فان فى الحث على صلة الرحم غنى عن ذلك . ولقد وردت هذه الجملة بلفظ أهل البيت فى القرآن عند ذكر إبراهيم ومحمد فقط ، فهل كان المعنى بهما أمة إبراهيم وأمة محمد أم نساء كليهما ومن يؤيان ؟؟ هل كانت الحكمة فى هذه الآية هو أن يحب كل مسلم قريبه أو أن يحب المسلمون نساء النبى ؟؟ وهل هذا هو السر من فرض الصلاة على آل النبى فى كل صلاة تتقرب إلى الله بها ؟؟

من هم أهل البيت الذين صلى الله عليهم فى القرآن وطهرهم ، وفرض علينا تقديسهم فى الصلاة ، وجعلهم رسول الله ثانى اثنين فى هدينا بقوله فى صدر هذا البحث : إنى تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتى أهل بيتى » كما يرويه أحمد فى مسنده ، وكما يرويه جعفر بن محمد فى حديثه ، من هم هؤلاء ؟ أهم بضع نساء فى حجر النبى أفضلهن عائشة التى ضحت بعشرات الآلاف من المسلمين فى يوم الجمل تشفيا من على بن أبى طالب لأنه أشار على النبى بطلاقها ؟؟ من هم هؤلاء الذين يجعلون حكمة القرآن فى عنايته بأهل البيت وقربى رسوله ابراهيم أو محمد ، قاصرة على أن تطلب الصلاة إلى يوم القيمة من الله على نساء النبى ، دون أن نفكر فى سبب أقوى من هذا السبب وحكمة أسد من هذه الحكمة ؟؟ وهل من الحكمة أن نؤمن بأن الثقلين اللذين يتوليان هدينا إلى يوم القيمة هما القرآن ونساء النبى ؟؟ وهل الحكمة فى قولنا : اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، هى الصلاة على نساء محمد وإبراهيم فقط ؟؟ ان هذا لكثير جداً على عائشة وأم سلمة ومارية القبطية وضرائرها، اللهم إنى أشهدك على احترامى نساء رسول الله وأبرأ إليك من أن أقرن بهن اسمك فى الصلاة أو أن أقرن بهن كتابك فى قول رسولك .

ولماذا نصلى على نساء محمد ونساء إبراهيم ولا نصلى على نساء نوح ونساء لوط ؟؟ أفليسا رسولين كابراهيم ومحمد ؟؟ ولماذا لم نقل اللهم صل على محمد

وآل محمد كما صليت على نوح وآل نوح أو على لوط وعلى آل لوط ، إذا كان المقصود من أهل بيت كل نبي هو نساءه أو أمته ؟؟

ان هنالك سراً يفقهه المسلم الصحيح الإسلام ، والمحقق الذى لم يحل بين عقله ونقله ، هوى أو جمود ، ذلك السر هو فى صميم الناموس الأعظم الذى تنزل به الروح الأمين على قلب محمد ، فليس الدين الذى يتعهد به الله عباده وحياً فقط ، وإنما هو إلى الوحى المجمل ، نبي يوحى إليه فيفصل ويبلغ ، ثم هو إلى هذين ، فئة تحرص بعد النبي على هذا التبليغ فتعززه فى الصدور وتمكنه من النفوس ، وتحفظه من العدوان ، وتحول بينه وبين الجور فى الحكم والجهل فى التطبيق ، من أجل هذا قال رسول الله إذ نعيت إليه نفسه : إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا » ومضى يمهد لهذه العترة بنشدانه علياً فى حجة الوداع مشرفاً على الناس وهو يعلنهم بقوله : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟؟ قالوا بل يا رسول الله ، فقال ممسكاً بيد على : اللهم من كنت مولاه فعلى هذا مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » .

فلقد كان على الرسول أن يعلن قبل أن يموت : أن هذا الناموس القائم على ثلاثة أركانه ، وحى مجمل ، ونبى مفصل ، وإمام يعزز ويراقب ، أقول : لقد كان على الرسول أن يعلن قومه بالركن الثالث بعد الإجمال والتفصيل ، ألا وهو التقرير والتعزيز على يد هذه الصفوة من أهله ، التى كانت الصفوة بعد إبراهيم ثم الصفوة بعد محمد ، وقد رمز إليها القرآن بالقربى تارة وبأهل البيت تارة ثم فى آية المباهلة آخر الأمر ، فعلى المسلمين أن يفقهوا الدين من هذه الناحية فلا يخلطوا بين السلطتين الروحية والزمنية ، فان الله ورسوله لم يريدا على الناس فرض السلطة الزمنية وإنما أرادا فرض السلطة الروحية فكانت فى الصفوة من أهل بيت الرسول ليكون على المسلمين أن يتدبروا فرقانهم من طريق هذه العترة الطاهرة قبل أن ينوطوها بالحاكم الزمنى .

وإذا درسنا حياة على وفاطمة والحسن والحسين حتى الإمام جعفر بن محمد الصادق نجدهم لا يتعدون فيما يقولون أو يفعلون حدود الحرص على تراث محمد وتعزيزه فى صدور المسلمين والحيلولة بينه وبين الأهواء والنوازع ، ولو أدى

بهم ذلك إلى التضحية بنفوسهم فى سبيله ، هذه السلطة الروحية لم ينازع أحد بها علياً بعد محمد لأنها براء من حطام الدنيا ، وقد شهد له الخلفاء الراشدون بأنه زعيمها الفذ إذ جاء على لسان عمر وهو أشد الخلفاء اعتزازاً بنفسه واعتداداً بمكانته ، بجاء عنه قوله : لولا على لهلك عمر ، وقوله : لا أبقانى الله لمعضلة ليس لها أبو حسن ، على أن علياً نازعهم فى السلطة الزمنية ليتمكن ، بلا منازع ، من تطبيق الحياة على السلطتين معاً فى شخص واحد ، ولكنه لم يستطع إذ كان غير نبى ، وإذ رأى أن الذين تولوا هذه السلطة ، أى السلطة الزمنية ، أمناء على أن يماشوه فى نصرة الحق وتعزيزه فى العالم ، فطوى عنها كشحاً وظل يعزز ويراقب .

أما الخلفاء الراشدون الذين تولوها قبله ، فلو زهدوا فيها زهده ، وسمعوا لرسول الله فى ترشيحه لها يوم الخندق ، لعرفنا مبلغ الصدق والإخلاص فى قول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود صاحب كتاب « الإمام على » وهو يحلل هذه الناحية من عهد الخلفاء حيث قال : مما لا شك فيه أن علياً برهن لنا فى حياته كلها أنه كان المثل الأعلى للسير فى ركاب الدين فى حياة رسول الله وبعد مماته ، فلو تولى الخلافة بعد الرسول واستمر فيها أربعين عاماً مطلق اليد معززاً من الصحابة ، لتفادى الإسلام جل الأسباب التى لم تدعه يستمر فى رقيه أكثر من ثلاثين عاماً ، إذ كلنا يعلم أن تنازع الصحابة على الخلافة وتجاهل أكثرهم علياً أفضى بها إلى عثمان الذى مكن للأمويين من أحداث كانت السبب فى تقهقر الإسلام وعجزه عن أن يسود العالم » .

لقد صدق الأستاذ عبد الفتاح ، فان تجاهل أبى بكر لعلى وهو يتولى الخلافة ثم يدلى بها إلى عمر من بعده ، وتنكر عمر لعلى وهو يجعلها شورى ، ان ذلك التجاهل وهذا التنكر ، أفضيا بالخلافة إلى عثمان ، ثم إن ضعف عثمان بين يدى شيخوخته وعتو عشيرته ، أفضى إلى جرأتهم على الحق بتأهيل عائشة ومعاوية للخروج على على ، فكان ذلك مدعاة لأن يحرص على على ما أتمن له من تعزيز الدين والدفاع عنه ، إذ لم ير فى عائشة المرأة الضعيفة ، ومعاوية الباغى على الحق ، لم ير فيهما ما يراه فى أبى بكر وعمر وعثمان من فقه فى الدين وسابقة فى

الجهاد ، فكان عليه بعد الخلفاء أن يحتفظ بالسلطتين ويقاتل دونهما حتى استشهد وخلفه فى الاستشهاد أبناؤه حرصاً على الدين من خلفاء معاوية ، فكانت دماء أهل البيت حائلة دون تمادى الأمويين فى محو الدين كما كان مفروضاً لهم ، إذ لم يوفقوا به إلا أنه وسيلة للهاشميين يتذرعون بها إلى انتزاع السيادة منهم .

من أجل هذا لم يطل عمر هذه الدولة بعد كارثة كربلاء أكثر من سبعين عاماً ثم بدأت تنهار ، وبدأ نجم الباطل فى أفق أمية يميل للأفول ، ولم يبق فى صدور المسلمين أثر من هذه الأحداث إلا النقمة على معاوية وأخلافه ، وإلا المحبة لآل الرسول والعطف عليهم والرضى عنهم .

ولقد كان وما زال إجماع المحققين من فقهاء المسلمين على أن معاوية أساء إلى الإسلام حتى ختم حياته مسيئاً ، إذ لم يندم على سن الشتم لأهل البيت على وأبنائه قبل موته ، وإذ حمل المسلمين على استخلاف ولده يزيد وهم كارهون له بذلك أخر الإسلام وحال بينه وبين غزو العالم واستهلاكه ، ولعل ولده يزيد كان يحمل فكرته إذ عمد إلى قمع الدين من أساسه ، فبدأ بالسلطة الروحية فى شخص الحسين وأهل بيته فأبادها بزعمه ، وانصرف بعد ذلك إلى الكعبة فأحرقها ثم أشخص إلى مدينة الرسول جيشاً بقيادة ابن عمه مسلمة ، ففعل تلك الفعلة النكراء حتى كانت دماء الصحابة والقراء والأطفال والنساء تجرى فى أزقة المدينة ، وحتى وقف قائده على قبر الرسول يلدمه برجله ويقول : لدمة بلدمة يامحمد .... « ويزيد » هذا من أم نصرانية كانت السبب فى إحفاظه على الإسلام فشاء أن يقضى عليه ولكن الله سلم ، وقد فطن إلى هذا فى يزيد وأبيه ، السياسى الألمانى الداهية بسمارك حيث قال : ان على كل مسيحى فى العالم أن يقيم تمثالا لمعاوية بن أبى سفيان فى داره إذ لولاه لما بقى غير مسلم فى مجموعة البشر » .

هكذا نستطيع أن نفسر عناية القرآن بقربى محمد وعناية محمد بتعزيز هذه القربى وترشيحها للخلافة بعده ، ثم جهر على واعتزازه بقوله : نحن أهل بيته .

محمد

مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا أُصِيبَ عُضْوٌ منه تَدَاعَتْ لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى

أقرأ هذا الحديث فى الوقت الذى أنبأنى فيه السيد على حافظ صاحب جريدة المدينة المنورة ، أنبأنى ، ونحن فى القاهرة ، أن ابراهيم شاكر ونجيب صالحة التاجرين السعوديين بعثا إلى ألفى إنسان ، وهما فى لبنان ، يدعوانهم من أقطار العالم العربى على نفقتهما زاداً وراحلة ، ليعقدا قران ابن الأول على ابنة الثانى ، قلت له : لعل هذا العرس يستهلك من مالهما مالا يقل عن مائة ألف دينار ، فقال : وأكثر ، ثم قال : ولقد احتكرا كل فنادق لبنان الفخمة لضيافة المدعوين ، وقد بذل الوالدان لولديهما بعد العقد مائة ألف دولار نفقات رحلتهما إلى أمريكا يقضيان فيها شهر العسل تحت سماء نويرك وفى ظلال ناطحات السحاب.

وفى الوقت نفسه لمعت فى خاطرى بارقة أطلت على بيروت الجميلة قبل أشهر حيث أقيم لمثل هذا ، حفل عقد فيه قران المارد عبد الله الجابر أحد أمراء الكويت من آل صباح ، على إحدى جميلات لبنان من آل المرعب ، فكان مثل هذا الجنون فى الإسراف بأموال لم تنلهم فى إحرازها مشقة ولا عناء ، ولقد قرأت فى صحف لبنان ، وهى لاتصدق إلا فى مثل هذا الإغراق ، قرأت أن الحفل أقيم فى فندق « سان جورج » وأن مما نكبت العروبة فيه فقد العروس تلك الليلة خاتماً يقدر ثمنه بعشرين ألف دينار ، وأن الأمير أعد للعروس قصراً بمليون وربع المليون من دنانير البترول الذى لم يهبه الله للغرب ليصل به إلى تفجير الذرة ، ولكنه وهبه للعرب الذين يستغلون به الحياة الإنسانية المعذبة .

وفى نفس الوقت عادت بى الذاكرة إلى بضع سنين خلت حيث أقام الإمام المسلم زعيم الإسماعيليين الأمير على خان ، عرساً تحت سماء أوروبا الحافلة بجمال الحياة المغمورة بالفسق ، أقام هذا الإمام الهاشمى ، لعقد قرانه فى باريس على

الممثلة « البتول » ريتا هايورث ، دعا إليه مآت من أعيان العالم على نفقته ، وقد أجمعت الصحف أن الإسراف ، من مال الله طبعاً ، بلغ بالأمر إلى أن ينشئ فى قصر الزفاف ، حوض سباحة من ماء العطور « الكالونيا » ليغتسل به العروسان ، ثم لا يعلم غير الله مصدر هذا المال الذى يتصبب عرقاً أو يجرى دموعاً من طائفة تعبد هذا الطاغوت فتزنه على رأس كل عام بما يكلفها ملايين النقد من أحجار الماس لينفقه على شهواته كما كان ينفق على شهوات أبيه من قبل.

تمر هذه الخواطر بى ، وأنا أقرأ فى الصحف كل يوم ما ينزل بالمسلمين فى الجزائر من فظائع الإفرنسيين ، ثم أقرأ فى هذه الصحف ما يقاسيه مليون لاجئ مشرد عن وطنه من عرب فلسطين ، فهل وعى هؤلاء الذين يغرقون المحافل والأندية بالأموال الرخيصة فى عبثهم ولهوهم ، أقول : هل وعى هؤلاء صراخ إخوانهم فى الجزائر وهم يستغيثونهم تحت الحديد والنار ، أم هل غفلوا عن إخوانهم عرب فلسطين وهم يرزحون تحت وطء البؤس ، هل وعوا ذلك فعملوا إلى اقتطاع حفنة من هذه الملايين المهدورة على مذبح الشهوات ليغيثوا بها صراخ أولئك وبؤس هؤلاء ؟؟ وكيف إذن يؤمنون بقول محمد وهو يدعوهم للتعاون والتضامن ، ويضرب لهم الأمثال فى أن يكونوا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ؟؟

هل ساور عبدالله الجابر هم أو سهر من أجل إخوانه فى الجزائر وهم يضحون بأنفسهم فى سبيل عرضهم المنتهك ، وحقهم المغصوب من وراء البغى على عروبتهم وإسلامهم ؟؟ وهلا ساور آغا خان ونجيب صالحة سهر أو حمى وهم يرون بأم أعينهم عشرات الآلاف من لاجئ فلسطين يقفون كل شهر على أبواب الإغاثة يستجدون الأجنبى فضلة من ثياب أو صاعاً من بر واليهود يمرحون فى ديارهم فارهين آمنين ؟؟ هلا ساور هؤلاء أو ساور غيرهم من أثرياء المسلمين هم أو قلق من أجل إخوانهم فأشركوهم فى المال الذى أنفقوه على الرقص والمجون والبذخ فى خلواتهم وجلواتهم ؟؟

كنت أقرأ ، وأنا شاب حدث ، سيرة المأمون مع « بوران » بنت الحسن بن سهل فى زفافها عليه ، وأنه بلغ من الإسراف ليلة عرسه أن كان غلمانه ينثرون

على شهود الحفل ، رقاعاً تحمل أسماء قرى ودساكر ، فكل من تلقى رقعة ملك ما فيها ، كنت أقرأ هذا ثم أقرأ أمثاله من إسراف الملوك بين يدى شهواتهم ، فأمعن فى التفكير : هل الملوك على حق فى إنفاق أموال المسلمين كما يشاؤن ؟؟ أم هو مالهم الذى يأخذ هذا الطريق فى الإنفاق ؟؟ على أنى كنت أرجع إلى إقناع نفسى : بأن الأمة إذا كانت متوفرة على الرخاء والأمن والعزة بفضل ملوكها وقادتها فلا بأس بأن يختار هؤلاء الدنيا ثمناً لجهودهم فى تعزيز الأمة .

ولكنى كنت أعجب من الأمة إذ تستخذى للملك الذى لا يقودها إلا إلى الفجور والفسق بما يقول أو يفعل ، كنت أعجب لذلك حين أقرأ سيرة الملك الأموى يزيد بن الوليد إذ كان كلما طرب لجاريته « حبابة » ألقى بنفسه فى حوض من الخمر أعد له فى مصيفه « ببيت راس » شرقى نهر الأردن فيتلف كل يوم بدلة ملكية بفعله هذا ، كنت أعجب للمسلمين إذ حملوه لدى موته فى مصيفه هذا على قبر جاريته هذه ، حملوه على أكتافهم مسيرة يومين إلى دمشق ليقبروه فى مدافن « الأبرار » من عشيرته .

أقول : لم أكن أعجب من إسراف هؤلاء الملوك لأن الأمة كانت فى أوج عزها ولم يكن فى المسلمين من يخشى على ماله أو عرضه أو دمه ، ولكن الزمن فى عهدنا اليوم يختلف عن ذلك الزمن اختلافاً كبيراً ، فان القوة التى كانت تخولنا يومذاك سيادة العالم وفرض السياسة التى تضمن لنا هذه السيادة عليه ، هذه القوة أصبحت فى قبضة أعدائنا ، وأن الرقعة الإسلامية التى لم تكن تغيب عنها الشمس أيام عزنا ، أصبحت هذه الرقعة فى عهدنا الحاضر ليست أجنبية عنا فحسب ، بل عدوة لنا لم تزل منذ قرن ونيف تتربص بنا الدوائر للقضاء على تراثنا ، والحد من نشاطنا وتقدمنا ، حتى كان لها ما شاءت وأصبحنا صنائع لها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا ، كياناً قام فينا على مجد العروبة وعز الإسلام .

أقول : انها تهدم بأيدينا وألسنتنا وأفكارنا بقية ما نعتصم به من تراث ، أعرف رجلا فى بيروت يدعى علياً ... ثبت لنا فى الحرب العالمية الثانية عن طريق الظباط المغربيين فى الجيش الافرنسى ، إذ كانوا يتصلون بالشيخ محمد العربى الذى هو مغربى الأصل والذى يقطن لبنان ، نقل لنا أن ظابطاً مغربياً

وقف على تقارير سرية يقدمها على ... هذا أثبت أنه فى سلك الاستخبارات الأجنبية ، يتجسس على الفقهاء من قومه فقط ، وقد كان هذا « العلى » أعجوبة فى نعومة حديثه وحرصه على التعرف إلى كل فقيه يشغل مكانة مرموقة فى قومه ؛ وكان فقهاء السنة والشيعة سواء عنده فى تملقه لهم واعتزازه بصداقتهم ، وقد وقد كنت فى ريب من أمره ، إذ علمت أنه فقير ولكنه يعيش فى بحبوحة دون أن يكون لأحد عليه منة ، وزاد ريبى فيه عندما هم أهل بلده ببناء مدرسة وانتدبوه لأن يعمل معهم فاختار لنفسه زيارة الهند فى هذه السبيل ، وهو رجل أمى تماماً ، وقد كان ذلك فذهب إلى الهند وعاد بسمائة دينار ذهباً بنى بها المدرسة وبنى بيته ، فكيف ذهب إلى الهند ؟ ومن ذا يعرفه فى الهند ؟؟ .

ولما نقل لى الشيخ عبد الله العلايلى بلسان الشيخ محمد العربى ما تكشف عنه خلق « العلى » أدركنا السر جميعاً فيما كان منه ، ولقد نشأ ابنه مكانه فدرس فى الجامعة الأمريكية وخرج منها فدخل فى صميم الحكومة ، وكان تعزيز رئيسها « فلان » يومذاك أول من احتضنه فعلمنا أن هذا الرئيس من قبيل على وابنه ، وما أعجب أن ذاع صيت هذا الوليد وملأت شهرته الآفاق ، لأن الأجنبى عندما يتبنى شخصاً سخر له الصحافة المأجورة ، والإذاعة التى يتبناها ، والسماسرة الذين يسبحون بدنانيره ودراهمه ، حتى يملأ به المجتمع ويصل من وراء هذه الشهرة إلى المنصب الذى يستطيع أن يقابل إحسان سيده به ، وهكذا نجد كل مأجور للدخيل يعمل بيده وفكره ولسانه على هدم تراثه خدمة لسيده الأجنبى واستخذاء لشهواته .

وأعرف رجلا كان قبل الحرب العالمية الثانية صبياً فقيراً نشأ يتيما ورأى فيه بعض هذه الفئة التى تعمل « لوجه الله » ذكاء يبشر بمستقبل حسن يعمل فيه تحت إمرتهم ، فأولجوه باب الجامعة الأمريكية فلم يخرج إلا أستاذاً متفوقاً عليهم بمهارته وذكائه ، وكانت قد دخلت الحرب فدخل فى سلطان بريطانيا ، وإذا به يذهب إلى لندن ويجئ منها مرتين فى الشهر ، وإذا به يتكشف عن تاجر ماهر بين الإيراد والتصدير ، وإذا به يصبح المؤثر الأول على غرفة تجارة لبنان ،

ثم إذا بتجارته تعم العالم العربى وإذا به هو فى صميم مجلس التشريع اللبنانى ، وإذا حزبه الأول فيه .

ولقد كنت يومذاك خصما « لفلان » رئيس حكومة لبنان وكنت قد نظمت ديوان « فلان » وعرف التاجر به فدعانى إلى مكتبه وحاول إغرائى بطبعه وتعزيز أدبى لا لشئ سبق منى له فعجبت لذلك ووقعت فى ريب من أمره ، ثم رأيت « محمداً » بن على الذى سبق ذكره يكثر من الدخول عليه فازداد الريب فى نفسى وسألته : ماذا يصنع هذا هنا فقال : انه محرر جريدة أنشأها له ، فصمت وعلمت كل شئ ، ثم قرأت بعد سنين وأنا فى مصر كتيباً لهذا التاجر النشيط ، واسمه « اميل » يسجل فى هذا الكراس الصغير ما أذكر من قوله : لنضع قضية فلسطين على الرف ونعمل فى سبيل رقينا وتقدمنا » فقلت للحاج أمين الحسينى الذى أهدى إلى هذا الكتيب ، أتعرف صاحب هذا الكتاب ؟؟ فقال أعرفه من أوله إلى آخره ، ثم الأعجب من هذا أنا قرأنا للسيد اميل ... بعد تأميم مصر لقناة السويس وقيامة بريطانيا وفرنسا فى وجه رئيس مصر ، قرأنا له بالنص : لنضع الآن قضية القنال على الرف ونعمل على إنقاذ فلسطين ...

ولنستطرد بعد .. فان هذا الاستطراد حبيب إلى قلب السامع والقارئ ، ولقد عرفت رجلا منذ أكثر من ثلاثين عاماً لدى ذهابى إلى العراق فى سبيل دراستى الأولى ، كان هذا الرجل رفيقنا وكان قد تخرج من إحدى الجامعات الأجنبية فى بيروت ، فكنا كلما استوقفنا مخفر أمن بين لبنان والعراق ، وكانت المخافر افرنسية وسكسونية ، افتقدنا صاحبنا فاذا هو مع رئيس المخفر الأجنبى يتناجيان ، وفى مدينة الموصل ركبنا القطار إلى بغداد فدخلنا محطتها منتصف الليل وإذا بنفر من الجزويت « الغرابيب » يسألون عن صاحبنا ويصحبونه إلى حيث لا نعلم .

وبعد أيام سمعنا بأنه أصبح أمين سر للملك فيصل الأول ، ثم بعد سنين عاد إلى لبنان يحمل ثروة كبيرة ، ثم إذا هو اليوم فى مجلس التمثيل ، وهكذا نجد أكثر هذا المجلس المبارك من هذا الطراز الطيب الأحدوثة ، ولا يزال كذلك ثم لن يزال شوكة فى عين العروبة ما دام الآباء اليسوعيون من الجزويت الافرنسى

يغذونه بلبانهم « الخالص » من شوائب الدس والتضليل حتى ينشأ فى مسيحي لبنان من يحيله من طوائف مختلفة إلى طائفة موحدة ، ومن أديان متناحرة إلى دين واحد ، ولن يتوفر على ذلك حتى يخلط المسيحى بالمسلم لغة وجواراً وزواجاً ، فلا نرى فى بيروت بعد ذلك حياً مسيحياً لايقطنه مسلم أو حياً مسلماً لايقطنه مسيحى ، ثم لانسمع فى حى مار نقولا لغة الافرنسيس وفى حى البسطة لغة يعرب ، وحتى نرى المسيحى فى المسجد يوم الجمعة ونرى المسلم فى الكنيسة يوم الأحد ، وهذا أبعد فى لبنان من سمائه عن أرضه .

وبعد ، فقد شطح بنا القلم ولكنه شطح محبب إلى نفس الأبى الحر ، إذن فالزمن قد تغير من زمن كانت العروبة فيه سيدة اللغات ، ودينها سيد الأديان ، إلى زمن أصبحت العربية هزءاً فى نفوس أبنائها ، وأصبح دين العرب موضع النقد والتجريح من أهله ، فلم يعد للإسراف والتبذير من المسلم عذر مشروع ، وأصبح كل قوى فى المسلمين مسؤلا عن ضعيفهم ، وكل غنى مسؤلا عن فقيرهم ، كما أن كل حر منهم أياً كان من الأرض مسؤلا عن كل مضطهد مستعبد فيهم أياً كان ، وإذ ذاك فقط يصدق علينا أنا مسلمون ، وأنا فى مجموعنا كالجسد الواحد إذا أصيب عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

علي

إِنَّ فِي الْقُرْآنِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ

يريد الإمام بكلمته هذه أن يقول : إن فى القرآن علم ما يأتى وعلم ما كان ، وهو المعبر عنه بقوله : « حديث الماضى ، وفيه علم الحاضر ، المعبر عنه بقوله : دواء دائكم ، وهو علم الطب نفسياً وبدنياً ووقائياً ، وبقوله : نظم ما بينكم وهو سائر العلوم سياسية وثقافية واجتماعية ، لأن فى كل من هذه تنظيما لحياتنا الجماعية ولولا ما نعتصم به من نظام فى حياتنا لكنا من غير نوع الإنسان المسيطر على ما دونه من الحيوان والنبات والجماد ، والفضل فى ذلك للعقل القائم فى تهذيب الإنسان على تعاليم القرآن ووصاياه ، فليتدبر قارئى ما أفضى إليه به من التدليل على هذا الحكم :

يتناقل أهل القرية التى هى مولدى وكانت فيها نشأتى الأولى ، وهى قرية « حاروف » من أواسط « جبل عامل » بين لبنان وفلسطين ، يتناقل أهلها بحيث أسمع : أن فتاة تلقب « بالكبشة » وقد رأيتها ، أصابها داء الصرعة وهى صبية فبعثت أمها أخاها إلى عالم معروف بفقه الدين والتقوى يدعى الشيخ عبد الله نعمه ، وكان موطنه بلدة « جبع » من أعالى جبل عامل ، بعثت أخاها ومعه هدية للشيخ ليكتب « تميمة » لابنتها المريضة ، وكان أخوها لا يثق بهذا النوع من العلاج ، فتصرف بالهدية وقطع يومه فى مدينة النبطية التى هى وسط بين « حاروف » و « جبع » بلدة الفقيه .

وعاد إليهما آخر النهار وقد احتال عليهما بقرطاس لقطه من الشارع وذهب به إلى الخراز فخاط عليه جلدة يوهمها أنها تميمة ، ويشاء الله أن تحمل المريضة هذه التميمة الوهمية ويكون فى حملها شفاء لها من داء الصرعة ، ثم يشاء الله أن يموت الفقيه بعد عام وأن يتحدث الناس بفضله ، ومن هؤلاء الناس أم طالب ، وهى أم المريضة ظلت تشيد بفضل الفقيه الراحل على ابنتها بتميمة شفتها من داء الصرعة ، ويضيق ابنها ذرعاً بحديثها فيصارحها بأن التميمة من صنعه هو وأن

للعلاج بالتمائم من خرافات العقل البائد ، فتعمد الأم وابنتها إلى فك التميمة فيتضح صدق ابنها وتزول الثقة من نفس الأم والبنت فاذا بها تعود إلى الصرعة ثم ترافقها إلى القبر .

سقت هذا المثل الصادق الذى وقع فى قريتى وبين سمعى وبصرى ، وأنا على علم بالأم والبنت والابن أعرفهم جميعاً ، أقول : لقد سقت هذا المثل لأدل على أن العلم الحديث لم يخطئ بارجاع كثير من الأمراض إلى علم النفس ، وقد أصبح العلاج النفسى لمرضى الأعصاب من البديهيات ، وأن تأثير العقيدة ، والإرادة ، والاطمئنان ، والثقة ، على الجسم فى رأس الأصول التى يقوم عليها الطب النفسى ، وأن العقيدة لها المكان الأول فى التأثير على النفس سواء كانت صحيحة أو فاسدة ، ففى الحديث الشريف : لو اعتقد أحدكم بالحجر لأفاده» وليس ذلك بضار فى الدين لأن الإسلام لم يأت بخلق جديد فى العقائد وإنما جاء ليصححها بالتوجيه إلى الحق ، كما أنه لم يأت بما يمحق العواطف العاصفة بالعقل وإنما جاء ليهذبها ويصرفها عن الشر إلى الخير .

من هنا نصل إلى أن العقيدة فى الصنم أحالها الدين إلى عقيدة بالله ، من أجل كرامة الإنسان ، وأن هذا العقل القائم فيه لايليق به عبادة الحجر أو الشجر ، وإنما هو نور يشق للإنسان حجب الغيب عن ربه الخليق بالدينونة والعبودية ، ففى القرآن دواء دائبا حقاً لأن عقيدة المسلم وقفت عنده واستحالت فيه من وراء عقله المؤمن به والشاخص إليه ، فكان من الطبيعى ، وهو الصلة بينه وبين ربه خالق الموت والحياة ، أن يتخذ منه وسيلة لشفائه من كل داء ، وقد آمن بذلك الطب الحديث وعمل به ، إذ وجدنا كل طبيب نفسى يأتى مريضه من طريق المؤثرات عليه عقلاً ونفسياً ، ثم يعالجه بالطريقة القائمة على علم النفس .

والعقيدة هذه لاتؤثر على صاحبها فقط ، وإنما تتعداه إلى غيره ، فقد حدثتنى أمى وصادق على حديثها أبى : أن أخاً لى ولدته قبلى وكان اسمه أسمى « محمد على » وكانت قد يئست بعده من الحمل ، وأن أبى أيقظها ليلة القدر ، وهى الليلة السابعة والعشرون من شهر رمضان ، وكان أبى يحى أكثر لياليه تهجداً ، وكان قد قرأ تلك الليلة حديث الرسول : من مات له ثلاثة أولاد وصبر فله الجنة »

وكان قد فقد ولدين ، فأوقظ والدتى ثم قرأ عليها الحديث وقال لها : ان أعمالنا لا توجب لنا دخول الجنة وقد فقدنا ولدينا وصبرنا فلندع الله ، إن كان هذا الحديث صحيحاً أن يأخذ أحد هذين الولدين ، فاطمة ومحمد ، ليكون لنا بفقد الثلاثة سبيل إلى رحمته » .

قالت أمى : فصمت إذ ذاك ثم بكيت وقلت له : سأنزل على حكم الله وسأصبر على بلائه فافعل ما تشأ فأنا راضية بما أنت به راض والله على ما أقول شهيد ، قال أبى إذ سألته صدق الحديث عن أمى : لقد صدقت وانى لأذكر أنى صليت ركعتين قربى لله بعد أن هجعت أمك ثم سألت الله : ان صح هذا الحديث فأنا متنازل عن أحب الولدين وهو أخوك محمد ، فلم نصبح تلك الليلة حتى كانت الحمى تغور فى جسد أخيك ولم تمهله أكثر من ليلتين ، وإذا به يفارقنا ليلة الغيد ، فلم نجزع ولعلنا كنا على العكس ، فرحين بأن أجاب الله ما سألناه وصدق ما رواه الرواة عن رسوله ، ثم لم تلبث أمك بضعة أشهر حتى حملت بك بعد يأسها وكنت أنت خليفة أخيك « محمد على »

فما قول علماء النفس فى هذا الحدث الذى وعيته من أبوى ؟؟ وما هو تعليلهم هذا التأثير من أب يصلى وطفل هاجع لا يعلم ما وراء هجوعه ؟؟ وهل يستجيب الله لرجل يضحى بولده فى سبيل الزلفى إلى ربه ؟؟ هل عند علماء النفس تعليل لهذا غير أن للروح عالماً تتجاوب جزئياته فى حدود كليه العام ؟؟ كما أن للمادة عالماً تتجاوب جزئياته كذلك فى حدود كليه القائم فيه ؟؟ فكما أن الجرم المادى يتأثر من وراء اصطدامه بجرم مادى آخر كذلك نرى أن الجرم الروحى يتأثر من وراء اصطدامه بجرم روحى آخر ، وكما أن تأثر الجرم المادى بمثله يختلف قوة وضعفاً باختلاف الجرمين فى الكبر والصغر ، كذلك نجد تأثر الجرم الروحى مختلفاً قوة وضعفاً باختلاف الجرمين فى الكبر والصغر ، من هنا كان تأثير الإرادة القوية على الإرادة الضعيفة قوياً فيما نسميه بالعين .

فقوة الإرادة فى الأب أو الشجاع أو المظلوم وهو يتصور الموت ويستنزله لوليده أو مبارزه أو ظالمه أثرت على ضعف الإرادة فى الولد أو المبارز الجبان أو الظالم الغافل وهو يتصور الحياة إبقاء على نفسه ، فجزئى الروح فى الفاعل له السلطان

على جزئى الروح فى المنفعل ، لذلك نرى القوى والغنى والعالم يسيطرون على الضعيف والفقير والجاهل ، ونرى هؤلاء يستجيبون لأولئك فى الخضوع لإرادتهم والاستسلام لسلطانهم .

هذا من ناحية الطب النفسانى وأما الطب البدنى فالقرآن يضم الكثير من عقاقيره ، ففى قوله تعالى : فكلوا واشربوا ولا تسرفوا » أبلغ عقار للدء الأمراض الباطنية إذ كانت المعدة وما زالت بيت الداء ، وأكثر أدوائها ينشأ عن التخم الناشئة عن إسراف الآكل فى طعامه أو شرابه . وفى تحريم القرآن لكثير من المآكل الخبيثة كالميتة والدم ولحم الخنزير وتحريم الخمور والخبائث من الشراب الآسن والطعام المتعفن ، وتحريم القذارة وسؤر الكلاب والخنازير وإلزام الإنسان بالطهارة فى عبادته أو سلوكه مع غيره ، أقول : إن فى تحريم ذلك وإيجاب هذا كثيراً مما يفتقر إليه الطب البدنى الحديث ، فى الوقاية والعلاج .

قدمنا فيما مر شيئاً من إثبات أن علم ما بين أيدينا طباً وسياسة وقضاء واجتماعاً مشار إليه فى القرآن إما تصريحاً أو تلميحاً ، فالتصريح فيما مر وأما التلميح ففى أمثال قوله عز من قائل : سخر لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » فقوله : يخلق مالا تعلمون تلميح يكاد ينافس التصريح فى الدلالة على آلات البخار والكهرباء وما ينشأ عنهما من مسخرات الإنسان للركوب وغيره ، وهذا كله يشير إلى علوم حديثة لم تكن ثم كانت ولعل التصريح بها فى ذلك العهد يعزز الارجاف والشك فى صدور ضعيفى الايمان بالإخبار عن أشياء يستعصى تصورها على عقولهم الضعيفة ، ولذلك كان فى صميم الرسالة الإسلامية الدعوة إلى العلم والحض عليه من المهد إلى اللحد لتقوى عقولنا على تصور العلوم والفنون ولتحقق فى مستقبلنا ما كان قبلا من قبيل الخيال .

أما أن فى القرآن علم ما كان المعبر عنه فى قول الإمام بالحديث عن الماضى ، فلا يحتاج إلى تدليل ويكفى لإثباته ما يشير إليه الكتاب الكريم فى قصة ذى القرنين وقصة أهل الكهف ، وقصص الأنبياء والرسل ، فانها مشحونة بعلوم الأولين منها ما حققه العلم الحديث كبساط الريح وعرش ملكة سبأ فى قصة سليمان ، إذ كان العلم يدرك السرعة التى أوتيها سليمان فى الطيران ، بواسطة الأثير «اللاسلك»

وأما سرعة النقل بحيث يقطع الجرم فى سيره آلاف الأميال ببضع ثوان كما فعل مستشار سليمان فى نقل العرش ، أما هذه السرعة فقد أشار إلى إمكانها العلم الحديث فى استخدام الذرة للسلام العالمى إذ صرح أحد علماء الذرة بأن فى الإمكان القريب سير الأجرام بسرعة الضوء .

وهكذا نجد أن حديث الماضى فى القرآن ، لايشعرنا بعلم ما كان فحسب ، وإنما يتعداه بالإشارة إلى علم ما يكون ، كما فى قصة أهل الكهف من إغفالهم قروناً ثم بعثهم أحياء ، وفى قصة موسى وعيسى من فلق البحر وانفجار الصخر عن الماء وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وفى قصة سليمان من تكليم الطير ، وغير ذلك مما لم يصل إلى تعليله وتأويله أهل الحضارة بالعلوم والفنون وفى ذلك ما يثبت صحة قول الإمام بأن فى القرآن علم ما يأتى به مستقبل الإنسان ، فخذ مثلا على ذلك علوم الأثير اليوم وفى طليعته فن التوجيه للطائرات والصواريخ :

فى سنة ١٩٤٦ كنت فى أمريكا وقد جرى توجيه أول طائرة قذفاً باللاسلكى من نويرك إلى لندن كما يقذفون الأصوات مركزة على موجات الأثير بالأجهزة اللاقطة فى المذياع ، وذهب فى الطائرة بعض المهندسين لا لقيادتها بل للإشراف على ضبط سيرها فقط ، وبعد أن أصابت الهدف بهم وهبطت الهوينا على أرض لندن قدموا تقريراً لمصادر التوجيه فى أن القذف أضبط من القيادة وأنها لم تحد فى سيرها عن الخطة التى رسمت لها قط .

ففى قوله تعالى : وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » إشارة تكاد تكون صريحة فى الدلالة على توجيه القذائف بواسطة الأثير ، فكلمة أبابيل مجهولة المعنى ، ولعلها من قبيل ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وغيرها من الأسماء المضافة إلى اسمه تعالى وهو « إيل » فيكون المقصود بالطير جماعة من الملائكة تقذف هؤلاء المعتدين على الكعبة والذين هم أصحاب الفيل ، تقذفهم بحجارة قيل فى التفسير : إن كل حجر مكتوب عليه اسم الذى قذف به ، فكان يصيبه فيصعقه ولا يتجاوزه إلى غيره .

ويفسرون السجيل بالطين المطبوخ ، وأرى أنه من التسجيل وهو الرقم ليتناسب مع التفسير بأن اسم كل مقذوف من العتاة وجد محفوراً على الحجر

الذى قذف به ، فيكون المعنى ، والله أعلم ، : إن ملائكة أبابيل رمت هؤلاء الطغاة بقذائف سجلت عليها أسماء المقذوفين بها لئلا تتعداهم » كما نرى اليوم فى الحروب القائمة بآلاتها المدمرة ، على العلوم الحديثة من أنها تحكم توجيه القذائف لأعدائها بحيث لا تتعداهم إلى غيرهم من المسالمين ، وكما نرى من ضبط إرسال الصوت فى الأثير على موجات خاصة لا تتعداها إلى غيرها من الأمواج الأثيرية ، والقرآن الكريم حافل بكثير مما يفتح للأجيال المقبلة طرق الكشف والإبداع فى مجال الحياة لمن أراد أن يستقصى ويتعمق فى البحث عن ذلك .

الله

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون

ينقل لى القائد أحمد حلمى ، وهو المجاهد المعروف رئيس حكومة فلسطين ، والذى لولاه لما أبقى اليهود على بيت المقدس ، يقول : عندما تقهقرت جيوشنا فى العراق بين يدى قوة بريطانيا أيام الحرب العالمية الأولى ، لجأنا إلى مدينة « سلمان باك » ، قريباً من بغداد ، وكان الجيش البريطانى تحصن فى كوت الإمارة ، ثم جهز فرقة كاملة العتاد للحاق بنا والقضاء على فلولنا ، وكنا لا نزيد على أربعة آلاف ننتظر المدد لينقذنا من هول المعارك الساحقة بآلاتهم الحديثة ، ونحن متأخرون بكل شئ ، ولقد كان قائدنا نور الدين التركى لا ينام الليل حرصاً علينا من الهجوم المفاجئ ، وكنت مساعداً له .

وإذ نحن فى أحرج وقت نعد الأيام القليلة التى تسبق العاصفة الهوجاء ، وإذا برسول القائد يستدعينى لمقابلته ، وجئته فناولنى برقية وردته من متصرف لواء كربلاء يقول فيها :

لقد أفضى إلىّ العلامة السيد إسماعيل الصدر وهو المرجع الإسلامى الأول فى هذه البلاد ، أنه رأى فى حلمه الشهيد العباس بن على بن أبى طالب حامل لواء أخيه الحسين بن على يوم كربلاء ، فقال له : خذ السيف المعلق فوق ضريحى وابعث به للقائد نور الدين ، ثم ليهاجم العدو به وسينتصر بأذن الله » يقول السيد حلمى :

دفع القائد إلى بالبرقية يستطلع رأيى وقد رأيت فى وجهه الاستخفاف بما فيها لأن العصر عصر جيوش وقيادة لا عصر تمائم وأدعية ، فقلت له : أرى أن فى هذا أكبر عامل معنوى يدفع الجيش المسلم للاستماتة فى دفاعه ثم يدفع العشائر لمناصرة الجيش ، فتهلل وجه القائد مستبشراً ثم قال : حسناً فافعل ما تريد ، ثم أشعنا فى القبائل برقية السيد الصدر وأن الجيش والأهلين سيستقبلون سيف العباس باستعراض عظيم ، وقد حددنا اليوم ، وكان فيه استقبال رائع

ثم أعلنا الهجوم فى اليوم التالى ، وكان الجيش البريطانى قد توجه إلينا من الكوت تعضده الفرق الآلية والمدمرات فى نهر دجلة ، والجيش يواكب الأسطول .

يقول السيد أحمد حلمى : والله لقد رأينا عند الاشتباك أن كل جندى منا كأنه جيش فى وثوبه وهياجه وكانت صيحات : الله أكبر عز فنصر ، تدوى فى الفضاء حتى خلنا السماء تطبق على الأرض ، ويستمر الاشتباك أربعة أيام حتى لم يبق فى نهايتها جندى بريطانى يعود نذيراً إلى كوت الإمارة ليبلغ الفرقة المتحصنة فيها ، قال : ونستمر فى الهجوم إلى الكوت فنحاصر الجيش أربعين يوماً حتى خرج مسلماً مستأسراً ، وبعد ذلك وصلنا المدد وقد تكللنا بالظفر ، ولا أزال إلى الآن أفكر فى ذلك النصر ثم لا أجد له دافعاً غير السيف المبارك باسم العباس شهيد الحق فى كربلاء » .

وإليك حلماً آخر يتصل بهذا العباس أيضاً : نقل لى أبى ، وكنت فى سن الدراسة ، أن بعض العلماء الأعلام فى النجف قال : أنا أفضل من العباس بن أمير المؤمنين لأنى عالم والعباس شهيد وقد جاء فى الحديث : أن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء » فيرى هذا العالم من ليلته تلك فى عالم الحلم ، شخص العباس يقول له : هب أن الحديث صحيح ولكن من أنبأك أنى شهيد فحسب وأنى لست بعالم ؟؟ فأفاق العالم وهو يبكى وينيب إلى ربه .

وينقل لى ، وأنا فى مصر ، أحد الذين شهدوا احتفالا دينياً فى مسجد الحسين بن على بالقاهرة لسنة ١٩٥٥ ، أن القائد محمد نجيب وهو أحد الضباط الذين قضوا على عهد فاروق ، وكان هذا القائد من خطباء ذلك الحفل الدينى ، قال ، فى مطلع كلمته :

عندما دعانى اخوتى الظباط لقيادة حركتهم فى القضاء على العهد البائد ، كنت على فكر من ذلك ولكنى أرجأت إجابة دعوتهم ليوم أو يومين ريثما أفكر فى المصير ، ورأيت فى تلك الليلة ، وأنا أحلم ، سيدنا الحسين يقول لى : أقدم على ما ندبت إليه ، ولبيت من صباح تلك الليلة اخوانى فقمنا بالثورة وكانت المعجزة فى أن الانقلاب حدث دون أن تراق فيه قطرة من دم » .

وحلماً آخر أختم به مجرى البحث : يقول لى الشيخ على الغول ، وهو من

الأتقياء الأبرار ، وقد زرته فى قريته « دبين » من جبل عامل بعد عوده من العراق ، قال وأنا أسمع : من أغرب ما مر بى فى رحلتى هذه أنى أغفيت حيال ضريح الشهيد أبى عبد الله الحسين فى كربلاء ، فرأيته فى الحلم وقال لى : قم وخذ نصيبك » فانتبهت وقلت لنفسى : انها أضغاث أحلام ، وبقيت جالساً فخفقت خفقة أخرى فرأيت الإمام للمرة الثانية يقول لى : قم وخذ نصيبك » فانتبهت متعجباً ولم يسبق لى فى هذه الزيارة ما يشير إلى هذا النصيب مما يتعلق بظروف حياتى ، ثم أغفيت أيضاً وأعاد الإمام على القول فقمت والرعب يرعلنى أقول : إنه وحى .

ثم خرجت وأهبت برفاقى فركبنا المركبات تجرها الخيول وكانت ، على ما أذكر خمساً وكنا فوق الأربعين شخصاً ، ولما أجزنا حدود العراق إلى سوريا مررنا بصفين وكان الجو حاراً والوقت ظهراً فأحسست أنى الوحيد فيهم يقظان ، وتحسست من الوقت للصلاة فرأيت ، وأنا راكب ، على جانبى الطريق بقعاً صغيرة تلمع لمعان الكواكب فى الليل ، وأمعنت فى التحديق إلى هذه البقع فاذا بها دنانير من الذهب منثرة على الصعيد الأبيض لا أول لها ولا آخر ، فأيقظت من هم معى فى المركبة ، وقد أغفوا ، أقول : قوموا وخذوا نصيبكم من الدنيا فانتبهوا وأريتهم الذهب فجن جنونهم ثم ألقوا بأنفسهم من الحافلة إلى الأرض .

ويا لها ساعة أفاق الركب فيها ينهر بعضهم بعضا ، ويعودون إلى الوراء يتهافتون على الذهب المنثور فلا أسمع إلا الصياح والشتائم ، حتى انتهوا إلى أول النثار ثم عادوا يتأثرون الخطوط الأمامية يزحم بعضهم بعضاً إلى أن أدركوا المصدر وهو كيس ضخم من القنب بقى نصفه مملوءاً وفرغ النصف الآخر فى ذلك المجهل من الأرض ، وتقوم قيامة الركب حيال الكنز أيهم يظفر به حتى بلغوا حد التنازع والتخاصم بالضرب واللدم ، وخشيت العاقبة ، فوقفت وأنا فى المركبة ثم صحت بأعلى صوتى : الله أكبر الله أكبر ، وإذا بهم جميعاً يشخصون إلى فقلت : أين أنتم ؟؟ ومن أين جئتم ؟؟ وكنتم تفعلون ماذا عند أمير المؤمنين أبى الحسن وأبنائه ؟؟ ثم قلت : ضموا الذهب جميعه واختاروا منكم ثلاثة أمناء عليه حتى تصلوا إلى « ديرزور » وتتحسسوا ثلاثة أيام من

أصحابه ، فاذا اتصلتم بهم فأعيدوه إلى أهله وإلا فاقتسموه بالعدل »
يقول لى الشيخ : وقد كان الأمر كما قلت وائتمنوا على المال أشخاصاً منهم الحاج حسين يس من مدينة النبطية ، ثم مكثنا ثلاثة أيام فى دير الزور نتحسس من أصحاب المال فلم نسمع بذكره فاقتسموه وجاوٴنى بخمسة وأربعين ديناراً ضممتها إلى ثم وهبتها لفقيه النبطية السيخ عبد الحسين صادق لينفقها فى وجوه البر »
ذلك ما أحببت أن أعقب به على الآية الكريمة من آثار الشهداء بعد موتهم مما يثبت أنهم أحياء عند ربهم وأنهم يرزقون كما نرزق ، ومما هو بديهى أن الحياة ليست وقفاً على ما نشعر من أنها طعام وشراب ونوم ويقظة ، وإنما تكون أسمى من ذلك ولكنا لا نشعر بسموها شعورنا بانحدارها ، فما هى هذه الأحلام التى تتحقق دونما سابق فكر عنها فيمن يراها ؟؟ هل هى إلا كعالمنا عالم ؟؟ ولعله ، وهو عالم خيالى يشير إلى أن عالمنا خيال مثله كما حدث به بعض علماء العصر من أن الحقائق التى نحسها قد تكون خيالات تحجرت فى أدمغتنا فرأينا ظلها فى الخارج ، وكما يشير إليه رسولنا الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، هل الحياة فى الكون خيالات متوالية تنتهى إلى حقيقة واحدة هى الخلود فى عالم الروح ...؟؟
يقول رسول الله أو أحد أهله : من رآنا ، أى فى الحلم ، فقد رآنا حقاً فان الشياطين لا تتزيا بزينا » وهكذا نرى أن الشياطين لا يخولها الله أن تتزيا بزى عباده الصالحين لتوٴذى الصالحين من عباده أو لتنفعهم ، وليس من العبث أو من أضغاث الأحلام أن يترآءى العباس لعلم من أعلام التقوى ليأمره باهداء سيفه إلى القائد الموٴمن نور الدين ثم يكون عقبى هذا الإهداء نصراً موٴزراً ، ولا من صنع الشياطين أن يتراءى الحسين بن على لرجل صالح ويقول له : قم وخذ نصيبك ، فينتبه الرجل ثم يكون من أمره ما قد كان ويقتسم أولئك الموٴمنون الذين هاجروا لزيارة آل بيت الرسول وضحوا بأموالهم من أجل هذه القربى ، فتكون تلك الروٴيا سبباً لتعويض ما أنفقوه فى رحلتهم هذه .
وليس كثيراً على الحق أن يعصم أهله من الفناء وقد ضحوا بأنفسهم فى سبيله ، انى لأذكر وأنا صبى حدث ، : كنت أغشى مجالس الموٴمنين أيام

عاشوراء وقد كانوا يعقدون تلك المجالس لذكرى شهداء الطف من أهل البيت ، وكنت أستمع إلى الخطيب الذاكر فلم تتأثر نفسى بشئ من ذلك تأثرها بمشهدين للعباس بن على الذى كان يلقبه الحسين بقمر بنى هاشم لجماله وجلاله .

المشهد الأول : أن يزيد بن معاوية عندما ورد عليه السبى أمر أن ينشر متاعه بين يديه ، فكان من جملته لواء عظيم ، فسأل يزيد عمن كان يحمله فقيل له : العباس ، فقام يزيد وقعد مرتين أو ثلاثاً إكباراً للعلم ثم قال : أبيت اللعن يا عباس هكذا يكون وفاء الأخ لأخيه » ثم التفت إلى شهود مجلسه فقال لهم : انظروا إلى هذا العلم فانه لم يسلم من الطعن والضرب إلا مقبض اليد التى تحمله » .

والمشهد الثانى : أنه عندما اشتد العطش بالحسين وأهله لم يجرؤ غير العباس على اختراق خمسة آلاف فارس يحمون الشريعة من الفرات عن أهل بيت الرسول ، إذ تناول القربة وخاض المعركة فأحدقوا به فلم يستطيعوا أن يحولوا بينه وبين الماء فملأ القربة وقفل راجعاً فصاح بهم قائد الجيش بأن يحملوا حملة واحدة عليه لئلا يصل بالماء إلى الحسين وأهله فتتعزز قوتهم به ، وقد كان ذلك فتكاتفوا عليه حتى قطعوا يمينه فأخذ السيف بيساره والقربة على عاتقه فقطعوا يساره ثم أصاب القربة سهم أراق ماءها فيئس حينئذ من الحياة وهوى عن ظهر جواده .

كلما ذكرت هذين المشهدين أكبرت العباس وأكبرت البطولة التى ورثها عن أبيه ، والتى كانت فيه وفى أخيه الحسين وأهل بيته تضحية فى سبيل الناموس الأعظم الذى تنزل على محمد والذى لولا هذه التضحية لم يقمع الله بنى أمية قبل أن يقضوا على ذلك الناموس ، أقول إن الله أكبر من أن يجعل هؤلاء الأبطال فى عداد الموتى ثم لا يكتب لهم الخلود بعد الموت فيبعثهم فى عالم الروح يشرفون على هذا العالم فيتراءون له حيناً بعد حين .

ان فى الكون عوالم متداخلة لا تفصلها حدود إلا بمقدار ما يفصل الإنسان عن الإنسان من حد ، وهكذا تجد بين كل جرم وجرم حدوداً تتميز بها وصلات تجمع بينها ، فعلى مقدار ما يحاول المرء أن يتميز عن أخيه يجد بينه وبينه الحد الذى يميزه عنه ، ثم على مقدار ما يحاول الاتصال به ، يجد الصلات التى تحقق وحدته

معه فى كل عام يجمع بينهما ، فهناك تحت المادة عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد، ويقابله فى الروح عالم اليقظة وعالم الحلم وعالم الحمى وعالم الجنون وعالم الفكر وغير ذلك من العوالم التى لا ندركها إلا بالعقل .

فعلى مقدار ما يحاول الإنسان صلاته فى عالم اليقظة بمن يشاركه الحياة معه يستطيع توثيق هذه الصلات ، ثم على مقدار ما يحاول هذه الصلات مع بقية عوالم الروح يستطيع أن يؤثر أو أن يتأثر بها، من هؤلاء أولو الحكمة والشعراء والأنبياء ، وحتى السحرة والمشعوذون الذين يمعنون فى تطلعهم إلى عالم الروح القائم على الشرور ، فلقد جمعتنى الصدف وبعض علماء الروح فسألته : هل يستطيع الراسخ فى هذا العلم وهو يستحضر الأرواح أن يستخدمها كما يشاء ؟؟ فقال : نعم إلا فيما يضر الغير بغير حق ، وأما المشعوذون فأكثرهم مموهون لا صلة بينهم وبين الروح فان العالم الروحى أسمى العوالم فلا يصح استخدامه لما ينحدر به من مرتبته تلك إلى مراتب العوالم الدنيا » فتأمل ..

وبعد فمن زار النجف وكربلاء والكاظمية فى العراق حيث قبور الشهداء من أهل بيت رسول الله ، على وأبنائه وأحفاده ، ورأى المساجد والمعاهد العلمية التى شيدت حول قبورهم تبركاً بهم وتقرباً إليهم ، ثم رأى الألوف من عباد الله الصالحين يعمرون تلك المساجد بالصلاة ليل نهار ، ويعمرون تلك المعاهد بالبحث والدرس يتفقهون فى الدين دين محمد الذى حاول بنو أمية محوه بالقضاء على أهل بيته ، أقول : من رأى ذلك فى العراق ثم زار مصر ورأى الضريح الذى ورى به رأس الحسين الشهيد . ورأى المسجد العظيم الذى بنى على قبره ، ورأى معهد الأزهر الذى شيد باسمه وليدرس به فقه آل البيت منذ ألف عام ، أقول من رأى ذلك كله ، عرف العظمة التى تتجلى له وهو وهو يتلو قوله عز من قائل : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » وهل الحياة غير ذلك ؟؟ بل : هل الحياة بأسمى معانيها تتجلى فى غير هذا الخلود ؟؟

محمد

إِنَّ هَذِهِ الْأَرْوَاحَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكَمِ

كنت وأنا صبي أصحب أبي إلى المآتم والأعراس وصلاة الجمع ، وكان كل همي أن أستمع إلى خطيب يتخير لسامعيه كل جديد ، فكنت أبتهج لكل حديث ، قصة كان أو عظة ، لم يدخل روعي من قبل ، وكانت محافل عاشوراء لذكرى الحسين بن علي وأهل بيته ، أوسع المحافل انتشاراً ، وكان إقبال الناس ، ممن أعيش معهم ، على تلك المآتم إقبالا يكاد يحيلهم في الآلام ، حتى أصبحت تلك الذكرى جزءاً من حياتهم ، فكنا نطوف على أكثر من عشرين محفلا في اليوم والليلة ، يتبارى فيها الخطباء علماء وأدباء ، طوال شهري المحرم وصفر ، وكان أبرع الخطباء فينا وأحبهم إلينا من يأتينا في كل محفل بجديد مما يستظهر أو يبدع .

وأذكر أني ، وأنا أدرس الفقه في النجف ، كنت مأخوذاً بخطيبين أحدهما الشيخ حسن جلو ، والثاني السيد صالح الحلي ، لأن الأول كان محدثاً لا يكاد يسمع أو يقرأ تاريخاً إلا ويستظهر طرائفه ثم يملها على سامعيه في مجالسه ، فلم أشهده قط إلا وسمعت منه جديداً رائعاً ، ولأن الثاني كان خطيباً مفوهاً لا يستعرض ناحية من نواحي الحياة إلا استهوى سامعيه بتعليلها وتحليلها ، وكانت النكتة والفكاهة والنقد اللاذع للأفراد والجماعات ، رائده الأول فيما يبدع ، ولقد كان هذا الرجل عظيما في موقفه وارتجاله ، وفي تأثيره على سامعيه ، وقد كانت الأموال تنهال عليه كالتراب من علية القوم في سبيل استصفائه أو استعفائه .

أما الذين كانوا كالببغاء من هؤلاء الخطباء ، يرددون الأقوال المبتذلة ، ويرجعون أنغامها الرثة على أسماعنا ، فلم يكن ليشهد مجالسهم الا عامة الناس الذين لا يفقهون من هذه المحافل إلا أنها تعقد في سبيل الله وأن من يشهدها فانما يرمي بذلك إلى استغفار ربه ورجاء المثوبة عنده ، ولذلك كنت أشهد هذه المجالس بدافع المجاملة للخطيب أو المثيب في بلدي أيام صباي وفي العراق

أيام دراستى ، فلا أملك نفسى أن تستسلم لعالم الكرى ، فلا أنتبه إلا والقوم يغادرون ذلك المحفل ، وأمثالى كثيرون فى هذا .

فالطرافة التى يشير إليها رسول الله فى الحكمة القائمة على الوعظ والإرشاد بقوله فى صدر هذا البحث ، إنما يعنى بها الجدة والروعة فيما يعظ ، ليجد قلوب السامعين شاخصة إليه قبل أبصارهم ، ولا شئ مما يقال أقوى على اقتحام القلوب وتأثرها به ، من الجديد الرائع ، فالقديم الرائع كالجديد التافه لا حظ له من إقبال القلوب عليه وتأثرها به ، وليس بحكمة أى قول لم يجمع بين هاتين الصفتين : الجدة والروعة ، لذلك نجد الألباء من فقهاء الأمة يعنون فى تجديد القديم الرائع من الوحى والكلم المأثور ، بما يسبغون عليه من جدة فى التفسير أو الخطابة أو البيان ، إذ يقرأه سامعه أو يسمعه قارئه ، وأما هو عند من لم يقرأه ولم يسمعه فالجديد الرائع المعجز .

والحكمة التى هى ضالة المؤمن فى قوله عليه وعلى آله السلام : الحكمة يلتقطها أنى وجدها لا يبالى من أى وعاء خرجت » هى عين الحكمة المسطورة فى صدر هذا البحث ، وهى أيضاً عين الحكمة فى قول الله عز وجل : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » فالحكمة فى كل من هذه الجمل هى مصدر الحكم فى السلطان ، والإحكام فى الأعمال والأقوال ، فكل قول سديد وكل عمل مفيد صادق عليه أنه حكمة ، وكما أن الطرافة التى هى الجدة والروعة ، تنال القول ، كذلك تنال العمل ، وكما أن الروح تمل من تكرار القول على نسق واحد دونما تصرف أو إبداع ، كذلك نراها تمل من العمل المحدود المتكرر دونما تصرف أو إبداع .

من أجل هذا نرى أولى العلم والإبداع فيه ، يتناولون كل عمل بالتنمية والتربية والترقية حتى يضبح فى جدة ما أحدق به كأنه لم يكن ، فأنت إذا جئت أمريكا الشمالية وزرت معارضها ومتاحفها ، راعك من كل عمل مخلوق لهم ، بسلسلة تمثل كل حلقة منها طرازاً من ذلك العمل ، فللقطار مثلا نماذج لكل عام نموذج منذ خلق القطار حتى العام الذى أنت فيه ، وهكذا تجد نماذج للسيارة والطيارة والباخرة وآلات الزراعة والتجارة والحدادة والطباعة وآلات الحرب

واللهو وغير ذلك من وظائف الإنسان ، تجد لها نماذج تقفك على رقى الإنسان وتطوره عاماً بعد عام ، وعلى مقدار السرعة فى هذا التطور يقاس رقى الإنسان وتطوره بتفكيره وإنشائه .

فليست طرافة القول فى خلقه بمجموعه لأن عناصره لا يمكن أن تتغير ، ولكن الجدة فى التركيب والعرض المعبر عنه بالبيان ، فالجملة التى تتضمن الحكمة ، تتركب من كلمات هى قديمة ، والكلمات تتركب من حروف هى أقدم ، ثم إن هذه الحروف تصدر عن صوت هو أعرق منها فى القدم ، وهكذا نجد أن أى عمل يأتيه الإنسان هو كقوله مركب من عناصر قديمة ، والطرافة فيه اسباغ الفن على عناصره بالتركيب والتلوين .

فالروح تبتهج لكل جديد ، وتتنكر لكل قديم ، على أن يكون هذا الجديد مما تهتز له ، وهذا القديم مما زاولته حتى ملته ، فأما الجديد التافه فهو أشق عليها من القديم المرذول ، بينما ترى فى القديم الغريب عنها روعة تعزف به عن كل جديد . فكم تجد الروح الأدبية أو الفنية فى بطون السير من روعة الأدب القديم وفنه مالا يغنيها عن المتعة به جديد مهما طرف ، وكم فى الأدب الجديد وفنه ما تزهد الروح معه بكل فن وأدب ؟؟

فليس الجديد الطريف هو كل ما لم يكن بشكله ولونه ، وليس القديم الممجوج هو كل ما كان قبل أن نكون ، وإنما الطريف الجديد هو كل أثر عبقرى لم يمرر بسمعك أو بصرك سواء كان وليد عصرك أو وليد عصور سابقة لك ، والسخيف المملول هو كل أثر تمجه روحك سواء كان وليد حياة سبقتك أو حياة تحدق بك ، فالطرافة إذن هى كل ما يبهج روحك من قديم أو جديد ، وتقابلها السخافة وهى كل ما يكبت هذه الروح من جديد أو قديم .

والروح ليست قاصرة فى ضجرها وسآمتها على ما تسمع الأذن ، وإنما تتعدى ذلك إلى ما ترى العين وتلمس اليد ، فاذا قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان ، فهمنا أن الروح والبدن يشتركان فى الملل مما ليس بطريف ، كما يشتركان بالرغبة والإقبال على كل طريف ، والحكمة

التى هى المحكم من كل ما تراه العين من عمل وما تعيه الأذن من قول ، ليست فى حقيقتها مخلوقة لهذا الإنسان الضعيف عن أن يخلق ، ولكنها راسخة فى حقائق الوجود المهيمن على الإنسان ، يكشف عنها ويشير إليها بلسانه أو قلمه أو يده ، فتتجلى إذ ذاك طرافتها أو سخافتها بالعرض أمام السمع والبصر .

لهذا قرر علماء البيان : أن العبرة فى بلاغة القول لا تنال المعنى ، لأن المعانى مطروحة ، على حد قولهم ، فى الأزقة يعرفها الحضر والبداة ، وإنما العبرة فى البيان الذى يكشف المعانى ويؤديها للروح عن طريق السمع فتتأثر بها ، ويضربون لذلك أمثالا منها : أن الاسماع كانت تمج قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

حتى جاء سلم الخاسر فأخذ المعنى وأبرزه فى ثوب آنق حيث قال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

فأقبلت إذ ذاك عليه الأسماع تستسيغه وتهيم فيه .

وهكذا نجد كل عمل أحكمه العامل وأمعن فى إتقانه تقبل عليه النفوس لإحكامه لا لإيجاده ، فكم كنت أمقت الطباعة إذ زاولتها ، وأنا أصدر صحيفتى « العروبة » فى لبنان لسوء العامل والعمل ، وقصور الآلات عن أداء رسالتها باحكام حتى زهدت فى الطباعة ولفظتها ، ثم زرت أمريكا وتحسست من دور الطباعة فوجدت أن الشجر يسجر فى فوهة من الأرض الحديد فيخرج من فوهة أخرى صحائف تقرأ وتنشر وليس بين كونها شجراً وكونها صحفاً أكثر مما بينك وبين بائع الصحف تدعوه وأنت فى فراشك لتقرأ أخبار الصباح ..

وهكذا نجد آلات النجارة والحدادة وآلات النسيج أصبحت من الإحكام والإتقان وسرعة الإنجاز بحيث ينبهر لها العقل وترتاع بها الروح ، فاذا عدنا بهذه الصناعات إلى عهدها الأول أيام كان الحداد يقطع نهاره فى صنع المنجل ، والنجار يقطع أياماً فى صنع المنضدة ، والحائك يقطع أسابيع فى نسج الثوب ، مللنا التفكير فى الصنع والصانع بله النظر فيما يصنع ، بينما كان آباؤنا يرون

متعة الروح فى أن ترى المنضدة أو المنجل أو الثوب مصنوعاً دونما تفكير فى كيفية صنعه ، وهكذا نرى الحكمة فيما نسمع أو نبصر ، وقفاً على ملابسات الزمان والمكان من وراء التأثر بها أو السآمة منها ، فالطرافة فى الحكمة التى لاتملها الروح إنما هى فى عرض الأفكار مادة ومعنى ، على الأسماع والأبصار بالشكل واللون الذى لاعهد للروح به من قبل ، هذه هى الطرافة فى الحكمة التى يعنيها الرسول بقوله : ان هذه الأرواح تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم .

علي

... وَأَرْسَى « سُبْحَانَهُ » أَرْضاً يَحْمِلُهَا ، الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجَر ... وَجَبَلَ ... ، أَطْوَادَهَا ... فَأَرْسَاهَا فِي ... قَرَارَتِهَا ... وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً ، فَسَكَنَتْ ، على حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا .

قال ذلك فى خطبة يستعرض بها عجائب صنع الكون ، والفواصل من النقط تشير إلى أن هذه الجمل أو هذه الكلمات مختزلة من تلك الخطبة لتكون وحدها مداراً للبحث ، يقول سلام الله عليه ذلك محققاً ما أثبته العلم الحديث من أن الأرض محمولة على الماء المعبر عنه هنا بالأخضر المثعنجر ، وهو من صفات المحيط الأعظم ، ثم يتأثر القرآن فى اعتبار الجبال المرساة على الأرض أوتاداً لها ، خشية أن تضطرب وتميد بأهلها ، ثم أثبت النظرية العلمية القائمة على أن الأرض متحركة بقوله : « على حركتها » وهذه من الهامات الوحى التى كان يتلقاها من معلمه محمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وهما فى كل ما يقولان ، عيال على الفرقان فى كونه مصدر كل علم إذ قال : وما فرطنا فى الكتاب من شئ ، وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين .

أحب أن استطرد بالقارئ هنا إلى فكاهة كان يتندر بها فى كثير من المجالس رواة فكاهيون ، تلك هى : أن حكيما أمريكياً مبشراً بمذهب البروتستانت كان مقره « صيداء » إحدى مدن لبنان الساحلية وتكاد تكون هذه المدينة عاصمة « جبل عامل » وكان من وسائل تبشيره بالسيد المسيح أن فتح مدرسة للتعليم وعيادة للتمريض مجاناً — وكان معروفاً بالنكتة ومتسما بالخلق الفاضل حتى أحبه كل من جالسه ، وكان له صديقان يمتازان عن أصدقائه الكثيرين فى الدعاية له ، هما السيد محمد ابراهيم وابنه من سادة قرية النميرية المسيطرين على القرية بنفوذهم

الديني والجماعي ، وكانا يعتزان بصداقة الحكيم هذا ويدعوانه إلى بلدهما فيجمعان له سكان تلك المنطقة مرحبين به .

ويشاء الله أن يصدر للطبيب هذا ، وكان عالمياً طبيعياً مضافاً إلى كونه طبيباً ، مؤلف فى فلسفة الطبيعة يثبت فيه كروية الأرض وحركتها المزدوجة على نفسها وحول الشمس ، وقد كان التندر بمثل هذه النظريات فى أواخر القرن الثامن عشر حيث كان الحكيم هذا يزاول عمله فى ساحل صيداء أقول : لقد كان الجهر بتلك النظريات يحتاج إلى جرأة من العلماء الغبر على رسالة العلم ، ويشيع فى جبل عامل نبأ هذه « الخرافة » منسوبة إلى حكيم أولوه ثقتهم وأصبح ذكره عندهم بالمكانة السامية من ذوى الفكر ، ويتصل هذا النبأ بصديقيه السيدين محمد ابراهيم ونجله فينكران كل الإنكار على الراوى أن يكون صديقهم الطبيب الحكيم قد أصبح من ضعف التفكير بحيث يتهافت فى تفكيره إلى هذا الحد ، ثم يزمعان السفر إلى صيداء ، وهى منهم على بعد عشرة أميال ، ليتحققا من صحة هذا النبأ الذى وقع فيهم وقوع الصاعقة ، بينما يدعوان له فى سمو العقل ونضج الفكر ، وأين هذه النظرية من عقل الحكيم الذى عرفوه حصيفاً متزناً فيما يقول ويفعل ؟؟

ولما أطلا عليه ، وهو فى مجلسه الحافل بأعيان صيداء ، رحب وهلل وأدناهما منه ، ورأى فى وجوههما الحرص على القول والجدفيه فاستنطقهما فقالا : أتيناك نتحقق من صحة ما شاع فى كتاب أصدرته ، وحشوته بنظريات أشاعت الدهشة عندنا وحالت دون الإمعان فى الدعوة لك ، قال ماذا ؟؟ فقال السيد : لا يخامرنا شك فى أنه نبأ مكذوب يريد المرجفون من ورائه أن يشوهوا الحق ويطفئوا النور ، إذ يدعون أنك تقول بحركة الأرض وأنها تدور على نفسها كالخذروف أو أسرع حركة منه ، وهذا مالا تراه عين ولم يتحسس منه وجدان ، إذن لأصاب الدوار كل مخلوق على وجه الأرض ، فقال : لم أقل شيئاً من هذا ولكنى قلت : إن الأرض كانت متحركة ولما ولدتما على ظهرها سكنت وقرت ، فتعالى ضحكهما ثم قالا : نحن لا نرتاب قط فى أنك إن كنت قد قلت شيئاً من هذا فانما صدر عنك من قبيل الدعاب كما هو شأنك ، ثم ودعاه مطمئنين إلى عقل الحكيم كما عرفاه .. »

هذه صورة من عقلية الأمة التى تدين بالإسلام وتذهب فيه مذهب الإمام على بن أبى طالب فتضع « نهجه » المشتمل على خطبه وأقواله ورسائله إلى جنب القرآن وسيرة الرسول ثم تعتنق فكرة العقيدة بأن الحكمة قاصرة على هذه الكتب الثلاثة ، ونجد بعد ذلك هذين السيدين وكثيراً غيرهما من الموالين لعلى ، يجهلون أن علياً أنبأنا قبل ثلاثة عشر قرناً بما يثبته العلم الحديث ، ويتنبأ به أعلام العصر الحاضر من كروية الأرض وحركتها ، ثم يزعم هؤلاء البله أنهم شيعة علي وأنهم أحق الناس به ، وأنهم واردون على حوضه يوم العطش الأكبر .

فمن أولى من الحكيم الأمريكى هذا بالإمام على،وهو يفقه قوله ، ويصدق نظريته ، ثم يسخر من شيعته ، ويأسف لأن يكونوا قاصرين ، وهم فى عصر النور ، عن فهم آرائه وهو فى عصر الظلمات ، ؟؟ وشد ما كان هذا الحكيم يتألم بما يسود هذه المنطقة « جبل عامل » التى قطع حياته فيها ، كان يتألم لما يسود أهلها من تأخر ، فقد نقل الرواة فى عهده : أنه كان يطبب مرضاهم مجاناً ، فيقابلون عمله بأسوأ جزاء ، إذ كانوا لايتورعون من أن يبولوا على باب العيادة ليلا زاعمين أنه كافر وهذا جزاء الكفار ، وكان يقابل عملهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا ينتهون ، أو لايزجرون من لاينتهى من جهالهم .

وإذ علم أن من يبول من المسلمين لابد وأن يستجمر أى أن يجفف مصدر البول بحصى أو جدار ، طلى باب العيادة والجدارين اللذين يكتنفان بابها بمادة سامة تحدث التورم فى آلات البول ، فكان لابد لهم بعد ذلك أن يعودوه لعلاج هذا التورم إذ لاطبيب غيره فى البلدة ، فكان يأخذ من هؤلاء فقط ثمن العلاج ليستأجر به من يغسل باب العيادة صباح كل يوم من أثرهم السيئ ، وبذلك قضى على أخطائهم وحال بينهم وبين صنيعهم هذا إذ علموا أن مصدر التسمم كان جزاءهم على ذلك .

ويؤلمنى أن لاأرى حتى اليوم ، من لايفقه قول الإمام من شيعته ولا من أمته ، فقد سمعت ممن أثق به أن أحد الفقهاء قد أصدر كتاباً أسماه : « البازى المنقض على من يقول بكروية الأرض » وكان لابد له أن ينكر حركة الأرض فى هذا الكتاب لأنه من البديهى للمتحرك أزلياً أن يكون كروياً ، فان حركة

الجرم بالدوران على نفسه ثم حول غيره يستلزم الاحتكاك بالتيارات الأثيرية التى تحدق به من هواء وماء وكهرباء ، وهذا كله يحقق كروية الجرم المتحرك فيه لاستلزام زوايا وأضلاع غير الجرم الكروى إذا تحرك أزلياً وبالسرعة القائمة فى حركة الأرض ، أقول : إن تلك الزوايا والأضلاع تستلزم احتكاكاً بما يضغطها مما تتحرك فيه ، أكثر مما يستلزمه سائر الجرم المتحرك، وذلك ما يجعلها فى النهاية كروية ، وأما فجوات الأودية والوهاد ، ونتوء الجبال مما يوهم عدم الكروية فيها فهو من قبيل التعاريج فى التفاحة إذا ضمرت من الذبول ثم لا يخرجها ذلك عن كرويتها .

الله

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ »

بين الأحد والصمد هنا تداخل وهو إحدى الكليات الأربع ، فى اصطلاح علماء المنطق ، أى أن كل صمد أحد وليس كل أحد صمداً ، وبيان ذلك بوضوح فيما يأتى :

الأحد يقابل المتعدد ، وأما الصمد فهو فضلا عن الوحدانية يقابل الأجوف ، وليس هذا مأخوذاً فى مفهوم الأحد ، فرب فرد أجوف لا صمود فيه ، اللغة تفسر الصمد بأنه مالا جوف له ، فالابريق مثلا يقال له أحد ولا يقال له صمد ، وهكذا الإنسان ولعل كل كائن لا يصدق عليه لفظ الصمد حقيقة ، لتغلغل الماء أو الهواء أو الروح فيه ، وإذا أطلقنا لفظ الصمد على قطعة الفولاذ مثلا فهو من قبيل التجوز على معنى أن جوفه أقل خلاء من الحديد أو الحجارة بله الخشب ، وبرهان ذلك أن الانحلال يعرو كلا من هذه ، فلو لم يكن الفولاذ وغيره ذا خلايا يتقوم بها كيانه لما تسرب إليها الفساد المفضى به إلى الانحلال .

ومن وراء نظرة بسيطة نلقيها على أبحاث الذرة فى العلوم الحديثة ، ندرك البرهان على أن كل ما يقع تحت إدراكنا من كائنات ، هو مركب من خلايا ، وخلاياه هذه مؤلفة من ذرات يدور فى فلكها كهارب حول نويات تصغر ملايين أضعاف ما تراه العين بالمجهر ، إذن ليس هنالك فيما يحدق بنا من كائنات ، جزء منها كبر أو صغر يصدق عليه لفظ الصمود إلا تجوزاً ، ضرورة أن فى كل كائن نظاماً كالنظام الشمسى الذى يهيمن على وجودنا ، وهذا النظام لا بد له من فراغ يدور فيه ليؤدى رسالته فى تقويم ما كان له .

من هنا ندرك أن إطلاق لفظ الصمد على خالق الوجود إنما هو إطلاق لغوى لا تجوز فيه ، فالصمد والصامد فى صميم اللغة يطلقان على الأحد الأزلى الذى لا خلاء فيه ، ومن البديهى أن الشئ الذى لا يتخلله هواء لا يتسرب إليه فساد ، وقد عنى العلم بتعقيم الأشياء القابلة للانحلال لتثبت على الزمن معصومة من التلاشى

فالعصر الفرعونى لاتزال علومه قائمة منذ آلاف السنين فى معقمات الحيوان والنبات ، والعلم الحديث بدأ منذ نصف قرن يزاول التعقيم ، وهذه آثاره بين سمعنا وبصرنا أصبحت من ضروريات حياتنا كالفواكه والخضر المجففة أو المعقمة ، وكاللحوم والأسماك المعقمة فى آنية تعصمها من تسرب الهواء الغنى بالجراثيم المفضية بما تغلغل فيه إلى الفساد والانحلال .

على أنى قرأت نظرية للعلامة « أنشتاين » يثبت فيها أن الأثير الذى نتقوم به ونعبر عنه بالفضاء أو الخلاء أو الهواء ، كما نرى ونشعر ، هو مادة كونية صلبة لانقوى على التحسس من صلابتها لأنا جزء منها » وفى ذلك ما يحملنا على التفكير فى أن حركاتنا ضمن هذا الأثير يجب أن تكون موضع بحث : هل هى قائمة فيه أم منفعلة به ، أم نحن بمادتنا شئ منه والروح القائم فينا إشعاع خارج عنه ومؤثر بواسطتنا فيه ؟؟ وبعبارة أوضح : هل الأثير كما يراه « انشتين » هو المادة والقوة التى نعبر عنها بالروح ، يتماسكان متفاعلين فينشأ عنهما هذا التيار الذى نطلق عليه لفظ الكون ؟؟ أم هو مادة فقط ينفعل باشعاع الروح المهيمن عليه من كون آخر بصلات لا يزال العقل البشرى يجهل الكنه الذى تتقوم به ؟؟

وهل القوة شئ والمادة شئ آخر يتضافران على إنتاج ما نسميه بالأثير أو الحياة كما يتضافر الجسد والروح فى تكوين ما ندعوه إنساناً ، أم هى مادة فقط بعضها لطيف والبعض الآخر كطيف لها تركيبها الخاص بها حيث تنتج الحياة ، أم هى قوة فقط تتكاثف أحياناً بانفعال مجهول لدينا فيظهر فيها ما نحسه من أجرام ؟؟ وهل هذا الأثير الذى نتساءل به فى هذا البحث ، هل هو الكون كله أم جزء منه ؟؟ وعلى فرض كونه كلا فما هو مصدر نظامه القائم فيه ؟ هل هو خارج عنه ومهيمن عليه أم داخل فيه ومتقوم به ؟؟ وعلى فرض كونه جزءاً من الكون ، هل هو متصل به اتصال جزئياته به أم مستقل عنه استقلال الجزء عن كله ؟؟

هكذا تتوالى على الفكر أسئلة مما تحسه الروح ، ثم يجيب نفسه عنها بما لايقتنع هو بها ، ولا تشبع الروح من تعليلها ، ذلك هو السر الذى من أجله

يمتاز الكل عن الجزء ، ويتعالى به الكلي على جزئيه ، ولو أدرك الجزء كنه كله ، أو أحاط الجزئي بأسرار كليه ، لما كان بين الجزء وكله أو بين الجزئي وكليه فرق بينهما ، ولما كان للجزء والجزئي حدود تتسع لهما في حدود الكلي والكل اللذين هما ظرف محدق بتلك الحدود .

محمد

لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي أَهْلُ البِدَعِ
كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ

البدع جمع بدعة ، والبدعة فى أصل اللغة ما يأتيه الإنسان من قول أو فعل لم يكن ، فالإبداع هو الإنشاء ، والمقصود بها فى الحديث الشريف هو أن يحدث المبدع فى الدين ما ليس منه فعلا ولا قوة ، أى لم يرد فيه نص صريح من كتاب أو سنة أو إجماع ، وليس فى طوق العقل الواعى تطبيقه على الدين قياساً أو استنباطا .

وإذا أطلق الرسول كلمة البدع هنا ثم لم يقيدها بكونها خارجة عن الدين ، فانما وكل ذلك إلى عقل الفقيه ، وإلا لما أجمع أعيان المحققين من علماء الفقه على أن البدعة السيئة هى المقصودة من قوله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذا البحث ، كما أجمعوا على أن البدعة الحسنة لم يخرج بها مبدعها على الدين وإنما دخل بها فى صميمه ، ولعل الإبداع فى الدين هو المقصود من قوله عليه السلام : يبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد أمر أمتى فى دينها » والتجديد أعم من أن يكون كشفاً أو إبداعاً ..

أما التجديد الذى هو كشف ، فأن يعمد الفقيه المجدد إلى إحياء ما أماته من الدين جمود الفقهاء وجحود الملحدين ، وأما التجديد الذى هو إبداع فانه ينشئ المجدد ، فقهياً أو حكيما ، ما لم يكن فى العصور التى هيمن عليها الدين ، من ضروريات الحياة أو كمالياتها ، فانه يدخل فى حيز الدين بما يحمل فى جوهره من نفع الإنسان وتعزيز الحياة ، وفى صميم الدين كل ما يعود على الإنسان بالنفع من خير أو جمال ، ففى القرآن الكريم : قل من حرم زينة الله التى أخرج للناس والطيبات من الرزق ..؟؟ وأية زينة أسمى مما أخرج تبارك وتعالى ، على أيدى وألسنة العلماء والحكماء مما هو ملء سمعنا وبصرنا من بدائع العصر الحديث ؟؟

فهل نعد المخترع المعروف كامل الصباح خارجاً عن الإسلام بما أبدع من عشرات الاختراعات فى علمى الأثير والكهرباء لأنه من أهل البدع ؟؟ وهل

نعد التلفزيون الذى هو إحدى بدعه مع غيره ممن كان يزامله فى هندسة الكهرباء، أقول : هل نعد بدعته هذه خارجة عن الدين ، ومحرماً علينا استعمالها ؟ ولقد قرأت له فصولا ، وأنا فى جنوب أمريكا ، نشرتها له الصحيفة « السورية اللبنانية » التى تصدر فى « بونس إيرس » عاصمة الأرجنتين تشتمل تلك الفصول على أبحاث لاهوتية يثبت فيها وجود خالق وكون ذلك الخالق واحداً عن طريق العلم الحديث ، وهكذا كان العلامة أحمد رضا العاملى وهو خاله ، كان يقرأ على رسائله المتبادلة مع ابن شقيقته كامل الصباح ، وكانت تلك الرسائل حافلة بدينه الصحيح ومدنيته السامية ، فهل نعد هذا خارجاً عن الدين بما يبدع ؟؟

فليست البدع فى قوله الشريف على إطلاقها وإنما هى البدع فى الدين ، بأن يزيد المبدع فيه ما ليس منه أو ينقص منه ما هو داخل فيه ، والزيادة أو النقصان يقررهما عقل الفقيه المخلص لربه الناضج فى تفكيره ، على هذا يجب أن نحمل قول الرسول ، وبهذا يجب أن نعلل قوله ، وكل ذلك قائم فى صلب اللغة ، فقد يطلق اللفظ على المعنى العام ويراد به الخاص ، كما قد يقيد به معنى خاص ويراد منه العام ، ومن شاء تفصيل ذلك فليرجع إلى كتب البيان .

أما الكلام على البدعة ، وهل هى مخلوقة لله قبل خلق الإنسان لها ، وإنما يكشف عنها المبدع الثانى الذى هو الإنسان بطريق الإلهام بعد أن طواها الزمن فأنسى العقل البشرى حلقتها القائمة فى سلسلة الحياة يحتضنها الوجود الأزلى ، أما هذا البحث الذى يتناول البدعة فى فكر الإنسان ، فقد أتينا عليه مفصلا فى كتاب « بلاسم » وليس له موضوع فى هذا السفر فمن شاء الوقوف عليه فليلتمسه فى ذلك الكتاب .

علي

إِنَّ فِي السَّمَاءِ مُدُنًا كَمُدُنِكُمْ هَذِهِ يَرْبِطُ بَيْنَهَا عَمُودَانِ مِنْ نُورٍ

سمعت هذه الكلمة على أفواه الثقات ثم تحريتها فى الكتب المأثورة فلم أقف عليها بنصها ولكنى قرأت فى كتاب مجمع البحرين للعلامة فخرالدين النجفى من علماء القرن الثانى عشر ، قرأتها فى مادة « كوكب » بلفظ لا يختلف معناه عما سمعت من شيوخنا الثقات حيث يقول عليه السلام : هذه النجوم التى فى السماء مدائن كالمدائن التى فى الأرض ، ترتبط كل مدينة منها بعمودين من نور طول كل عمود مسيرة مائتين وخمسين عاماً فى السماء » فكلا القولين يفيدان معنى واحداً ، كما أن كليهما خليق بأنّ ينسب إلى الإمام لأنه ينطوى على علوم شتى وليس فى أصحاب رسول الله من يقتبس عنه مثل ذلك سوى ربيبه على ، سيما وهو يقول إذ يذكر معلمه : لقد مر على سمعى بكل شئ » ..

من أدرى علياً ، لولا إلهامه ووحى رسول الله ، أن الأجرام السماوية قائمة فى سيرها ونظامها على السير والنظام اللذين يقوم عليهما كوكبنا الأرضى ؟؟ ألا تقوم أرضنا هذه فى نظامها الطبيعى الذى يضمن بقاءها ، على تيارين أولها الجاذبية التى تصلها بالشمس ، وهو تيار خاص بالشمس وفلكها الذى تدور فيه السيارات التى يثبتها علماء الفلك ؟؟ وثانيهما التيار الروحى الذى يتقوم به الكون وهو خاص بالنور الكلى المهيمن على الشموس التى تدور فى فلكه بما يدور حولها من أجرام ؟؟

ان أنظمة الكون متداخلة لا حساب لها فى دائرة الفكر الإنسانى ، ولذلك يروى بعضهم قول الإمام هذا بلفظ أعمدة لا عمودين ، والأعمدة هذه التى نعبر عنها بالأنظمة أو التيارات أو الأنوار القائمة فى حركة الوجود وخلوده ، أقول : ان هذه الأنظمة تبدأ فى أعظم جرم كونى لا نقوى على الإحاطة بكنهه ، وتنتهى فى أصغر جرم كونى أيضاً لا طوق لنا فى اكتناه سره ، وهو الذى نعبر عنه اليوم بالذرة .

ولقد بدأ العقل الإنسانى فى عصرنا الحاضر يفكر بتأويل قول الإمام على هذا ، ولعله بدأ يفكر فى تحقيق قوله لا تأويله فحسب ، ان معظم علماء الفلك اليوم يحدسون بوجود عالم كعالمنا فى الزهرة والمريخ ، وبدأوا يعدون العدة لارتياد القمر الدائر فى فلك الأرض ثم ارتياد غيره من الكواكب السيارة التى يربط بينها وبين كوكبنا تيار الجاذبية الشمسية الذى ينتظم هذه السيارات الدائرة حول الشمس ، وإذا كان حدسهم قائماً على العلم أو الظن القريب منه فى أن بين هذه السيارات شركة فى الحياة ، ثبت أن عوالمها تشترك فى طبيعة الحياة ونظمها ، وفى ذلك ما يؤيد قول الإمام من أن فى السماء ، ويعنى بها الأجرام السيارة ، مدناً كمدننا تربط بينها لتستقيم فى سيرها ونظمها ، أعمدة من نور وهى التيارات المهيمنة على الكون .

فما الذى أدرى علياً بهذا ؟؟ وهو ربيب محمد ومحمد أمى أنبتته أرض قفر جرداء من كل ما يشير إلى حياة ؟؟ ان علياً نفسه يجيب عن هذا التساؤل حيث يقول : والذى بعث محمداً بالحق ما أبقى شيئاً . . . إلا أفرغه فى أذنى وأفضى به إلى . » كما مر فى غير مكان من هذا الكتاب ، ولذا كان يجرؤ على على القول المأثور عنه : سلونى قبل أن تفقدونى ، فانى بطرق السماء أخبر منى بطرق الأرض » إذن فالذى أدرى علياً بذلك هو محمد والذى أدرى محمداً هو الروح الأمين جبريل ، وجبريل هو الذى كان يتنزل بالوحى على قلبه من لدن لطيف خبير . صدق الله ورسوله

ويريد الإمام بقوله : ان فى السماء مدناً كمدنكم هذه » يريد : أن فى تلك المدن أناساً مثلكم » وهو ما يستلزمه كون المدن كمدنكم ، لأن هذه المدن هى وليدة تفكير الإنسان فى كوكبنا الأرضى فيجب أن تكون هناك أيضاً وليدة تفكيره وإلا لما قال : مدناً كمدنكم ، ويريد بالأعمدة الروابط بين تلك المدن وبين ما تعتمده من بقاء كالأعمدة التى تربط بين السقف والأرض فى بيوتنا ضرورة كونها بيوتاً واستقامتها كذلك ، ويريد بالنور العنصر الذى تتقوم به تلك الأعمدة وهو من الشموس مثلا بمنزلة الجوهر منا الذى نعبر عنه بالروح تارة وبالحياة أخرى ، وهذا الجوهر هو الذى يربط بعضنا بالبعض الآخر فاذا

فقدناه افترقنا إلى الأبد ، ثم على مقدار الكمية التى تتوفر فى الجرم من هذا الجوهر يكون ارتباط غيره به وانجذابه إليه ، واعتصامه به ، ولهذا نرى الخاصة من الناس ، علماء وحكماء وزعماء ، هم مدار الجاذبية فى الناس .

وهكذا نصعد إلى الروابط الكونية ، فالشمس إنما تربط بين الكواكب الدائرة فى فلكها ، لما توفر فيها من الجوهر الذى نعبر عنه بالنور الذى تتقوم به تلك الكواكب ، وقد تكون هذه الشمس مع شموس أخرى تدور فى فلك جرم أعظم يتوفر فيه من الجوهر أضعاف ما تتقوم هى به ، فالنور إذن كلمة تعنى أكثر مما نشعر من أنها ضوء يكشف لأعيننا غشاء الظلمة عن المرئيات ، وإنما هى قوام كلى يتقوم به الوجود ، وتنبثق عنه جزئيات تتقوم بها أجزاء هذا الوجود ، ولهذا عبر الله تعالى عن ذاته بأنه نور السموات والأرض »

بقى شئ يجب أن يقال تعقيباً على قول الإمام فى الكلمة الثانية المروية عن « مجمع البحرين » وهو قوله : طول كل عمود مسيرة مائتين وخمسين عاماً فى السماء » ولعل القارئ ، إذا رجع إلى أقوال علماء الفلك فى تقدير المسافات بين الشمس وبين الكواكب التى تدور فى فلكها ، لعله يعثر على تقرير المسافة التى ذكرها الإمام بين النجوم وبين أقطابها التى تدور حولها من الشموس .

الله

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ . وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ، وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ

ان هذه الكلمات « لا تعلمون » ولا يعلمون ، ولو يعلمون » التى يختم بها الوحى الكريم كثيراً من الآيات ، حافلة بالأعجاز فيما تشير إليه من علوم كقوله عز من قائل : ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » وقوله : مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وسيأتى الكشف عن أسرار كل منها » أقول : إن هذه الكلمة حافلة بالإعجاز وتشير هنا إلى التطوير والتحويل وكلا هذين كان ولا يزال هدفاً لعلوم الكيمياء فى تحويل المعادن من نوع إلى نوع ، ولقد أصبح من السهل اليوم هذا التحويل بعد أن كان حلماً قبل ألف عام عندما كان يمر العقل المبدع بهذه الآيات ونبوآتها فيمعن فى العمل على تحقيقها فيفلح حيناً ويخفق أحياناً ، حتى جاء العصر الحديث فأظهر العجائب فى تحقيق ما تشير إليه تلك الآية الكريمة .

ولنعد إلى الخوض فى إعجاز هذه الآية بدفعها الفكر وراء الكشف والإبداع . وفيها الكثير من تصديق الإمام على إذ يقول فى وصف القرآن : ان فيه علم ما مضى وما يأتى » وقد مر القول على ذلك فى غير مكان من هذا الكتاب . فقد يستطيع الفكر أن يجمل تفسير هذه الآيات الثلاث بقوله مخاطباً نوع الإنسان بلسان ربه : لقد قضينا عليكم الموت ولا يسبقنا أحد فى تبديل هذا الشكل الذى فطرناكم عليه وفى إنشائنا إياكم مرة أخرى بشكل آخر ليس فى طوقكم أن تعلموه .

أقول : قد يستطيع الفكر إجمال القول فى ذلك ويستطيع أن يضرب لذلك مثلا فى أن جبلة الإنسان كالمعدن الخام ، حديداً أو فضة أو ذهباً ينشئ الحداد والجوهرى من هذه المعادن ما يشاء مما يحتاج إليه فى حياته من زينة ومتاع ، وكلما تطور الفكر فى ترقية الحياة أعاد هذه المنشآت من المتاع والزينة سيرتها الأولى بالصهر معادن أولية ثم أخذ فى إنشائها بأشكال أخرى ، وهكذا دواليك يحيى الإنسان ويميت هذه البدع من المعدن والنبات الذى خوله الله التصرف به

فى خلقه الثانى وحال دون خلقه الأول القائم على إنشاء المعدن ذاته ، فالمادة الأولى من كل شئ ، قاصرة فى وجودها وعدمها ، على قدرة الخالق الأزلى الأول .

قد يستطيع المفكر أن يتصرف هذا التصرف وهو يجيل فكره فيما تشير إليه تلك الآيات ، ولكنه يتقهقر وينكص ثم يخسأ إذ يحاول الكشف عن الصورة التى ينشئنا عليها المبدع الأول بعد أن يصهرنا فى بوتقة الخلق والإنشاء ، ويخسأ الفكر أكثر من ذلك إذ يحاول اكتناه المعدن الخام الذى تفرعنا عنه إلى أمثالنا هذه ، واكتناه الأمثال التى سنتفرع إليها عنه مرة أو مرات أخرى فى مستقبلنا ونحن نمر ونكر بين يدى حياة أزلية لا نقوى على التفكير فيما كانت منه بأكثر مما نقوى على التفكير فيما تؤول إليه .

فاذا صح لديك تفكير الحديد بكنه ما تفعل ، وأنت تحيله من معدن خام إلى أرائك وسرر ، وصح لديك تفكير الذهب والفضة بكنه ما تفعل ، وأنت تحيلها من معدن خام إلى حلى وآنية ؛ ثم إذا صح لديك تفكير هذه الأرائك والسرر والآنية والحلى بكنه ما تفعل وأنت تصهرها فتعيدها سيرتها الأولى معادن خامة ، لتنشئها مرة أخرى فيما لا تعلم هى . إذا صح ذلك لديك صح إذن تفكيرنا فيما ننشأ منه ونؤول إليه من أمثال وأشكال بين يدى سلطان الخالق الأول الذى يبدئ ويعيد ويحيى ويميت وينشئ ويحيل قائماً فى كل ما يفعل على الوحدانية بالذات ، والاستقلال فى الخلق والإبداع .

فكلمة « قدرنا بينكم الموت » فى الآية تعلمنا أن لكل شئ نهاية حتى يستمر التطور والتجديد ، لأن الفن الأزلى فى الكون على ترق دائم لئلا يشترك مع خالقه الأول فى الخلود . فالفن خالد بكليه أى بنوعه من حيث هو فن ، ولكنه زائل بجزئيه أى بشخصية أفراده . فالإنسان مثلا الذى هو عنوان الفن الإلهى فى دقة صنعه ، هو خالد بنوعه لأن الإنسانية لا تفنى ، وإنما الفانى جزئيه : أنا وأنت مثلا ، وهذا الزوال الذى هو فناء الجزئى فى كليه ، أحد مظاهر العظمة فى الفن إذ لو جمد جزئياً لما كان للفكر الذى يبدعه روعة الخلود فى عالم الروح .

ولقد أشرنا فى كتاب « بلاسم » إلى أن اختلاف الألوان وتطورها عريق فى صقل البصر ، وإلى أن اختلاف الأصوات وتطورها عريق فى تقويم السمع ،

ثم أن اختلاف الآراء والأفكار وتطورها عريق فى صقل الروح » ولعل بقاء هذه الأنواع التى هى العين والأذن والفكر ، لعل بقاءها بكلياتها وقف على اختلاف تطور ما نعمل فيه من حياة ، فالموت إذن ضرورى لتجديد الحياة فى نوع الإنسان لئلا يجمد ويركد فيفضى هذا الجمود به إلى فناء النوع الإنسانى ، لأن حياة هذا النوع قائمة على تطور أجزائه ، وأما الخلود الذى يعدنا الله به فى الجنة فيجب أن تهيمن عليه حياة تتقوم بخلود الروح فى جزئياته لا كلياته .

وكلمة « لسنا بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم » تشير إلى اعتداد الخلاق الأول بربوبيته واعتزازه بوحدانيته وأن لا يسبقه أو لا يقوى على سبقه خلاق غيره ، لأنه مصدر الخلق وعلة الإبداع الأولى ، من أجل ذلك وهب الفن لمخلوقه الإنسان ناقصاً بتفاوت أجزائه ، إذ لا نرى فناً كاملا حتى ينشأ بعده فن أكمل ، وكل الفنون ترمى إلى غاية فى الكمال لا يزال العقل البشرى قاصراً عن إدراكها .

ويشير ، عز وتعالى ، بقوله : وننشئكم فيما لا تعلمون » إلى ذلك النقص فى إدراك الإنسان كنه الفن فى خلود نوعه ، لأنه قائم فيه ، أى أن تطور الفن قائم فى ذات الإنسان ، وإذا قام الشىء فى ذاتك أى كان من عناصرك التى تتقوم أنت بها ، استحال عليك إدراك تعليله حتى تتجرد عنه ، فيمكنك أن تعلل أو تدرك علة التطور فى نوع الحديد والخشب لأنك لم تتقوم به ، ولأنه دونك فى شرف الذات وتقويمها ، وكل ما انحدر عنك فى قوامه وكنهه كان مستجيباً لك فى اكتناهه والهيمنة عليه ، وأما ما يعلو عنك أو يساويك فيعجزك أن تفكر فيه أو أن تصل إلى كنهه ، فعالمك والعوالم التى تتصورها بعقلك كالملائك والآلهة ، هو أبعد العوالم عنك تحليلا وتعليلا .

أما العوالم التى هى دونك كالنبات والجماد فتستطيع أن تجيل فيها عقلك ، ثم تعلل وتحلل عناصرها بنوعك لا بشخصك ، لأن النوع الإنسانى أثبت فى مجال العصور هيمنته على ما دونه من العوالم كلياً وإن قصر عنها جزئياً ، فما من معجز علمى أو فنى قام بكليه على فكر إنسان جزئى ، وإنما قام ذلك المعجز على نوع الفكر الإنسانى موزعاً على كثير من أفراد الإنسان ، فكل علم

أو فن قام فى بروزه وظهوره على أدمغة أناسى قد تبلغ الملايين فى مجاهل ومعالم التاريخ .

فالله ، تعالت عظمته ، يعلمنا بقوله « وننشئكم فيما لا تعلمون » ان علمنا لا يزال ناقصاً إذ نعلم تطور ما هو دوننا ونجهل تطور أنفسنا فيما نستقبل كما نجهل أصلنا الذى تطورنا عنه فيما مر ، ثم يعلمنا أن كل شئ قابل للتطور والإنشاء من جديد ، إما من حسن إلى أحسن أو من سئ إلى أسوأ ، فهو يعدنا ويهددنا بهذه الكلمة ، كما تعد وتهدد تلميذك وأنت تعطيه الأمثولة وتفرض عليه إدراكها ، فاما أن يجيدها فتصعد به إلى صف أعلى ، وإما أن يسيئها فتهبط به إلى صف أدنى .

وبذلك يشير إلى التربية المفروضة علينا فى تصفية نفوسنا بين يدى الرقى ، فان الدين إنما جاء لفرض هذه التربية ، نبدأها بتطويع النفس على محاسن الحياة ، وطبعها بطابع الإخلاص للحق تدريجاً حتى ينتهى هذا التطويع للأفراد ، بترقية النوع وإمكان العصمة بعد ذلك للفرد عن ترديه فى أخلاق العوالم الدنيا ، وهى العوالم التى نتعالى عنها بفضل العقل القائم على ذلك التطويع وهذا الطبع المعبر عنهما بالتربية .

محمد — جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمُ الصِّبْيَةَ وَالمجَانِين

كتبت فصولا مطولة فى كتبى « وحى الرافدين » « ومع الناس » عن مبلغ ما يسئ به المسلم الشيعى إلى إسلامه فى مساجده الكبرى القائمة فى جوار قبور أهل البيت على وأبنائه على ضفاف دجلة والفرات تحت سماء العراق فى النجف حيث يرقد الإمام على ، وفى كربلاء حيث يرقد ولده الشهيد الحسين وأهل بيته ، وفى الكاظمية حيث يرقد الإمامان على الرضا ومحمد الجواد من عترة الإمام الكاظم عليهم جميعاً صلوات الله وتسليمه .

أقول : لقد كتبت فصولا مطولة فى النقمة على الشيعة المحدقين بهذه المساجد والقائمين لله فيها بين ركوع وسجود أيامهم ولياليهم ، ثم يغفلون عن الصبية والمجانين الذين يعيثون فساداً فى جوار أئمتهم وبين جدر هذه المساجد الحافلة بملائكة العرش ، ولقد كنت أغشى هذه المساجد مع الفجر فأجد الصبية والمجانين والجهلة يتغوطون فيها دون أن يغضب لله زائر لها ومهيمن عليها .

ولقد كادت تقوم قيامة نكراء بينى وبين السدنة فى هذه الأضرحة ، تعرضت فيها لخطر عظيم ، ولكنى إذ كنت واثقاً من أن هذا النداء على تلك المساوئ واجب على كل متحسس أوتى حظاً من الشعور الحى فى أمة محمد ، وظللت أقيم النكير بلسانى وقلمى على أولئك السدنة الذين أثروا وفسقوا ثم أورثوا أعقابهم الثروة والفسق وسيورث هؤلاء الأعقاب أخلافهم تلك السبة إلى يوم القيمة بفضل ما يثقل بطونهم وخزائنهم من نذور هذه الأضرحة التى تبلغ ملايين الدنانير على رأس كل عام .

وعبثاً كنت أحاول فيما أكتب وأخطب من حمل السدنة والفقهاء وأولى الأمر من الحاكمين على العناية بنظافة هذه المساجد وتنزيهها عن عبث الجهال وقذارة الصبية والمجانين ، كما حاولت عبثاً أكثر إذ دعوت لتنزيه شوارع مدينة النجف من قاذورة أهلها الذين لاتعرف بيوتهم المراحيض إلا فى الأزقة ،

والنجف هذه تكاد تكون عاصمة ستين مليوناً من المسلمين الشيعة ، وإليها تهوى أفئدة المسلمين ، ويقصدها للسياحة كثير من الغربيين لمشاهدة ما يعلو ضريح الإمام على من غرائب الفن فى هندسة البناء ، وما يشتمل عليه من عجائب التحف ونفائس الجوهر .

ولقد تحدث إلى خبير من أهل النجف أن فى خزانة الإمام من نفيس هذه التحف ما يبلغ ثمنه عشرات الملايين من الدنانير الذهب محجور عليها أن ترى الشمس وأن تراها الأعين ، بينما تضم مدينة النجف التى تضم جسد الإمام على ، ستين من كل مائة نفس مرضى بالسل فقط وليس فيها مستشفى ولا مستوصف ، فهل يرضى الإمام عن هذه البدع وهذه الدنيا الحافلة بزخرف الحياة وطرائفها بعد موته وقد كان أبعد ما يكون عنها فى حياته ؟؟

وهكذا زرت قبيل وضع هذا الكتاب مدينة الرسول محمد صلوات الله عليه ، ودخلت حرمه القدسى للصلاة فاذا الوضع فى مسجده هو عين الوضع فى مسجد أخيه وابن عمه على بن أبى طالب ، صبية يعبثون ويفسدون على مرأى من المصلين وفى رعايات أبائهم وأمهاتهم ، ولقد تغوط أحدهم فى المسجد وأنا أراه وكأن لم يفعل أمام أبيه ومن حوله إلا معتادا ، ولكنى حنقت وغضبت لله فخرجت وحبرت كلمة بعثت بها لإمام الحرم أذكره فيها بالحديث الشريف : جنبوا مساجدكم صبيتكم ومجانينكم » ورجوت منه أن يستطرد إليه فى خطبة الجمعة فان أفاد وإلا فليستعن على آباء الصبية بالشرطة المنبثة فى زوايا المسجد وعلى أبوابه لحماية الأمن ورعاية النظام .

ولبثت أنتظر يوم الجمعة ، وأنا موقن بأنه سيفعل لأن فعله هذا من صميم عمله وفى صميم الإيمان ، ولشد ما كان عجبى بالغاً إذ سمعته يوم الجمعة يخطب فى تشديد النكير على زائرى الحرم النبوى أيام رجب لأن ذلك غير مشروع فى عهد الرسول ، وعلمت من ذلك أنه يعرض بمن كتب له يستعديه على الصبية والمجانين الذين يعيثون فى المسجد ، وقلت لمن حولى ، وقد أعلمتهم بكتابتى له ورجائى منه ، قلت إذ ذاك : إن زيارة رجب وهو الشهر الذى عرج فيه رسول الله إلى السماء ليأتينا بالوحى ، ان هذه الزيارة بدعة وأما خرء الصبية

والمجانين فى الحرم فهو مباح إلى حد يدعى له الإمام فلا يستجيب دعاء الداعى ، والله إنى لشاكيه إلى أمير المدينة فان لم يستجب شكوته إلى رسول الله الذى هو مشرف على كل ما يحدق بنا من حياة .

وذهبت من غدى إلى أمير المدينة ، وأعرفه الصالح المصلح ، وكان معى صديقاى على وعثمان حافظ أو أحدهما على ما أذكر ، ثم قصصت عليه ما رأيت من أحداث الصبية فى المسجد على مرأى منا وذكرت له الحديث الشريف ، فقال : سأرفع هذا إلى مجلس العلماء ويكون مرد ذلك إليهم وتبعته عليهم .

ولكن العلماء لم يجيبوا ، والأمير لم ينكر عليهم صمتهم وهم يعلمون علم اليقين أن محمداً لم يشرع لهم الدين إلا وفى صميمه الدعوة إلى الحق وإجابة الداعى له .

أفلم يدخل محمداً مسجده يوماً ما ، والمسجد لم يكن أكثر من تراب وحصى ، فرأى بصقة إنسان فثارت حفيظته فعمد إلى حفر الأرض ووارى النخامة وهو مغضب محنق يقول : إن كفارتها دفنها ؟؟ فاذا غضب محمد لنخامة فى أرض مسجده الذى لا تفارقه ملائكة السماء ، أفلا يغضب لتغوط الصبية والمجانين فى المسجد نفسه على مرأى من إمام المسجد والمصلين فيه؟؟ ان هؤلاء الصبية يتغوطون ويبولون فى مسجد رسول الله كل يوم دون أن يلقوا زجراً من الحرس المنبثين فى المسجد وهم يرون هذا المنكر ويأتمرون بأمر إمام المسجد فماذا يقول هذا الإمام يوم يلقى محمداً وهو شهيد عليه يسأله عن مبلغ حرصه على حرمة محمد فى مسجد محمد ؟؟؟

ذلك ما أحببت أن أذكره فى سياق الحديث الذى هو مصلين هذا البحث وأنا واثق من أن تقدم المسلمين رهن بأمور أهونها عند الله والعالم هذا الذى نراه من عبث البنين وغفلة الآباء عن رسالة محمد .

علي — الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ

يشير الإمام بكلمته هذه إلى المثل الأعلى فى الإنسان والمعبر عنه فى الشرق بالإنسان الكامل وفى الغرب بالسوبرمان ، ففى هذه الكلمة تحديد للإنسان الكامل ، وقبل أن نكشف عن هذا التحديد ينبغى لنا أن نقول شيئاً نمهد به لهذا الكشف فنقول :

ان لكل أمة لسانا ، وكل لسان له لغتان أولاهما لغة العلم ، وقد يعبر عنها بلغة العقل أو المنطق أو الحقيقة ، والثانية لغة الأدب ، ويعبر عنها أحياناً بلغة العواطف ولغة البيان ولغة المجاز ، فاللسان ، بلغة العلم والحقيقة ، هو خاص بأهله ، وهو بلغة الأدب والعاطفة ، عام يتجاوز أهله إلى غيرهم من أمم العالم . فكل لغة من لغات العالم قسمان قسم حقيقى يختص بأهله ويتناول التعبير عما وضعت له تلك اللغة عيناً ، وقسم مجازى عام يتناول التعبير عما تشير إليه تلك اللغة بلوازمها ومقتضياتها ، وسيتوضح ذلك فيما نسوقه من أمثال .

ان الأدب الذى هو ترجمان العواطف ، هو اللغة الجامعة لبنى الإنسان ، بخلاف العلم الذى يحد الكلام فى إعرابه وتصريفه واشتقاقه ، فانه لغة أمة أو شعب تواطأ على التخاطب والتفاهم بتلك اللغة ، لذلك كان الأدب أسمى من العلم إذ كان لغة الإنسان الأزلية فى الوجود بينما نرى العلوم التى هى لغة العقل دونه فى السمو إذ كانت لغة الإنسان المتحضر فقط دونما حس تخفق به الروح فى عالم الإنسان باديه وحاضره وأبيضه وأسوده .

لذلك كان لا فرق بين بنى الإنسان فى مثار العواطف وبناء ثورتها على انفعالات النفوس ، بينما تجد هذه الأفراد تختلف بعقولها تحت أحداث الزمن ، لأن العقل الذى هو مصدر العلوم ، هو وليد المجتمع ، والعواطف التى هى مصدر الفنون ، هى وليدة الطبيعة ، من أجل ذلك كان الفن أخلد من العلم ، ومن شاء الوقوف على بحث هذه النظرية بشكل أوسع فليرجع إلى كتابنا «بلاسم»

أوردت هذه المقدمة لأصل بالقارئ إلى أن اللغة ليست قاصرة على الحقيقة وإنما تتعداها إلى المجاز القائم على الخيال الذى يتقوم به الأدب ، فاللغة إذن حقيقة ومجاز ، والمجاز وحده هو الأفق الذى يتسع للفكر فوق اتساع الحقيقة له .

فالحقيقة فى قول الإمام لا تعطى لفظ العالم أكثر من أنه لابس صفة العلم عمل أم لم يعمل ، وكان عمله موافقاً علمه أم لم يكن ، كما أن الحقيقة فى من يعمل أن يطلق عليه لفظ العامل لا العالم سواء علم بما يعمل أم لم يعلم ، هذه حقيقة المعنى اللغوى لتلك الجملة . وأما مجاز هذا المعنى فأبعد من ذلك وأوسع ، فان الإمام أراد أن يشير إلى شرف العلم وما يجب أن يترتب عليه من نتائج وذلك فى صميم اللازم له واللاصق به ، ولهذا نجد الكلمة المأثورة : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، قائمة بروعتها فى نفس كل متأدب .

فالبيان فى قول الإمام عظيم ، إذ شاء ، رضوان الله عليه ، أن يجعل فى حدود العلم نتائجه ولوازمه وأهدافه ، فالبيان فيه أبعد من أن يشير إلى حقيقة معناه الذى لا يقوم على حدة الفكر وقوة العارضة فى بناء الأدب الرفيع ، البيان فى هذه الجملة إذ يحقق : ان المرء حيث يعلم غير خليق باطلاق صفة العلم عليه حتى يعمل به ثم يكون عمله وفق علمه حرصاً على شرف العلم الذى هو سلاح العالم يقيه من التردى والانهيار أقول : ان البيان فى هذه الجملة البالغة يعلمنا فنوناً من السمو فى الأدب يذهب معها الفكر مذاهب شتى فى مجال العبقرية والخلود .

ومن هذا القبيل فى مجال البيان القول المأثور : لا صلاة لمن جاره المسجد إلا فى المسجد ، فان صلاة المرء فى بيته وهو جار للمسجد ، لا يخرجها فى حقيقة اللغة عن كونها صلاة ، ولكن الشارع أراد بها المجاز الذى هو أبلغ قسمى لغة العرب القائمة فى بيانها الرائع وأسلوبها الحى على المجاز أكثر مما تقوم على الحقيقة ، إذ جعل هذا الشارع البصير كمال الصلاة وشرفها مأخوذاً فى مفهوم حقيقتها ، إشعاراً بسمو الغاية منها .

ومن هذا القبيل أيضاً ما ينسب إلى الإمام الحسن بن على بن أبى طالب من قوله : الرجال ثلاثة : رجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل ،

فأما الرجل الرجل فهو من كان ذا عقل واستشار ذوى العقول ، وأما نصف الرجل فهو من كان ذا عقل واستبد بعقله ، وأما اللارجل فهو من ضعف عقله ولم يستشر ذوى العقول » ففى مجمل هذه الكلمة وتفصيلها كثير من الأدب القائم على روعة البيان ، وتكاد تتضاءل الحقيقة اللغوية فيه إلى جنب المجاز .

فليس الإمام بخارج على اللغة إذ يحدد معنى العالم بأنه الرجل الكامل فى فكره وقوله وعمله ، أى أنه يعلم ويعمل ثم يحسن تطبيق العلم على العمل ، لأنه أخذ العمل فى مفهوم العلم ثم جعل الإحكام والإتقان فى مفهوم العمل ، فجرد العلم فى تحديده عن التصور المطلق وجعله مركباً من ثلاثة : التصور والصورة ثم التصوير ، ولا يخفى على القارئ ما فى هذه الثلاثة من صلات تربط بعضها بالبعض الآخر ، وهذا داخل فى صميم اللغة من قسمها المجاز الذى هو تصرف بالوضع لا من الحقيقة التى هى فى اللغة وضع بغير تصرف .

فدلالة شجاع مثلا على الرجل الجرئ القوى كدلالة لفظ الباسل عليه ، ولكن الباسل بمعناه الحقيقى هو الكريه المنظر وإنما أطلق على الشجاع لأن منظره كريه لمن يبارزه ، فهو فى اللغة مجاز من قبيل إطلاق اللازم الذى هو الكريه هنا ، وإرادة الملزوم الذى هو الشجاع لأن من لوازم الشجاعة الكره القائم عليها بين المتنافسين فى فنون الحرب .

ومن هذا القبيل روعة البيان فى قوله تعالى : وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحه » لأن التسبيح فى الحقيقة إنما يطلق على العاقل المتكلم ، كما نفهم ، وأما إطلاقه على الجماد والنبات فهو من قبيل المجاز فى اللغة ، وتوضيح ذلك : أن الزهرة الجميلة ، إذ تروعك بلونها وعطرها ، تضطرك لأن تقول : تبارك الله ، والبدعة الخارقة فى الطبيعة إذ تروعك بشذوذها ، تضطرك لأن تقول : سبحان الله ، والآية المخيفة فى أحداث الأرض والسماء إذ تروعك بقوتها ، تضطرك لأن تقول : أعوذ بالله ، فلست إذ ذاك أنت المسبح والمبارك والمستعيذ ، ولكن هذه الأشياء هى فاعلة ذلك فى نفسك ومعربة عنه بلسانك .
فتخريج الآية الكريمة على هذا الوجه ليس بخارج عن قواعد اللغة ، وإنما

هو فى صميمها لا من حيث وضعها العينى المعبر عنه بالحقيقة ، ولكن من حيث وضعها البيانى المعبر عنه بالمجاز إذ أسند التسبيح الذى هو معلول فيك ، إلى علته التى هى الجمال فى الزهرة ، وإطلاق المعلول على علته فصل قائم بذاته فى علم البيان الذى هو أصيل شائع فى لغة العرب .

الله

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

لنمسك فى صدر هذا البحث ، أرضنا الخاصة بنا نحن نبات الإنسان ، ألا وهو الرحم ، ولنفكر كيف ننبت فيه ؟؟ كيف نتكون ثم نتلون ؟؟ فالرحم قطعة واحدة من الأرض لا قطع متجاورة فيما نحس ، نبذر فيه زرعنا المعهود ثم يسقى بماء واحد فينشأ مختلف اللون والشكل والعقل .

فالتوائم التى تولد من رحم واحدة من اثنين إلى خمسة فى الإنسان ، ومن خمسة إلى عشرة فى الحيوان الأليف ، ثم من اثنين إلى مآت أو آلاف فى بعض الحشرات والخشاش والهوام مما ندرك كالجراد والنحل والنمل ومما لا ندرك كالمحسوس بالعقل من وراء العلم .

هذه التوائم التى يبذرها فى الرحم شخص واحد من نوع واحد نشأ فى صلب واحد ، ثم تغذيها ذات الرحم من ماء واحد وتنشأ بعد ذلك مختلفة اللون والشكل ، ثم نراها بعد ذلك مختلفة الذوق والفكر ، فكل من هذه التوائم يحمل فى كيانه ألوان الأصول التى تحدر منها منذ الجد الأول حتى الأب الأخير ، يحمل هذه الألوان فى خلقه وخلقه ، حتى إذا غادر الأرض التى نبت فيها رأيناه يختلف عن أخيه بكلا لونيه المادى والمعنوى فكيف يكون ذلك ؟؟

ان البذرة التى يلقيها الذكر فى رحم الأنثى قد تحمل الملايين من جراثيم الحياة الخاصة به ، ولكن أقوى هذه الجراثيم على البقاء فى هذه الرحم هو الذى يملك الحياة فيه ثم يتلاشى ما ضعف من هذه الملايين عن تنازع البقاء ويتحول إلى عالم

آخر ، أما سر هذه القوة التى أمكنت بعض الجراثيم من البقاء دون البعض الآخر فيدق على أفهامنا تحليله وتعليله .

وهكذا نجد بعد احتضان الرحم هذه الجرثومة الفذة أو الجراثيم التوائم ، أنها تحمل خصائص الآباء والأجداد منذ الأزل القائمة فيه حتى نشأتها الأولى فى الرحم ، ثم نرى أقوى هذه الخصائص التى نعبر عنها بالألوان تارة وبالصفات أخرى ، نرى أقواها على البقاء هو الذى يستأثر بالحياة فى الوليد الناشئ وهو يترعرع فى الرحم قبل خروجه ، وتدق أفهامنا كذلك عن سر تلك القوة التى أمكنت بعض الصفات دون البعض الآخر على البقاء فى الناشئ .

لهذا نرى بعض التوائم يختلف عن أخيه بعد نشأته فى خلقه وخلقه أو فى أكثر هذين العاملين على تكوينه ، بينما نجد هذين التوأمين أو هذه التوائم متحدة النوع فى البذرة الأولى ومتحدة الأرض فى المنبت ثم هى متحدة الغذاء بالماء الذى يسقيها فى ظلام الرحم ، فما هو السر فى ذلك ؟؟

وهكذا نصل من بحث الحياة الخاصة بنا إلى بحث الحياة فى عالم النبات الذى يشير إليه المكون الأول فى قوله تبارك وتعالى : ونفضل بعضه على بعض فى الأكل ، وفى الآية عظة جديرة بتسفيه الإنسان إذا مر بها ، وهو يعقل ، ثم لم يتأثر بروعتها وهى تشير إلى عظمة الخالق فى تكوين هذا العالم وتلوينه ، وأعنى به عالم النبات المعجز بين يدى ما يسود الحياة من عظات وعبر لا حصر لها ولا حد ، وأعظم ما تشتمل عليه الآية من معجز هو ضخامة المعنى وسمو البلاغة فى الإفصاح عنه بأبين ما يؤديه القول ، وأوضح ما يشير إليه .

انك لتحمل بيدك الواحدة قبضة من خليط هذه البذور ، نجما وشجراً ، ثم تنثرها فى بقعة من الأرض ويتعهدها الله أو تتعهدها أنت بالماء الذى هو مصدر الحياة ، فاذا بك تشرف منها بعد حين ، على خليط من الأشكال والألوان ، ثم تراها بعد حين آخر تثمر خليطاً من الأشكال والألوان ، وتجنى منها خليطاً من الأطعمة والأذواق .

قطعة من الأرض لا قطع تغرس فيها التين واللوز والمشمش مثلا ، وتزرع فيها الشقيق والبنفسج والنرجس ، فيخرج ذلك الشجر وهذا النجم مختلف الشكل

واللون والطعم ، فمن أين جاء هذا الخلاف بين ذلك الطلع فى شكله ولونه وطعمه والتراب الذى ينبت فيه واحد ، والماء الذى يسقيه واحد ثم نرى أن الشمس التى تشرق عليه واحدة ، والأفق الذى يحدق به واحد ؟؟ كيف احمر هذا الشقيق ، واسمر ذلك البنفسج ، وابيض هذا النرجس ، ثم كيف استدار ذلك التين واستطال ذلك الموز وتدلى هذا المشمش ، وكيف كان بعضه حلواً والبعض مراً وبعضه الآخر دسما ، وهكذا نستطيع أن نفرق بين الزهر الأحمر أو الأصفر أو الأبيض أو الأزرق بالشدة والضعف فمنه الأحمر الناصع والأصفر الفاقع والأبيض الساطع ، ومنه الفاتح ومنه المزيج على أنواع فى المزج بين لون ولون وشكل وشكل .

فهل السر فى هذا التلوين وذلك التكوين من التراب أم من الشمس أم من الماء ؟؟ وإذا كانت الشمس تسبغ ألوانها السبعة أو توزعها على النبات فماذا يفعل التراب وماذا يصنع الماء ؟؟ وأى هذه العناصر يبدع الشكل وينوعه ويعلو بالشجر ويهبط بالنجم ، ثم ينوع الطعم ويؤلف بين الأذواق والأبصار فى تذوق الطعم وتمييزه ، وفى تبين اللون وتحديده ؟؟ تبارك المبدع الأول الذى أخرج من التراب والماء فى النبات والحيوان والجماد ، شكلا ولوناً يتقوم به البصر وطعما يتقوم به الذوق ، وريحاً يتقوم به الشم ، ثم أبدع فى كل ذلك تداخلا وتفاوتاً وتناسقاً يتقوم به العقل .

ان اللون إذا توحد زاغ البصر ، والطعم اذا توحد فسد الذوق ، والريح إذا توحد بطل الشم ، وكان من وراء ذلك الاتحاد ركود الفكر وجمود العقل ، وهكذا نجد أن فى اختلاف الأصوات صقلا للسمع وتقويماً له ولو توحد الصوت لساد الصمم ، فكما يصقل اختلاف اللون والشكل عنصر البصر كذلك نجد أن اختلاف الطعم والريح يصقل الذوق والشم ، ثم نجد بعد ذلك كله تقويماً للعقل وصقلا للفكر فى تمازج هذه العناصر وتمييزها واكتناه ما صدرت عنه وآلت إليه فسبحان الله الذى يقف عند الخوض فى أسرار خلقه كل فكر ، ويعجز عن تبين واكتناه تلك الأسرار كل عقل مخلوق .

محمد — إِذَا أَحْرَزَتِ التَّقْوَى قُوتَهَا اطْمَأَنَّتْ = قِيل : وَمَا قُوتُهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْرِفَ اللهَ

كنت أيام دراستي للفقه فى النجف الأشرف ، أغشى مسجد الإمام على عليه السلام مساء كل يوم للصلاة وكنت أرى أحياناً أحد المصلين إلى جنبي معروفاً بصلاحه وتقواه ، كان يقف للدخول فى الصلاة فيرفع يديه لتكبير الاحرام. فأسمعه يقول : الله .. ال .. ال .. الله .. الله أك .. الله أك .. أك .. ثم يلتفت يميناً وشمالا قبل أن يتم ، وهو يقول زيد عمرو .. زيد عمرو .. ويجلس لحظات ثم يقف لينشئ صلاته من جديد ويمضى فى قوله مكبراً : الله .. الله ... الله أك .. أك .. الله أكبر .. الله أك أك ... بررررر ... ثم يعود فيفسد هذه التكبيرة متلفتاً وهو يقول : زيد عمرو .. زيد عمرو ..

ثم يعود بعد هذا كله إلى الجلوس وقد كظه العرق وهو مجهود ، ولعله أحياناً يبكى ثم يخاطب نفسه قائلا : يا ويلى من شقائى وسوء أعمالى ، واحيآئى من ربى ، كيف أقابله بآثامى ؟؟ وكيف أتوسم الخير بين يديه من وراء هذه الآثام ؟؟ ثم يقف فيعود سيرته فى استئناف الصلاة ، وينتهى به الأمر إلى ما كان من قبل حتى نخرج من صلاتنا ونتركه فى وساوسه .

سألت عن شأن هذا الرجل فقيل لى أنه موسوس فى الصلاة ، كثير الشك فيها ، قد يقطع الساعة أو الساعتين لانتهائه من تكبير الإحرام والدخول فى الصلاة ، وقد يفعل ذلك مردداً ومكرراً فى كل آية أو كلمة كما ترى ، وقد لا يقبل نصيحة أحد فى أن يصلى كيفما اتفق له أن يصلى والله أكبر من أن يعاقبه على سهوه ونسيانه فلم يستجب للناصح ولعل هذا الناصح من المراجع فى الفقه والأصول .

وأعرف شخصاً آخر كان يجلس للوضوء عند الظهيرة ويستمر فيه ساعة ولعله يزيد على الساعة وهو يكفئ الماء على فمه ورجليه ، وكلما أفرغ أبريقاً صاحت به زوجه فرجاها أبريقاً آخر وهكذا حتى يأتى وقت العصر فيصلى الفرضين معاً .

وقد سألته مرة عن سبب هذا الاسترسال فى غسل الفم والوجه والرجل ، فقال : النظافة من الإيمان ...

وأعرف رجلا فقيهاً تقياً إمام جماعة يجلس للوضوء عند الظهر والمصلون بين يديه ينتظرون فراغه للشروع فى الصلاة فيشرع فى التحدث إليهم وهو فى مجلس وضوئه والماء بين يديه فيقطع نصف ساعة أو ساعة ثم يتوجه إلى المحراب فيؤم الناس أكثر من ساعة للفرض الواحد ، إذ يقرأ فى كل ركعة سورة كبيرة من أمهات السور فى القرآن كسورة يس أو العنكبوت مرتلا آياتها ، وقد يعيد بعض الآيات لعدة قراآت ، وأراه بعد الصلاة مزهواً بما فعل ، وكل من هؤلاء المصلين الثلاثة يعتم بعمامة خضراء وهى شعار من ينتمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل منهم فقيه .

وأعرف رجلا فقيهاً تقياً كان يسأل ابنه عند التسبيح فى قوله : سبحان الله كلما سبح الله شئ ... يسأل ابنه ، وابنه شاعر متحرر ، عن معنى « شئ » فى الجملة السابقة فيجيبه : بأنها أحد الأشياء التى تسبح بحمد ربها ، فيقول له أبوه : اسمع وافهم أن « شئ » هذه اسم لملك فى السماء له ثلاثون ألف رأس فى كل رأس ثلاثون ألف فم ، وفى كل فم ثلاثون ألف لسان ولا عمل له إلا التسبيح ، أفهمت ؟؟

وهكذا لو أردنا أن نعدد أعمال كثير من المتقين بغير قوت يغذون به تقواهم لضاق مجال البحث بما نرمى إليه فى عقب هذه الأمثال ، ففيمن يتقى الله حقاً ثم لا يفقه الله الذى يتقيه كثير من العبرة والعظة لمن يفقه الله حقاً ولا يتقيه ، أعرف أناساً غير قليل إذا خطبوا أو كتبوا فى ذات الحق تعالى يصورونه للسامع والقارئ حتى يكادا يريانه رأى العين ، ولكن هذا الخطيب أو الكاتب لا يتورع إذا خلا ونفسه من أن يستجيب لشيطانه ، إما لضعف إرادته عن أن يعصم نفسه أو لشدة طمعه فى عفو ربه .

فالتقوى الصالحة هى ما كانت مقرونة بالعلم فى ذات الله ، فالمتقى ، ليكون مطمئناً إلى تقواه وأنه على حق فى التوجه بها إلى الله ، يجب أن يعرف

الله الذى من أجله يقوم ليله ويصوم نهاره فى عبادته ، والذى من أجله يكفى الناس شر يده ولسانه فى معاملاته ، فان لم يعرف ربه كانت تقواه قلقة غير مطمئنة إلى ثبات ، وكان هو قلقاً بها غير مطمئن إلى حياة ، فليست حياة الإنسان قائمة على الطعام والشراب وغيرهما من وسائل العيش ، وإنما الحياة قبل هذا كله ، هى تفكير الإنسان فى وجوده ومصدره ومصيره ثم الإخلاص فى هذا التفكير لينتهى به إلى اكتناه ذاته المفضى إلى اكتناه ربه وذلك هو العنصر الأول فى تقويم تقواه المطمئنة ، مضافاً إلى العنصر الثانى الذى هو الإيمان ، فصحة الإيمان وصحة التفكير هما أساس الدين الذى هو قوت التقوى .

فالدين ليس مجرد إيمان ، وإنما هو علم وإيمان ، على أن يكون العلم مأخوذاً فى مفهومه العمل ، وأن يكون العمل مأخوذاً فى مفهومه موافقة العلم كما قال الإمام على : العالم هو من عمل بما علم ووافق عمله علمه ، فكم جر على الدين من نكبات هؤلاء الذين حسبوا أن الدين تقوى بغير قوت ، فانصرفوا إلى تعزيزه فى نفوسهم حتى تقوست ظهورهم من الركوع وخشنت جباههم من السجود ثم إذا بلوتهم فى أمر وجدتهم لا يعرفون من يتوجهون إليه فى ركوعهم وسجودهم ، وتملكهم الغرور بعد ذلك فلم يروا بأساً من أن يفرضوا نفوسهم على الأمة أئمة يعلمون ويوجهون حتى حال تزمتهم وتعنتهم دون المصلحين ممن عرفوا الله أن يدعوا إليه من وراء العلم .

ولقد حذر النبى فى كثير من مواقفه بين أصحابه من أن يحسبوا الدين عبادة محضة دون أن يشفعها العابد بالعمل الصالح والعلم القائم على فقه الحياة إذ قال : المؤمن من كان بصيراً فى حياته ، وقوله : مجلس العالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وقوله من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فان الباحث فى هذه الكلمات يصل إلى أن الدين قائم على العلم فوق ما يقوم على التقوى ، وفى هذه الكلمات إشارة إلى أن العلم المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ليس قاصراً على الفقه وإنما يتجاوزه إلى علم الاجتماع بالكلمة الأولى وإلى علم النفس بالكلمة الأخيرة ثم إلى مطلق العلم بالكلمة الوسطى .

ولقد جاء فى السير أن النبى قال لمن بالغ فى مجلسه بعبادة عابد يقوته الناس :

ان الذى يقوته أشد عبادة منه ، ولم يعبر النبى عليه السلام عن الدين بأنه تقوى خالصة أو عبادة محضة ، وإنما عبر عنه بكلمات كثيرة تشعرنا بأن الدين هو الحياة العملية التى نحياها إذ قال : الدين المعاملة وقال ، المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، المسلم من أحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه ، وقال : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » فالدين فى قول محمد وما أنزل عليه،عمل مشفوع بتقوى الله ، وهذا العمل هو الحياة ، والحياة تأبى أن تعصمنا من الموت إلا بالعلم ، والعلم يأبى أن يضمن لنا الحياة إلا من وراء البحث عن الله .

علي

لَا تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً، وَلَا عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً

يذكر لى السيد على محى الدين ، من مهاجرينا العرب إلى أمريكا أيام وجودى هناك ، يقول : لقد كنا أيام هجرتنا الأولى إلى هذه الديار ، مستضعفين لجهلنا واستطالة النصارى العرب علينا وهم مواطنونا قبل الهجرة ، سيما أيام الحرب العالمية الأولى ، إذ كنا ننتصر لتركيا بدافع الإسلام ، وكان هؤلاء ينتصرون لفرنسا بدافع المسيحية ، وكانوا يحملون علينا فى صحفهم حملات هوجاء مستخفين بنا وبديننا ، وليس لنا إذ ذاك حول ولا طول نرد بهما كيدهم لفرط الجهل فينا وقلة المال بين أيدينا .

ويشاء الله أن يرسل إلينا شاباً سورياً من عمان يدعى محمد المحيسن رأيناه مثقفاً يتوقد غيرة على دينه وقوميته فأمددناه بالمال الذى يضمن حياته ، وأمنا سكنه ، ثم أنشأنا صندوقاً لتغذية الصحف التى تفتح أنهارها فى وجه دعايتنا ، ومشى المحيسن بقلمه الجبار ، ولما انتهت الحرب لم يبق حاجة إلى الدعاية ، واستمر هذا الشاب فى عمله الأدبى يخدم الجالية بلسانه وقلمه ، والجالية تتعهده بإحسانها إليه وعطفها عليه .

وكان كلما وفد على نويرك تاجر من الداخل يبادره السيد المحيسن بعرض خدماته عليه ، وبنشر اسمه فى الصحف ابتغاء العيش ، وكنا جميعاً فى عونه لأنه المثقف الوحيد الذى نفاخر به غيرنا ، وقد كان أدبه يدر عليه المال الوفير ، فيصل إنتاجه أحياناً إلى خمسماية دولار فى الشهر بينما لا يفتقر المرء يومذاك إلى أكثر من خمسين دولاراً لتأمين حياته فى الشهر ، ثم يقول السيد على محى الدين :

ولكنى كنت ألحظ عليه أحياناً مظاهر البؤس والشقاء من ثياب رثة ، وحذاء بال ، ووجه كالح متغضن ، بينما أراه فى بعض الأحيان على خير مظهر من جدة الثوب والحذاء ونظارة الوجه ، ثم أسمع عنه حيناً آخر أنه يجلس فى فندق نويرك الذى يقتضى من المسافر ما يعجز أحدنا عنه أجر ليلة واحدة

لطعامه ومنامه ، فكنت أعجب لسيرة هذا الرجل الغريب الأطوار .

وينزل على وقتاً ما ، ضيوف أثرياء وإذا به يأتيني من أجلهم ، وهو رث الثياب كاسف الوجه ، فعرفتهم به وأغدقوا عليه ما طمأنني باستغنائه وتحسن حاله شهراً ، وما كان أشد عجبي إذ دخل على بعد أيام قليلة على حالته الرثة ، فصدمته وقرعته ثم قلت له : مالك ؟؟ ألم أساعدك بالأمس من ضيوفى بمائتى دولار ، وهذه تضمن لك حسن الحال أشهراً ، فما بالك تعود إلى اليوم على هذا الشكل المزرى ؟؟ »

فضحك وقال : اسمع يا على ، أنا لست ممن يدخرون المال ، ولا ممن يحسبون له حساباً ، ولكني أحب أن أعيش كل شهر أو كل عام ، يوماً واحداً فى شخص ملك أو أمير ، فأنا كما ترانى شقياً بائساً ما كانت يدى صفراً من المال ، حتى إذا أحرزته غيرت حالى بكل ما أنا عليه من حياة وغادرت مبيتى الحقير إلى فندق نويرك وأكتريت أجمل غرفة ، وملأت مخدعها بالخمور وجمعت حولى الفتيات والغلمان ، ولبثت معهم ما استطعت أن ألبث ، تاركاً كل ما يفصله الناصح الحكيم مثلك ، وراء ظهرى ، فأنا إذ ذاك أمير أو وزير فقل فى ماشئت ، حتى يشاء الله فراغ يدى غادرت الفندق إلى كوخى أتلفع بؤسى ثم أخرج على شكلى هذا أفتش عن مطية أركبها إلى الفندق مرة أخرى ، فالعمر قصير وجمع المال ثم الحرص عليه ليس من مقومات الحياة عندى ، أفهمت ؟؟ تلك هى فلسفتى فى الحياة ... »

هكذا أعادت كلمة الإمام فى صدر هذا البحث إلى ذاكرتى هذا الحديث الذى أفضى به إلى أبو أنور الصديق على محى الدين وأنا فى منزله ببروكلن من الولايات المتحدة ، وأعرف رجلا آخر حدثنى : أنه كان أيام دراسته الفقه فى النجف يجاور شيخاً إيرانياً يقطع الأسبوع أخشن ما يكون عيشاً فى طعامه وشرابه ولباسه ، يقتات فتاة الخبز الجاف طوال أيام الأسبوع حتى إذا كان يوم الجمعة إذا به فى مظهر من يقتبل العيد فيما يلبس ، ثم إذا به ينزل السوق ويعود بحمال قد أوقر ظهره باللحوم والخضر والفواكه والرز والسمن ولباب

الجوز واللوز وكل ما يقتضيه الطعام الطيب لغداء نفر من الأثرياء أو أسرة حافلة بالسعادة والعز .

فكنت أعجب له أشد العجب إذ يملأ القدر الراسية ، وهو بنفسه ، وكأنه يعدها لوليمة ، حتى إذا نضج الطعام أكفأه فى الجفان وجلس إليه بمفرده فمسحه عن آخره ، وفى يومه التالى عاد إلى تقشفه وبؤسه فى طعامه ولباسه ، وقد تحدثت إلى زملائى عنه فلم يزيدوا فى اكتناه نفسه على أنه مجنون » قلت : لله فى خلقه شؤن ، فلو اعتدل هذا الرجل ووزع طعام نعمائه فى يومه على شظف عيشه طوال أسبوعه لكان إنساناً وسطاً ، وهو الإنسان الكامل .

لقد سمعت أن أحد الأئمة قال : نحن قوم إن وسع الله علينا وسعنا ، وإن قتر قترنا » وذلك لا يعنى أنه إن وسع أكلنا حتى ننفلق ، وإن قتر سففنا التراب ، وإنما يعنى استعمال الحكمة فى الحياة بين الرخاء والشقاء ، لا أنا إذا استغنينا كنزنا المال وإذا افتقرنا لفظنا الحياة ، وهكذا نجد العاقل الحكيم يوسع فى العيش على أهله ويتفقد غيره من البؤساء بما أفاض الله عليه من الرزق ، ثم هو يقتصد فيما يعول إذا أملق لأن الإنسان لابد له فى حياته من غيض وفيض ، والشاعر الحكيم يقول :

حياتك يومان بؤسى ونعمى ودهرك ما انفك حرباً وسلما

هذا من ناحية المادة ، وأما أدب هذه الحكمة التى تجلت فيها بلاغة الامام فتعنى أن روح الإنسان كجسمه فى احتمال نعيم الحياة وبؤسها ، وفى اعتدال هذه الروح السامية وهى تمارس الحياة تحت بؤسها أو نعيمها .

أعرف بعض الناس كان إذ يخلطه الحوار العلمى بزملائه ويحتدم الجدل ثم ينجلى عن صوابه وخطأهم ، كان يدل معجباً برأيه فيقول : هذا هو الرأى الذى لا يخطئ ، ويشاء الله أن يقع حيناً آخر فيما وقع زملاؤه به من الخطل فى الرأى فيستكين ويلوى عنقه ثم يقول : العصمة لله ... » ولقد كان فى غنى عن تبجحه أولا واستكانته أخيراً فلا يبطر وهو يصيب ثم لا يفشل وهو مخطئ .

وأعرف صديقاً لى كان يصدر صحيفة يومية ، وكان قد بلغ بها الشأو

قيمة وقدراً فى المجتمع ،حتى كان رئيس وزراء البلد الذى تطالعه الصحيفة فيه صباح كل يوم ، كان هذا الرئيس معنياً بالصديق وصحيفته ، وكنت أجلس إليه أحياناً وهو يدل بمكانته وبلوغ صحيفته الأوج الذى تستحقه ، فقلت له ناصحاً : أرجو أن تعتدل فى تفكيرك وأنت تحبر صحيفتك التى هى مرآة نفسك وسجل قومك ، فلقد بليت بالصحافة قبلك ، وكنت فى ريعان شبابى مثلك وكان رأسى حافلا بالغرور ، وقلبى خالياً من الهموم لأن النعمة أبطرتنى ، فاتخذت من صحيفتى مقرعة لمن لم يستجب لندائى ، ويتعظ بسمائى ، وكنت أنا نفسى صاحب النداء والسماء لم أتعظ بنصيحتى ولم أستجب لندائى .

وهكذا قطعت سنين أبذر مالى ، وأقتل وقتى ، وأضيع شبابى ، وكانت النهاية المؤلمة أن فقدت شبابى ، وأضعت مالى ثم لم يسمع أحد ندائى ، ولم يقبل أحد نصائحى ، فوقفت صحيفتى ، وكثر أعدائى ، وقل أصحابى ، ولم يتعظ أحد آخر الأمر بنصيحتى غيرى ، فاتخذ من هذا درساً ، وأشفق على نفسك وعلى مالك بالاعتدال ، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

فنظر إلى نظرة شاكر يشوبها شئ ضئيل لا يكاد يلمحه فى عينيه غيرى ، ذلك الشئ هو الاستخفاف برأيى أن خلطت بينه وبينى فى العمل ، ثم قال : أتحسب أن صحيفتى تقف مهما تقلبت الأحداث ؟؟ لا يا صاحبى انها لن تقف ، وان عروقها متصلة « بقرن الثور » فما الذى ينتزعها من هذا « القرن » ولكنى مع ذلك أشكر لك هذه النصيحة الغالية »

ويمر بنا على هذا الحديث عام أو بعض عام ، وإذا بقرن الثور يتزعزع ، وإذا بالصحيفة تطير ، ثم إذا بصاحبى يمنى بالتشريد على أيدى أناس هم أشر من العصبة التى شردتنى أيام جنونى فى الدعوة إلى الحق واعتصام أعدائى بالباطل ، واستمر صاحبى فى تشريده أعواماً ثم عاد إلى صحافته بشكل آخر كما عدت أنا بعد تشردى إلى صحافتى بشكل آخر ، ولكن الشكلين كانا متشابهين فى الاعتدال والهدف الذى فات أوانه بفوات القوة فى المال والشباب وسبحان من يعطى ويمنع ويعز ويذل ، وبقينا أنا وهو مشردين نسأل الله العفو على أن نجونا من الزلازل القائمة على اهتزاز « قرن الثور »

ولم تثبت صحيفتي أخيراً كما لم تثبت صحيفته ، لأن النكسة أشد من المرض ، والثورة الأخيرة أقل حرارة ووثوباً من الأولى ، والجرح الأول قلما يندمل حتى تتغير معه الحياة ، والصحافة يجب أن تبنى أول الأمر على موهبة فى النفس تتوفر لها إمكانيات تقوم على المال والصبر والعقل ، مضافاً ذلك كله إلى الثقافة والاقتصاد تلك هى أسس الصحافة الأولى .

فالذى أحرزته أنا وصاحبى هو المال والثقافة ، والذى فقدناه هو الموهبة الفنية فى الصحافة والصبر على احتمال الضيم ، والاقتصاد المهيمن على إدارة الصحيفة ، ثم العقل الذى تعوزه الحكمة فى توجيه الإنسان ، لذلك نفد المال ، وطغى الجزع فلم يفد بعد ذلك العقل ولا الاقتصاد ، وكانت النكبة ، فوهبتى كانت الشعر وموهبة صاحبى الأدب ، لذلك عدنا بطبعنا إليهما وأرانى مع ما اختصنى الله به فى أيامى هذه مطمئناً إلى عملى ، متوفراً على حياتى ، وأما صاحبى فلا أدرى أين هو الآن ولا ماذا يصنع ..

هكذا يصدق قول الإمام عليه السلام فينا ، فلم نتفاد البطر والنعمى سابغة علينا ، ولم نستطع تفادى الفشل والبأساء قائمة فينا ، وإذا كنا نحن الموغلين فى الحياة إيغال خبير ماهر وقفنا خاشعين أمام هذه الحكمة ، فما هى حال من هم دوننا فى الفكر والتجارب ؟ فليتعظ من شاء أن يتعظ فان فى هذا البحث عظة صادقة ، ونصحاً قائماً على الحكمة والاخلاص .

لقد أردت بطيشى أن أصلح لبنان بمحاولتى إصلاح القائمين على الحكم فى لبنان فأخفقت وعدت مكسور الأصابع ، وأراد صاحبى إصلاح العراق بمحاولته إصلاح القائمين على الحكم فى العراق فأخفق وعاد مكسور الظهر ، ذلك لأن الشعب إذا فسد بفساد حكامه وأعرق الفساد فيه فلا يستطيع المصلح تقويمه بنفسه حتى يكون مؤيداً بالملائكة يقول له الله : اصدع بما تؤمر ..، والله يعصمك من الناس »

الا أن يتضامن مع أفراد من نوعه على الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة،ويقطعوا على ذلك زمناً عصيباً مراً،يسنون فيه خططاً لمن بعدهم فى سبيل إتمام رسالتهم فيكون مجموعهم فى أزمنتهم المتعاقبة رسالة كاملة توجه الإنسانية إلى الحق .

على أنى لا أنكر أن ثورتى وثورة صاحبى كان لهما أثر قيم فى بعث النفوس من سباتها العميق إلى يقظة كشفت عن أعينهم غشاء كثيفاً كان لولا هذه الثورة مديد الأجل ، وأصبح من تأثر بهذا البعث قوى البصر حى الضمير بين يدى ما يقترفه لصوص الأمة من زبانية الحكم ، وأصبح كثير من الناس على حذر إن لم يعصمه من جور الحكام فقد يجنبه طغيان هذا الجور ...

ولقد هزت ثورة « العزوبة » التى أنشأتها فى لبنان ، مشاعر أهل الجبل الذى أفتخر بانتمائى إليه وهو موطنى الحبيب « جبل عامل » فوجهت العلماء والزعماء بنقدها اللاذع المر إلى أن يتفادوا قسوتها وسلطان من يتأثر بها عليهم ، بأن خرج الأولون من جمودهم ، فأسس العلامة السيد محسن الأمين كليته فى الشام ، وأنشأ العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين كليته فى صور .

وخرج الآخرون ، وهم الزعماء ، من جحودهم وغطرستهم ، فعمل الساسة منهم على إصلاح مجتمعهم بالماء والكهرباء ، وتحسين الصحة وتعميم المدارس الحكومية ، بينما لم يكن قبل إنشاء العروبة ، شئ من ذلك ، وقد يكون الزمن باعثاً على هذا كله بتطوره ووعى أهليه ، إلا أن العروبة وصرخاتها عجلت بانبعاثه ودعمت بناءه ، وثبتت أركانه ، فكانت هى الباعث الأول على إرسال البعثات إلى المهاجرين العاملين فى أفريقيا وأمريكا لجبى الأموال فى سبيل الثقافة ونشرها على ربوع الوطن الأول لهم ، ثم كانت العروبة وصاحبها آخر الأمر هما كبش الفداء على أيدى المرقة من زعماء الجبل ، فكادوا لهما وتربصوا بهما الدوائر .

هذه نفثة بعثتها الذكرى الأليمة فى نفسى لذلك العهد المظلم الذى قطعته أيام شبابى وأنا أحمل لواء النهضة مع إخوانى من شباب « الإصلاح » فى بيروت ، ثم لم يكن كل ذلك إلا موجة من البعث سادها كثير من الإخلاص والتضحية مشوباً بشئ من الطيش والرعونة ، أسأل الله أن يكون فيما أفضت فيه وأنا مخلص ، حسنات يذهبن بسوء ما كان منى وأنا طائش ، على أنى أحمد الله ، إذ بطرت فى نعمائه ، أنى لم أفشل فى بأسائى ... وأعوذ بالله من أن أكون هلوعاً ، إذا مسنى الخير منوعا ، وإذا مسنى الشر جزوعا .

الله

... مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً

أحب أن أنقل للقارئ حول هذه الآية الكريمة ، نادرتين سمعت إحداهما على لسان العلامة السيد على فحص العاملى رحمه الله ، وكان فقيه بلدتنا زمناً ما ، فقد روى لنا فى بعض مجالسه نقلا عن بعض أئمة أهل البيت سلام الله عليهم ، لا أذكر اسمه ، قال :

كان يدخل على الإمام ... وهو فى أصحابه ، شاب مطاع فى زملائه ومرموق منهم ، فكان الإمام يقربه ويحترمه وقد يجلسه إلى جنبه على ما فيه من تحرر الشباب كحلق اللحية وإطلاق الشارب وغير ذلك من الهنات المعبر عنها باللمم ، فكانت تأخذ الغيرة بعض أصحاب الإمام على أن واساهم أو آثر عليهم جاهلا متحرراً ، وقد أحس الإمام بذلك منهم ولكنه لم يعاتبهم عليه حتى يحين الوقت الذى يشعرون معه بخطأهم فى الغيرة منه .

وفى وقت ما ، دخل على الإمام وهو فى مجلسه مع هؤلاء ، فقير بادى العوز ، فحرض الإمام أصحابه على إغنائه ، عملا بالكلمة المأثورة : إذا أعطيتم فأغنوا » وتبارى الجلساء فى العطف على المسكين ولكن هذا العطف لم يكشف عن أكثر من حفنة دراهم معدودات ، فوضعها الإمام بين يديه ثم كتب رقاً لذلك الشاب الذى آثره عليهم فى مجلسه يوماً ما ، وقال للفقير : ائتنى بما يعطيك دون أن تتصرف بشئ منه ، فذهب الفقير وسلم الرق للشاب فقرأه ثم قبله وعمد إلى صندوق فأخرج منه بدرة مملوءة بالدنانير عاد بها الرسول ووضعها بين يدى الإمام ، ففضها على مرأى من جلسائه ثم قال مشيراً إلى المال ومعرضاً : هذا هو الدين ، وتلا عليهم قوله تعالى : ... ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعا . »

وسمعت الثانية من أخى المرحوم الشيخ حسن الحومانى وقد كان من خطباء

الذكرى الحسينية فى بلدتنا حاروف ، وفى مفهوم خطيب هذه الذكرى أن يستطرد إلى عبر التاريخ مما فيه عظة للسامع لتكون الذكرى حافلة بالعلوم والآداب ، وهذه النادرة التى سمعتها من أخى ، وكان بالغ التأثير فى نفوس سامعيه وهو يخطب ، أقول : ان هذه النادرة هى مقتل سعيد بن جبير على يد الحجاج ابن يوسف .

وسعيد بن جبير هذا هو من أجلة الفقهاء الورعين فى العهد الأموى ، وقد كان صاحب الرسالة الأولى فى الجرأة بين يدى الحق أيام عبد الملك بن مروان وهو يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان سعاة بنى أمية يلازمون رواة الحديث عن النبى ليتقربوا إلى الولاة بمن يروى عنه فى فضل أهل بيته على وأبنائه ، وكان سعيد بن جبير لا يدخر وسعاً فى نشر فضائلهم فسعى به إلى الحجاج بن يوسف وكان والياً لعبد الملك على العراق ، والحجاج هذا كان ولا يزال التاريخ يضربه مثلا للعالم فى ظلمه وقسوته ، يقول أخى :

إستدعى الحجاج سعيد بن جبير التابعى المحدث وقد كان فى تقواه لله كالحجاج فى جرأته عليه ، فلما حضر بين يديه قال : ما اسمك ؟؟ فأجابه : سعيد بن جبير ، فقال الحجاج : بل أنت شقى بن كسير ، فأجابه : أن امى أخبر منك إذ سمتنى ، قال الحجاج : ما تقول فى على وأهل بيته أفى الجنة هم أم فى النار ؟؟ فقال سعيد : لو دخلتهما لعرفت من فيهما »

يقول سعيد ذلك تفادياً من القتل لأنه علم أن الحجاج قد أصر فى نفسه قتل كل من والى أهل بيت الرسول فى سبيل ولائه لآل مروان ، وإنما بعثه عبد الملك الأموى إلى العراق ليوطد له الملك وهو يعلم أن ملكه لا يستقيم فى العراق إلا على يد الحجاج وأمثاله ممن يبيعون دينهم بالدنيا .

واستمر الحجاج يستدرج سعيداً ليوقعه فى الفخ الذى نصبه له ، وهو حمله على الاعتراف بموالاة أهل البيت وأن الخلافة فى المسلمين لا تصلح إلا بهم ، فلم يظفر منه باعتراف ليدينه أمام من شهد قتله ، فان الناس فطروا على الجبن والتملق بين أيدى الحكام ، إذ لو جهر سعيد بموالاته لأهل البيت وصدع الحجاج بالحق لأخذ جلساؤه سعيداً باللائمة وقالوا : ماله وللتصريح المفضى به

إلى القتل ؟؟ أفلا يأخذ بالتقية القائمة على كتاب الله ؟؟ وهم يعلمون أن أعظم الجهاد : كلمة حق بين يدى حاكم جائر »

وهكذا كان أولئك فى مجلس معاوية يطعنون علياً وفى مجلس يزيد يطعنون حسيناً ليقربهم ذلك الطعن على النبى وآله زلفى إلى الرجس والإفك والسحت فى سبيل هذه الدنيا التى لا يفرق العقل فيها بين من تواليه وتعاديه إلا بفضل من طعام أو لباس يؤلان إلى الزوال . وحتى يومنا هذا نرى خلفاء أولئك المتملقين لذوى الدنيا والمتهافتين على حطامها بنيلهم من الرسول وأهل بيته يجرأون بذلك على تخطئة على فى حرب معاوية وتخطئة الحسين فى الخروج على يزيد .

يقول الحجاج الفاسق لسعيد التقى البار : بلغنى أنك تكثر البكاء وتمتهن الكآبة والحزن فى وعظك فلماذا ؟؟ هل حرم الله الضحك على يديك ؟؟ فوجم سعيد ولم يجب ، فقال له : اضحك ، ولتضحكن أو أعاقبك على أن لم تفعل ما أحله الله ، فقال سعيد : أيضحك امرؤ لغير ما سبب مضحك ؟؟ فأمر الحجاج بعزف الموسيقى وضرب المزاهر بين يدى سعيد ليخلق له سبباً يضحك من أجله فبكى سعيد وقال : « إنما الحياة الدنيا لهو ولعب » فأمر الحجاج بقتله فلما أخذ للقتل ضحك فأبلغ الحجاج بذلك فأمر برده وسأله عن سبب ضحكه ، فقال : لقد عجبت لحلم الله عليك وجرأتك عليه فضحكت .

فثار الحجاج مغضباً من قوله ثم أمر بقتله بين يديه ، فلما أضجعه الجلاد للقتل توجه إلى القبلة وقال : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ، فقال الحجاج أديروه لغير القبلة فأدير فقال سعيد : أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله ، فقال الحجاج كبوه على وجهه، فقال سعيد ووجهه إلى الأرض : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ثم فصل الجلاد رأسه فانتفضت الرأس قائمة وهى تقول : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله من بعدى ...

ويجمع أهل التاريخ على أن الحجاج لم يقتل أحداً بعد سعيد إذ مات بعد أربعين يوماً من قتله وهو يعانى مرضاً صرح فيه باضطراب نفسى على أثر قتله لسعيد ، وقد حكى بعض الأتقياء أنه رأى الحجاج فى الحلم فسأله عن مصيره

بعد موته فقال : لقد قتلنى الله بكل من قتلته إلا سعيد بن جبير فانى لاأزال أقتل به كل يوم » والأحلام مهما يكن أمرها فى الحكم على الحقائق فانها إنما تتولد مما تشعر به النفوس فى يقظتها ، فلولا اقتناعها بايمان سعيد وكفر الحجاج لما أدانت الحجاج فى الأحلام ..

أذكر أن مآت من المستمعين فى حفلة الذكرى إلى الخطيب وهو يقص عليهم حادثة الحجاج هذه مع سعيد ، أقول : ان مآت المستمعين ، وأنا فيهم ، خرجنا من مجلس الذكرى والدموع تحرق أجفاننا ، ثم لاأزال ، وأنا أقرب منهم جميعاً إلى الثقة بأن سعيداً ينعم بعد موته والحجاج يشقى ، لاأزال إلى يومى هذا أشعر بالكبت الذى يضغط نفسى ويضيق به صدرى من ذلك الحادث ، أفلا تصدق الآية بعد ذلك على أن من أمات نفساً فقد أمات الناس جميعـــا ؟؟ صدق الله العظيم .

والعجيب أن كثيراً من حملة الأقلام وخطباء المنابر أسمعهم وأقرأهم يشيدون بأعمال الحجاج هذا فى سلطان عبد الملك بن مروان ، وبأعمال زياد ابن أبيه وابنه عبيد الله فى سلطان معاوية وابنه يزيد ، ثم يتمحل هؤلاء الكتاب والمتكلمون فى تبرير أعمالهم ، بأن توطيد الملك دائماً يفتقر إلى الحزم والقوة دون التردد والضعف ، فكانت هذه الأعمال بطولة من أولئك الرجال ، وينسى هؤلاء الذين هم أعظم وصمة على الإنسانية ، ينسون أن الملك الموطد بغير حق يؤل إلى هدم العقل البشرى وتدمير الحياة الإنسانية فيما نسمع ونبصر .

محمد — الدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ

« أصبحتُ اللهم معتصمًا بذمامك المنيع الذى لا يحاوَل ولا يطاوَل ، من شر كل غاشم وطارق ، من سائر ما خلقت ومن خلقت ، من خلقك الصامت والناطق ... »

ما أسرع ما كنت أنهض صباح كل يوم أو فجره من فراشي وأنا أسمع صوت أبى يردد هذا الدعاء فى عقب صلاته الوسطى بين ليله ونهاره ، وما أسرع ما استظهرت هذا الدعاء غيباً وأنا فى حداثتى وقبل أن أحسن الكتابة والقراءة ، وهو دعاء طويل ينتهى بقول أحد أئمة أهل البيت : حجزت الأعادى عنى ببديع السموات والأرض ، « انا جعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

ولما قرأته على أبى تهلل وجهه فرحاً وقال : احتفظ بهذا الدعاء يا بنى فانه عصمة لك طوال نهارك ، فاذا أمسيت اقرأه وضع مكان « أصبحت » أمسيت ، فانه سيكون عصمة لك طوال ليلك .

وكنت لا أشك فى قول أبى ، لذلك نزلت على حكمه فى ترجيع هذا الدعاء صباح مساء ، وكنت بعد قرأءته أطمئن إلى لطف الله بى فى نهارى وأنا أعمل ، وفى ليلى وأنا أستجم ، وكنت أستمع إلى أبى وهو يقنت فى صلاته ويقول : إلهى : ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً فى جنتك ، ولكنى وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

كنت أسمعه يقول ذلك فأعجب وأتساءل مع نفسى : كيف لا يخاف من ناره ولا يطمع فى جنته ؟؟ ثم أسأله سر ذلك فيقول : هذا من كلام إمامك على وهو يعلمنا يا بنى بقوله هذا : أن أسمى أنواع العبادة لله ما كان قائماً على معرفة الله ، لا على الطمع فى ثوابه أو الخوف من عقابه ... »

وكان هذا الأب الصالح ، الذى إن كنت أشعر بلطف الله بى وعطفه

على فبفضله ، أقول : كان هذا الأب الذى علمنى الحياة وهو يستلهمها من تهجده فى ليله ، وتورعه فى نهاره : دون أن يدرس فى جامعة أو على معلم ، وإنما هى أيام درس فيها القراءة الأولى على شيخ كتّاب فى قريته الضاوية البعيدة عن كل علم ، لقد علمنى هذا الشيخ أن أحيا مطمئناً إلى دينى ودنياى ، ثم علمنى كيف أفرض على الناس محبتى واحترامى حيثما كنت ، بتقواه وزهده وتعقله فى كل ما يعيه من قول ، ويقوم به من عمل .

يقول لى : أكثر من الدعاء يا بنى ، فان فيه القربى إلى ربك ، والبعد عن الشيطان ، واحفظ ما استطعت حفظه مما كان يدعو الله به نبيك والقائمون على رسالته من بعده ، فان أقوالهم خرجت من أفواه لم يدنسها الإفك فيما تعلن وقلوب لم يتسرب إليها الشك فيما تسر ، ألا وإن فى دعاء « كميل » لإمامك على ، وفى صحيفة حفيده السجاد ، ما يغنيك عن أن تقول من عندك ، فانك غير بالغ ما بلغوه فى ذات الله »

وكنت أعمد ، وأنا لا أزال فى الكتاب ، إلى دعاء الأمام على وهو الذى أملاه على صاحبه كميل بن زياد ليقرأ عليه ليلة كل جمعة من كل أسبوع وهو ساجد ، فلا ينتهى من سجوده حتى ينتهى كميل من قراءة الدعاء ، وحتى يبتل مسجده من دموعه ، أقول : كنت أعمد إلى قراءة هذا الدعاء الطويل فأقرأ فيه قوله : اللهم اغفر لى الذنوب التى تهتك العصم ، اللهم اغفر لى الذنوب التى تنزل النقم » فأسأل أبى : أليس الإمام على معصوماً يا أبى ؟؟ فيقول لى : أجل انه من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فأسأله : وكيف يدعو الله أن يغفر له الذنوب ... وأى ذنوب للإمام مع افتراض عصمته ؟؟ فيجيبنى بقوله :

« ان الأنبياء والأولياء يعلموننا بألسنتهم كيف نقول : ؟؟ فليس قول الإمام : اللهم اغفر لى ذنبى ، برهاناً على أنه مذنب وإنما قوله هذا تشريع لنا نحن المذنبين ، وصورة من القول نتقرب إلى الله بها ، وسبيل نسلكها إليه ، أو لعل الإمام يشعر بتضاؤل حسناته بين يدى ما يدركه من عظمة خالقه فى نفسه ، حتى يرى تلك الحسنات حقيرة جداً أمام تلك العظمة فيعتبرها سيآت لقصورها

عن إيفاء تلك العظمة حقها من التقدير والتقديس »

لا أزال إلى ساعتي هذه أفكر في قول أبي وتخريجه الدعاء على هذا الوجه الأكمل ، اللائق بالنبي ووصيه ، فلا أجد في نفسي التي رضتها عشرات السنين في درس الحياة نظرياً وعملياً ، بينما أجد أبي في مستوى من العلم لا يتجاوز الدراسة الأولى ، أقول : لا أجد في نفسي تأويلاً أو تعليلاً لدعاء الإمام أسمى من ذلك التعليل التام عن فكر حاذق وعقل حصيف ..

كان أبي هذا يجلس بعد الصلاة صباح كل يوم ومساءه على فراش متواضع وتحت شجرة من الازدرخت كثيفة الظل في الصيف ، في منظرة تشرف من بيتنا على طريق القرية العام إلى الحقول ومصادر المياه ، وكنت أجلس إلى جنبه إذ كنت أصغر اخوتي الذين تفرقوا في البلدة بعد استقلالهم في الحياة ، وبقيت وحيداً مع أبوي في منزل قروي هزيل .

كنا نجلس ، والطريق أمام بيتنا مكتظ بالمارة يغادرون القرية بأبقارهم وآلات حصادهم ، والنساء تحمل الجرار لتستقي بها ، والرعاة الأحداث يتغنون خلف المواشي منذ طلائع الفجر ، وكان أبي كأنما يجلس لاستقبال هؤلاء جميعاً فلم يمرر بنا شيخ أو كهل أو شاب إلا وأسبغ التحية على أبي وتبرك بتقبيل يديه ملتمساً دعاءه ، فلا تسمع إلا باسم الشيخ أبي الحسن يتردد في أفواههم .

وهكذا كان أبي يجلس مساءه على هذه المصطبة ويفد عليه جل أهل القرية وفي طليعتهم الأدباء والشعراء ليقضوا معه سمر الصيف حافلاً بأذكار الليل وأوراده ليالي الجمع والأشهر الحرم ، وليالي الصيام وعشر المحرم ، فاذا انفض العامة منهم عمر المجلس بالخاصة من إخوتي وزملائهم الأدباء يستمرون في مساجلة الشعر ومطارحة الأدب حتى ساعة متأخرة من الليل .

هكذا كان أبي من وراء تقواه محترماً في أهله وعشيرته وقومه ، لا يقطعون أمراً دون مشورته ، ولا يزمعون سفراً أو يؤوبون منه إلا بادئين بوداعه وخاتمين بالسلام عليه ، حتى لم يخرج من دنياه إلا وقد ترك في نفس كل منهم حسرة على أن لا يظفروا بأمين على تراثهم الديني بعده ، وحتى ترك بينهم من آثاره الدينية والعلمية مسجداً ونادياً ومدرسة يذكرونه فيهما كلما اجتمعوا لعلم أو عبادة ،

فيسبق كل قول منهم النداء بالرحمة على روحه واستغفار الله له ، فهل هنالك ثروة للإنسان يتمتع بها فى حياته ويدخرها لنفسه ولأهله من بعده ، اسمى أثراً وأجل قدراً من هذه الثروة ؟؟

لقد مات إخوتى وهم مغمورون بعطف قومى عليهم من وراء ذلك الشيخ ، ولا أزال أنا مرموقاً فيهم وقريباً من قلوبهم ، ومبثوثاً على ألسنتهم من وراء ذلك الشيخ ، بينما لا أجد فى ذاتى ما يمت بى إليه فى تقوى نزيهة ، وصلاح خالص من شوائب الحياة ، فهل يطمح الإنسان فى رواحه وغدوه ، فى مسائه وصباحه ، فى حله وترحاله ، فى حياته كلها ، هل يطمح إلى نعيم أبقى من هذا النعيم ، وخلود أبقى من هذا الخلود ؟؟ تلك هى الإنسانية الكاملة من وراء الدين .

لقد قطع أبى شبابه يعمل فى بناء الدور ليستغنى عن الناس ، فلما أجاز شبابه إلى الكهولة ضعف عن البناء ، فانصرف إلى زخرفة البيوت بالمخادع والمحامل ، ثم ضعف عن هذه فانصرف مع زميل له ، يدعى أمين أحمد ، إلى فتح كتاب لتعليم النشء قراءة القرآن وتعليم الخط ومبادئ الحساب ، مضافاً ذلك كله إلى صنع الأحذية ليتوفرا على الكسب المغنى عن الفقر ، ولما علته الشيخوخة جلس للوعظ والإرشاد والإصلاح بين الناس ، فما اختلف اثنان إلا كان ثالثهما فى الفصل بينهما ، فلم يفتقر فى حياته قط ، ولم يكن من الغنى إلا حيث كان أصحاب رسول الله الذى كان من دنياهم مكان الماء الجارى من التراب والحصى يكسوهما نظرة الحياة وهو فى سبيله إلى البحر أو إلى السماء ... فهل يطمع الجاد منا فى دنياه ، ليله ونهاره ، بأكثر مما نال هؤلاء من وراء الدين ؟؟

إنى لأذكر أن بيتنا ذلك الهزيل كان لا يخلو يوماً من الألبان والأجبان والأسمان ، هدايا تتراكم على أبى ، أما اليوم ، وأنا فى قصر شاهق ، والأموال تتدفق على ، ثم تطوف خادمى القرية فى سبيل كوب من اللبن بالغاً ثمنه ما بلغ ، فلا تظفر به ، ذلك لأن ثمنه على عهد أبى كان من الدين ، وأما ثمنه على عهدى فكان من الدنيا ، فهل بعد هذا كله نتساءل : عما ذا يفعل الدين ، وبماذا يفيد أهله ؟؟ ان الدين هو الحياة ، يحبب أهله للناس ، ويعصمهم من شرور الناس ويغنيهم عن الناس . أفليست هذه هى الحياة ؟؟ ثم أليس الدعاء من العبادة

بمنزلة الرأس من البدن ؟؟ لقد صدق رسول الله إذ قال : الدعاء مخ العبادة .

وإنما كان الدعاء من العبادة هذه المكانة لأن الدعاء هو الصلة الأولى بين العبد وربه فى العبادة ، فكل دعاء عبادة ولا عكس ، إذ يكون غير الدعاء أحياناً عبادة كحسن المعاملة بين الإنسان والإنسان فانها صلة بين العبد وربه ولكنها غير مباشرة لأنها صلة بين الإنسان والإنسان أولا ثم هى صلة بينه وبين ربه ثانياً ، وفى الكتاب الكريم : قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم .

علي أَلا وَإنَّ الشَّجَرَةَ البَرِّيَّةَ أَصلَبُ عُوداً ، وَأَذْكَى وَقُوداً ، وَأَبْطَأُ خُمُوداً

قالها الإمام إذ شعر بأن قوماً يقول قائلهم : إذا كان طعام ابن أبى طالب قاصراً على القد ولباسه قاصراً على الطمر ، فقد ضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان »

وهى من كتاب بعث به إلى عامله على البصرة وقد بلغه تلبية هذا العامل لوليمة أقامها الخاصة من قومه ، فأنكر عليه الإمام هذا التهافت فقال : « ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو ، وغنيهم مدعو »

والبحث هنا يدور حول هاتين الكلمتين اللتين تكتنفان هذه المقدمة بدءاً وختاماً ، أما أولا : فقد كنى بالشجرة البرية عن الحياة البسيطة التى هى قاصرة على هواء نقى ، وماء طاهر ، وغذاء نزيه ، فالهواء النقى هو الخالص من جراثيم الأفق الذى تتخلله ، كالجو الموبوء بالجراثيم المتصاعدة من حظائر الإنسان والحيوان ، والماء الطاهر هو ماء السماء الذى يغذى الحياة بغير واسطة الإنسان الملوثة بأقذاره وأوضاره ، والغذاء النزيه هو البرئ من الترف البالغ ، لشدة وطئه على المعدة ، وثقل تركيبه على الدم الهاضم ، فكلما كان بسيطاً سهل هضمه ، وكلما ثقل عسر نضجه ، فقوام الحياة هو عملية الهضم لا كثافة المواد القائمة عليه ، فبساطة العيش مع راحة الجهاز الهضمى يفضى إلى نقاء الدم وقدرته على مكافحة الجراثيم النافذة إليه من الجو الموبوء .

كل ذلك يعطى الحياة فى النبات والحيوان قوة لا تتوفر فيهما مع الهواء الفاسد ، والماء الملوث ، والغذاء الثقيل ، فينشأ النابت فى هذه الحياة صلب العود لا يكسر ، وذكى الوقود بطئ الخمود ، ولا فرق فى الحى القائم على هذه الصفات بين الحيوان والنبات لأن العناصر المقومة لها واحدة ، مؤلفة من الهواء والماء والغذاء ، وعلى صلاح هذه العناصر تتضاعف قوى الحى ، وعلى فسادها ينشأ الضعف المفضى به إلى الهزال فالتلاشى آخر الأمر .

يرمى الإمام سلام الله عليه من وراء ذلك إلى نفسه الجبارة القائمة فى قوتها على بساطة العيش ، كما تقوم قوى الشجر البرى على بساطة الغذاء من التراب النزيه الذى لم يلوثه سماد الحيوان ، ولا عبث الإنسان ، فبساطة الغذاء تفضى بالجهاز الهضمى إلى الراحة فيستغنى عن كثافة الدم لتوليد الحرارة الهاضمة فيه ، وبذلك يتسنى للدم أن يصرف قواه إلى تنمية العصب الذى تقوم عليه صلابة العود وقوة الإرادة فى الحى ، بينما يفقد هذا العصب كثيراً من قواه بما يصرف الدم عنه إلى الجهاز الهضمى لإنضاج الغذاء الكثيف من أطائب الحياة .

فالأعصاب هى مركز الإرادة ، والإرادة هى مصدر القوة فى الحى ، ولقد أبدع وأسهب علماء النفس فى أن كل قوة خارقة فى الإنسان مردها إلى قوة الإرادة ، كالعين والسحر والشجاعة والعبقرية فى أى تبريز ، وعلى هذه القوة فى الإرادة البشرية نحمل شجاعة الإمام الجبارة وقوته المسيطرة على أعصاب من يناجزه حتى قال إذ قيل له : ان درعك قاصرة على الصدر فما تصنع بمصارعك إذا اغتالك من الخلف ولا درع لك ، فقال : ان تمكن عدوى من ظهرى فلا أبقى الله عليه إن أبقى على .. »

وكان يقول ، إذا قيل له : بم تصرع كل مبارز لك ؟؟ يقول : أصرعه بأنه يثق كما أثق من أنى سأصرعه ، فهو معين لى على نفسه ، وأنا ونفسه عليه » وهذا ناشئ فى الإمام عن قوة إرادته وتصميمه وثقته بنفسه ، وقوة هذه الإرادة ناشئة عن قوة أعصابه التى هى مبعث الإرادة ، وقوة هذه الأعصاب صادرة عن قوة الدم القائم على تغذيتها وتنميتها دون أن يحول بينهما حائل من جهاز الهضم الذى يستعين بحرارته كلما أجهدته التخم ليجرق سمومها بكثافة الدم المتدفق إليه من بقية الأعضاء .

وأما ثانياً : فلقد من الله على بأن فتحت عينى على أدب الإمام وأنا صبى حدث ، إذ درست ابن أبى الحديد المعتزلى فى شرحه لنهج البلاغة وتعليقه عليه ، وإعجابه به ، فكان ذلك باعثاً لشعورى العميق بعظمة هذا الأدب ، وسحر بيانه . وكان من بلاء الله لى قوة هذا الإحساس الذى منيت به منذ حداثتى فى النقمة على ما يستفز الإمام فى خلقه الرفيع ودينه القويم ، من جشع الإنسان

وبغيه على الحق ، وطغيانه بين يدى نفسه الأمارة بالسوء .

فقد تتلخص ثورة الإمام فى كلامه وخطبه ورسائله ، بنقمته على هذا النوع من بنى الإنسان : جاهل متنسك ، أو عالم متهتك ، أو حاكم جشع فى سلطان جائر . ولقد تأثرت بأدب الإمام هذا قبل أن أفقه الحياة ، ويشاء الله أن أنشأ فى فقهها متأثراً خطاه ، فاذا بكل ما يصدر عنى من أدب أو فن بلسانى أو قلمى ، متسما بهذا الطابع المشبع بروح النقد اللاذع والسخط البالغ على كل وضع جائر فى الحكم ، وكل فقه قائم على التدجيل والتضليل .

ومن قرأ شعرى كله ونثرى جله ، يدرك مبلغ هذا التأثر ، ثم من وقف على المجلدات الأربعة من مجلتى « العروبة » يعلم إلى أى مدى خضت فى هذا التأثر بين يدى نقمتى على المجتمع العربى العام ، والخاص بى فى وطنى الأول « جبل عامل » فهو خلاصة ما شحنت به الطبيعة والوراثة والدراسة صدرى من آلام وآمال فى الحياة .

وعوداً على بدء أقول : كم يلمس القارئ لقول الإمام وهو يؤنب عامله بقوله : ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » أقول : كم يلمس القارئ فى هذه الجملة من حقد على العادات الخسيسة التى طبع الإنسان الفاشل فى حياته عليها ؟؟ فاسمع ما يتحدث إلى به صديقى حسنى تللو أيام وجودى فى دمشق وأنا ضيف عليه ليلة ما ، يقول :

« كنت أزور مصر بدعوة من الأمير « يوسف كمال » أحد نبلاء الأسرة المالكة على ضفاف النيل ، وهو من الإقطاعيين الذين يفوت الحصر ما يملكونه من مال وأطيان ، وكان ينفق هذا النبيل على مائدته من ماء « الفيجة » المستورد من فرنسا ، ثمانين جنيهاً فى الشهر ، إذ لا يعجبه أن يشرب أو يسقى ضيوفه من ماء النيل المبارك ، وكان سماطه كل يوم يمد لبضعة عشر نفراً على شاكلته ، ولكنك إذ تراه تحسبه قد امتد لمآت من الآكلين ، وتكاد عينك تحار فى التنقل على المائدة بين الخراف والطيور وغيرها من أطائب الطعام والشراب »

« وليس الغريب فيما أنقله لك هو هذا ، ولكن الغريب هو أن المائدة بعد فراغ الآكلين تباح للكلاب التى يقتنيها « البرنس » من أجل الصيد ، ثم بعد

ذلك يُرفع الطعام ويُكفأ على عروق الشجر فى الحديقة ليستحيل سماداً لها ، بينما كنت أرى عشرات الخدم والحشم ينظرون إلى الطعام بأعينهم ولا تناله أيديهم ، وكنت أعلم أنهم لا يحلمون بتذوق مثله لأن أجر العامل المصرى فى الشهر لا يتجاوز بضع جنيهات قد تقصر على تبليغه الخبز والماء »

« ولقد كان ذلك يؤذينى ويدعونى إلى الفضول بسؤال الأمير عن السبب الذى من أجله يطعم الكلاب ويحرم هذه النفوس الخاضعة له والمؤمنة بالله ؟؟ فكان جوابه لى : أنهم قد اعتادوا على أكل الفول فاذا أتحنا لهم هذه الأطائب أفسدنا عليهم حياتهم ، أفلا يكفى أنهم يعيشون ، وماذا يريدون وراء ذلك ، فان أمامهم الجنة فيها ما تشتهى أنفسهم وتلذه عيونهم ، وإذا اعتادوا فى دنياهم على ما يؤملونه فى أخراهم فما الذى يقف بهم عند الطاعة والقناعة ، وقد نشقى معهم آخر الأمر .. »

ويقول لى أحد أصدقائى فى العراق ونحن محدقون بخوان بعض الإقطاعيين وهو يحمل الخرفان على مدى ما ترى العين من قريب ، وقد تداعى أهل البلدة خارج المضيف ينتظرون فراغنا من المائدة ليتكاكؤا حولها ، فيدفعنى ذلك إلى شكر الله على أن كنت السبب فى إغاثة هؤلاء البؤساء ، فيقول لى ذلك الصديق : أنهم لا يطعمون بغير فنجال من قهوة البن ، قلت والطعام ؟؟ قال : انه يكفأ فى ضاحية البلدة حتى يربو كالتلال ويكون إعلاناً على مكارم الشيخ ، ولا يجروء على النيل منه أحد ثم لا تجد أهل بيت المضيف يتبلغون به بعد فراغ الضيوف ، لأن فى ذلك سبة عليهم ويكتفون بأكل الخبز فقط ، على أن هذه العادة السيئة بدأت تتقلص بفضل الوعى الجديد ، وإن كانت لا تزال مرعية فى بعض القبائل من عشائر الجنوب »

أنا اليوم ، وأنا أسجل هذه السطور بين يدى هذا الفجر من يوم الجمعة الواقع فيه ٣ من شهر رجب لسنة ١٣٧٦ والموافق ٤ يناير كانون الثانى لسنة ١٩٥٧ ، أقول : أنا اليوم أقطن مصر الجديدة وهى إحدى ضواحى القاهرة وأفكر فى صدق الإمام بقوله ، وهو يعنى الطبقة الثرية من الناس أينما كانوا ، يقول : ان عائلهم مجفو ، وأن غنيهم مدعو » .

أفكر وأمعن فى التفكير بهذا الصنف من الناس كيف لم تدل دولتهم هذه منذ ثلاثة عشر قرناً ولعلها كانت كذلك منذ خلق الإنسان وكان فيه مثل أولئك ، نوع بشرى يتعالى على نوع آخر ، فلا يشعر بشعوره ولا يحيا حياته ، ماذا فعل الإسلام ، وقد قام على الطبقة الدنيا من أهله ؛ ليكافح الطبقة العليا منهم عن مجده وخلوده ؟؟

هذا الصنف من الناس لا يزال إلى اليوم ، يستغل الصنف المنحدر عنه بالعيش السابغ ثم يتعالى عليه ولا يخالطه مخالطة الإنسان للإنسان ، وإنما يعامله معاملة السيد للعبد بل معاملة الإنسان للحيوان ، وقد أحس محمد بهذا فقال قولته قبل ألف عام : ان الناس كأسنان المشط لافرق بين أحد وأحد إلا بالعمل الصالح » فماذا يقول محمد إذ يراهم اليوم ، وقد أصبح الفرق بينهم أوضح ما يكون بالعمل السيئ لا العمل الصالح ؟؟

طبقتان من الناس الذين ينتمون إلى محمد فى دينه الذى لا طبقات فيه ، إحداهما ، وهى الفاجرة الفاسقة عن أمره ، تقول ويقول معها الناس : إنها الطبقة العليا ، والثانية ، وهى المؤمنة الوادعة ، تقول ويقول الناس معها : انها الطبقة الدنيا ، تتعالى الأولى على الثانية فى كل ما تقول وتفعل ، حتى كأنهما فى عالمين يفصل أحدهما عن الآخر حاجز من حديد، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

لقد أصبحت من هذه الطبقة المسماة بالعليا ، لا من حيث الغنى ولا التعالى ، ولكن من حيث التفكير والتقدير الذى يجاملوننى فى خلواتهم وجلواتهم من أجله ، يخشون من وراء تفكيرى سلطان قلمى وصولة لسانى ، يدعوننى كل شهر بل كل أسبوع ، وقد ادعى كل يوم إلى مآدبهم فى أفراحهم وأتراحهم ، فلا أجد حول تلك المآدب إلا مزهو النفس بخيلائه ، يتبجح ويتحذلق ويتفيهق ثم يتمطى وقد يعفط ، ولا وسيلة له إلى ذلك إلا أن الله أعطاه فلم يشكر وحرم غيره فلم يكفر .

كلنا فى هذه المآدب نعالج البطون من التخم ، فلا نفكر فى الحاجب على الباب ، والساكن فى الكوخ ، والمتلفع بالمراقيع ، وهم يكدحون فى سبيل أولئك

ليظفروا بالخبز ولو من غير إدام ، طبقة الناس هذه منقطعة عن تلك حتى لتكاد تتميز عنها بالدقيق والجليل من الحياة ، فالغنى الذى يعيش بين الرياش فى حجرة نومه واستراحته ولهوه ولعبه ، ثم إذا خرج ركب سيارته وإذا دخل بيت غيره ، كأنما خرج من بيته إلى بيته ، وأوى من ماخوره إلى ماخوره .

أقول : هذا الذى يسرح ويمرح فى مقصورته ومقاصير من هم على مسلاخه من الطبقة « العليا » بين قصفهم ولهوهم ومجونهم وعبثهم بالحياة ، هؤلاءلايشعرون بالطبقة الدنيا كيف تعيش وكيف تحيا ؟؟ إذ خلت منها مسارحهم ومساربهم ، وخلت منهم أكواخها المظلمة وخصاصها الواهية ، فلا يرونهم وهم أكداس مكبلة مهملة فى المزارع وحول المصانع ، أكداس تجوع ليشبعوا ، وتعرى ليلبسوا ، وتظمأ ليرتووا ، وتشقى ليسعدوا ثم تحيا ليموتوا .

طبقتان : هذه تلبس الحرير والدمقس ، وتلك تتوارى خلف أطمارها البالية ، هذه تركب الخيول المطهمة والسيارات الفخمة ، وتلك تحملها أرجل حفاة متآكلة ، هذه تأكل أطائب العيش ، وتلك تأكل التراب ، فكيف تشعر تلك بهذه ، وكيف لا تفكر هذه بمصيرها مع تلك فتعتنق أسوأ مبادئ الشيوعية التى تنتقم لها منها وترد حقها فى الحياة عليها ؟؟

ان الشيوعية اليوم أصبحت هدف الطبقات الدنيا والوسطى للانتقام من الطبقات العليا بما امتازت به هذه عن تلك من حياة بالغة فى الترف والقصف واللهو ، لم تفكر معها بجامع الإنسانية بينها وبين هؤلاء المساكين الذين يشاركونها بؤس الحياة ولا تشاركهم فى نعيمها ، ان الطبقة العليا منا تقيم على أكتافنا قصورها ، وتنسج من أعصابنا أثاثها ورياشها ، ثم هى تنحت من قلوبنا أكوابها وأباريقها لتشرب وتأكل من دمائنا ودموعنا ، فكيف لا نفكر فى الشيوعية التى تنهج فى شريعتها نهج محمد الذى يخاطبه الشيوعى الشاعر بقوله :

حاشاك أن ترضى وأنت محمدٌ   أن تستغل جهود ألف يدٍ ، يدُ

الله

.. وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

صراط الله مستقيم لاريب فيه ، وأمره إيانا باتباعه واضح لاريب فيه ، ولكن الريب واقع فى تحديد هذه السبيل والنهج فى اتباعها ، فالفرق فى الإسلام كثيرة وإن تقلصت وضاق نطاقها فى الزمن الأخير حتى أصبحت معدودة بعد أن كانت واسعة النطاق حتى جاوزت السبعين ، ثم بدأت تنكمش بانكماش الحكم الإسلامى والسلطان فى أهله ، لأن الدين يزداد تشعبه كلما اتسع سلطانه ، ويتقلص كلما ضاقت رقعته ، والسبب فى ذلك سلخ السياسة عن الدين ، فان الدين إنما نزل على الإنسان ليسوسه ويوجهه وجهة الحق فى كل ما يقول ويفعل ، فاذا قصر عن ذلك كان من عمل الإنسان لا من عمل ربه .

والأمة إذا رأت الدين هو كل شئ ، تضافرت على تحديده ، وأما إذا حجرته فى المعابد وحالت بينه وبين الحياة ، لعبت به النفوس ، وعبثت فيه الأهواء ، لأنه أصبح فضولا فى دنيا الإنسان ، إذ كانت السياسة التى هى قوام دنياه معزولة عن دينه ، وبطل أن يكون هذا الدين هو المدرسة التى تؤهل الإنسان لسياسة الإنسان ، ولهذا نرى تعاليم الدين أبعد ما تكون عن رجال السياسة ؛ ولعل الجهر والتظاهر أو التفاخر بالتحلل من الدين أصبح خلقاً فى الساسة القائمين على توجيه العالم .

وانصراف الساسة عن الدين إلى الدنيا ، ثم انصراف الفقهاء عن الدنيا إلى الدين ، هو العلة الأولى فى العبث بالدين والدنيا معاً ، لأن العصمة لم تكتب لأحد من الناس ، والنفس أمارة بالسوء ، ذلك ما يبعث الساسة المتحللين من دينهم ، على اغواء الفقهاء العابثين بالدين من وراء جمودهم أو جحودهم فى سبيل حياتهم الدنيا ، من أجل ذلك نرى فى تاريخ الإسلام أن معاوية بن أبى

سفيان قد استقدم مآت من أصحاب رسول الله إليه وأغدق عليهم فاستجابوا له فى جل ما يريد من التحكم بالناس ، حتى استوزر بعضهم ، وولى البعض الآخر على الحكم بينما أجمع حماة الدين يومذاك على انحراف معاوية وخروجه على الخليفة صاحب الحق فى السلطان وهو على بن أبى طالب ، وبهذا حصل أول صدع فى الدين ، باختلاف أهله إلى فرقتين عثمانيين وعلويين .

وهكذا بدأت الشقة بين السياسة والدين تتسع وبدا الخلاف بين حملة الكتاب والسنة يتسع أيضاً تبعاً للسياسة ، وأخذت الفرقة تتشعب فى الإسلام باضطرار الساسة المارقين للفقهاء المنافقين أن يمعنوا فى تضليل العامة وحملها على تأييد سلطان وخذلان سلطان آخر ، فكان من وراء ذلك تعزيز الفرقة فى الدين وتعديد المذاهب والسبل المؤدية إلى الدينونة به .

أما الذين لم يتأثروا بالسلطان ، ولم يستجيبوا للساسة المارقين فأقل من قليل ، لأن الدنيا أقرب إلى الناس من الآخرة ، ولأن النفس المادية أقوى تأثيراً على الإنسان من العقل الروحانى ، لذلك كان تأثير هؤلاء المتحرجين ضعيفاً على الناس ، ومع شدة إيمانهم وتحرجهم فى الدين لم يسلموا من الانحراف بتأثير الماضى المظلم عليهم ، فان عهد عثمان ومعاوية ، ثم العهود الأموية والعباسية التى سبقت هؤلاء الأئمة ، قد ضللت تاريخ الإسلام بما دسه الدعاة لهم فى صميم الدين من فرية على الله وافتراء على رسوله .

فكان لا بد للبعيد عنهم أن يزل بما حمله التاريخ له من أقوال ضلله بها رواة مأجورون بحطام الدنيا ، حتى رأينا بعض هؤلاء الأئمة يتسامح فى الدين إلى حد الترحم على يزيد بن معاوية والرضى عن أبيه ، ويتشدد البعض الآخر فى الدين إلى حد النقمة على على لأنه قبل التحكيم فى حرب معاوية ، وعلى ابنه الحسين لأنه خرج على سلطان يزيد ، وحتى رأينا الإمام البخارى فى صحيحه المعتمد عند المسلمين يقبل الرواية عن الساسة المارقين من بنى أمية ، ويرفضها عن أهل بيت رسول الله ، فأية فرقة فى الإسلام أشد نكاية للحق من ذلك ؟؟ وهل كان هذا إلا بفصل السياسة عن الدين ؟؟

فلو أن سياسة الدين سادت المسلمين لسادوا العالم إلى نهاية العالم ، ولما

وجدنا فرقة باسم الإسلام تخرج على الإسلام ، والدين مصدر الوحدة لمعتنقيه فى العقيدة واللغة والآداب والسياسة . أما وحدة العقيدة فرب واحد ، وأما وحدة اللغة فلسان واحد ، وأما وحدة الآداب فطراز حياة واحد ، وأما وحدة السياسة فقانون واحد ، وقوام الإنسانية هو هذه الأربعة لا تفتقر معها إلى عنصر آخر .

فاختلاف العقيدة كان سبباً فى تعدد الأديان وهو اختلاف السبل فى تصور الخالق الذى هو مصدر تفكير المخلوق ، واختلاف اللغة كان سبباً فى تعدد القوميات ، وهو اختلاف السبل إلى تعايش سلمى واحد ، واختلاف الآداب كان سبباً فى تعدد الأفكار ، وهو اختلاف السبل إلى تصور حياة واحدة ، ثم نرى أن اختلاف السياسات يقضى إلى تعدد القوانين وهو اختلاف السبل إلى انتهاج حكم واحد ، وعلى ذلك كله بنى التنافس والتناحر ، وقامت العصبية ، واستفحلت الأنانيات فردية وجماعية ، وكانت الحياة فوضى ، وحال ذلك دون السير بالإنسانية إلى الأفق الكونى الرحب الذى يخلطها بغيرها من عوالم الوجود .

فتأخر الإنسانية وتقهقرها ، ثم استمرارها على هذا التقهقر حتى انحدرت إلى مستوى الحيوانات ، هذا التأخر وذلك التقهقر إنما نشأ عن تعدد السبل فى التماس الحياة ، وتعدد هذه السبل ناشئ عن تعدد الأديان ، فالفكر الإنسانى يطمح دائماً إلى ترقية الحياة وتنميتها ، فاذا وقف دون طموحه تعدد السبل إلى التماس الحياة ، قطع شطراً من قواه فى اكتناه تلك السبل وتخير الصالح منها ، ولعل هذا الاكتناه هو كل أجل ذلك الفكر ، فما ينتهى من تعليل السبل واختيار الصالح منها حتى يكون قد فقد الصالح من قواه .

فالله يريد لنا الحياة ، ونحن نريد الموت ، لأن الحياة ليست زمناً محدوداً وإنما هى خلود ، فاذا أنزل علينا الشرائع من لدنه ، فانما يريد لنا الوحدة النوعية التى كانت سبب أزليته فى وحدته الفردية ، وهذه الوحدة فى النوع إنما تقوم على الرقى المستمر الناشئ عن وحدة الدين القائمة على وحدانية العقيدة واللغة والآداب والسياسة ، فاذا اختلت عناصر هذه الوحدة ، حال ذلك دون استمرار النوع فى الرقى ، فكان ذلك سبباً للتقهقر الإنسانى المفضى بنوع الإنسان إلى

افتقاره لحياة يشارك فيها العوالم الدنيا كالنبات والحيوان والجماد .

ولهذا كله نرى الإنسان يصعد فى بعض العصور إلى حيث يشرف على الخلود أو يتنسم ريحه، ثم نراه فى بعض عصوره ينحدر إلى حيث يشارك الحيوان فى حياته ، ذلك لأنه أفنى قواه العقلية فى الحيرة بين اختلاف السبل المفضية به إلى الحياة ، فلو سادت الوحدة هذه السبل لما كانت الحيرة ، ولتوفرت قواه على استمراره فى الرقى المفضى به إلى الخلود النوعى فالخلود الفردى آخر الأمر ، لأن خلود النوع هو الطريق إلى خلود الفرد المنشود .

فما لم يرق النوع لا يرقى الفرد وإذا لم يرق الفرد لا يصل الى الخلود المعبر عنه بالجنة حيناً وبالفردوس الأعلى حيناً آخر ، ورقى النوع الذى هو أساس لرقى الفرد ، إنما يقوم على وحدة الدين فى العالم ، فان اختلاف الأفراد التى تشكل النوع فى مصيرهم إلى الحق هو الحائل الأول دون بلوغهم ذلك الحق ، وكما أن تشعب الطرق إلى الهدف يستهلك حياة السالك إليه قبل بلوغه ، إذ المفروض فى تخير الطريق المستقيم إلى الغاية ، البحث والتفكير وقد يقطع السالك حياته فى هذا التفكير و ذلك البحث قبل أن يشخص إلى الغاية من بحثه وتفكيره :

فلينظر المفكر إلى أى مدى تذهب جهود الإنسان فى طلب الحياة من وراء اختلاف العقائد واللغات والآداب والسياسات ؟؟ المعبر عنها باختلاف الدين ، وكم يضحى الإنسان من وقته فى عالم متعدد اللغات والقوميات والآداب والعقائد ، ولنمسك هذا الفرد العربى الذى يلتمس الحياة ، وكيف يصلها ؟؟ فقد يصرف الشطر الأكبر من حياته فى دراسة لغة غير لغته ليتعلم أدباً غير أدبه أو فناً غير فنه أو قانوناً غير قانونه فى سبيل تخرجه أديباً أو فناناً أو محامياً أو طبيباً ،

وكم تحتاج كل أمة إلى إمكانيات تستطيع معها تثقيف أبنائها تثقيفاً كاملا يضمن لها الحياة ؟؟ وكم يحتاج كل فرد من كل أمة إلى تضحية بماله ووقته فى سبيل هجرته إلى أمريكا أو أوروبا ابتغاء ذلك ؟؟ فلو كان الدين واحداً لكانت اللغة واحدة ولزالت العصبيات فزالت القوميات بزوالها ، ولسادت الوحدة العالم آخر الأمر ، فكان من وراء ذلك كله رقى يضمن للإنسانية خلود النوع المفضى بأفرادها إلى حظيرة الخلود .

كم تبذل كل أمة من جهود فى ترقية لغتها من وراء تعدد اللغات فى العالم ؟؟
وكم تبذل كل أمة من جهود فى سبيل قوميتها من وراء العصبيات القومية ؟؟
ثم كم تبذل من جهود فى المحافظة على هذه القومية ؟؟ أفلا نسمع ونرى هذا التناحر الذى يهدد العالم فى كل لحظة بالدمار والفناء ؟؟ أفلا نسمع ونرى وقف الجهود العقلية فى نوع الإنسان على تدمير الإنسان من وراء تعدد القوميات الناشئة عن عصبية الإنسان لقومه أو لغته أو بلده ؟؟ فلو كان العالم كله وحدة دين لكان وحدة لغة وعقيدة وسياسة وآداب ، ولوفر على العقل البشرى جهوداً كثيرة يكرسها مع الوحدة للعمل على رقى الإنسان إلى عالم الخلود .

ويتمثل صدق هذا البحث فى الأمم التى عملت بهذه الوحدة كالولايات المتحدة وكالاتحاد السوفياتى ، فانهما حققتا فى رقعتهما وحدة العقيدة ووحدة السياسة ووحدة اللغة ووحدة القومية ، فكانتا بذلك سيدتى عالم الأرض اليوم ، وقد أخفقت بريطانيا وفرنسا وأسبانيا قبلهما فى تلمس أسباب هذه السيادة عن طريق وحدة اللغة والسياسة إذ فاتها وحدة العقيدة والقومية ، فلم تواس بين البريطانى أو الافرنسى الأصيل وبين غيره من رعاياها الطارئين ، وإنما جعلت ممالكها اتحاداً لا وحدة ، وجعلت للأصيل من رعاياها ميزة على الطارئ تكاد تمثل السادة والعبيد ، بينما نجد أمريكا حتى الآن تكافح هذه الفروق بين رعاياها ، ونجد فرنسا وبريطانيا حتى اليوم تمعن فى توثيق هذه الفروق . فكانت عاقبة هؤلاء الانحلال وعاقبة أولائك التماسك والصمود .

إن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »
صدق الله العظيم .

محمد ﷺ اتَّقُوا دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ

كنت أيام وجودى فى العراق أواخر الحرب العالمية الثانية ، كنت أختلف إلى معاهد التدريس بين بغداد والمدن الثلاثة التى تضم رفات أهل بيت الرسول : النجف وكربلاء ، ثم الكاظمية ، أقول : كنت أختلف إلى معاهد العلم فى هذه المدن لأضع نواة كتابى : « وحى الرافدين » عن حركة العلم فى العـــراق قديمه وحديثه .

ولقد راعنى فى أحد هذه المعاهد من إحدى تلك المدن شيخ جليل وقفنى الحوض فيه على سمو فى الشخصية لم أجدها فى غيره من زملائه فى تلك المدينة ، كنت مأخوذاً منه قبل كل شئ ، بسمو البيان وهو يقرر بحثه ، ثم بطلاقة الوجه وسحر الابتسامة ووداعة الروح وهو يتحدث إلى جليسه ، وكنت طوال أيامى فى هذه البلدة الحبيبة إلى نفسى برفات من تضم من أهل البيت ، لا يفوتنى صباح أطالع منه جمال تلك الشخصية وجلالها فى مسجد الإمام ، أو فى منتدى هذا الرجل الذى يملك النفوس بشخصيته هذه .

ويا لتينك العينين كم كانتا تؤثران فى نفسى وهما تشعان على من نور الإيمان ، ودماثة الخلق ، ورقة الطبع مما جعلنى أطمئن إلى أن مادة الكتاب الذى أنا فى سبيل وضعه ، غنية بالحق من سيرة هذا الرجل ، ولقد كنت مطمئناً حقاً إلى ما نقلت عنه وقلت فيه ، وكان شخصه أحد الأعلام التى قام عليها الجزء الأول من كتاب وحى الرافدين .

وكان يأسرنى فى مجلسه أحد أنجاله وهو يسترسل فى الحديث عما رأى فى العالم الغربى من غرائب حيث كان يدرس للدكتوراه ، وكان هذا الشاب مبيناً فى حديثه ، صريحاً فى حكمه على الأحداث ، متحللا من كل ما يقيده به العرف من مجاملة أو رياء ، وكان حسن النكتة خفيفاً على روح جليسه ، حاذقاً فيما

يقص ويستطرف من فكاهة أو نادرة ، حافل القلب والوجه واللسان بكل ما يمت به إلى ذلك الشيخ الجليل من نسب .

وكنت طوال أعوامى الخمسة التى أزور فيها العراق لإخراج كتبى الثلاثة : وحى الرافدين ، وبين النهرين ، ومن يسمع ، كنت كثير الذكرى لهذا الأب وذلك الابن ، وأود لو أن بينهما روح القدس لتتم عناصر اللاهوت المهيمن على العالم ، وكنت أول ما أطأ شاطئ دجلة أجعل همى النزول فى تلك البلدة التى أصبح فيها وأمسى جليس هذا الشيخ وإلى جنبه ذلك الشاب ، دونما سبب إلا أنى أحببتهما لما فطرا عليه معاً من مزايا تتصل بنفسى ، جلال القدم فى الشيخ وجمال الجدة فى الشاب ، وقد كنت ولا أزال مفتوناً بهاتين الخلتين أطويهما فى صدرى ما حييت .

ويمر بى عام بعد إنجاز هذه الكتب فاذا بى أسمع ، ويا هول ما سمعت ، ان هذا الشيخ الذى أسر نفسى بجماله وجلاله ، يعانى سكرات الموت فى لبنان ، وقريباً من بلدى فاهرع إلى حيث يتولى تمريضه صديق له من كبار الفقهاء الذين زاملهم أيام دراسته الأولى ، وأدخل عليه حجرته وهو مسجى فى فراش احتضاره ، وقد سبقنى إليه من أعلمه بى ففتح عينيه ولكنه لم يكد يرانى ، فاضطربت لمنظره المخيف بسواد وجهه ، وتقلص شفتيه ، وانطفاء عينيه ، كأن لم يرعنى فمه أمس بتلك الابتسامة ، ولم تأسرنى عيناه بذلك الإشراق ، وعبثاً حاولت أن أملك عبرتى ونشيجى بينما كنت واثقاً أنه لم يشعر بى ، وأنه مشغول عنى بهول ما يقدم عليه ، ثم لم تمرر بى تلك الليلة حتى علمت بفراقه الحياة .

وبعد عام أو أقل أو أكثر قليلا سمعت بأن ذلك الشاب الطريف الغصن ، والعذب الحديث ، والذى كان يطارحنى إلى جنب أبيه الشيخ روعة الأدب ، وحصافة الرأى ، وسحر النكتة ، سمعت بأن داء أعيى الأطباء قد نزل به ، فأفقده وعيه ولبث أياماً لم يهجع فى لياليها طرفة عين وهو يصيح ويستغيث ولم يقو طبيب على تشخيص دائه ، كما لم يدرك طبيب قبله علة أبيه ، حتى لحق به ، فلم أكن للنبأ الأخير بأقل ذعراً ورهبة منى للنبأ الأول ، وبقيت سنين ثلاثاً على ذكرى أليمة لهذين الحادثين اللذين لم يسبقهما حدث ترك فى نفسى ما تركاه من أثر .

وتدور الأيام فاذا بى على ضفاف النيل فى مصر مع ثلة من الأصدقاء العراقيين وفيهم الدكتور عبد الرزاق محى الدين ، ويكون حديثنا هذه المأساة إذ قلت له : ألا تنبئنى عن سبب هذه الفاجعة التى أذعرتنى زمناً ليس بالقصير ، كيف كانت ؟؟ وفيم حدثت ؟؟ فطوت شيخاً لم يجز كهولته ، وقصفت شاباً لم يجز عنفوانه ، ولما يزل فى أيام عرسه ؟؟

أفهم أن لكل موت سبباً ، ولكنى لم أفهم لموت هذين بهذا الشكل من سبب ، لا الطبيب أدرك العلة ، ولا المريض أفصح عنها ، ولا العائد خرج من عيادتهما وهو مطمئن إلى أن موتهما كان بقضاء وقدر ، فهز صديقى رأسه ثم قال : أتحب أن تسمع السبب فى موت هذين ومعهما عقيلة الشيخ لماذا فاجأهما الموت فى غير أجل ، وعلى غير انتظار ؟؟ فقلت : أى والله انى لأرجو أن أسمع ذلك منك . فقال :

لقد علق هذا الشاب أول صباه فتاة كانت تخدم أهله ، وكانت ، كما سمعت ، على قسط وافر من الجمال والفتنة ، وحاول الشاب أن يغويها فأبت عليه ، وأصر فاستعصت واعتصمت بعفافها فكان ذلك أدعى لأن يتهالك الشاب عليها ويتدله فى حبها ، وصارحها أخيراً بأنه بجد فى حبها ولا يضمر لها السوء ، فصارحته هى أيضاً بأنها ليست متعة ولكنها فتاة حرة تريد أن تكون زوجة فان شاء كانت له كذلك .

فتهيب الشاب وعدها بالزواج لأنه يعلم أن ذلك يغضب أهله فستوى أسرة الفتاة ينحدر عن مستوى أسرته ،وعبثاً حاول أن يتزوجها سراً ويترك إعلان الزواج لظروف المستقبل ، فلم تستجب له إلا أن يخطبها أبوه وأمه ، ويكون عرسهما عرس زوجين كريمين متكافئين ، ثم عبثاً حاول بعد ذلك أن يصبر عنها حتى أشرف على التدله فى حبها فعمد إلى مصارحة أبيه وأمه ، وأعمل قواه الفكرية ، وأسلوبه المقنع فى استرضائهما فلم يفلح ، وأخيراً أعمل الوساطة من خارج الدار متذرعاً بأصدقاء أبيه وأمه حتى نجح فى أن يكون القران قاصراً على أسرته الادنين دون إعلانه فى المدينة ، وقنعت الفتاة بذلك وكان العرس ثم كان الزفاف ومر بالعروسين سنون أغدقت عليهما بنين وبنات نشأ معهم للأبوين أسرة جملت

الأب على الاستقلال عن أبويه فاستقل بزوجه وبنيه .

ويفيق أبو الأسرة الجديدة ، بعد أن جاز القمة من شبابه أو كاد ، على أن زوجه لاتشبع نهمه الجنسى ، وأنه فى حاجة ماسة إلى تجربة ثانية يتذوق بها فتاة الخدر والقصر بعد أن ذاق فتاة الكوخ والفقر ، والمرأة إذا انكشفت عن عدة بنين أفل عنها الجمال الذى تأسر به قلوب الرجال ، فأحست ذلك منه وعرفت أن زهرتها قد أشرفت على الذبول ، وأنه لم يبق عندها ما تغويه به من لون ولا عطر ، وأنها لم تفلح فى استهوائه بما أثمرت منه ، صبية كحب الجمان يتلألأ بين يديه . فطوت كشحها وأغضت على مضض تسبغ حنانها على فلذ كبدها وتعاشره بالحسنى دون أن تحرج صدره أو تثير حفيظته .

ورجع هو إلى أبويه يصوبهما فيما رأياه من قبل إذ حاولا جهدهما أن يقنعاه بالعدول عما فكر فيه من الزواج بمن لا يدنيها منه شرف النسب ولا نبل المحتد ، فأقر بخطأه وعمد إلى استعانتهما على الزواج من فتاة نبيلة تنجب له أولاداً نبلاء ، فنزلا على حكمه واستعرضا بيوت الأسر الرفيعة حتى وقفوا على أسرة فى لبنان عريقة النبل ، كأسرتهم أو قريبة منها ، ويذهب الشيخ بنفسه ، على جلالة قدره ، لإنجاز الخطبة مستجيباً للأم وللنعرة القائمة على العصبية الجاهلية .

يذهب هذا الشيخ بنفسه تاركاً جماعته الذين يأتمون به فى الصلاة كل يوم ، وتاركاً تلامذته الذين يدرسون عليه فقه آل محمد ، للسعى فى أمر أقل ما يقال فيه ، أنه تشريد أسرة مؤلفة من أولاد صبية لا يزالون كزهر الروض المطلول ، ومن أم يصفها نساء البلدة بأنها خير أم عرفها جمالا وكمالا ، وتم الخطبة على أن يكون القران مشروطاً بطلاق الزوجة الأولى ويجرى الطلاق فى ندوة الشيخ ، وتؤمر الأم بأن تخرج من البيت دون أن ترى زوجها أو أن تصحب ولدها ، أو أن تتزود بشئ من المال مقابل مهرها الذى تنازلت عنه يوم زواجها حباً بالزوج واسترضاء لأمه وأبيه ، فخرجت هائمة على وجهها لاتدرى أين تذهب؟

ولكنها وهى تمسح دموعها ، وتفكر فى مصيرها إلى حيث لا أب ولا أم ، ولا قريب ولا عشير ، انها شريدة وربيبة فقر وبؤس ، أوتمت على صغر ، والتقطها أبوا زوجها لتخدم فتأكل ، فاطمأنت ونجبت آنذاك ثم أنجبت وكان

لها هذا المصير المحتوم ، ذهبت تفكر فهداها تفكيرها إلى المسجد الذى يضم رفات الأئمة من أهل البيت ، لتشكو إلى ربها ظلامتها ، وما أسرع ما لبث هذه العقيدة الراسخة فى النفوس المطمئنة المؤمنة الحية ، حتى إذا دخلت المشهد ، وقفت حيال رأس الإمام تستقبل الكعبة ودموعها تغشى عينيها من أن ترى ، وقلبها يسبق لسانها بالدعاء ، والله قريب من داعيه ، وسامع شكوى المظلوم المؤمن به والمقبل عليه .

وتغادر المسجد فتلقى إحدى صواحبها خارجة فتبثها حزنها وترثى صديقتها لها فتصحبها إلى منزلها ثم تبحث شأنها مع أسرتها على أن يسعوا بها إلى أهل الزوج فى سبيل إغاثتها ، وأنها تتنازل عن زوجها على أن تضم أولادها إليها وتكون خادماً لهم تحدب عليهم وتعيش معهم أبسط العيش ، فيرفض الأبوان ويعلنان تعاليهما على تربية الزوجة هذه لأولادهم إذ ليس لها ما يؤهلها لأن ينشأ فى حجرها ولد منهم .

وتستعين بعد ذلك بصديقتها على اكتراء حجرة فى بيت متواضع تعمل فيه بيدها ما أتقنته فى صباها من حياكة القلانس والجوارب ، ثم انقطعت إلى البكاء ، وهى تعمل ، دائبة على بث حزنها وشكواها إلى الله فى مشهد الإمام صباح مساء . ويتحدث عنها نساء البلدة أنها قطعت ذلك العام وهى تنسج وتنشج لم ترقأ لها عبرة ، ولا جف لها جفن ، حتى انتهى العام بموت أم الزوج ، وقد كانت أقسى أهل البيت عليها ، ثم تبعه موت الأب كما رأيت ، وتبعهما موت الابن الشاب بعد أن عقد وأعرس وأولد السنة الأولى . فكانت هذه الفاجعة بعلم كل من عرف الزوج وأهله ، أنها نشأت عن ظلمهم لتلك الفتاة الشقية البائسة ، وأن الله قد شاء رد ظلامتها . وعرف حتى من بقى من الأسرة سر هذه المأساة فأعاد هذه الأم إلى أولادها وأجرى عليهم من مال الزوج ما يضمن لهم الحياة »

وما إن أنهى صديقى حديثه حتى شخصت ببصرى إلى السماء قائلا : اللهم لا تأخذنا بظلم ، وتول بنفسك دفع الظلامات عنا ، اللهم إنا نشهد مع رسولك : أن ليس بينك وبين المظلومين حجاب » ..

علي

... إِنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ .

كنا ، ونحن أغرار نستقبل الحياة بقلوب فجة وعقول هوج ، كنا نتساءل إذ نمنى بظلم أو هضم على يد قاس جبار ، وإذ نصاب من بلاء فى فقر أو سم فى طعام ، وإذ نُساء بضيق أو حرج من جليس ثقيل أو عدو لابد من صداقته ، أقول : كنا إذ ذاك نتساءل؟؟ لماذا ألزم الله نفسه وأرهق عباده بخلق الجبابرة والثقلاء ، ثم لماذا فطر بعض الناس أو الأشياء على الضرر وأنشأهم من جبلة السوء ؟؟ كنا نتساءل بذلك ونعجز عن إدراك السر من خلقه ذاك ، ثم نغضى على مضض ونسر فى أنفسنا الجهل بذلك والسخط منه .

حتى إذا وردت أمريكا للمرة الثانية ، وأنا فى مطلع كهولتى أودع الشباب العارم وعهده الحافل بالغرور ،والغنى بالآلام والآثام ، وتفتحت أبواب المعرفة بين يدى ، وشخصت مفاتن الحياة أمامى ، وبدأت أتحسس من أسرار الوجود ، وأشعر بواجب الإنسان تجاه نفسه وغيره ، واستجابت لى الدنيا ، وواتانى من العيش مالم أكن أحلم به ، أدركت فجأة إذ ذاك أنى كنت أغلف القلب ، مظلم النفس ، مغلق الفكر ، فعمدت ، على ضوء حياتى الجديدة ، إلى تطهير نفسى من أوضار الحياة ، وبدأت أشعر بالرسالة الملقاة على عاتقى فيما أقول وأفعل ، .

وكان الدين همى الأول فيما أفكر ، فعدت إلى الإمعان فى اكتناه الحياة وما تحمل من أسرار ، فجاشت فى صدرى عوامل التربية الأولى فى بيت أبى وبين إخوتى وعشيرتى وقومى ، كيف كان القرآن دستورهم فى معاشهم ، وفقه أهل البيت مذهبهم فى الحياة ، مطمئنين إلى أعمالهم مهما شقت عليهم ، وإلى

معادهم مهما بعد عنهم ، يرون أنفسهم غرباء فى دار لم يخلقوا إلا ليغادروها ولو مكرهين ، أقول :

.. لقد جاشت فى صدرى إذ ذاك ، وأنا فى نعيم سابغ ، عوامل تلك الحياة البسيطة ، وكيف كان أبى يعيش ونعيش معه فى هذا الأسلوب الدامى من عناء العمل بين يدى طعام نتبلغه أو لباس نتلفع به ، أو شهوات نطفئ معها حرارة النفس الأمارة بالسوء ، ثم لا نجد فسحة من العمر نلتفت بها إلى الوراء فنفكر فيما كنا منه ، وإلى الأمام فنمعن فى التفكير بما كنا له .

لقد عدت أفتح صفحات حياتى الأولى ، بعد أن طواها الزمن أعواماً كنت خلالها أهبط سلم الحياة دركة دركة حتى بلغت الدرك الأسفل منها فوقفت أشخص إلى أعلى السلم بقلب واع وأذن سميعة إلى همس الحقيقة ينساب إلى أذنى من خلال الضجيج المادى الذى طغى على سمعى فأصمه وعلى بصرى فأعماه . أقول : لقد عدت إلى طلائع صحيفتى الإنسانية ، أقرأ وصايا أبى فيها بارزة واضحة ، فأراه وهو يروح ويغدو بذكر ربه ، ثم هو يقوم ويقعد بذكر ربه ، ويأكل ويشرب بذكر ربه ، لا يغفل ساعة أو لحظة إلا وهو ذاكر ربه بالحمد والسبحان ، على أن هداه إلى الحق بغير علم ، وجنبه الباطل بغير حرمان .

وأراه ، وهو فى حشد من أهل قريته ، يمعن فى العظة ويتخير لهم النصيحة ، ويحذرهم الهلاك بالمروق من الدين أو الشك فيه ، أو التهاون به ، ويقرر فى نفوسهم قوله صلى الله عليه وسلم : من زهد فى الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم ، وهداه بلا هداية ، وجعله بصيرا ، وكشف عنه العمى » ثم أراه وهو مسجى على فراش موته يمعن فى النظر إلى وجهى ووجه أمى فتقول له : أوصى محمداً بى يا أبا حسن . فيقول لها : انه لا يحتاج إلى مثل هذه الوصية ولكنى أوصيه بالصلاة ... »

كل هذا بعث فى نفسى ، وأنا أجوز الشباب إلى الكهولة ، أن الحياة صلاح وتقوى ، وأن العلم تفكير وإخلاص ، فعزفت إذ ذاك عن كل ما يبهر عينى من زخرف الحياة ، وأمعنت فى اكتناه جوهرها فرأيته نوراً لا يتبينه إلا من فكر فيها وأخلص فى تفكيره . فكنت كلما تعرضت لقول أو عمل لا علم لى

بما يفضى إليه ، أسررت فى نفسى الإخلاص فيما أقول وأفعل ، ثم سألت الله أن يعصمنى من التهافت ، فما ختمت مقالى ولا أنهيت عملى إلا وأنا مطمئن إلى أنى كنت فيهما على حق .

ولقد سألنى بعض المهاجرين العرب فى ولايات أمريكا الشمالية المتحدة ، ولعل ذلك كان فى مدينة ديترويت مشغن ، وفى منزل الشيخ عبد الله برى ، وهو أديب عاملى ، سألنى عن الشر لم يخلقه الله ثم ينهى عنه ؟؟ وكانت مفاجأة لى عمدت فى الجواب عنها إلى طريقتى الخاصة بى ، وهى التوجه إلى الله ثم الإخلاص فيما أقول : فأجبته فوراً : إنما خلق الله الشر من أجل الخير ، قال : وكيف : قلت لولا الشر لما عرفت الخير ولولا القبح لما عرفت الجمال ، ولولا الغباء لما أدركت الذكاء .

وكنت أحسب أنى بذلك فتحت باباً لم يفتحه أحد قبلى حتى إذا وقفت على كلام الإمام فى صدر هذا البحث فاذا به يسبقنى إلى معناه أكثر من ألف عام ، وهكذا كنت .

فى مدينة « بونس ايرس » عاصمة الأرجنتين فى جنوب أمريكا : أصعد المنبر للخطابة فى نادى جمعية التعاضد الإسلامى لأبنائنا المهاجرين العرب ، كنت أصعده على رأس كل أسبوع لأعظهم دون أن أعد فى نفسى شيئاً من القول أو الفكر ، معتمداً على هذه الطريقة وهى نية الإخلاص للحق فيما أقول ، فأبدأ القول بما يحضرنى ساعتئذ من آية فى القرآن أو حديث فى السنة أو بيت من الشعر ، أستحضر واحداً من هذه لدى صعودى المنبر واستوائى عليه ، فاذا بالمعانى التى تتدفق على قلبى والبيان الذى يزخر به لسانى ، تملأ نفوس المستمعين عظة وعبرة ، وتملأ قلوبهم محبة وإعجاباً .

وكنت أحسب أنى مبتكر لهذه الطريقة حتى قرأت مقدمة للرئيس ابن سينا فى أحد مؤلفاته يقول ما مضمونه : كلما استعصى علىّ بحث علمى شائك معقد عمدت إلى الصلاة فاذا بى أخلص من ذلك التعقيد إلى الحل الذى يقره العلم » فأوقن إذ ذاك أن ليس لى بكر هذا الفكر وإنما سبقنى إليه غيرى أكثر من

ألف عام . فأعود مردداً قول القائل : لاجديد تحت الشمس ، وقول الآخر : ليس فى عالم الفكر جديد إلا ما غاب عنك قدمه .. »

لعل منكراً علينا يتساءل ؟ كيف يخلق الله الشر فيما أجبنا عنه آنفاً ؟؟ والقول على ذلك يستدعى تبسطاً فى البحث أفضنا فيه بين الفصول التى يتألف منها كتابنا « الأصفياء » وما سبقه من كتب كبلاسم ووحى الرافدين ، على أن اقتضاء البحث هنا لشئ من هذا التبسط لازم ، ولعله أدعى إلى الخوض فى الشر والخير مما سبق عليه القول .

ان الشر المنسوب إلى الخالق تعالى إنما هو العنصر الأول الذى يتقوم به الخير والشر معاً، فاليد الذى تقتل بها وأنت مسىء هى عين اليد التى تتصدق بها وأنت محسن ، واللسان الذى تكذب أو تشتم أو تغتاب به هو عين اللسان الذى ترشد وتعظ وتدعو الله به ، وهكذا قل فى السيف الذى تعدل به وتظلم ، وفى القلب الذى تقسو به وترحم ، كل هذه الوسائل من خلق الله مباشرة ، فيكون الشر أو الخير الناشئ عنها من خلقه تعالى ولكنها بواسطتك .

هكذا نستطيع أن نعلل نسبة الشر والخير إلى الله ، وأما نسبتهما إلى الإنسان فعلى اعتبار أنه مختار ، والاختيار صفة تخول صاحبها السلطة على ما يختار إن كان فى مقدوره وإلا كان الجبر الخارج عن موضوع البحث ، فلم يكن الله ليجبر ولكنه يخير ، والله إنما وهب الإنسان صفة الاختيار ولم يجبره على ما يحب لأمرين : أولهما إشعاره بالحرية التى هى أسمى صفات الإنسان ، والتى يمتاز بها عن غيره من خلق الله الذى يشاركنا فى الحياة على هذه الأرض .

وثانيهما : إشعاره بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها على ما يقول ويفعل وهو مختار ، إن خيراً فخير وإن شراً وشر ، لأن الجبر الذى هو نقيض الاختيار لا يوجب هذا الحساب ، ولأن الله تعالى إنما يعاقب أو يثيب على ما يفعله الإنسان باختياره لا على ما يجبر عليه ، من أجل ذلك أعطاه الله صفة المختار المسلط على الخير والشر يختار منهما ما يشاء دونما جبر أو إكراه ، فهى من الصفات التى يشارك الإنسان فيها ربه ، كالإحسان والكرم والعزة والخبرة واللطف وغيرها من أسماء الله الحسنى .

من هنا يتبين لنا بوضوح ما يعنيه الإمام بقوله : لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذى تركه ، وهو الضال ، فتدركوا الميزة بين الضلال والرشد ، فكان إذن من الضرورة خلق الضلال لمعرفة الرشد ، ثم يقول الإمام : انكم لن تأخذوا بميثاق الكتاب الذى هو القرآن حتى تعرفوا الذى نقض هذا الميثاق ، بماذا نقضه ؟ وماذا جنى من نقضه ؟؟ وكيف انحدر من وراء هذا النقض عن ابناء جلدته الذين إنما خلق ليحيا معهم فى هذه الدار ؟؟ ثم يقول : لن تمسكوا بهذا الميثاق حتى تعرفوا الذى نبذه » وهو إمعان فى تقرير القول السابق ، وهو غنى عن البيان .

يعجبنى من ضروب التمثيل بين يدى هذا البحث : ما يرويه التاريخ لنا من قصص الماضين تحت عنوان : سوداء العروس ، انهم كانوا إذا زفوا عروساً بيضاء ، أجلسوا إلى جنبها امرأة سوداء لتمتاز بما وهبها الله من جمال اللون ، وقديماً قال الشاعر : وبضدها تتميز الأشياء » وهكذا يقول المؤمن إذ يرى فعل الكافر الخارج به عن إنسانيته : أحمد الله على أن هدانى للإيمان » ويقول الصحيح إذ يبصر المريض وهو يتململ تحت آلامه : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به غيرى »

فخلق الشر ضرورى لمعرفة الخير كما أن خلق البغض والقبح ضرورى لمعرفة الحب والجمال ، وأشد ضرورة من هذا وذاك تقويم الإنسان بالاختيار الذى يخوله السيطرة على الخير والشر معاً لئلا يكون له الحجة على الله فيما يقول أو يفعل .

الله

إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً . . .

فى مطلع هذا البحث أحب أن أسوق للقارئ حادثاً مر بى وأنا أمتهن التدريس إبان شبابى فى قرية شقراء من « جبل عامل » ، لا يزال ذلك الحادث موضع غرابة وعظة وتفكير منى ، ولا أزال أتمثله فى كل سر من أسرار الطبيعة التى تمر بى فى رحلاتى ، ذلك الحادث هو :

ان صديقاً لى كان يملك الأمر والنهى فى هذه القرية ، وكان سيداً مطاعاً فى أهلها ، وكان رفيقاً بهم ومحسناً إليهم ، وكان بيته محجة الضيفان ومنتدى الأدباء والعلماء ، ولم يكن لى مفزع غيره فى غربتى ووحشتى ووحدتى ، ذلك الصديق هو المرحوم عبد الحسين الأمين ، ولقد ألفت بينى وبينه خلال تدور حول الأدب والشعر العريقين فيه ، وكانت أيامى عنده حافلة بروعة شبابى وأبهج أيام حياتى ، ولا تزال ذكرياتها زاداً لتغذية روحى وتنمية أفكارى .

يدخل علينا هذا الصديق يوماً ما ونحن فى نديه ، نتندر ونستعرض غرائب التاريخ فيقول : اسمعوا ما تعجبوا له مما لم أصدقه أنا نفسي لو تحدث لى به غيرى ، فشخصنا إليه منصتين فقال : ان من عادتى ، وأنا فى فراش نومى أن أطالع فى كتاب أضعه إلى جانب رأسى بضع دقائق قبيل النوم ، وتعلمون أنى لا أستطيع القراءة نهاراً بغير منظار فكيف بالليل ، ويشاء الله أن أنسى نظارتى ليلة أمس فى جيب المعطف والمعطف على المشجب وقد تدثرت فى الفراش والبرد قارس فتعاجزت عن النهوض لجلب المنظار وحاولت المطالعة عبثاً دونه ، كما أنى عبثاً حاولت النوم بدون مطالعة »

« فتحاملت على نفسى ونهضت إلى المعطف وعدت بالنظارة وطالعت ما شئت حتى أغفيت ، وما أروع ما دهشت له فى صباحى إذ رأيت إطار النظارة بغير زجاج ، ثم عمدت إلى جيب المعطف فوجدت الزجاجتين قد سقطتا فيه من النظارة دون أن أشعر ، وكانت مطالعتى قبيل النوم قائمة على اليقين بأنى

إنما أتصفح الكتاب من وراء الزجاج ، فما قولكم دام فضلكم فى معجزات الحياة التى لا يقوى العقل على تبين أسرارها مهما فكر وقدر ؟؟

وقضية أخرى : تحدث أبى إلى عن نفسه أو عمن يثق به ممن لا يعتقدون بالشعوذة ، انه أقبل يوماً ما على ساحة القرية فرأى لمة من الناس قد سادهم الهرج وبينهم جمل ، فسأل عما حدث ؟ فقيل له : ان ساحراً يدخل من فم الجمل ويخرج من دبره ثم يدخل من دبره فيخرج من فمه ، قال الراوى : فدخلت فى الجماعة وقد شاهت وجوههم وجحظت أعينهم وران العجب على نفوسهم فكأنهم فى غيبوبة ، ثم أثبت بصرى فى عمل المشعوذ فاذا به يدخل بين يدى البعير ويخرج من بين رجليه ثم يرتد معكوساً فيدخل بين رجليه ويخرج من بين يديه

وقضية ثالثة : كنت ، وأنا صبى ، أسمع بغرائب القصص تتحدث بها العجائز عن عين الحاج حسن ، وما أدراك ما عين الحاج حسن ؟؟ انها بئر نابعة عميقة فى واد سحيق من بلاد الشقيف فى جبل عامل ، يمر بها المسافرون من الساحل إلى الجبل ، يتحدثون عنها : ان فيها جناً يتمثل بأشكال ، وكل من نزلها رأى هذا الجان على شكل خاص ، ولما بلغت رشدى مررت بذلك الوادى وشربت من ماء تلك العين ، وكان معى رفاق تطارحت وإياهم حديث هذه العين فى ماض من الزمن ، فقال بعضهم :

لقد كان ما رووه حقاً من أنها كانت مشهودة بساكن غير انسى . ولقد نقل لى من لا يصرفه عن الحقيقة وهم ولا خيال : قال ، مررت ليلة ما فى ذلك الوادى وأنا أجتاز فى عودى من الساحل إلى الجبل ، ولما حاذيت العين وكان حر الصيف لاهباً والظمأ نال منى ، قلت لنفسى : أنزل وأشرب ، وأنا أعلم ما يتناقله الرواة عن أحاجى هذه البئر ، ولكنى إذ نزلت بضع دركات من سلمها الصخرى ، والظلام دامس ، تناهى إلى سمعى صليل فى غيابة البئر ملك على وعيى فعدت أدراجى حتى فم البئر ورأيت حمارى يتطلع إلى بغرابة كأنه أحس بما أحسست » ثم قال :

ولكنى بعد أن ملكت روعى ، رجعت إلى صوابى وتساءلت ونفسى : أهنالك حقيقة ما تفنن به الرواة أم هى خرافة كما أعتقد ؟؟ لا بد لى من كشف

هذا السر . ورجعت الكرة إلى البئر فنزلت دركاته وأنا أشعر كأنى أطأ اللبد مما أتحسس وألهث، ولا أكتم سامعى أنى كنت مرتاعاً ولكنى أغالب هذه الروعة بالتماس عقلى وثقتى من أن جناً له سبيل على الإنسان لم يكن فى قاموس العقل »

ولما وصلت الماء وحاولت أن أغترف منه عاد الصليل كما تتحرك سلسلة من الحديد بين يدى فرس شموس، فعاد إلىّ الذعر ولكنى ملكت إرادتى واغترفت الماء لأشربَ فأعجلنى عنه صوت كالزمزمة لم أتبين مصدره لشدة الظلام ، ثم تبع الصوت جلجلة ، ثم إذا بى أشعر أن شيئاً كالكابوس انقض على كتفى وأدلى رجليه حول عنقى . فسكنتُ غير واع وقد أصابتنى رعدة أفقت منها ويداى على رجلى هذا الشبح الذى أصبح بعد لمسى رجليه المكسوتين بالشعر حقيقة لاريب فيها ، ولم أتخاذل برغم ذلك كله ، ثم نهضت لأصعدَ وهو على منكبى أحس بثقله وبشئ تدلى منه على عجزى لا يزال صليله يقرع سمعى »

وصعدت الدرج حتى أرض الوادى ولما أزل أقبض رجليه بكل قوتى لئلا يشرد ، ثم أنزلته وتبينته على ضوء الكواكب فاذا به قرد قد أفلت من قائده منذ زمن واتخذ الوادى مرعى والعين مورداً ومأوى ، وفهمت إذ ذاك جميع ما رواه لنا القصاصون وما افتنواً فيه من غرائب القصص عن هذا الوادى وساكنيه من الجن . ولما عاد إلىّ روعى ربطت القرد بسلسلته إلى رجل الحمار ثم عدت إلى البئر فرويت وأرويت حمارى واستأنفت السفر إلى حيث أقص على الناس حديث الجن فى عين الحاج حسن .. »

وقضية رابعة نسوقها فى هذا المجرى : أن رجلا فى قرية مجاورة لقريتى أصيب بمس فى عقله فكان يخرج كل ليلة إلى منخفض من الأرض فى ضواحى القرية ويمكث ليله بين هرج ومرج كأنما هو فى نفر من الناس حتى يصبح فيعود إلىّ منزله ولم يتناول طعاماً منذ أصيب حتى عاد إلى رشده ومدة الإصابة كانت بضعة أشهر .

ولما قيل لى إنه ثاب من غيبوبته ذهبت مع بعض أصحابى إلى تلك القرية لمشاهدته والوقوف على هذا الحدث الغريب ونزلت ضيفاً على وجيه البلدة ثم استدعيت ذلك الرجل فجاء وسألته عما ترامى إلىّ من أمره فقال : كنت إذا أقبل

المساء أسمع أناساً خارج منزلى يهزجون ويغنون ثم يدعوننى باسمى فأخرج إليهم ثم نمضى معاً إلى ذلك المكان ، وأشار إليه بيده وهو قريب من بيت مضيفى ، ثم تابع حديثه قائلا :

وهنالك أرى كثيرين يتقاطرون من طرق شتى ويكون لنا جميعاً مشهد حافل باللهو واللعب والرقص والغناء حتى منتصف الليل ، وإذا بسماط يمد وطعام شهى يعلوه فنتداعى للأكل كما لو كنا فى عالم الوعى ، الناس هم الناس واللعب هو لعبنا والطعام كطعامنا ، ولكنى لا أعرف أحداً منهم ، ولم أكن أذكر أنى غريب فيهم وأنهم بعيدون عن قومى ، فاذا أصبحنا تفرقنا وذهب كل منا إلى حيث كان فى أمسه »

وآخر حدث أعرضه بين يدى هذا البحث هو : أنى كنت أنام فى صغرى قريباً من أبى ، وكان ينهض للصلاة مبكراً فاذا أشرفت الشمس على البزوغ وكزنى بأصبعه فى رأسى ينبهنى للصلاة ، وأذكر أن مسه كان وخزاً رفيقا ، وكنت أرى هذا المس أثقل شئ علىّ فى حياتى أيام الصيف لقصر الليل وطول النهار الحافل بلهو الصغار أمثالى ، وذلك ما يقتضينى طول الهجوع والاستجمام بالنوم الطويل .

وأياً كان فقد كنت فى تلك السن التى لم تبلغ المراهقة ، كنت أتثاقل من من مس تلك الأصبع ومن التلبية للصلاة ولكنى مضطر لهذه التلبية وإلا حلت العصا محل الأصبع وكان الغضب مكان الرضى ، لذلك كنت أحياناً أحاول أن أنام إلى جنب أمى بحيث تكون الفاصل بينى وبينه فأقطع ليلى خائفاً من الجانب الخلاء لأنهما إنما كانا يكتنفاننى فى النوم ، وأنا وحيدهما إذ ذاك بعد أن خلا المنزل من اخوتى ، أقول كانا يكتنفاننى ، بغية راحتى واطمئنانى وحرصاً علىّ من برد السحر إذا انحسر الغطاء عنى .

ولقد كنت أحيانا أوطن نفسى على الخوف إلى جانب أمى تفادياً من أصبع أبى العاصفة بى عند الصباح وفى أحب أوقات نومى ، ولكنه كان إذ ذاك يستعيض عن أصبعه بصوته الذى يصعف بى موقظاً ومهدداً فأقوم إلى رياضتى وأنا أجرر أذيال الخيبة فيما كنت أرجوه من سهوه أو تغاضيه عنى فأعود من

غدى إلى سيرتى الأولى تحامياً من الخوف وتحملا لأهون الضررين .

هذه بعض سيرتى مع أبى فى حداثتى ، ويشاء الله أن أفارق هذا الأب البار بى فراقاً أبدياً وأنا أنهد إلى السابعة عشرة من سنى حياتى فاذا بى مطبوعاً على كل ما كان يطبعنى به حتى اليقظة مع الفجر ، وما كان أحب إلى وأعذب لدى وأخف على روحى من تلك اليقظة التى تذكرنى بأبى ، ثم يطوح بى الزمن إلى الهجرة فى سبيل العلم بين العراق والشام ، ثم إلى الهجرة فى سبيل العيش بين أمريكا وأوروبا حتى تبدلت حياتى واستحال الأفق الضيق الذى كنت أفحص فيه إلى أفق رحب يمتد بصرى فلا يبلغ مداه .

فهل طرأ على بعد ذلك ما أحال ذلك الطابع إلى طابع آخر فى حياتى ؟؟ انى لأشهد بين يدى الله ، وأنا أكتب هذا البحث فى مصر الجديدة قبيل الفجر ، أشهد أن هذا الطابع قد أصبح جزءاً من حياتى المشرقة بى فى صباحى هذا على الستين من عمرى ، ومكان الشاهد من هذا الاستطراد إلى حياتى مع أبى هو ما أعرضه بين يدى القارئ مما يتصل بالبحث فيما يلى :

لقد مرت بى فترة غير قليلة وأنا أطوف العالم الجديد « أمريكا ، شماله وجنوبه وقلبه ، وكان لهذه الهجرة التى بدلت كثيراً من حياتى ، كان لها ولمثلها فى أوروبا أيام دراستى فى لندن ، تأثير بالغ على عقليتى وتفكيرى وطراز حياتى ، فكان لا بد لى من أن أتأثر الغربيين فى كثير من عاداتهم وتقاليدهم حتى ظهر ذلك فى جل ما أنتجت خلال تلك الفترة من نظم أو نثر .

ولقد أنكر على أخيراً من عرفنى أولا كل شئ من شكلى وعقلى ، إذ كنت معمما ملتحياً أيام دراستى الفقه فى العراق ، وكان جل همى ، وأنا أمتهن الشعر ، أن أتأثر المتنبى وأبا تمام والشريف الموسوى فى كل ما أنظم ، فأصبحت بعد الثلاثين من عمرى ، حاسر الرأس حليق الذقن متأنقاً فيما ألبس وآكل وأنام ، حريصاً على التحسس من مواطن الإلهام فيما أنظم وأكتب ، ثائر النفس وراء كل ما يسبغ على قومى جديد حياة ، ناقماً عليهم بلسانى وقلمى كل ما يتأثرونه من قديم راكد أو جديد تافه ،

أقول : لقد مرت بى فترة كادت تأكل الشطر الأخير من حياتى وأنا ممن

فى تأثرى هذا ، وكدت أنسلخ من كل ما يحدق بى من تراث إلا شيئاً واحداً لم أكن أقوى على دفعه والتنكر له والانسلاخ منه ، ذلك هو الصلاة عامة وصلاة الفجر خاصة ، ولقد تعاور وتضافر علىّ فى الحيلولة دونها كل ما ألفته من حياة جديدة فى عهد يستخفنى معه كل بهرج وزخرف مغريين تحت سماء تستهوى بشياطينها ملائكة الروح القدس .

من يصدق أنى كنت أستجيب أحياناً للسهر المضنى بين أخوة وأخوات ، فيغلبنى كرى الصباح وأشعر بكل حواسى أن أصبع أبى تلك تخزنى من رأسى فأهب مذعوراً لايثنينى شئ عن الوضوء فالصلاة ؟! ، من يصدق هذا ؟!

أقول : لقد كنت ، إذ تأسرنى خفقات الفجر أشعر بكل ما فى من عصب حى ، لا حالماً ولا مهوّماً ، كنت أحس إحساسا حقاً لا وهماً ولا تهويما ، أن تلك الأصبع التى فارقتها منذ عشرين عاماً ، تخز رأسى وأسمع من ورائها صوت أبى ينهرنى قائلا : قم للصلاة يا بنى » فأنتفض ولا هم لى إلا إدراك هذا الوقوف بين يدى ربى قبل بزوغ الشمس ،من أجل ذلك وثقت أن الصلاة الوسطى هى صلاة الفجر ، وأنها الوسط بين الليل والنهار ، مهما ضعفت روايتها وقل الراوون لها .

أوردت هذا الحديث المستطرد فى سياق البحث عن إمكان أن يعود الأعمى بصيراً كما يمكن أن يعود الأصم سميعا والأبكم فصيحا لا عن طريق الإعجاز بأن يتولى الله ذلك بنفسه ، ولا عن خرق فى النواميس الطبيعية ، ولكن بما يحققه العلم الحديث من إمكان أن تتحكم إرادة الإنسان بناموس خلقه المفطور عليه ، والموكول تحكمه به إليه .

فلقد أحكم حب يعقوب ليوسف إرادته بمناط البصر من روحه فردت عليه هذا البصر ، كما أحكم اعتقاد صديقى الأمين إرادته بمناط بصره القاصر على المنظار فرده عليه من غير منظار ، وكما أحكمت عقيدة أبى إرادته بأن لا يصدق أن مشعوذاً يخرق نواميس الحياة ، فكشفت له عن حقيقة ما يفعل المشعوذ ، وكما أحكم إيمان ذلك الرجل بأن لاسبيل للجن على الإنس إرادته فى أن تلك الصلصلة التى وعاها وهو يهبط إلى العين ليست خارجة على الطبع الإنسانى .

وهكذا نستطيع تعليل ما انحرفت به إرادة ذلك المجنون الذى كان يأكل ويشرب فى عالم غير عالمه ثم يغنيه ذلك الطعام والشراب عن أن يأكل ويشرب فى عالمه ، كما نستطيع تعليل إحساس من تأثر بأبيه أول ما تفتحت عيناه على الحياة ، وأمعن فى تربيته بارادة قوية وإخلاص بالغ ، حتى إذا نشأ الابن وهو يحمل هذه الرسالة ويقررها فى نفسه ، كانت إرادة أبيه جزءاً من حياته وهو يستقبل الحياة ، وللتربية الأولى أثر بالغ فى الحى إذا كشفت له الحياة عن صدق هذه التربية وتمكنها من صميم تلك الحياة .

وكذلك نستطيع أن نعلل قوة تأثير الحب فى نفس المحب إلى حد يعجز العقل معه عن تعليل تلك القوة ، وللإرادة ، فى علم النفس ، قوة لاتقوى على دفعها المادة إذا عصفت تلك الإرادة بها ، ففى كيان العائن ، من قوة الإرادة ما ينهار بين يديها المعيون من أقوى صنوف المادة ، وكم رأينا صاحب هذه الإرادة الجبارة يلحظ بعينه الكاشفة عن تلك الإرادة ، جمالا أو جلالا راعه من مرئى له فى حيوان أو نبات أو جماد ، فيتصدع ويتفطر أمام لحظه كأنما تعرض هذا المرئى لأقوى عاصف به من حديد أو نار .

عرفت شخصاً من قريتى ، وهو عائن ، كان إذا تأثر بمنظر إنسان صرعه ، وإذا تأثر بمنظر حيوان قتله ، ثم إذا تأثر بمنظر جماد صدعه ، إذن فللإرادة تأثير قوى على المادة ، وهكذا نصل إلى أن الإرادة نفسها هى التى ردت على يعقوب بصره لدى فرحه ، وهى التى أفقدته ذلك البصر لدى حزنه ، لأن الإثبات والسلب فى إنشاء الحركة أو إعدامها سيان فى استهلاك قوى المحرك ، فقوة تأثر يعقوب بمحبته ولده يوسف هو الذى أفقده البصر لدى فراقه ، وهو الذى أعاد عليه البصر عند لقائه ، ومن شاء ازدياداً فى تحرير هذا البحث وتحقيقه ، فليرجع إلى فصل تربية الإرادة فى نهاية هذا الجزء من الكتاب .

محمد

أَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حُشِرَ فِي زُمْرَتِهِمْ

من أحب قوماً أشركه الله فى عملهم » تتوالى على الألسن هذه الجمل مرفوعة إلى الرسول عليه السلام ، بعضها صحيح السند والبعض حسن والبعض الآخر ضعيف ، وأياً كان فهى متقاربة المفاهيم ، وجديرة بالصدور عن صاحب الرسالة الأعظم ، لأنها قائمة على الحب والحب فى صدر محمد وفرقانه ، عنصر أول فى تقويم الحياة ، ومادة أولى فى ناموس الخلق ، ولعله البند المهيمن على قانون الطبع الإنسانى ، والعلم الحديث يثبت أن الكائن حياً كان أو جماداً ، إنما يقوم فى بقائه وصموده وأداء وظيفته على التجاذب وهذا هو الحب ، فالذرة فى أى كائن ، قائمة على تماسك ما تتقوم به من نويات وكهارب ، وعلى تماسك الذرات يقوم الكائن ، وذلك ما يفسر قوله عز من قائل : وجعل بينكم مودة ورحمة .

وإذا كان الحب هو المخلوق الأول فى تقويم الإنسان كما قال الحق وأثبته العلم ، كان من الطبيعى أن تتقوم به عناصر الكائنات المسخرة للإنسان فى تقويم حياته ، ولقد مر بالقارئ فى هذا الكتاب كثير من أقوال العلماء المعنيين بطبيعة الكائنات الأرضية ، يثبت أن طراز التكوين واحد جماداً كان أو حيواناً ، لذلك أقروا بأن خالق الوجود واحد لأن طراز الخلق فى كونه واحد . فاذا كانت الصلة بين الخالق ومخلوقاته هى وحدة الطراز ، كان بلا ريب توحيد هذا الطراز معلولا بوحدة خالقه .

وهكذا نصل إلى أن الإنسان معلول بما كان له ، إذ هو وليد ما يحدق به من طبيعة كانت له ، وكان له التحكم بها والهيمنة عليها ، فالتجاذب الذى تماسك به عناصره ، يجب أن يكون مناط التجاذب الذى تماسك به عناصر مقوماته مما يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، ومما تتقوم هذه المقومات به من جماد ونبات وحيوان ، هكذا يثبت لنا العقل الباحث أن الحب الذى هو تجاذب

وتجاوب وتماسك وتضامن وتكافل وتعاون بين الكائنات هو العنصر القائم على تكوينها وتلوينها .

إذن ، ليس فى تأويل هذه الكلمات الشاخصة للقارئ فى صدر هذا البحث . ليس فى تأويلها كبير عناء على الفكر ، ولا هو بالسهل بين يدى من يحاول تأويلها ولم يوت حصافة الرأى وعمق التفكير . فالى أين يصل بنا القول على فكرة محمد فى قوله : المرء مع من أحب ؟؟..

كيف ؟؟

وأين ؟؟

كيف أكون مع من أحب ؟ أكون معه بروحى ؟ أم بجسدى ؟؟ أو أكون معه فى دنياى ؟ أم فى آخرتى ؟؟ ثم ، أأكون معه ولو لم يحبنى هو ؟ أم كونى معه مشروط بأن يكون هو محباً لى فتتحقق المعية بين المتحابين ؟؟ أم يكفى الحب من جانب واحد ليجمع بين الطرفين ؟؟

وأين تكون هذه المعية ؟؟ أفى هذه الدار بالروح والجسد؟؟ أم فى الدار الآخرة ؟؟ وهل أكون معه إذا أحببته حقيقة أم مجازاً ؟؟ وهل ذكراى إياه وذكراه إياى تحقق تلك المعية سواء كان حياً أو ميتاً ؟؟ وهل يتأثر كلانا بعمل الآخر فى هذه المعية ؟؟ أم أن العمل شئ والمحبة شئ آخر ؟؟

ان الحديث المرفوع إلى نبينا صلوات الله عليه والقائل : ان الله يحب العبد ويكره عمله ، ويحب عمله ويكره بدنه » أى شخصه ، ان هذا الحديث يدل على أن الحب شئ والعمل شئ آخر ، فقد أحب من لا يشركنى فى عملى ، ويحبنى من لا أشركه فى عمله ، وعلى هذا يتخرج معنا صدق مصححى هذا الحديث بلفظيه الأولين فى صدر البحث ، ومضعفيه بلفظه الثالث بعد العنوان .

وإن لا يكن ذاك : فما هى الفائدة من المعية فى الحب ؟ بل ما هى الفائدة فى الحب من هذه المعية إذا لم أفد من عملك وأنا معك ومحب لك ، وإذا لم تفد أنت من عملى وأنت معى ومحب لى ؟؟ وما هذه المحبة التى جمعت بيننا ولم توحد عملينا ؟؟ وعما ذا صدرت ؟؟ أفليس وراءها تجانس بيننا فى كنه تركيبنا الجسدى ، أو تأليفنا الروحى ؟؟

ومحال أن أحب من يغايرنى فى روحه وبدنه وأناقضه بروحى وبدنى ، ان الفطرة الأولى تدعو الإنسان لأن يحكم على أن الألفة والمحبة بين كل اثنين من كل كائن ، ناشئة عن تجانس طبيعى فيهما ، حتى أن التاريخ يروى لنا : أن رجلا رأى غراباً وحمامة واقفين معاً فعجب لذلك مع عدم تجانسهما وأحب أن يتأكد من السر فى هذا التجاوز فأثارهما وإذا هما أعرجان ، فقال : من ها هنا اجتمعا »

إنما أحب من فكرت فيه مليا ، ومن سلخت جزءاً من روحى فى الحنين له والهيام به ، وهل يحب المرء اعتباطاً دونما سبب يجذبه إلى من يحب ؟؟ كلا ، فالحب أسمى من أن يكون سهلا إلى درجة المهانة ، الحب نفحة قدسية وهبها الله الصالحين من عباده ، فلم نسبغ لقباً كريماً على شخص إلا من وراء الحب ، ويكاد يكون الحب عنصراً أول فى كل مهنة إنسانية خالدة ، فالفنون بأسرها أسرة حب ، والآداب من ولائده ، وأما العلوم فتدله فى حب الحقائق .

فاذا اشتقت إلى من أحب فأنا معه ، وإذا فكرت فيه فأنا معه ، وإذا خلوت إلى ذكره فأنا معه ، ثم إذا حاولت الوصول إليه أو البعد عنه فأنا معه فى صميمه وهو معى فى صميمى ، أفليست روحى إذ ذاك تجول فى روحه أو تجول معها فى أفق واحد ؟؟ أفليس ما يولمه يؤلمنى وما يسره يسرنى ؟؟ أكان الشاعر يهذى إذ قال : أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا » ؟؟ أفلم يشعر أنه مع حبيبه وهو يشعر ؟؟ وإذا لم تتحقق المعية فى ذلك فأين تتحقق ؟؟

ثم ألا أحب أن أعمل عمل من أحب لأجله ؟؟ فقد كان أبو اسحق الصابئى صديق الشريف الرضى يصوم رمضان من أجله ، فكيف لا يكون المحب شريكا لحبيبه فيما يعمل ؟ ولعل ما يسوء به الحبيب محبه من عمل ينزل من محبه منزلة الرضى به والصفح عنه ، أفما يصدق الشاعر بقوله : وحبيبى مر التجنى ولكن كل ما يفعل الحبيب حبيب » وفى شرع الصوفيين : لا يصدق حب العبد لسيده حتى يكون عذابه له عذبا » إذن فالمرء مع من أحب حقاً ، وشريكه فى عمله حقاً ، ويحشر فى زمرته حقاً .

وحتى الحجر فى البناء ، لا يجاوره حجر آخر ليستقيم عليهما البناء ، إلا أن

يكونا شريكين فى الطاقة على تقويم ذلك البناء ، وهذه الطاقة فى الحجر هى عين عمله وإن كانت مخلوقة فيه من نحت البناء وتوجيهه. أفلسنا كهذه الأحجار يقوم علينا بناء الإنسانية بعد أن نتضامن فى تقويم ذلك البناء بفضل الطاقة التى بثها فينا البانى الأول ؟!

وصفوة القول على هذا كله : أن الشركة فى الحب بين المتحابين لابد وأن تنتج عملا مشتركاً لأنها صادرة حتما عن عمل مشترك ، لضرورة الصلة بين الغاية والعلة فى الكائن ، على أن الشركة فى العمل بين المتحابين لا يمكن أن تكون كلية إذ لم يكن التجانس بينهما كلياً ، وإنما يشتركان فى بعض الأعمال كما يشتركان فى بعض التكوين ، فالحب والبغض بين المتحابين والمتباغضين ناظر إلى اشتراكهما أو اختلافهما فى أهم مواد البناء الذى يتقومان به أو يقوم عليهما ، فلا يمكن أن يتحدا فى العمل كلياً إذ يستلزم ذلك فيهما أن يتحدا فى التكوين وذلك محال لأن التغاير الشخصى بين الكائنين ضرورى لتحقق الإعجاز فى الخلق باختلاف الألوان والألسن ..

فالوحدة كلياً بين كل اثنين من كل نوع بل من كل جنس كائنة بينة ، والخلاف جزئياً بينهما كائن بين . والتفاوت فى هذه الوحدة وذلك الخلاف يقوم على مراحل يدق تفصيلها عن الفكر الحائر فى كنه تلك المراحل ، وإنما يشير إليها من بعيد أو قريب إشارة من يرى البصيص فيشعره بالنور ، ويشم العطر فيشعره بالزهر .

اللهم إنى أحبك لأنك خلقتنى ووهبتنى التفكير الحر فى خلقك ثم حلت بينى وبين التفكير فى ذاتك لتشعرنى بنقصى من وراء كمالك ، فاجعلنى معك ولا تتخل عنى يا رب .

اللهم وإنى أحب عبدك ورسولك محمداً لأنه أخلص فى أداء رسالتك إلى عبادك فعلمنى بذلك أن أخلص فى أداء رسالتى ، فاجعلنى معه يوم أرد عليك يا رب .

اللهم وانى أحب علياً وزير نبيك ووصيه ، لأنه حفظ عهدك وأدى أمانتك وضحى فى سبيل رسالتك ، وعلم بنيه من بعده التضحية فى سبيل هذه الرسالة ، فاجعلنى معه يوم أقف بين يديك يا رب .

علي لَيْسَ بَلَدٌ أَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ .

زرت هذه السنة بلدى لبنان بعد سنين خمس أقمتها فى مصر متوالية دون مبارحتها إلى بلدى الأصيل ، فاجتمع إلىّ أخوة الشباب وعشراء الصبا وأمعنوا فى اللوم والتقريع لى على أن هجرت وطنى ونسيت اخوانى ، وأن ذلك ليس من الوفاء ، ثم طلبوا إلىّ أن أعود ويعود معى ذلك المرح الذى كان يلفنا ببرده فى الأندية والمحافل ، وفى مجالس كنا نعقدها صيف كل عام فى الحدائق وعلى قمم الجبال ، وأن العمر قصير والحياة أوشكت أن تودع ، وليس لنا فى دورها الأخير خير من العود إلى أن نأتلف مرة أخرى ، فان أروع الحياة سمر الأحياء وهى تدبر عنهم .

يقولون لى ذلك ، وقد علموا أنى قطعت ثلاثين عاماً وأنا أغرس الحق بين قومى ثم لا أحصد إلا الألم والهم ، أول ما فتحت عينى على الحياة فى بلدى وأنا أبصر المنكر فى رؤس قومى فأسررت فى نفسى جهاد هؤلاء الطغمة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، فامتهنت الشعر ولما أزل فى السادسة عشرة من سنى حياتى فكان شعرى قائماً على النقد السياسى اللاذع ثم لم أنسَ باللذع فقهاء الشعب الذين يدرسون فقه محمد ولا يعملون به فى شعب يحترمهم ويرزح تحت وطء البؤس من زعماء سيطروا عليه باسم السياسة حيناً وباسم السيادة الموروثة حيناً آخر .

ويشاء الله أن أهجر وطنى إلى العالم الغربى « أمريكا » ثم أعود حافلا بما يؤهلنى للجهاد من مال وجاه فأصدر مجلتى « العروبة » فى بيروت وأنقضّ بها على هذه الهياكل المعبودة وشفعت المجلة بتأسيس حزب الإصلاح ونادى الحسين بن على فلم يمرر بضعة أعوام على جهادى حتى لم يبق بيت فى « جبل عامل » ألا وصوت العروبة يدوى فيه ، ولم يبق سمع من شعب هذا الجبل إلا وصكته صرخات الأحرار من « طلائع » حزب الإصلاح . ثم لم يبق صدر عاملى فى عاصمة لبنان إلا وقد ضم جوانحه على قلب يأكل الحديد فى طريقه إلى الحياة .

وفى غضون عشرة أعوام مرت على تأسيس هذه المنشآت كان المسيطر فى الجبل ، سياسياً ودينيا ، يفتش عن طريق يسلكه إلى النجاة من لذع العروبة ومقتها ، وإلى السلامة من لوم الشعب وتقريعه ، ثم لم تمض برهة حتى رأينا الفقهاء يتبارون فى تشييد المعاهد والمعابد بين دمشق وصور والنبطية على أيدى المخلصين من دعاة الحق ، ورأينا الزعماء يتبارون كذلك فى تشييد مثل هذه المعاهد وتلك المعابد وأسالة المياه وتعبيد الطرق بين جنوب لبنان وعاصمته على أيدى الساسة المنيبين بعد شذوذ وإباق .

ولقد مر بقراء هذا الكتاب شئ من هذا النداء وعلم كل من له قلب أن العروبة هى التى عصفت بهذه الفئة أن تخرج من جمودها وجحودها إلى حركتها وإيمانها ، والعروبة هى التى أهابت بالشعب العاملى أن يتنبه من سباته ويفيق من غفلته ويشخص إلى رجاله . وصاحب العروبة هو الذى كافح وناضل فى سبيل ذلك كله ثم لم يطمع بأجر ممن بكى عليهم ليله وجاهد فيهم نهاره .

وقد تحمل ذلك وصبر سنين طويلة معتصما بالحق الذى خدمه والإيمان الذى سدده ، ثم ما إذا كانت عقباه فى قومه وتحت سماء بلاده ؟؟

انه ذاق على أيدى العتاة من زعماء قومه الذين لم تخولهم نفوسهم الشريرة أن يستجيبوا لداعى الحق ، فقاوموه بألسنتهم وأيديهم حتى هشموا رأسه ليخمدوا جذوة فكره ، وكسروا أصابعه ليعطلوا جهاد قلمه ، إنه ذاق على أيدى هذه الطغمة ، من زعماء قومه بلاء لم يذقه مكافح فى سبيل أمته وبلاده . ثم لم يجد من شعبه الثورة التى تثأر له من أولئك ، وعلى العكس لا يزال هؤلاء الظلمة الغاشمون يحكمون رقاب الأمة ويتصدرون المحافل والأندية ثم يرأسون المعاهد ومجالس التشريع .

فهل فى هذا الوطن مطمع لى أفزع إليه من آلامى وأعلق عليه آمالى ؟ لقد صدق الإمام : إن خير البلاد ما حملك » فلقد نبذنى وطنى أيام بؤسى وأنا أمتهن الشعر فى سبيل تحريره ، ثم جنى على ولفظنى أيام سعادتى وأنا أمتهن الصحافة وأغدق عليه من مالى ودمى ، لقد لفظنى يومذاك ولم يحفظ لى حقاً ولا رعى لى حرمة ، فكيف أعود إليه وهو لا يزال يرزح ويئن تحت وطء الأحداث من بغى هذه الفئة ورعونة المتبجحين من أدعياء العلم والدين ؟؟

ليس فى العالم بلد أحق بى من بلد آخر ، فلقد لفظنى بلدى لبنان بعد أن أنشأت ما أنشأت وأخرجت من نتاج قلمى ثمانية عشر مؤلفاً خدمت بها العلم والأدب والفن ، لقد لفظنى هذا البلد مسلموه وهم يتكالبون ويتناجشون ونصاراه وهم يستغلون ويستأثرون ، فكيف أهيم به وأحن إليه ولم يسلفنى هذا البلد حناناً أفيه به حتى من عشيرتى وأهلى الادنين ، ويكاد أهل هذا البلد لا يشعرون بى منذ كنت وحيث حللت ؟؟ فهل هم خليقون بشعورى وحنينى ؟؟ كلا فما أنا إلا شاعر نتأثر الشاعر القائل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

إذن فأنا غريب فى بلدى إذا عدت إليه ، وقد ثبت ذلك إذ زرته بعد خمسة أعوام فاذا الأجنبى فيه لا يزال عالى الرأس وإذا الوطنى لا يزال مطأطئاً بين يديه يمسح ثوبه ويلعق حذاءه ، فهل هذا هو بلدى ؟؟

لفظنى بلدى أيام كانت أول ثورة فيه على الافرنسى المستعمر سنة ١٩٢٠ وهى ثورة جبل عامل فخرجت مغضوباً على من سلطانه إلى شرق الأردن فكانت منزلتى عند أميره عبد الله بن الحسين أسمى منازل الأدباء الأحرار ، وكان يتلقانى بصدره الرحب ووجهه الباسم كلما هزه الأدب لشعر أو نثر وكنت الأديب المرموق عنده والشاعر الأثير لديه حتى غادرت إمارته إلى أمريكا بعد أن أخرجت فيه ديوانى شعرى « الحومانى » ونقد السائس والموس » .

ولفظنى بلدى لبنان مرة ثانية بعد عودى من أمريكا أيام الحرب العالمية الثانية إذ شاء سلطانه غلّ يدى وكمّ فمى فهجرته إلى العراق فكنت الزائر المكرم والوافد العزيز فأخرجت كتبى الثلاثة وحى الرافدين وبين النهرين ، ودوى ذكر هذه الكتب فى أنحاء العراق حتى لم يبق إقليم بين دجلة والفرات إلا وللحومانى فيه كتاب يقرأ أو ديوان يرتل .

ولفظنى لبنان أيام بلغت القسوة فى نقد العروبة أشدها على رياض الصلح وسياسته بعد الاستقلال إذ ضاعف سلطة المستعمر بغياً وقسوة على الأحرار من أهله ، فأصدرت ديوان « فلان » العاصف بأحداث لبنان الجائرة بعد تنفس أهله من جور المستعمر ، وكان حظ هذا الديوان من القمع والتدمير دون حظى

من هول ما قاسيت فى عهد « بطلى » الاستقلال بشارة الخورى ورياض الصلح ، لفظنى وطنى إذ ذاك ففررت إلى أمريكا ثم عدت إلى سوريا وكنت فيها لولب الأندية الأدبية وحركتها الدائمة سنوات كانت نهايتها خاتمة حياة الزعيمين رياض الصلح وبشارة الخورى ، وأخرجت فيها للعالم العربى « بلاسم » و « من يسمع » حافلين بالأدب والتاريخ .

وهكذا كانت السنة الثانية والخمسون آخر مرحلة من مراحل علاقتى الوطنية بلبنان إذ لفظنى إلى مصر فيها فكانت ضفاف النيل الخالد مسرحاً لأفكارى ومهبطاً لعواطفى أنظم وأكتب وأخطب مرموقاً لكل عين وقريباً من كل قلب حتى لم يبق فى مصر أديب أو عالم أو شاعر إلا وأنزلنى من نفسه منزلة الأخ من أخيه فأسست فيه ندوة الأصفياء من خيرة علماء وأدباء العالم العربى ، وأخرجت كتاب « الأصفياء » لسنة الندوة الأولى ، وديوان النخيل وديوان « انت انت » الذى نال الجائزة الأولى للشعر فى مجمع مصر العلمى ، وكان السبب الأول فى بلوغى القمة من سعادتى فى الحياة .

فمصر الجديدة هذه أحبر فيها وأحرر كتابى الأخير « دين وتمدين » تحت سمائها والتى أحيى شمسى الغاربة فيها أصيل كل يوم وأنا على مكتبى أحبر وأحرر ، أقول : ان مصر هذه هى خير بلادى لدى الآن إذ حملتنى خير ما تحمل وأنجبتنى من جديد خير ما تنجب ، إذن صدق الإمام أبو حسن إذ يقول : خير البلاد ما حملك وليس فى العالم بلد أحق بك من بلد ...

فكل مكان ينبت العز طيب — وكل أناس أكرمونى هم الأهل

الله

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ

يجول فى رأسى منذ سنين بحث مستفيض عن الإرادة وتربيتها فى كيان الإنسان ، ولقد مررت بها فى بعض مؤلفاتى من «وحى الرافدين» إلى «بلاسم» ولكنه مرور لا يشفى الغليل ، وفى غير مكان من هذا السفر أشرت إليها إشارة عابرة ، ثم طلب إلى الشيخ محمد تقى القمى مؤسس المعهد العالى للدراسات الإسلامية فى القاهرة ، وهو مؤسس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى هذا البلد ، يتأثر بمشاريعه الحية سلفه السيد جمال الدين الأفغانى ، أقول :

لقد طلب إلىّ هذا الرجل تحبير سلسلة من الدراسات الإسلامية لإلقائها فى معهده على الشباب الجامعى ، فذهب بى الفكر هذا المذهب الذى يجول فى خاطرى منذ أعوام وهو مذهب «تربية الإرادة» فى الإسلام وكنت أعمل لإنجاز كتابى هذا «دين وتمدين» وكانت الآية العليا فى هذا البحث مجال فكرى ، فعزمت على أن يكون بحثها قائماً على الموضوع الذى أشرت إليه فى الإرادة والذى سأمليه على شبابنا الجامعى الحر فى كلية الآداب لجامعة القاهرة .

وتمهيداً للخوض فى هذا البحث النفسى الشائك المعقد أقدم بين يدى القارئ رؤسا لأبحاث فرعية تتصل من قريب وبعيد بهذا البحث العام ، ليسهل ضبطه على السمع وضبطه على الفهم ثم ضبطه على التفكير فيه ، فان أى بحث علمى يجب أن يشتمل على هذه الأصول لضبط قواعده وتسهيل فهمه والتصرف به عن طريق الفكر ، وإجمال هذا التفصيل يكاد ينحصر فى :

١ — ماهية الإرادة
٢ — تقسيم الإرادة
٣ — قوة الإرادة
٤ — تأثير الإرادة
٥ — نتيجة الإرادة

١ – ماهية الإرادة أعتقد أن لفظ الماهية نسبة إلى « ماهى » كما أن هيولى عند الأقدمين من فلاسفة المنطق مركبة من « هى أولى » ولا يزال العامة إلى اليوم يعبرون عن سجل النفوس الكاشف عن شخصية كل إنسان وجنسيته بلفظ « الهوية » نسبة إلى ضمير الغائب « هو » ويفسر المنطقيون لفظ الماهية والهيولى بالحقيقة الأولى لما يطلقان عليه ، فماهية الماء وهيولاه تعنى حقيقته الأولى وعنصره الذى يتقوم به ، وماهية الإرادة هنا نعنى بها حقيقة الإرادة وكنهها ، ولعل الكنه أيضاً مأخوذ من « كانه ويكونه » على أعتبار أن أعيان الأسماء لأشياء الحياة منصوص على أنها ثنائية حكاية عن أصوات هذه الأشياء لدى الإنسان فى نشأته الأولى .

فما هى حقيقة الأرادة ، وعلماء اللغة لا يزيدون على كونها مصدر أراد بمعنى شاء وطلب ورغب ، وما أشبه ذلك ، على أن البحث هنا يستدعى الخوض فى معنى الإرادة ، فما هى حقيقتها وما الذى تعنيه ؟؟

إذا عضنى الجوع فأردت أن آكل ، أو كظنى العطش فأردت أن أشرب ، أتكون هذه الإرادة إذ ذاك فعلا منى أم تكون انفعالا فى ذاتى ؟؟ وهل أنا فى إرادتى مختار أم مضطر لأن أريد ؟؟ وإذا كانت الإرادة فعلا منى فما هو فاعلها؟؟ ثم إذا كانت انفعالا فى نفسى فكيف أكون معها مختاراً وعليها يقوم حسابى فى ثوابى وعقابى ؟؟ كل هذا يفتقر إلى مزيد من البحث .

إذا جعت أو عطشت ذكرت الماء والطعام فأردتهما لمجرد هذه الذكرى ، وهى لا تتجاوز اللحظة بين الإحساس والإرادة ، أما بين الإرادة والحصول على المراد فقد يتجاوز اللحظات وقد يمتد إلى دقائق فساعات ، فلماذا يقول الجوع والعطش لإرادتك : كونى فتكون ولا تقول الإرادة للمراد : كن فيكون؟

الجوع أو العطش غريزة ، والإحساس بهما غريزة ، ثم الإرادة غريزة ، لذلك تداخلت فى ذات الإنسان وأتحدت حتى كأنها شئ واحد لا فاصل بين إحداها والأخرى إلا كالفاصل بين يدك وإضاءة المصباح الكهربائى إذ تلمس مصدر التيار المعبر عنه « بزر الكهرباء » فلماذا لا يكون الفاصل بين الإرادة والمراد كالفاصل بين الإحساس بالجوع وبين إرادة الأكل ؟؟

هل لأن الغرائز الثلاث من مقومات كيانى الداخلى ولأن المراد هو من مقوماتى الخارجية ؟؟ أم لأنها مقومات روحية والطعام مقوم مادى ؟؟ والروحيات أسرع فى التجاوب من الماديات ؟؟ أم لأن الأولى خاصة فردية والأخير عام جماعى والصلة بين الفرد وذاته أقوى وأقرب من الصلة بينه وبين شريكه فى الحياة ؟؟ أم لأن تربية الروح للغرائز التى يتقوم بها كيان جزئيها فى الفرد أسبق من تربيتها لمقومات كيانها الكلى فى الجماعة ؟؟ أقول : هل لهذا كله أو بعضه نرى الفاصل بين الإحساس بالجوع وبين الإرادة أدق وأخص من الفاصل بين الإرادة وبين المراد أو بالأحرى بينها وبين تحقيق المراد ؟؟

وماذا أعنى بكلمة أردت ؟؟ أهى تعبير عن كل ما فى كيانى من روح فتكون الإرادة هى الإنسان كلياً ؟؟ أم هى تعبير عن حالة خاصة من حالات الروح القائم فى ذاتى فتكون الإرادة هى بعض الإنسان أم هى إياه جزئياً ؟؟ ولتحقيق هذا نتساءل : أيكون عندما أريد ، شئ من الفراغ فى هذا الكيان يملأه شئ آخر من الروح غير الإرادة فأفكر بغير ما أريد؟؟ أم تملأ الإرادة فراغ الكيان كله فلا أشعر بغير الإرادة ؟؟ فيكون لسلطانها الجبار المسلط على المراد فعل الروح المخزون فى كيانى كله ؟؟

وإذا كانت الإرادة هى مجموع الروح الجزئى فى ذاتى المتصل بالروح الكلى الذى هو من أمر ربى ، ألا تكون إرادتى الجزئية هذه إذ ذاك جزءاً من إرادة الله التى يتقوم بها سلطانه فى إدارة الكون ؟؟ فتكون لإرادتى تلك قابلية الرقى والتقدم إلى حد تستطيع معه أن تفعل ، وهى جزئى ، فعل كليها العام فى خرق الطبيعة أو خرق النظام الاجتماعى على الأقل ؟؟

وإذا كانت الإرادة مسببة عن الإحساس ، أتكون انفعالا نفسياً ويصح إطلاق الجبر على ما تأتيه إذ ذاك ، فاذا حركنى الجوع كنت مضطراً لأن أريد الأكل وليس فى طوقى كبت هذه الإرادة ؟؟ أم أن إرادتى هذه فى حيز اختيارى إذ أستطيع الهيمنة عليها مهما بلغ بى الجوع ؟؟ أم أن الإرادة غير المراد فهى إنما تتصل باحساس الجوع كرهاً لا اختياراً وإنما الاختيار يتصل بتنفيذ المراد لا بالإرادة نفسها ؟؟

ومهما يكن من أمر فان هنالك إحساساً باطنياً ينشأ عن تفاعل خارجى ، ثم إرادة تنشأ عن ذلك الإحساس ، ثم قوة تنشأ من الأعصاب لتنفيذ تلك الإرادة فى خلق المراد أو إخضاعه لها . ومثلا على ذلك : أن اضطراب السياسة المعبر عنه بالفوضى والذى هو تفاعل خارجى أى خارج الذات ، يوجب إحساس الحر بالتذمر والخوف والألم والنقمة على الحكم ، وهذا الإحساس يهيب بالإرادة أن تنشد الطمأنينة ، وإرادة ذلك تستدعى الثورة فى النفس لقمع الفوضى .

فعلى مقدار شدة الفوضى هذه تكون قوة الإحساس بدفع الإرادة ، وعلى مقدار اندفاع هذه الإرادة تكون قوة الثورة فى الأعصاب لقمع الفوضى ، ثم على مقدار التحكم بهذا القمع يكون الظفر بالطمأنينة ، فالتربية التى نحن بصددها تنال الإحساس والإرادة معاً ليقوم العصب الذى هو مصدر التنفيذ للإرادة فى إخضاع المراد .

فتربية الإرادة قائمة على تربية الإحساس الذى يبعثها ، وتربية العصب قائمة على تربية الإرادة فى قوته التى ينفذ بها الأرادة ، واستجابة المراد لقوة العصب قائمة على توجيه تلك القوة وتسديدها نحو الهدف المنشود للإرادة بأمر الإحساس الثائر من وراء الحافز الذى يثيره من تفاعل الحياة فى صميم الكيان الفردى أو الكيان الجماعى . ووراء هذا كله عقل يركز أعمال هذه الجماعة ويوجه أفرادها إلى حيث تحيا مجتمعة متضافرة .

فما هى إذن هذه المجموعة التى يتألف منها كيان الإنسان الباطن ؟؟ هل هى متعددة أم متحدة متلونة ، أى أن ما يتقوم به الروح الجزئى القائم فى كيان الإنسان الفرد ، هل هو واحد يتلون فنضع له أسماء باعتبار ألوانه ، أم هو متعدد يتألف منه ذلك الروح كما تتعدد أعضاء الجسم التى يتألف منها كيان الإنسان الظاهر ، فنضع لها أسماء باعتبار تعددها ؟؟

٢ — **تقسيم الإرادة** كيف نقسم الإرادة ؟؟ هل نقسمها باعتبار ذاتها ؟؟ أم باعتبار موردها ؟؟ أم باعتبار مصدرها ؟؟

أما لذاتها فهى إما قوية وإما ضعيفة ، وقوتها تقوم على ثقل الروح الذى تصدر عنه ، فكلما عظمت كمية ذلك الروح كان نفوذ الإرادة فى المراد وسيطرتها عليه أشد وأقوى ، وكانت استجابة هذا المراد أسرع ، لأن الروح الذى عبرنا عنه آنفاً بلفظ العقل ، إذا تضخم واستد ، كان الإيمان ، الذى هو الصلة بينه وبين المهيمن على الوجود ، أقوى على دفع الإرادة لتحقيق المراد واضطراره للخضوع بين يدى هذه الإرادة .

فالعقل يزن الدفع الإرادى وقابلية المراد للخضوع أمام هذا الدفع ، فاذا اطمأن إلى العدالة فى الدفع والقابلية فى الاستجابة ، عزز سلطة الروح فى الاندفاع لبعث الأرادة ، وتعزز من وراء ذلك إيمان المريد القائم على الحق ، بالفوز فى إخضاع المراد واستجابته لحكم العقل آخر الأمر .

على أنا إذا تساءلنا عن كمية هذا الثقل فى الروح الدافع للإرادة ، من أين مصدره ؟؟ عدنا بالأوهام والظنون على النفس المتسائلة بذلك ، هل الروح الجزئى فى هذا الجسد الحى ، إنساناً وغير إنسان ، هل هو متفاوت بطبعه ، أم هذا التفاوت عارض عليه ؟؟ ولماذا يكون التفاوت طبيعياً بحيث تلدنى أمى أكبر روحاً منك أم تلدك أمك أكبر روحاً منى ؟؟ ثم لماذا ، على الفرض الثانى ، يكون التفاوت كسبياً وكيف يكون هذا الكسب الذى تنشأ أنت معه أقوى منى روحاً أو أنشأ أنا معه أكبر منك روحاً وأقوى عزيمة ؟؟

أعتقد أن التفاوت على كلا الفرضين ضرورى ليتسنى للإنسان أن يخلد بنوعه ، فان التفاضل فى كل عنصر من عناصر الأحياء باعث على الكفاح والتنافس والجهاد فى الحياة ، ولو لم يكن التفاضل طبعاً لما كان كسباً فان الطبع هو الذى يتحول إلى تطبع وليس التطبع سوى ظل للطبع لأنه ناشئ عنه وبه ، فما لم يكن موجود فى الأصل لا يتوفر وجوده فى الفرع لأن الكسب فى الحياة إنما يقوم على الموهبة التى يبثها الخالق الأول فى الحى وهذا هو الطبع .

ذلك هو تقسيم الإرادة لذاتها ولمصدرها معاً فان الله إذ خلق ذات الحى

قسم لها الحياة ، فهى ، على ضوء هذه القسمة تسعى وبنورها تتبين ما يضمن لها الوجود فى حظيرة الحياة ، فما تكسبه إذن هو بصيص مما تستوهب ، وهذا الكسب فيها هو فرع لأصل ثابت فى كيانها الأول .

وأما تقسيم الإرادة باعتبار ما ترد عليه فهى سيئة وحسنة ، لأن مرادها إما أن يكون مباحاً لها فهى إرادة حسنة ، وإما أن يكون محظوراً عليها فهى إرادة سيئة ، وإباحة المراد أو حظره قائم على تنازع البقاء الجائر فى الحياة ، فقد يكون مباحاً لإرادتى أن تعصف بالظالم فهى حسنة ، وأما إذا تعمدت العصف بالعادل فهى سيئة ، ومن هنا نشأ الثواب والعقاب فى تشريع القوانين الإنسانية والنواميس الطبيعية والأديان السماوية .

أقول : نشأ الثواب والعقاب مركزين على تصرف الإرادة بما تريد ، فاما أن تتوجه بالعقل الذى يحظر عليها ما يضر بها أو بغيرها ويبيح لها ما ينفعها فهى إذ ذاك نفحة من الروح القدس ، وإما أن تتمرد على العقل فتأتمر بالنفس الخبيثة الأنانية ، فهى إذ ذاك إحدى همزات الشيطان .

فالثواب والعقاب إنما كانا ليحدا من طغيان الإرادة ويدفعا بها إلى تعضيد الخير فى العالم ، ولعلهما سبب أول بعد العقل فى تربية الإرادة الحسنة ، كما أن طغيان النفس الأمارة بالسوء من وراء الأنانية والكفر بالحق فى الوجود ، هو سبب أول فى تربية الإرادة الشريرة فى العالم ، وعلى تعزيز هذا التشريع تقوم حياة الإنسان بنوعه فى هذا الوجود ، وبشخصه فى الوجود المنشود من عالم الخلود .

والإرادة من حيث المصدر أيضاً : عاقلة ومؤمنة ، فالأولى ما كانت قائمة على تربية العقل وتوجيهه ، فقد كان الإنسان قبل بضعة عقود من الأعوام ، إذا أراد إنارة المصباح عمد إلى كثير من الوسائل لتنفيذ إرادته ، أما اليوم ففى لحظة يضغط بها زر الكهرباء ينير مصابيح تضئ حجرة أو بيتاً أو بلداً ، وهكذا سمعت وأنا فى شمال أمريكا : أن شجراً يقصف ويلقى فى هوة مصنع فيخرج بعد لحظات وجيزة من هوة أخرى ، صحائف تنشر وتقرأ ، تلك هى الجريدة العالمية الكبرى « نويرك تايمس »

ذلك فضل العلم القائم على العقل فى تربية الإرادة وتنميتها ، وتلك هى

الإرادة العاقلة ، وأما الإرادة المؤمنة فهي التي تقوم في تربيتها وتنميتها على الإيمان ، كإرادة الأنبياء والأولياء ممن راضوا أنفسهم بالرياضة الروحية فجاءوا بالمعجزات في تحكيم إرادتهم بنواميس الطبيعة ، وإليهم ناظر قول الله في الحديث القدسي القائل : يا عبدي أطعني تكن مثلي ، أنا أقول للشيء كن فيكون وأنت تقول للشيء كن فيكون »

فالإيمان أقوى من العلم في تربية الإرادة وتحكيمها بالنواميس الطبيعية ، لأن العلم يتذرع بالمادة للسيطرة على المادة ، وأما الإيمان فيتذرع بالروح للهيمنة عليها والتحكم بها ، والروح أقوى من المادة لأنها تيار الحياة الأول المهيمن على الوجود .

والإرادة من حيث المصدر مرة ثالثة ، فردية ونوعية وتفصيل ذلك نرجئه إلى بحث تأثيرها في نهاية الفصل لأسباب تستلزم ذلك سيلم بها القارئ فيما بعد إنشاء الله .

٣ـ قوة الإرادة ليس لقوه الإرادة حد تقف عنده ، فعلى مقدار انفعال الروح بما تحس من خارج كيانها ، يكون دفعها للإرادة ، وعلى مقدار هذا الدفع يكون تأثير الإرادة في المراد قوة وضعفا .

وقوة الإرادة قائمة على ضعف ما تريد ، فعلى مقدار ضعف المراد واستجابته لإرادة المريد تكون قوة هذه الإرادة ، إذن فمنشأ القوة في الإرادة قائم على عنصرين هامين تتقوم بهما ، أولها انفعال روح المريد بروعة المراد وشهوة السيطرة عليه ، وثانيهما ضعف المراد واستخذاؤه لتلك الإرادة ، أما إذا ارتاعت الروح المريدة بما تريد ، ثم لم تجد في ذاتها القوة التي تعصف بالمراد ويتأثر هو بها فيستكين بين يدي قوتها ، فقد تتأثر هي به معكوسة ، أي أن المراد إذ ذاك يعصف بها فتصطدم به وتتصدع من وراء ذلك الاصطدام ، كالآلة التي لا تقوى على تنفيذ سلطة العامل بها في المعمول ، فترتد حاسرة كليلة .

وبين يدينا على ذلك أمثلة من حواسنا كالعين التي تستخدمها الإرادة في تبين المرئي ، فعلى مقدار استجابة المرئي للعين تكون قوة الأرادة في الابصار ، بحيث ينسجم النور الذي هو آلة البصر في تبين المرئي مع العصب الحساس في

جهاز العين الباصرة ، فاذا اختل هذا الانسجام قوة أو ضعفاً خسئت العين فى تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المرئى .

فقوة النور فوق طاقة العين كضعفه فى عجز هذه العين عن تنفيذ الإرادة فى تبين المرئى ، وهكذا القول فى بقية الحواس كالأذن والأنف والفم التى هى آلات يستخدمها المريد فى التحسس من المراد سمعاً وشماً وذوقاً ، فلتؤدى هذه الآلات وظائفها فى تنفيذ الإرادة يجب أن يكون بينها وبين المراد انسجام فى الذوق يمكن الفم من اكتناه المذوق ثم يمكن الأذن والأنف من تبين المسموع والمشموم ، فان اختل ذلك الانسجام فقدت الحواس سلطتها فى تنفيذ الإرادة بالسيطرة على المراد كما مر فى القول على العين آلة البصر .

هذا فى الإرادة العادية ، أما فى الإرادة الخارقة والتى هى وليدة التربية بالعقل من وراء الإيمان فالقول يكاد يخالف ذلك تماماً إذ نعكس هذا الغرض فى الحواس فنقول :

على مقدار تربية الروح إرادتها فى إبصار المرئى تكون قوه العين فى التأثير على تبينه والإحداق به مهما ضعف النور الكاشف للعين أو اشتد ، ولذا نرى التفاوت فى الإبصار ناشئاً ، بعد الثقة بصحة العين ، من قوة الإرادة فى استخدامها لتبين المرئى ، وتربية الإرادة هنا أكثر ما تقوم على الإيمان بأنك سترى ، وإلى هذا ناظر قوله صلى الله عليه وسلم : ان المؤمن يرى بنور الله » وعلى هذا التحليل قام إيماننا بصدق الكلمة المأثورة عن الخليفة الثانى : يا سارية الجبل الجبل .

ولقد ذكرت فى غير مكان من هذا الكتاب مثلا على ذلك ، حادثة السيد عبده المحمود فى أنه كان لا يقرأ بغير منظار ، وأنه قرأ ليلة ما حديثاً به فلما أصبح رأى المنظار إطاراً بغير زجاج ، فكانت رؤيته قائمة على إيمانه بصحة الآلة ، حتى إذا تبين ذلك عاد ليقرأ فلم يستطع إلا بالمنظار إذ فقد الإيمان به ،

فالإرادة القائمة على تربية العقل والروح من وراء الإيمان ، هى التى تصنع المعجزات وتخرق العادات ، ويكون تأثيرها فى المراد معجزاً إلى حد الحيرة فى الفكر العادى وهو يمعن فى اكتناه ذلك المعجز ، كيف كان ؟ وما هو مصدره ؟ والعلة التى يتقوم بها ؟ ثم ما هو الناموس الطبيعى الذى يقوم عليه ؟؟؟

٤ـ تأثير الإرادة كان أبى يجيبنى كلما ، تعاجزت عن عمل ما ، بالكلمة القائلة : « همم الرجال تزيل الجبال » ثم يردفها بقوله : إعقل واعزم ثم توكل على الله تفلح » وكان يعلمنى كيف أريد وكيف أنفذ إرادتى ، فكنت ولا أزال كلما أردت شيئاً أستعرض وصاياه فى ذاكرتى فأفلح .

ومثلا على ذلك : كنت فى صباى ، أصوم شهر رمضان ولما أبلغ رشدى ، وكان موسم الصيف يضطرنى أحياناً للنوم فى كروم العنب والتين مع أمى دون أبى الذى كان لا يفارق المنزل صيفاً ولا شتاء ، وكان شهر الصوم يغشانا فى ذلك الموسم فأخشى أن لا أنتبه للسحور ، والسحور أكبر حافز للصبية الأحداث على الصوم ، فأشكو ذلك لأبى فيعلمنى كيف أنتبه للسحور قائلا لى على ما أذكر : توضأ قبل النوم وصل ركعتين ثم اقرأ سورة القدر ثلاثاً وأنت فى الفراش ، ثم اضغط فكرك وأنت مغمض العينين وردد هذه الجملة : يجب أن أنتبه فى وقت « كذا »

ولست حريصاً على تثبيت ذلك فى نفس القارئ وإنما أدعوه ليفعل فعلى عند نومه ويصمم ، بأقوى ما يفكر ويريد ، ، على أن سينتبه فى وقت يشاؤه ، فسيجد صدق هذه العزيمة إنشاء الله ، وقوة الفكر أو ضغطه الذى أشرت إليه فى وصية أبى ، يعنى : تصور الانتباه فى الوقت المعين والعينان مغمضتان والحدقتان مصعدتان إلى أعلى محجريهما بشدة ريثما ينتهى الضغط على الفكر ، مكرراً ذلك ثلاث مرات ثم يلتمس الهجوع ابتغاء النوم .

وأكثر من ذلك ، فقد علمنى أبى أنى إذا شئت أن أرى النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فى الحلم ، أن أتوضأ قبل النوم ثم أصلى ركعتين واضطجع فأضغط فكرى وأنا مغمض العينين على مثال ما مر ، ذاكراً رؤية النبى خلال هذا التصور ، فسيكون ذلك سبباً لرؤيته فى الحلم ، ولقد فعلت ذلك فرأيته يركب جواداً ويلبس من طرازنا الحديث ، أعنى ثوباً غربياً وعلى رأسه طربوش ، وإنما رأيته كذلك لأنى كنت أرى هذا الزى ، وأنا صبى ، هو المثل الأعلى فى لباس الرجل لشدة تأثرنا ، ونحن أحداث ، بالغرب وفنونه .

ولقد مر بالقارئ فى هذا السفر أن أبى هذا قرأ الحديث المرفوع إلى رسول الله فى قوله : من مات له ثلاثة أولاد ولم يجزع دخل الجنة ، وكان قد فقد أبى

ولدين فتوضأ وصلى ركعتين ثم سأل الله إن كان هذا الحديث صادقاً فهو يتنازل عن أحب أولاده إليه وهو أصغرهم ، وكان ذلك فى ليلة القدر من رمضان ، فأصبح والصبى مريضاً واستمر مرضه حتى فارق الحياة .

ولقد رأيت بعينى شخصاً من أهل قريتى يدعى السيد سلامة وهو رجل عائن ، فكان يقول لجلسائه إذ تمر بهم قافلة من الجمال : أتأكلون لحم الأباعر ؟؟ ثم يتخير خير القافلة ويصوب إليه بصره العائن فاذا به صريعا وإذا بالراعى يبادر نحره ، ويكون اللحم ثم الشواء ، وإذا بالأكلة بعد ذلك متكأكئين فوقه .

وأعرف زعيما كان عظيم السيطرة على أهله وولده ومن يخضع له ، كان إذا غضب قتل ، من أجل ذلك عظمت هيبته فى صدور ذويه فكان إذا خرج عن أمره أحدهم ومثل أمامه ، يصوب إليه نظره ويمعن فى الإحداق به ، ثم لم يزد ، فاذا بالمغضوب عليه يتهالك بين يديه مغمى عليه أو صريعا محموماً لشدة تأثره بالهيبة له والخشية منه ، فعل الفريسة بين يدى الأسد قبل افتراسها .

وقد رأيت فى بعض الكتب الحكيمة تعليقاً على قوله تعالى إذ يصف الجنة : فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين » يقول فى التعليق : ان المؤمن فى الجنة إذا اشتهى فاكهة تدلت له غصون الشجر ، فاذا مد يده ليقطف كان له على الغصن ما يشتهى ، وقد يشتهى حورية من الثمر فاذا بالبراعم تتفتق عن حور عين »

قد يبدو فى هذا للقارئ الخالى الذهن من أوصاف الجنة على ألسنة الغالين فى الدين أو المتصوفين بين يدى ربهم ، أقول : قد يبدو له فى ذلك أنه إبداع خيال ، ولكنه إذا أمعن فى تحليل الخيال وصل إلى إمكان تحجره وتحوله إلى حقائق محسوسة ، كما نبصر فى كثير من العلوم والفنون الحديثة ما كان منها قبل بضعة قرون خيالا ، كالراديو والتلفزيون والرادار والإشعاعات الخفية ونحو ذلك .

وبين أيدينا اليوم ، ما يسبق عرض الأفلام من القصص الرمزية تمثلها صور كاريكاتورية من مخترعات « والت ديزنى » المعروف ، هذه الصور تظهر بأشكال وألوان مختلفة ، وبحركات ساخرة ماجنة ، يخرج الشخص منها أحياناً على شكل حيوان غريب نسبغ عليه أسماء الجن والعفاريت ، فنرى ، مثلا ، شجرة غريبة الشكل فى مكان غريب الشكل تتفتح فروعها عن بضعة

أشخاص من تلك الجماعات ، وأحياناً نرى قطع الحلوى أو الفواكه ، أو الآلات تتفتق عن تلك الأشكال البديعة فى ألوانها وأحجامها وحركاتها ، أفلا نرى ذلك عالما نحسه ؟؟ فلم لا يكون هذا خيالا سوف يلبسه العلم والفن ثوب الحقائق فيما نستقبل من حياة ، كما مر بنا من قبل أخيلة حالت بفضل العلم إلى حقائق ؟؟

أفما كنا نعد من الخيال قول الشاعر قبل ألف عام :

أسرب القطا هل من يعير جناحه　　لعلى إلى من قد هويت أطير ؟؟

وقول الآخر قبل مائة عام :

يا برق «وجرة» هل فطنت لما بى　　فأتيت تخبرنى عن الأحباب ؟؟

أفما كنا نعد ذلك من الخيال ثم أصبح اليوم حقيقة قائمة على علمى البخار والكهرباء ؟؟

وفى لبنان على ألسنة العامة يطلقون لفظ الخيال ويعنون به الظل ، ويكاد يكون هذا المعنى سائداً فى « جبل عامل » الذى يكاد يكون أقرب الاقطار العربية فى لغة العامة إلى الفصيح ، فكلمة « ظل » لا يكاد يفهمها العامة إذا أضيفت إلى الإنسان ، وإنما يطلقونها مضافة إلى الشجر أو الجبال ، وأما كلمة « خيال » فيطلقونها مضافة إلى الإنسان وقد يطلقونها مضافة إلى غيره ، فيقولون : ظل الشجر وخيال الرجل — يعنون به ظله .

إذن فاطلاق لفظ الخيال على الظل يشعر بأن الخيال يرمز إلى الحقيقة فى مفهوم العقل ، أو لعله يحكيها فى هذا المفهوم ، يحكيها فى الشكل بحيث يعسر على الفكر الحاذق أحياناً تمييز الحقيقة عن الخيال فيما إذا وقف الشخص حيال مرآة ، فان الظل إذ ذاك لا يحكى الحقيقة شكلا فحسب وإنما يتجاوز ذلك إلى اللون والتشخيص فى إبراز أدق الأسرار الحية فى الأصل .

فالخيال من وراء هذا كله ، يشعرنا على ألسنة العامة أنه ظل الحقيقة ، وأنه يشير إلى وجودها بوجوده ، وأنه قابل لأن يتحجر فيصبح حقيقة بنفسه ، ولهذا أطلق بعض الفلاسفة على الكون أنه ظل الله ، أما كيف يتحجر هذا الخيال فمرد ذلك إلى العلم الذى أصبحنا معه لا نملك الحكم فى استحالة شئ أو

إمكانه ، لما هو بين سمعنا وبصرنا من حقائق كانت أخيلة ، وأخيلة تشير إلى أنها ستتحقق ، ثم يدور الزمن فيطمس هذه الحقائق حتى تنسى فيتخيلها الفكر الخازن لها من وراء الأزل مرة أخرى فيعيدها العلم سيرتها الأولى ، وهكذا نحن نحن دواليك ، بين السالب والموجب من عوامل الحياة ، نتقلب من خيال إلى حقيقة ثم من حقيقة إلى خيال .

وتأثير الإرادة فى المراد تارة يكون مادياً صرفاً ، كتأثيرها بواسطة العين على المعيون جماداً أو نباتاً وحيواناً ناطقاً وغير ناطق ، كما مر بالقارئ من تأثير العائلين على البعير ، وقد رأينا فى التقاليد الموروثة ، وضع تمائم على أبواب القصور وفى رقاب الحيوانات والأطفال ، يتقى واضعوها بها الإرادات العائنة وهى التى تعصف بمرادها عن طريق العين الجبارة ، وكثيراً ما نرى أن هذه العين تفلق الصخور وتفلح المعادن وتصرع الحيوانات .

على أنا قد نتساءل بالارادة عن طريق العين : هل هى اختيارية أم اضطرارية ؟؟ المعروف أن للعائن إرادة فى التأثير على المعيون ، ولهذا نراه لايعصف إلا بمن يتأثر هو به من جمال أو جلال يثير فى نفسه لدى رؤيته إياه ، غريزة الفتك والاستيلاء ، فالعائن الذى أعرفه والذى مر بالقارئ ذكره ، كنا نسأله فيجيب بأنه يتأثر بما يرى فيشعر إذ ذاك بالقوة الهائلة التى تزخر فى نفسه فيسلطها على ما تأثر به فيدكه إن كان جماداً ويصرعه إن كان حيواناً كائناً ما كان .

فهو إذن مريد مختار لا مضطر ، على أن الإرادة فى العائن غيرها فى غيره من حيث التربية وعدمها ، فانا نراها فيه وراثية لا تربوية ، من أجل ذلك نعرف العائن بشخصه ثم نعرف أن تربية الإرادة لاتعرف شخصه ، وإنما اتسم بها فى طبعه ، ذلك ما يدلنا على أن قوة الإرادة منها ماهو كسبى بالتربية ، ومنها ما هو طبيعى بالوراثة .

وبرهان كون الإرادة تربية لا طبعاً ، ان الشرع الحنيف يحث على تنميتها فى سبل الصلاح ، ففى قوله صلى الله عليه وسلم : الفال حق والطيرة ليست بحق ، يشير بذلك إلى تربية نفوسنا على إرادة الخير وأن نحول دون تربيتها على

إرادة الشر ، فلو لم يكن للإرادة قابلية كليهما بالتربية لما حث النبي على التفاؤل ونهى عن التشاؤم .

فتأثير الإرادة على المراد المادى ثابت فيما أوردناه آنفاً من إرادة العائن ، وإرادة أبى فى دعائه ليلة القدر وتأثيره على أخى الطفل بالمرض حتى الموت ، ومن الحديث الشريف : اتقوا دعوة المظلوم » يشير إلى أن دعاء المظلوم الذى هو إرادة من الله ، مجاب فى التأثير على الظالم ، وفى الاخبار : أن أحد شهود مجلس الإمام على وهو يخطب أنكر عليه حديثه فزجره الإمام فأصر على إنكاره فجهر الإمام بالدعاء عليه إن كان كاذباً فلم يبرح المجلس إلا وهو أعمى »

وأما تأثير الارادة على المراد المعنوى فثابت أيضاً فى محاولة رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وقد مر القول على ذلك فى تحقيق الإرادة إذ تتحكم بالسيطره على العقل الواعى فى النوم فيوقظ النائم فى الوقت الذى أراده قبيل النوم بالصلاة وضغط الفكر والتصميم على الانتباه ، وقد حصل ذلك معى بالتجربة مراراً لا مرة واحدة ، فالعقل الواعى هنا ظاهر فى تأثره بالإرادة ، أما ما هو هذا العقل الذى يتأثر بها بينما نجد الإرادة موجهة بالعقل كما مر ، فان العقل الموجه غير العقل الواعى ، ولعلنا نبحثه فى مكان آخر من هذا الكتاب لأن بحثه هنا خارج عن موضوع الإرادة .

٥ — أثر الارادة البحث عن أثر الإرادة يستلزم استعراض الأثر المطلق وذلك بأن نتساءل : هل يمكن للمخلوق أن يصدر أثراً بالذات وبدون واسطة ؟؟ وهل يستطيع إيجاد هذا الأثر من لا شئ ؟؟ أم تلك صفة قاصرة على الخالق يمتاز بها عن مخلوقاته ؟؟

فاذا أردت الكتابة مثلاً ، هل تحدث هذه الكتابة لمجرد الإرادة خلقاً وإنشاء ، أم لابد من وسيلة أو وسائل تتقدم حدوثها وتملأ فراغ ما بين الإرادة والمراد ، كاحضار الطرس والقلم واستخدام اليد والعين والفكر والكرسى والمكتب أحياناً ؟؟ وإذا أردت الأكل هل يحدث لمجرد إرادتى إياه أم يستلزم الطاهى والمائدة والآنية ثم اليد والفم وغير ذلك من وسائل الأكل وتبليغه الإرادة ؟؟

أعتقد أن هذه الإرادة قابلة للترقى إلى الحد الذى يستجيب المراد للإرادة

معه مباشرة وبدون واسطة ، وبرهان ذلك ترقى الإرادة منذ كان الإنسان حتى يومه الراهن ، فانا نرى أن الفراغ بين الإرادة والمراد كان شاسعاً فى عصور الإنسان الأولى إذ كان يجوع فيريد الأكل فيضطر للقنص بالحجر فى سبيل طعامه ، وأصبح اليوم ، إذ يجوع فيريد الطعام لا يحتاج إلى أكثر من دقائق يدخل فيها المطعم فيجد الطعام رهن إشارته .

وهكذا نعود إلى الصحف كيف كانت تنشأ قبل قرن من الزمن وكيف أصبحت اليوم ، فقد كان الفراغ بين إرادة الصحافى وبين إخراج الصحيفة المراد يمتد شهراً ، ثم ترقى إلى أن أصبح يمتد أسبوعاً ، وهكذا أصبح قبل خمسين عاماً يمتد يوماً ثم نجد هذا الفراغ الآن بين إرادة الصحفى وبين إخراج صحيفته الجبارة لا يفتقر إلى أكثر من دقائق ، وفى مفهوم العلم أن ما تفاوت فى تقدمه كان قابلا لرقيه حتى ينتهى إلى حد لا يدركه العلم قبل انتهائه إليه .

فاذا تهذبت وسائل الكتابة أو الطعام فقربت الزمن بين الإرادة والمراد من أيام إلى دقائق ، فلماذا لا تستمر فى تهذيبها إلى أن تصبح هذه الدقائق ثوانى ثم لحظات حتى تنعدم الوسيلة ويصبح فى مقدور الإنسان الذى هو مخلوق أن يريد شيئاً فيكون دونما فراغ بين إرادة ذلك الشئ وكونه كما أن فى مقدور خالقه ، إذا أراد شيئاً ، أن يقول له كن فيكون ، تصديقاً لقوله عز من قائل فى الحديث القدسى : يا عبدى أطعنى تكن مثلى أنا أقول للشئ كن فيكون وأنت تقول للشئ كن فيكون » والحديث القدسى الآخر الذى يقول : ما زال يتقرب عبدى إلى بالنوافل حتى كنت عينه التى بها يبصر وأذنه التى بها يسمع ويده التى بها يبطش ... وهل فى ترقية الإرادة وتهذيبها بعد ذلك مذهب ؟؟

فقد لا تنعدم الوسيلة ولكنها تضعف وتتضاءل باختزال العلم وتهذيبه لها حتى تصبح من دقتها كأن لم تكن وكأن لم يكن بين الإرادة والمراد معها فراغ ، فيتحقق بوجودها الدقيق الذى يعى إدراكه الحواس كما تعي الذرة إدراك العين بالمجهر ، أقول : يتحقق إذ ذاك الفرق بين الخالق ومخلوقه فى الإرادة ، وهل المخلوق إلا نفحة قدسية تتجلى بها روح الله على الأرض لتدل على وجوده وعظمة كونه ؟؟؟

أما متى تصبح إرادة المخلوق نافذة نفوذ إرادة الخالق ، دونما واسطة قريبة أو بعيدة ، فذلك موكول إلى العلم ومبلغ ما يصل إليه من سمو وتهذيب ، وحسبنا أن نقول : إن الإنسان أصبح فى آخر مراحله التى يشرف بها العاقل من أفق العلم على صلة الإرادة بالمراد مادة ومعنى ، وعلى تهذيبها وتربيتها بحيث أصبح الإنسان مهيمناً على ملكوت هذا الكوكب الأرضى بما فيه من حيوان ونبات وجماد ، ولعل المستقبل القريب يكشف لنا ، بفضل العقل الجبار عن معجزات علومه وفنونه بما يثبت لنا صحة هذه النظرية التى نشير إليها من وراء الخيال .

ولنعد إلى أثر الإرادة الإنشائى الذى يختص به الخالق وهو إيجاد الشئ من لاشئ ، فهل يمكن لنا أن نتنبأ بأن الإنسان قد يجتاز أدواره فى الحياة إلى دور يريد شيئاً فيه فينشأ من لا شئ ؟؟

من العسير على الإنسان ، وهو جزئى من كون كلى ، أن يفكر فى إيجاد شئ من لا شئ ، إذ ليس فى محيطه الفكرى « لا شئ » وإنما كل ما يحدق به ويهيمن عليه ثم يتقوم هو به ، أشياء متداخلة ، ولقد قرأنا لمن هو أسمى إدراكاً منا آراء تثبت أن لا فراغ فى الوجود ، وأن الأثير الذى يتقوم بنا ونتقوم به عوالم متداخلة لا فراغ فيها بين جزئى وجزئى ولا بين كلى وكلى ، فأين للفكر أن يتصور شيئاً من لا شئ فيريده ليكون ؟؟ وهل للفكر المحدود بمحيط مطلق أن يدرك ما ليس بكائن ليريده فيكون ؟؟ وإذا صح لنا أن نقول بإمكان تهذيب الإرادة من وراء العلم أو الإيمان وتسليطها على المراد الكائن لا المعدوم ، أقول : إذا كان بامكاننا هذا التهذيب حتى تتصل الإرادة بالمراد مباشرة فنشارك بذلك خالقنا ، فمن الصعب ، ولعله يستحيل ، تصورنا إمكان مشاركة الخالق فى إرادة الشئ من العدم .

بقى علينا قبل الختام أن نبحث ما أشرنا إليه آنفاً من أن الإرادة فردية وجماعية ، وأن تهذيبها وتنميتها قائمان على النوع لا الفرد ، فارادة اثنين أقوى تأثيراً من إرادة واحد وإرادة ثلاثة أقوى من إرادة اثنين وهكذا دواليك حتى نصل إلى إرادة الأمة أو العالم وهى الإرادة التى يستجيب لها القضاء المبرم من

لدن بارئ الكون ، وإلى هذه الإرادة يشير العبقرى الملهم من شعرائنا بقوله :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

والإرادة الجماعية تنشأ إما عن تكاتف أو توارث ، فالأول هو ما نراه من تضامن الأفراد وتعاونهم فى إرادة شئ ، كتضامن الشعب فى طلب استقلاله وحريته ، فعلى مقدار هذا التضامن تكون قوة الأرادة فيه ، وعلى مقدار هذه القوة يكون التنفيذ سرعة وإنجازاً ، وهكذا قل فى تضامن العلماء والحكماء والأدباء وكل جماعة تختص بمهنة ما ، إذا تضافروا على تنفيذ إرادة يكون هذا التنفيذ أبلغ أثراً فى المراد وأسرع زمناً فى إنجازه .

وأما الإرادة الوراثية فهى ما كانت وليدة أجيال تعاقبت على تهذيبها وتربيتها حتى أصبحت من القوة بحيث يستجيب لها القدر فى تنفيذها ، ويبدأ هذه الإرادة فكر فى دماغ فرد يعمل على إنجازها فى جيله ويحرز بعض النجاح ثم يتولى تعزيز هذا العمل فرد آخر أو أفراد فى أجيال تلى ذلك الجيل حتى يتم تنفيذها كما نرى فى مكتشفات العلوم والفنون التى تبدأ فى عصر ثم تعززها عصور تتوالى على تحقيق تلك المكتشفات بارادة حية خالدة فاذا بالقرن العشرين مثلا ينفذ فى الكهرباء إرادة كاشف لها فى القرن السادس هو على بن أبى طالب حيث يقول : لو شئت لأخرجت لكم من الماء ناراً تنير الظلمات » فقد أشار إلى الكهرباء واستمرت بعده العقول تعمل على توجيه تلك الإشارة وتحقيقها حتى عصرنا الحاضر إذا بها تنير علينا الظلم ونتوفر بها على كثير من شوارد الحياة وغوامضها .

ولنبدأ الآن بخاتمة البحث فنلتفت مرة ثانية إلى الإرادة المادية التى هى وليدة العمل والإرادة الروحية التى هى وليدة الإيمان ، فالأولى هى التى يختلف المخلوق بها عن خالقه إذ لا يستجيب لها المراد إلا بواسطة ما ، سواء كانت هذه الواسطة بعيدة أو قريبة ، وأما الثانية أى الإرادة الروحية فهى التى يشارك المخلوق بها الخالق دونما واسطة لأنها عين إرادته وهو المريد لها فى نفس مخلوقه لما مر من قوله : يا عبدى أطعنى تكن مثلى ، وقوله : ما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى كنت عينه وأذنه ويده ... »

ولسنا بصدد التبسط فى بحث الإرادة المادية ، وإنما سقناها فى عرض البحث

عن الإرادة لنستعين بها على عرض الإرادة الروحية بين يدى العلم وهو يبحثها ويعللها ويوجه الفكر الحديث إلى اعتناق المذهب الروحي فى إثبات هذه الإرادة وأنها أقوى فى التأثير على المراد من الإرادة المادية القائمة فى تأثيرها بالمراد على العقل لا الإيمان .

أقول : ليست الإرادة المادية هدفاً لبحثنا هذا وإنما هى إحدى وسائل البحث فى الإرادة الروحية وأثرها فى الوجود ، من أجل ذلك نحرر الهدف من بحثنا هذا فى محيط الروح القائم على الإيمان ، والإيمان كان ولا يزال عنصراً أول فى تقويم الرياضة الروحية التى يقوم عليها بناء الدين ، وبفضلها يعتصم الأنبياء والأولياء والمتصوفون فى الوصول إلى الحق والفناء فيه والإتيان بما يعجز من خرق نواميس المادة فى الحياة .

فارادة الحى المادية أوجدت هذا الكون المحدق بنا ، فان ما تراه العين وتعيه الأذن من ولائد العلوم والفنون ، هو أثر الإرادة المادية فى عالمنا البشرى ، وليس هذا موضوع بحثنا ولكنه عرض فى الطريق إلى الهدف الذى هو عالم الروح القائم على إرادة الحى من وراء الإيمان ، فنحن الآن فى خلاصة البحث حول الإرادة التى يدفعها الإيمان لتكوين حياة خليقة بالإنسان فى عالم الخلود .

تقدم فى البحث: أن الإرادة المادية المسيرة بالعلم والعقل والجوارح قاصرة عن الإنشاء وهو إيجاد الشئ من لا شئ ، لأن العلم وليد العقل والعقل وليد تواطؤ المجتمع ، وهذا كله محدود بكون لا حد له ، من أجل ذلك يستحيل على الإرادة المدفوعة بالعقل والعلم أن تدرك اللاشئ لأنها فى حيز الشئ الذى هو وجود بينما اللاشئ عدم مطلق وهو محيط بالوجود المقيد ثم لا يحيط بالعدم المطلق إلا الوجود المطلق القائم فى ذات الله الذى هو قبل كل شئ وبعد كل شئ ، والعدم الذى هو لاشئ فى محيطنا الفكرى ، هو أحد الأشياء فى محيط الله الأعظم .

أقول : تقدم البحث فى الإرادة المادية وأنها عاجزة عن إنشاء كون تتمثل فيه ولكنها تؤثر فيما هو كائن . فيريد الإنسان بعقله أن يسكن مثلا فيعمد إلى الوسائل التى بفضلها ينفذ إرادته ، فاذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، فى بيت ، ويريد أن يأكل فاذا هو بعد حين ، قصر أو طال ، أمام خوان يطعم منه ،

ثم هو يريد أن يشرب فاذا هو بعد حين ، طال أو قصر ، يحمل كأساً أو يرد على حوض ، فلأثر الإرادة هنا موضوع هو المادة التى يبنى منها البيت ويبسط المائدة ويتناول الماء .

أما أثر الإرادة التى يدفعها الإيمان فهى ، إلى ذلك كله ، تنشئ المراد إنشاء ، كما يقول ابن عباس فى حديث يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الجنة : فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، وكقوله تعالى فى وصف الحور العين : انا أنشأنا هن إنشاء فجعلناهن أبكارا ، فارادة الله هنا خلقت حور الجنة خلقاً وأبدعتهن إبداعاً لا أنها تذرعت إلى إيجادهن بوسائل كما نفعل فى تنفيذ ما نريد .

فكيف نخلق إذن بارادتنا الروحية المؤمنة كوناً ووجوداً تمسنا الحاجة إلى الحياة فيه ؟؟ وبماذا يكون هذا الإنشاء ؟؟ ثم لماذا نضطر إليه ونؤمن به ونعكف عليه ؟؟؟

أما كيف نخلق كوناً ووجوداً بالإيمان فهو سبيل الدين الذى يخلق هذا الكون بالرياضة الروحية ، فعل الأنبياء والأولياء، لذلك تراهم فى كون غير كوننا يدفعوننا إليه دفعاً ، وهو عالم الآخرة الذى يعملون له ويحملوننا على هذا العمل .

ونرى عبثاً ما يحاوله علماء المادة اليوم لاكتشاف التيار الروحى المهيمن على الأثير الذى أمدهم بتيار الكهرباء ، وقد مر بقارئ هذا السفر قول الدكتور أحمد زكي المصرى وهو يترجم لأستاذه فى جامعة برلين إذ يقول : يا أبنائى إذا سمعتم أن الأنبياء والرسل كانوا يمشون على الماء ويصعدون فى الهواء فصدقوا ، لأنا بفضل الرياضة الكهربائية وصلنا إلى هذه المعجزات فكيف بنا لو أوتينا حظهم من الرياضة الروحية ؟؟ وإلى أين يصل بنا تيار الروح ؟؟؟

أقول : من العبث أن يحاول هؤلاء اكتشاف عالم الروح بالعلم المادى ، لأن الضعيف لا يهيمن على القوى ، واللطيف لا يتأثر بالكثيف ، فالعوالم الكونية المخلوقة تخضع جميعها لعالم الروح بينما لا يخضع هذا العالم إلا للعالم الحق المهيمن على الكون وهو عالم اللاهوت الأعلى ، فالعلماء إنما يكتشفون أسرار الطبيعة بعلمهم المادى ، وأما الأنبياء والرسل وكهنة الروح فيكتشفون أسرار الطبيعة بأرادتهم

الروحية ثم يبدعون فوق ذلك كوناً جديداً تمسهم الحاجة إليه فى عالم الروح الخالد فوق هذا العالم الذى نحن فيه نيام نلتمس اليقظة منه فى ذلك العالم وهو المرجو من وراء الإيمان .

فالعوالم متطورة كالأجيال ، فكما أن كل جيل هو مخلوق للجيل الذى قبله ، كذلك نجد أن كل عالم مخلوق للعالم الذى سبقه ، وعلى مقدار إمعان الجيل البشرى فى تهذيب نفسه ، يكون رقى الجيل الذى يخلقه فى الحياة ، كما أنه على مقدار إمعان العالم الكونى فى تهذيب نفسه ، يكون رقى العالم الذى يخلفه فى الكون ، وكما أن كل جيل يتمثل بتهذيبه فى الجيل الذى يليه حتى كأنه هو ، كذلك نجد أن كل عالم يتمثل بتهذيبه فى العالم الذى يليه حتى كأنه هو ، فهل يكون عالمنا فى أخراه ، أى بعد الموت ، مثالا لعالمنا اليوم ، أم يكون صورة عنه طبق الأصل ؟؟ هذا ما سنحققه فى خاتمة هذا البحث إنشاء الله .

لا شك فى أن عالم الأحلام نسخة مصغرة أو مكبرة عن عالم اليقظة ، أما مصغرة فلأنها خيال لعالم اليقظة ، والخيال معلول للحقيقة فهو إذن نسخة مصغرة عنه لأنه منبثق عنها وكل منبثق عن الشئ يعتبر جزءاً منه ، وأما أن عالم الأحلام نسخة مكبرة عن عالم اليقظة فلأنه أوسع أفقاً منه إذ ليس فى عالم الحلم مادة تتقيد بها الروح ، لذلك يجد المرء نفسه فى حلمه طائراً دونما وسيلة لطيرانه ، وقد يجد نفسه شاباً وهو فى يقظته شيخ ، كما يجد نفسه قوياً وهو ضعيف وغنياً وهو فقير ، وهكذا نجد الروح تتصرف كما تشاء فى عالم الأحلام ولا مشيئة لها إلا من وراء القدر فى عالم اليقظة .

وعالم الحلم لا يخرج عن كونه خيالا ليقظة كانت أو ستكون ، فهو كعالم الخيال الذى نمارسه بالفكر فنراه ظلا لحقيقة كانت فى عالم سبقنا أو ستكون فى عالم سبقناه ، وكما يصدق على كثير من عوالم الحقيقة أنه خيال متحجر ، كذلك يصدق على كثير من عوالم اليقظة أنه حلم متحجر ، أفلا نرى بالحس كثيراً من الأحلام تتحقق فيما بعد ، كما نرى بالفعل أن كثيراً من الخيالات يتحقق ؟؟

إذن فى مقدور هذا الإنسان العبقرى على هذه الأرض أن يخلق بإرادته ، وهو مادى ، عالماً من الخيال ، كما أن فى مقدوره أن يخلق بهذه الإرادة ،

وهو روحى ، عالماً من المادة ، إذ نرى كما تحقق لدينا فى سياق هذا البحث ، أنه بارادته وهو فى اليقظة خلق كوناً ندعوه حلماً ، وأنه بارادته ، وهو فى الحلم خلق كوناً دعوناه باليقظة ، وهكذا أراد ، وهو حقيقة تتخيل، فتحجر خياله حتى أصبح حقيقة ، ثم تبخرت هذه الحقيقة بفعل التطور حتى عادت خيالا ، وهكذا الحياة دواليك فى الحى بين خيال وحقيقة ثم بين حقيقة وخيال .

من هنا نصل إلى إمكان خلق الإنسان بارادته ما لم يكن إذا عُنى وأمعن فى تربية هذه الإرادة عن طريق الدين والدين فقط ، لأن الدين الذى هو أقوى عامل فى نفس الإنسان للهيمنة على الروح ، هو وحده القادر على تربية إرادة المؤمن فى نفسه إلى حد إمكان الخلق بها ما يكون مما لم يكن ، فبارادتى وأنا إنسان مطلق ، آمنت بالدين أم لم أومن ، أستطيع أن أحقق ما أريد عن طريق غير مباشر كما مر من أنك إذا أردت أن تكتب استجابت لك الكتابة عن طريق اللوح والقلم ، وإذا أردت أن تقرأ استجابت لك القراءة عن طريق العين والكتاب.

أما إذا أردت شيئاً ، وأنا إنسان متدين ، فان المراد يستجيب لى مباشرة بدون واسطة ، إلا ما كان من تربية الإرادة بقوة الإيمان ، فان إرادتى الجنة بما فيها من متع الحياة الأخرى،وتربية هذه الإرادة فى نفسى بقوة الإيمان ، وصدق اليقين ، والعمل للحق ، ثم استحالتى فى ذلك روحياً، ان هذه الإرادة خالقة، بلا ريب ، وفى الوقت الذى أحدده لخلقها ، أقول : ان هذه الإرادة هى التى تخلق لى ما أومن به أنه كائن فى آخر تى من نعيم خالد كما أشتهى وأحب ، فالجنة إذن هى من خلق المؤمن بتربية إرادتها فى نفسه عن طريق الدين ، فكل فكرة دينية فى قلب المؤمن هى لبنة يتقوم بها مأواه فى الجنة ، وكل رغبة صادقة تراوده فى الخضوع للحق هى عضو تتقوم به الحوراء التى يحلم بها فى الجنة ، وكل دمعة يريقها بين يدى ربه فى حياته الأولى ، هى خلية يتقوم بها كل غذاء يشتهيه فى الجنة ، إذن فالجنة التى أريدها فى أخراى تتقوم بارادتى وأنا مؤمن فى دنياى ، وهكذا نصل فى ختام هذا البحث إلى أن المؤمن يستطيع بايمانه أن يكون مصداق الحديث القدسى : يا عبدى أطعنى تكن مثلى : أنا أقول للشئ كن فيكون وأنت تقول للشئ : كن فيكون ... صدق الله ورسوله ...

الله

صفحة

محمد

علي

صفحة

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه